عباس الزهيري

مذكرات ضابط مندائي







شمس
للنشر والإعلام

مذكرات ضابط مندائي

عباس الزهيري

الكتاب : مذكرات ضابط مندائي

المؤلف : عباس فاضل الزهيري

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع : ٧٢٧٠ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : 7 - 268 - 493 - 977 - 978 : I.S.B.N

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس: ٢٧٧٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : المهندس عباس الزهيري



مذكرات ضابط مندائي

عباس الزهيري

إهداء خاص

إلى من ضاهى صبر أيوب بصبره ، إلى روح أبي العطرة

إلى روح أمي الخالدة ، الإنسانة الرءوم التي بفضل حبها بعثت حياتي

إلى من تحملت شقاء عملي وحريتي، زوجتي المخلصة خلود عزيز السعودي

إلى فلذات كبدي وأجمل أنغام حياتي ، أبنائي الأحبة زيد وهند وفرح

إلى أحباب قلبي زهور وأمل المستقبل ، أحفادي ناتاليا وآدم وهيلينا وألن

أهدي لهم خلاصة حياتي

شكـر

كلمة الشكر هي أرقى أنواع الوفاء، الوفاء شعور المرء النقي تجاه من قدَّم له يد العون والمساعدة، سواء بكلمة طيبة أو عون محسوس.

أتقدَّم بجزيل شكري وفائق تقديري للأخ الفاضل الأستاذ الدكتور **قيس السعدي** لإبدائه المساعدة الطيبة في قراءة مسودات الكتاب، ومراجعته الدينية والفكرية، ونصحه الأخوي الصادق.

شكري إلى صديقي العزيز الدكتور **بشير عبد الواحد يوسف**؛ الرجل الذي عملت معه في القوة الجوية العراقية لسنين طويلة، فقد كان تشجيعه مما حفزني كلما فَتُرَ عزمي.

إلى **هيثم نافل والي**؛ الكاتب المحترف والقاص المبدع، مُلهمي الأول بإبداعهِ الأدبي وأسلوبه الساحر، لِما أبداه لي من عونٍ معنوي طيب.

شكري وامتناني الكبير موصول لأخي العزيز **حبيب الزهيري** وابن عمي الفاضل **نزار الزهيري** لمساعدتي ببعض المعلومات العائلية.

كما أقدِّم شكري لكل من ساندني ودعم مشروع كتابي هذا، ومنهم الأخ المهندس **رمزي الدهيسي**، الصديق المهندس **سعدي الزهيري** والأستاذ **فاروق عبد الجبار**.

عباس فاضل الزهيري

الدنمارك ـ ٢٠١٧

مقدمة

كنتُ قد فكَّرت كثيرًا في كتابة مذكرات حياتي قبل عدة سنين، وترددت كثيرًا حتى بدأت بها العام الماضي، ولم أكمل، وسألت نفسي من قد يستفيد من استعراض حياتي التي لم يكن لها تأثير واضح في مجتمعنا العراقي، على الصعيدين السياسي منها أو الاجتماعي، ولكن الحقائق تشير إلى أن تأثيرًا ملموسًا كان يبرز في حياتي العملية في الجيش العراقي، وتحديدًا في القوة الجوية العراقية، والتي قد تجعل القارئ توَّاقًا إلى معرفة هوية الكاتب وطبيعة الأحداث التي مرَّت به. كانت رغبتي أن أوثِّق تاريخ البلد في أصعب مراحله؛ من خلال توثيق فترات حياتي وملاحظاتي فيها، وأركِّز على النقاط المثيرة والمهمة؛ وبالتحديد الإنسانية منها، وأن أقدِّم ما اختارته ذاكرتي من أحداث أعتبرها مفصلية مهمة.

لن أحاول خداع القارئ الكريم، ولن أجعله يعتقد أنه سيقرأ حكايات أسطورية أو رواية بوليسية أو قصصًا من وحي الخيال العلمي أو غيرها، ولا أكتب أو أنقل ما سمعته من آخرين، بل أنقشُ على صفحات التاريخ العصيب كل ما عايشته وخبرته وما مرَّ بي في مختلف فترات حياتي، من أحداث حقيقية حصلت على أرض الواقع، إنها خلاصة تجربة حياتي الشخصية التي عشتها وعايشتها، اختبرتني واختبرتها، شربت من حلوها وعلقمها.

إنها مجموعة قصص كنت بطلها الرئيسي في أحداثها وزمانها ومحيطها، عند لصق جميع هذه الحكايات والأحداث فإنها ستشكِّل سيرة حياتي بالكامل، سواء في فترة الطفولة البائسة أو سنوات المدرسة القاسية أو في مرحلة الدراسة الجامعية وشقاء الغُربة، مرورًا بسنين خدمتي في الجيش والحروب، وحتى

وصولاً إلى ما بعد تقاعدي منه وصعوبة الحياة، ولغاية أخر أيام هروبي من العراق وخطورته.

إن هذه الأحداث تشكِّل علامات مهمة في حياتي، قد تكون مُصيبة أحيانًا، وقد تكون مُخيبة أحيانًا أخرى، ولكنها بمجملها وفي كل الأحوال ستبقى جزءًا مهمًا من حياتي التي أحبها، أعتز بها وأفخر بكل ما فعلت خلالها، كنت أتمنى أن أسرد الكثير من الأحداث، أكتب المزيد عن محطات أعتقد أنها مهمة، أتحدث عن أناس وشخصيات أثرت بالمجتمع والأحداث، تأثرتُ بها سلبًا أو إيجابًا، غيرَّت مجرى حياتي لو اتسع المجال، لكني آثرت أن أنتقي أحداث كتابي هذا بشكل مختصر، كي لا أحمل القارئ الكريم عبئًا كبيرًا.

نشأت على حُب الوطن والأسرة، وجُبلتُ على مُساعدة الآخرين وفق مبادئ التربية الأساسية التي تلقيتها داخل نطاق أسرتي رغم معاناتي المادية، لم أستكن أو أخضع لقسوة الحياة، بل أخذت أجابهها وجهًا لوجه، إذ عملت وأنا ما أزال غَضًّا صغيرًا في عدة مجالات؛ منها بائع متجول للمرطبات، عامل مطبعة كتب، في مجال بيع الملابس والجرائد، في معامل تصنيع البسكويت والحلويات وغيرها.

لاحقًا أخذت بنفسي أصقل تجاربي وخط سير حياتي وتقويمهما، وفق إدراكي وفهمي لما يجري حولي من أحداث في المجتمع والعالم، كان الفقر هو عدوي الرئيسي الذي عانيت منه في سنوات حياتي الثمانية عشر الأولى، والذي ترك أثرًا بالغًا على نفسيتي، سلوكي وتطلعاتي للمستقبل.

لقد حاولت في هذا الكتاب سرد التاريخ بتفاصيله طيلة الحقبة الزمنية؛ منذ أيام طفولتي حتى لحظة هروبي من العراق عام ١٩٩٩ بجواز مزور، ومروري على أخر حبة رمل عراقية، ومشاهدتي لأخر جدارية للرئيس صدام حسين، مُرورًا مؤقتًا في مملكة الأردن التي استضافتني وعائلتي، وأخيرًا إلى موطني الجديد مملكة الدنمارك المباركة.

حكايات هذا الكتاب ليست ألغاز أو أحجيات؛ إنها حقيقية نابعة من ومضات مضيئة حيّة وديناميكية، عشتها، تذكرتها، اخترتها، حددت معالمها، رسمتها، سطرتها بدموعي وآلامي ولحظات سعادتي، وضحت من خلال بُعدها الإنساني وعلاقات البشر فيما بينهم وتأثير بعضهم على البعض الآخر وتأثير المجتمع والمحيط عليهم، نعم سلوك الإنسان مرآة عاكسة للمحيط الذي يؤثر ويتأثر به، لذا فإن مذكرات الإنسان تعكس إلى حدٍ ما صورة مرئية ومحاكاة لا تحيد عن الواقع، سواء كان مُفرحًا أو مؤلمًا.

إنني أترك القارئ الكريم بعد أن سكبتُ بعضًا من تاريخي وخبرتي ولحظاتي المُميزة في كأسٍ مقدس وأقدمه بسعادة عظيمة له، ويبقى له الحكم والتقدير فيما تقدم... إن شئت أم أبيت هناك سيكون من يقدر هذا العمل، وآخر يرى فيه أمرًا عاديًا أو استعراضيًا، وهذا طبيعي بحكم اختلاف طبيعة البشر...

أقدِّم هذا الكتاب وهو خلاصة حياتي العملية والشخصية بين يدي القارئ الكريم عسى الله الحي العظيم أن يكون قد وفقني فيه، فهو ولي التوفيق.

عباس فاضل الزهيري

الدنمارك - ٢٠١٧

▪ نبذة مختصرة عن الصابئة المندائيين

فئة دينية صغيرة يُقدَّر عددها بستين ألف شخص يعيشون في العراق وجنوب غرب إيران. في العقود الثلاثة الأخيرة رحل معظمهم إلى دول أخرى بسبب الحروب والاضطهاد والإرهاب.

هذه الفئة تؤمن بأول ديانة موحدة نزلت على البشرية وهي عقيدة معرفية، يعبدون الله ويوحِّدونه ويعظمونه ولا يشركون به أحدًا، ويعتبرونه عِلّة كل الأشياء في الكون، كما يتبعون تعاليم النبي (يهيا يوهانا) عليه السلام، كتابهم المقدس (الكنزا ربا) وتعني (الكنز العظيم)، ويُسمِّيه البعض صُحف آدم عليه السلام كونها تمثِّل أولى الشرائع السماوية المنزلة على سيدنا آدم أبو البشرية ومدونة باللغة الآرامية.

أركان ديانتهم : الشهادة والتعميد والصلاة والصوم والصدقة. وتعتمد على الماء الجاري كأساس للحياة وقيامها واستمرارها.

تقديـم

هيثم نافل والي

قاص وروائي عراقي مغترب

ألمانيا/ ميونخ

المذكرات؛ اعترافات على شكل من الأشكال، التاريخ يحمل لنا بين طياته الكثير من هذا النوع... ما يهمنا الإنساني منه، وكلما اتصفت بالمصداقية، الواقعية والجرأة كانت أقرب إلى القلوب، تسري وتمضي في النفوس كالسحر؛ يحبها الناس، يتابعونها، يقرأونها، يتعلقون بها ويتخذونها أسلوبًا من أساليب التعامل في الحياة.

إذا أردنا لأي عمل كتابي أن يكون ناجحًا؛ على مبدعه أن يراعي الصياغة، البناء والآداء في عمله؛ فإن توفرت تلك الأركان الأساسية، يحق لنا أن نطلق على صاحبها مبدعًا، وعمله بالإبداع، خاصة لو كان إنسانًا، سرعان ما سيصدقه الناس، يعتقدون بأفعاله وأقواله وبه يؤمنون.

ما نقدمه اليوم للقارئ العربي هو كتاب صالح حقيقي معافى من الأمراض الاجتماعية التي نجدها هنا وهناك، تلك التي لا تنقل لنا واقع الأحداث كما حدثت... هذا ما حفزني، شجعني وجعلني أملي على الناس مدخل كتاب الزهيري الذي شعرت به، أحسست بعاطفته الجياشة، جلست مع ذكرياته، صدقت اعترافاته بعد أن فرش لنا ذكرياته بساطًا مزركشًا بديعًا، جعلنا نرى من خلالها صورًا متحركة، لواقع كان قد رحل، لزمنٍ ولَّى واندثر، انتحر وما بقي منه غير صدى يرن بين الجدران يهز كياننا، يشدنا نحو الأرض التي ولدنا عليها، يقربنا من ماء بلاد الرافدين، نرتوي من دجلة والفرات حتى الثمالة،

ترجعنا إلى الوراء رغمًا عنا، تصف لنا كيف كُنَّا نقضي عصاري بغداد بين حاراتها وأزقتها، مقاهيها ومتاحفها، كيف كانت الحياة حياة رغم موتها!.

طاف بنا الزهيري في تاريخ لا يمكن لأي عراقي نسيانه أو تجاهله، رسم لنا خارطة لحياة حافلة بالعذاب مشبعة بالألم والقسوة، وهذه الصفات، أساس كل خير إن صحَّ التعبير، بل أساس كل وعي حقيقي صادق يشعر بما حوله، يتألم ويراعي الآخرين، يتعايش مع الواقع على أساس أن الإنسان أخو الإنسان، أبقى لنا خيطًا غير مرئي يربط كل مفاصل مذكراته، يتتبعها القارئ بشغف، لا يريد أن ينقطع عنها، يلتهمها، يتحرك معها، يعيش أجزاء أجزائها وهو يشعر وكأنه بطل تلك المذكرات.

عاش ضابطنا المندائي حياته رغم صعوبتها، متأقلمًا معها، متغلبًا على معوقاتها، ساعيًا إلى هدفه الذي خطَّط له منذ نعومة أظفاره، أن يكون مهندسًا للطائرات، كان هذا حلمه، طموحه، وكل ما يطمح له. درس واجتهد، تعذب وتألم، نال ونجح، سافر وحصل الشهادة التي كان يتمناها، برهن لنا، الفقر ليس عيبًا، لا يمكن أن يقف ضد الطموح، الإرادة الحرة لا تعرف ولا تعترف بالغنى أو البؤس، الغايات تحقق المعجزات... هذا ما فعله الزهيري بقلب خافق بالحب يزهو بالحياة.

قرأنا من قبل اعترافات روسو، أيام عميد الأدب العربي، مذكرات السادات، حياة الحكيم، مذكرات من منزل الأموات، حياة المائة عام الماركيزية من العزلة، حكمة لورانس في أعمدته السبعة، الرحيل إلى ميزوبوتاميا وغيرها... كلها كانت تصبُّ في نهر الصدق، نهر الواقع، نهر العذاب والقسوة والفقر والمرض والتخلف الاجتماعي الذي كان يعاني منه مجتمعات هؤلاء المبدعين.

وها هو اليوم يكشف لنا المهندس عباس الزهيري ملف حياته، كيف ولد، كيف عاش وترعرع بين نور الشمعة وضوء القمر، بين العوز والفاقة والحرمان، بين شرعية الطموح وحب الطلوع، أثبت لنا أن الحياة يجب أن تنقاد، أن نجرب

كيف نكون أصحاب القرار، متذكرين أن القلق كل عالمنا، لولاه لما استطعنا أن نكتب شيء ذا بال، الفحمة السوداء تشع نورًا يلهم الشعراء، هذا ما تصفحته ووجدته حاضر في مذكرات الضابط العراقي ببراعة وجرأة قل مثيلها في الكتب التي نحياها اليوم، يحق لنا أن نقول إنها اعترافات صادقة، نابعة من الأعماق بحق، واللؤلؤ لا نجده على السطح طافيًا.

أرجو له التوفيق في حياته الأدبية التي اختار السير فيها بادئًا بمذكراته التي سوف لن تنقطع مادام قلبه بالحياة يدق، كما أتمنى للقارئ العربي في كل مكان وزمان أن ينشد المتعة الخالصة في هذه المذكرات، يصل غاياتها، يأخذ منها عبرها، الحكمة التي تغلفها ليصون فيها واقعه ويعرف كيف يتغلب عليه بإصراره.

نفتخر أن يكون من بين رجالنا أناس لهم هذه الروحية العظيمة الخالصة الصادقة القادرة على سبر أغوار التاريخ من خلال مذكراته الجريئة التي وصلت حد نخاع الحقيقة بعد أن نزع القناع عن واقعه، فجاءت كلماته نبراسًا ينير للأجيال القادمة طريقهم، وتعبر باعتزاز عن عظمة الأمة التي أنجبت الزهيري.

سلطان

تقديـم

الدكتور / بشير عبد الواحد

المهندس عباس فاضل الزهيري ، المحترم...

أنت تعلم أن الحياة يرسم مسارها واحدٌ، وأحيانًا يقودها واحد... فــ(آدم) كان واحدًا، وكذلك رام وشورباي وسام الذين أعادوا بناء الدارة بعد فناء البشرية، مرة بالسيف والوباء وأخرى بالحريق وثالثة بالطوفان... وأنت تعلم أن حمورابي واحد ونبوخذ نصر واسرحدون وغيرهم من بناة الحضارة في بلاد ما بين النهرين... وهناك قادة غيروا مجرى التاريخ، وهناك علماء وأدباء وشعراء يُشار لهم بالبنان خلدتهم أعمالهم الكبيرة، وأنا أرى من الضروري أن يترك المرء بصمة خلال مرحلة حياته كذكرى عزيزة لأحفاده والأجيال القادمة، ولو على قدر إمكاناته، أفضل من ألا يترك شيء حسن يذكر.

المثل يا أبا زيد يقول رحم الله امرئٍ عرف قدر نفسه... وأنا أعرف من خلال زمالتنا بالعمل لسنين طويلة ذقنا حلوها ومُرها سويًا؛ أنك إنسان صاحب مبدأ وقيم وكفاءة في العمل والحياة، وهذا سر إعجابي وتمسكي بك، ومن هنا شجعتك على الكتابة، ليستفاد غيرك منك، معنى أن يكون المرء صاحب مبدأ وقيم وكفاءة، ولهذا أحب أن يحوي كتابك القادم تجسيدًا للمبادئ والقيم والكفاءة التي آمنت بها في عملك وحياتك أبو زيد...

وأنت تعرف أن المرء لا يحب أن يرى الآخرين أحسن منه إلا أولاده، وهذه غريزة إنسانية، على أن يكون التنافس شريفًا ومبنيًا على القيم والأخلاق، ولكن في مجتمع مثل مجتمعنا العراقي والمؤثرات الدينية والتربية البيتية زرعت مع

الأسف نوعًا من الأنانية والحقد في نفوس البعض، الذين وجدوا أنفسهم لا يستطيعون منافسة عباس وبشير المهندسين الأكفاء المندفعين للعمل بجد وإخلاص ووطنية ونكران ذات، القادة والمعلمين والمدربين الذين يعطون كل ما عندهم من معلومات قيمة لزملائهم بكل محبة، ليرتقوا بمستوى العمل والمسؤولية، مما أهلهم أن يتبوءوا مراكز المسؤولية المتقدمة في قيادة العمل والإنتاج، مما أغاظ اللئام ومعدومي الضمير، فخططوا بكل ما يحملوه من حقد وأنانية وتطرف ديني مقيت لإيقاف عجلة تقدمنا، وهم يعلمون أنهم بهذا العمل الجبان يلحقون ضررًا بليغًا بالعمل والوطن، فلحقنا يا أبا زيد جزء من هذا الضرر، والذي تجاوزناه بصدقنا وأمانتنا ومواقف زملائنا الشجعان، ومع هذا أصابنا كثير من الأذى، ومرت علينا أيام عصيبة تركت فينا آثار نفسية ومعنوية كبيرة، دفعنا ثمنها من صحتنا وراحتنا وقلق أهلنا وأحبائنا علينا، ولكن في النهاية لا يحق إلا الحق ولا يصح إلا الصحيح، إذ لا بد للخير أن ينتصر على الشر... ولا بد للنور أن يبدِّد الظلام.

أنا لا يمكن أن أنسى موقفك النبيل الشجاع مني شخصيًا، يوم خطَّط عدد من المسؤولين الحاسدين لإيقاف تقدمي في مجالات العمل والإنتاج، فنصبوا لي مصيدة لأننا كنّا أكفأ منهم بمراحل وأصدق وأكثر وطنية، رأس مالنا كفاءتنا وأمانتنا كمندائيين وعراقيين نجباء، وقد اتفقوا على الكذب والافتراء ليوقفوا تقدمنا في مواقع المسؤولية المتقدمة في الدولة العراقية، لكن في أحيان كثيرة يا عباس قوى الخير تنتصر على قوى الشر وليس دائمًا، ولولا موقفك المشرف وموقف زملائك الأشراف؛ لكنتُ ضحية الظلم والطائفية والغيرة والحسد.

بارك الحي العظيم فيك وفي ذريتك، وبكل نزيه شجاع لا يخاف في قول كلمة الحق لومة لائم، ودمت أخًا وصديقًا وفيًا، وبورك في خدماتك لأبناء طائفتك في كل مكان تحل فيه، وحاليًا في الدنمارك.

المخلص ، أخوك د. بشير عبد الواحد يوسف


مذكرات ضابط مندائي

ثنائية الفقر والتفوق

لا تشعر بالوحدة والكون كلّه بداخلك

جلال الدين الرومي

ولدتُ أواخر عام ١٩٥٥، ونشأتُ في حقبة سياسية مرتبكة ومتقلبة عَجَّتْ فيها الانقلابات العسكرية والتغييرات السياسية والحزبية التي أثرت على حياة الفرد والأسرة العراقية، والمجتمع العراقي بأكمله بشكلٍ كبير، وترعرعت في كنف عائلة كبيرة فقيرة مكونة من اثني عشر فردًا، كان والدي الطيب هو المُعيل الوحيد لهذه العائلة الكبيرة الكثيرة المتطلبات.

رغم مهارة أبي الحرفية العالية في عملهِ؛ إلا أنه لم يكن في قدرته منح عائلته حالة الرفاهية التي يتمناها الجميع، أو حتى الحال المتوسط، وإنما استطاع تأمين الحد الأدنى من مستوى العيش، أبي كان يعمل في مجال صياغة الحُلي الذهبية إلا أن عمله هذا لم يُمكنه من امتلاك الموارد المالية الكافية لتأمين متطلبات هذا العدد الكبير من الأفواه الجائعة، لذا كان عليه أن يسعى جاهدًا، يبذل جهدًا استثنائيًا، يُعاني الكثير ويفعل المُستحيل كي يؤمن لقمة العيش للجميع، أبي فاضل وكما اسمه رجل دمث الأخلاق مهيب الطلعة وسيم الوجه بقامة فارهة، نحيل العود بسحنة حنطية ذو أنف دقيق وشعر أسود عندي إنه رجل عظيم.

بينما كانت أمي مدبرة منزل كلاسيكية من الطراز الأول، لا تزال تدهشني قدرتها الفائقة على تنظيم عملية إطعام جيش من الأطفال الجياع، لقد عملت أمي المستحيل كي تُدير حياة الأسرة الكبيرة رغم أنها كانت محاطة بخيارات محدودة جدًا ولهذا حصلت على مرتبة عظيمة في الأمومة والحضانة والتربية المستقيمة لأبنائها، أمي امرأة مدهشة من ذلك العصر الجميل، أم نادرة بمعنى

الكلمة، أغدق عليها الله بجمال يوقظ الروح خارق يكاد يُضاهي نور القمر وضياء الشمس إذا ما اجتمعا سويًا، قصيرة القامة ممتلئة القوام ذات وجه دائري ببشرة ناعمة كثلج القطب الشمالي ناصع البياض، في حضرة أمي يبدو العالم نقيًا كما خلقه الله، لا زيف فيه ولا خطيئة، خلاصة القول إنها إنسانة وامرأة وأم ومربية رائعة.

استحق والدي بجدارة فائقة لقب المناضل، كونه استطاع بقدرة عظيمة الموازنة بين كيفية الحصول على المال؛ والاحتفاظ في نفس الوقت بكرامته وكبرياءه اللتان لم يكن يساوم عليهما أبدًا، والتي ورثتها منه، رغم كل هذا إلا أن حياتي وحياة العائلة كانت صعبة للغاية، ولقد عانينا الكثير من شظف العيش والفاقة والحرمان، ولكننا لم نشعر يومًا أننا افتقدنا إلى دفء وعطف أبي، ومحبة وحنان أمي، وهذا ما كان يُغطي أجسادنا النحيفة الباردة ويمنحنا قدرة المواصلة والبقاء.

كانا والديَّ إنسانين أميين بسيطين، لم يسعفهما الحظ أن يتلقيا أي تعليم، إلا أنهما امتلكا من حرص الملائكة ما يفوق التصور على إدخال جميع أشقائي وشقيقاتي المدرسة، وإكمالهم التعليم وحصول بعضهم على شهادات علمية مرموقة.

في مرحلة دراستي الابتدائية والمتوسطة وحتى الإعدادية كنت غالبًا ما أذهب مع والدي إلى مكان عمله في خان الشاه بندر الشهير، مركز صناعة وتجارة الذهب في بغداد والعراق، والذي يغفو على ضفاف نهر دجلة الخالد، حيث يحرسه جسر الشهداء العتيد بشموخ، والذي يسرح بنظره بإعجاب عظيم عبر ضجيج المارة والعمال نحو التمثال الشامخ للشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي، أساعده في تنفيذ بعض الأعمال البسيطة في مجال الصياغة، غالبًا ما كنت أجلب طعام الغذاء له من بيتنا الذي كان يبعد حوالي نصف ساعة أو يزيد، وبالتأكيد مشيًا على الأقدام.

بعد أن كان أبي في بداية حياته يعمل كعامل ميكانيكي لتصليح مضخات الماء؛ تحول إلى مهنة صياغة الذهب، وأصبح في فترة قياسية من بين أمهر صاغة العراق فيما يُعرف بصياغة (الحجِل و الملَوي)، وشاهدتُ بأُمِّ عيني حجم حرصه البالغ ومعاناته اللامحدودة في سبيل الحصول على ما يكفي ليسد رمق عائلة كفريق كرة قدم، مكونة من اثني عشر فرد.

لم يبقَ مكان يَعتُبُ عليه أبي إلا واستأجر فيه دكان صغير كورشة ليعمل فيه، بدءًا من المنطقة التي تقع بين محلات مستلزمات صناعة الأحذية وبين موقع مكائن سحب وتطويع الذهب، إلى خان (أمين زاهد)، مرورًا بخان (الياهو دنكور) والسوق الذي بُني حديثًا وكان مدخله يطل على شارع المتنبي وصولاً إلى خان (الآلوسي)، وأخرها في نهاية خان (الشاه بندر) العتيق القريب جدًا من سوق السراي الشهير ببيع الكتب والمجلات والقرطاسية، وباختصار شديد إن أبي تنقل في جميع أرجاء منطقة الشابندر التي قضى عمره وفيًا لها، ولم يهجرها مثلما فعل الكثير من الصاغة، وانتقلوا إلى شارع النهر الأكثر تطورًا.

بقي أبي طيلة حياته مُعتمدًا على ما تُبدع يداه الماهرتان اللتان تُنتجان أندر وأصعب أنواع الحُلي الذهبية الشعبية، مثل الحِجِلْ والمَلوي، ولم يكن يمتلك الإمكانيات المادية لكي يطوِّر حاله كما فعل الآخرون، ولا بد من العروج على شرح بعض مصطلحات الصياغة كي يطلع القارئ الكريم على تفاصيلها:

الحجل هو أسطوانة ذهبية لمَّاعة مصقولة جيدًا، مجوفة مطوية دائريًا بعناية فائقة ذات نهايات برؤس على شكل مكعبات مثمنة، مزخرفة بأشكال جميلة ذات تفاصيل دقيقة، وتحتوي على أقفال بديعة تُصنع بطريقة ذكية، وتعتبر الحجول من أشهر الحلي الذهبية الشعبية التي كان يقدمها أهالي العرسان الأثرياء إلى عرائس أبنائهم كمهر للزواج، كذلك اعتمدتها النساء العراقيات في تخزين المال تحسبًا من عاديات الزمن، إضافة إلى أنهنَّ يستخدمنها للزينة، وكما يقول المثل العراقي الشائع (الذهب زينة وخزينة)، وتزين الحجول أسفل سيقان النساء. أما المَلْوي فهو عبارة عن قطعة ذهبية حلقية الشكل مُميزة براقة تتكون من

اسطوانتين ذهبيتين صلدتين، تتشابك وتلتف وتحتضن أحدهما بدقة وبراعة مع الأخرى لتشكل ضفيرة تنتهي بأقفال جميلة ومزركشة، تستخدمها النساء للزينة في ساعد الأيدي أو أسفل السيقان، وتعتبر كِلا الحجول والملاوي في التقليد الشعبي العراقي كعلامات للترف والرفاهية والغنى.

كنت وما زلت شاهدًا حَيًّا على كفاح أبي، حيث إنه كان وفير الحظ إذ رزقه الله بعشرة أبناء؛ خمسة أولاد وخمس بنات جميعهم كاملين أصحاء كزهور قادمة من عالم الأنوار [١]، لكنه في نفس الوقت تحمل أعباء العمل المرهقة وكثير من شقاء الحياة كي يطعمهم.

كان يحصل على قوته من نتاج يديه اليومي، إذ كان يتقاضى ديناران مقابل صناعة كل زوج من الحِجول، وحين لا يسعفه الحظ في الحصول على هذا القوت فكان لابد له من توفير دينار واحد بأي طريقة ممكنة كي يسد رمق أطفاله، كنت أرى أبي يجول محلات تجار الصاغة ذهابًا وإيابًا كي يحصل على هذا الدينار الثمين اللعين الذي يكفي آنذاك لسد متطلبات عائلتنا، وحين يعجز يعود إلى محله مكسور الخاطر مهموم، تفضحه عيناه القلقتان، إلا أنه كان يتحلى بالأمل، إنه الشيء الوحيد الذي يدحر القلق، حين ييأس تمامًا كان غالبًا ما كان يرسلني إلى بعض تجار الصاغة أمثال العم الفاضل نعمان عوفي والعم الفاضل المرحوم (عودة جياد) لاقتراض مبلغ من المال يسدِّده لاحقًا من أجور العمل... كانوا يحترمون أبي كثيرًا لمهارته الفائقة، دقته في عمله، اعتداده بنفسه، ويسعيان دائمًا إلى إدامة روح الصداقة معه والتعاون في العمل، غالبًا ما أحسست تعب وشقاء أبي البالغ الذي تعكسه عيناه وقلقه الشديد حين تعسر الدنيا معه، كنت أعاني معه وأشعر بثقل الدنيا عليه رغم صغري، فهمت سعادة الدنيا حين يبتسم أبي ويطلق ضحكة بريئة دون قلق.

١- عالم الأنوار: هو عالم الخلق الأول للأثريين والملائكة ومستقر الأنفس الطيبة، عالم كله، نور وصلاح، ويُقابل (الجنة).

حين تبتسم الدنيا لأبي يبدو كطفل سعيد يتشح بالبراءة بعيدًا عن كل الأحزان، يغلق محله المتواضع مساء كل يوم، يذهب مباشرة إلى كازينو الكندي المُطِّل على تقاطع شارع الجمهورية مع شارع الأمين، يقضي سويعات استراخاء جميلة بعيدًا عن صخب حياة العمل مع أصدقائه وزملاء عمله، يضحكون ملئ أفئدتهم، يصرخون أحيانًا حين تشتد لعبة الدمينو الشعبية، التي أحيانًا من كان يخسر الرهان فيها؛ يدفع أسعار الشاي التي شربها الجميع أو يربح فيدفع الآخرون عنه، بعدها يذهب إلى محل بيع الخمور الذي يقع في منتصف شارع الأمين كي يبتاع ربع قنينة من العرق العراقي نوع مستكي، أو نصف قنينة وأحيانًا قنينة كاملة وهذا يعتمد على ثُقل جيبه، يشتري بين يوم وآخر بعض الفاكهة والخضار ويتجه مباشرة إلى البيت مُحملاً بالأكياس حيث تستقبله أمي الطيبة بابتسامة حنونة دافئة، بعد أن يأخذ أبي حمامًا ساخنًا يجلس على بساط وفير يفترش الأرض في إحدى غرف البيت المُخصصة له، ويبدأ طقسه اليومي المقدس المعتاد بتناول كأس من العرق الممزوج بالماء البارد مع الثلج بعد أن يتناول كِسرة صغيرة من الخبز وحبة طماطم مع قطعة من الخيار الطازج.

لم يكن أبي من النوع المتعصب أو المُغالي في الدين، بل كان كريمًا متسامحًا مؤمنًا بدينه الصابئي المندائي بالفطرة، إلا أنه كان يحرص كثيرًا على آداء الطقوس المندائية، مثل التعميد المندائي[١] الذي يجرى في الماء الجاري على ضفاف نهر دجلة الخالد بشكل منتظم، أو الالتزام الكامل بأيام الاعتكاف (الكرصة)[٢] قبيل أيام العيد الكبير لطائفتنا الصابئية المندائية وغيرها.

١- التعميد: الصباغة، وهي الرسم المندائي بالماء الحي.

٢- الكرصة: أيام الاعتكاف، وهي ٣٦ ساعة تبدأ مع غروب شمس أخر يوم من أيام السنة، وتستمر حتى صباح اليوم الثاني من السنة المندائية الجديدة، وفيها استذكار لعمليات الخلق الأولى، يعتكف خلالها الصابئة المندائيون في أماكنهم لا يغادروها، وبعدها مباشرة يكون العيد الكبير.

اهتم أبي كثيرًا بزرع مبادئ الدين المندائي والأخلاق الحميدة فينا، وبذل أفضل جهده لإسعادنا، كما منحنا أهم شيء في الحياة؛ وهو حرية التعبير عن آرائنا وحرية اختيار شريك الحياة وتحديد مصيرنا... رغم أن أبي كان هادئ الطبع إلا أنني لم أرث عنه صفته هذه، إذ على ما يبدو أنني ورثت عن أخوالي صفات الضحك من الأعماق والقهقهة الصاخبة، والتكلم بصوتٍ عالٍ، وصولاً إلى استخدام الأيدي بشكلٍ فعال في المُلامسة، وحتى ضرب من يجاورني على أكتافه أحيانًا، لقد كان أبي أفضل أب في الدنيا، رحمه الحي العظيم وأسكن روحه الطاهرة أفسح جناته.

لا تغيب عن بالي الذكريات أبدًا، حين كان يصطحبني أبي أنا وشقيقيَّ الذين يصغراني بعدة سنين لغرض الاغتسال، حاملاً معه أنواع الفاكهة اللذيذة إلى حمام السباع العام، والذي يقع في الشارع البيني الذي يوصل شارع الكفاح بشارع الشيخ عمر، مارًّا قرب تماثيل السباع العظيمة وحدائقها الغناء، نغتسل بسعادة فريدة، نتقافز بين أحواض الماء الساخن، نجلس على الدكة الساخنة التي تُماثل حمام الساونة الغربي، وبعد أن نُكمل اغتسالنا نجلس على آرائك مريحة طويلة مفروشة من السجاد البلدي الملون والمزركش، ونحتسي شاي القرفة (الدارسين)، أو شاي الحامض، الذي كنتُ أحبه كثيرًا وأكل البرتقال والليمون الحامض بعد الاستحمام، قد تكون هذه اللحظات المُميزة من أسعد لحظات حياتي التي قضيتها مع أبي، والتي ما زالت أحفظها في ناقوس ذاكرتي.

أكملتُ دراستي الإعدادية صيف عام ١٩٧٣ اللاهب بسخونته وأحداثه السياسية العاصفة بتفوق، وحصلت على مُعدل عالٍ نسبيًا وهو ٨٥،٥ % في الفرع العلمي، تخرجت من إعدادية الرسالة للبنين التي تقع مقابل جامع الحيدرخانة التاريخي نهاية شارع الرشيد العتيد تجاه باب المُعظم، حيث يجاورها محل شَربت الحاج زبالة الشهير لدى البغداديين، والذي يبيع عصير العنب المُجفف المُميز.

لم أكن يومًا طالبًا مُجتهدًا أو متفوقًا طيلة فترة دراستي الابتدائية والمتوسطة، وحتى السنتين الأولى والثانية من الإعدادية، حيث كنت غالبًا ما أحصل على نتائج مُتدنية في الفصل الدراسي الأول، وهكذا يمتد الحال مع امتحانات منتصف العام، ولكني دومًا ما كنت أحزم أمري وأنهض مُنتفضًا ساعيًا لتحسين نتائجي في الفصل الثاني، وأضمن كعادتي النجاح النهائي إلى الصف التالي دون أي فشل أو إعادة.

ولقناعتي الراسخة أن مستقبلي المهني والاجتماعي يعتمد بشكلٍ كامل وحسب نظام التعليم المُعتمَد في العراق على نتائج الصف المُنتهي، التي تؤهل الطالب للالتحاق بِكُلية مرموقة في الجامعات العراقية، وهذا بالنتيجة يُحدد ويرسم مصير وحياة الإنسان لاحقًا، ما أن نجحت من الصف الخامس الإعدادي صيف عام ١٩٧٢ حتى بدأت التحضير والتهيئة فورًا للعام القادم الحاسم بشكل استثنائي وكنت أرافق أصدقاء طيبين ذوي مستوى دراسي جيد، وهم نهاد سعد علي وناجح.

مَرضتُ مَرضًا شديدًا قبيل بداية امتحانات البكالوريا الحاسمة بسبب الإجهاد الكبير والضغط الزائد الذي أحدثته على نفسي، أنهك المرض قوتي وسحق جميع قدراتي على مواصلة الدراسة والتهيئة للامتحانات، رقدت طريح الفراش ردحًا من الزمن، حتى توفر لديَّ مبلغ مالي لشراء تذكرة مُعاينة الطبيب في المركز الصحي الواقع في محلة الفضل وسط بغداد، جرجرت أقدامي رُغمًا عني وقصدت المركز الصحي، أخبرني الطبيب أن صحتي ليست على ما يرام وأنَّ وعكتي شديدة، وأنَّ خطرًا حقيقيًا يُداهم حياتي، نصحني أن أعير الاهتمام كي أنقذ حياتي وليس للنجاح في الامتحانات، لم أحفل بما أخبرني به الطبيب، إذ أن حياتي ومستقبلي كانا على المحك، ويعتمدا فعليًا على ما يتمخض عن هذه الأيام، وبالتحديد على نتائج الامتحانات القريبة.

قررت بثبات المؤمنين الحصول على نتائج جيدة في امتحانات البكالوريا, تفرغت كليًا للمذاكرة ولم أعُد اذهب إلى محل والدي بشكلٍ دائم، احترم أبي قراري بشكل مطلق ولم يُعارض، إذ أنه كان دائمًا يحترم قرارات أبنائه جميعًا دون تمييز في دراستهم وزيجاتهم وتسيير أمور حياتهم الأخرى.

ولصعوبة الوضع المالي لي ولعائلتي كما أسلفت لم أكن أملك ما يوفر ركوب الحافلة يومًا، لذا كنت طيلة سنوات دراستي الاثنتي عشرة؛ أقصد مدرستي مشيًا على الأقدام، كما لم أحظَ يومًا كباقي زملائي بإمكانية شراء شطيرة شهية واحدة من حانوت المدرسة، أو حتى امتلاك الملابس الخاصة بحصة الرياضة، الأمر الذي جعلني أكره وأتهرب من حضور درس الرياضة.

نعم هكذا كان الحال وأسوأ في بعض الأحوال الأخرى، إذ أنه نادرًا ما كان يتسنى لي الحصول على حذاء أو ملبس جديد، كنت غالبًا ما أحصل على ملابس أخي الذي يكبرني بخمس سنوات، وأرتديها باستمرار حتى أحصل منه على أخرى حين تصغر عليه.

لا تغيب عن بالي حادثة لا أزال أراها في منامي أحيانًا، وذلك حين أهداني أخي حبيب كِنزة صوفية دافئة رائعة رصاصية اللون بعد أن صَغُرت عليه، حينها شعرت بقلبي يخفق نشوة، في قرارة نفسي شعرت بسعادة بالغة، حتى كنت أسير بها لأيام عديدة ليل نهار وأنا زاهي مُختال، حتى تركتها أحد الأيام للحظات على مقعد دراستي في المدرسة، مرت دقائق وحين عُدت لم أجدها، قلقًا صرت أجول ببصري في أرجاء الصف فلم أجدها، سألت بعض زملاء صفي التي كانت عيون بعضهم تبرق خُبثًا ولم يخبرني أحد بمصير كنزتي، حتى وجدتها بنفسي قذرة رطبة ترقد على أرضية حمام المدرسة الذي يتبول فيه جميع طلاب المدرسة وتزكم رائحته الأنوف.

لقد كانت مفاجأة قاسية في انتظاري، وقفت مندهش شاخص العينين معقود اللسان، كانت لحظات قاسية ومُخيبة للآمال، أحسست بتعاسة وغضب لا يمكن

وصفهما، شعرت برغبة عارمة بالبكاء، كان الموقف كفيلاً أن يجعل عيوني تتوسع وتدمع وثغري يكشف عن علامة صدمة واضحة، لم أعرف كيف أتصرف مع كنزي الذي سُرِقَ مني غدرًا، وكنزتي التي أعدِمت في ظل جلجلة ضحكات الآخرين على الموقف سوى أن أطلق ساقاي للريح مُتجهًا إلى البيت، والجلوس في أحضان أمي باكيًا شاكيًا قدري، كابوس مزعج ما زال يراودني.

لم تترك عائلتي الكبيرة موقعًا سكنيًا في أرجاء شارع الكفاح في بغداد إلا وشغلته بالإيجار الشهري، شغلت عائلتنا وعائلتا شقيقي أبي في بداية الأمر بيت كبير ذو طابقين، احتوى على العديد من الغرف، شغلنا الطابق الأول منه مع عوائل أعمامي، ومنحنا غرف الطابق العلوي لأقارب ومعارف مندائيين لنا مقابل بدل إيجار.

يقع هذا البيت العتيد في منطقة سوق حنون الشعبية خلف شارع الكفاح في قلب بغداد حيث شهدتُ أنا فيه الكثير من الأحداث السياسية، بعد سنوات انتقلنا إلى منطقة الشورجة وسكنا في شقة سكنية ضمن عمارة حديثة الإنشاء آنذاك – تُشرف على حي التوارة الذي هجره اليهود أو بعد أن تمَّ تهجيرهم – سكنت معظم شققها عوائل مندائية إضافة إلى عوائل أخرى، في هذه البيت شهدت أول مغازلة رومانسية غير مكتملة مع فتاة كردية فائقة الجمال، كانت قد تزوجت من شاب عربي، ومرورًا بِعدة دور سكناها في منطقة القسم التي تشرف على ساحة (زبيدة)، وصولاً إلى ساحة السباع الشهيرة ببركتها المائية الرائعة التي تتوسطها تماثيل الأسود ذات اللون الأبيض، وعلى ظهورها ترفع حوضًا دائريًا كبيرًا يبدو وكأنه خزانٌ من الماء، نافوراتها، أضواء قناديلها الجميلة، حدائقها الغناء المُزينة بجميع أنواع الزهور والأشجار وأرضيتها التي يفترشها الثيل الأخضر.

حدائق السباع الشهيرة، جنة زرعها الله في قلب ذلك الحي الشعبي الفقير العائم على ضجيج الحياة، هي مكان يخلب اللب بجماله وألوانه، وتتكون من حديقتين

كبيرتين طويلتين على شكل أقواس متقاربة، بحنان تحتضنان وسطهما حديقة دائرية رائعة التي تحتوي على بركة ماء كبيرة دائرية ترفعها عن الأرض وتحرسها أسود بيضاء، ولاحقًا وللأسف الشديد تحولت هذه الحدائق الغنَّاء بسبب الإهمال إلى مرآب للسيارات، ولا أعرف ما الذي حصل لها الآن، وبالتأكيد أصبح حالها أسوأ بكثير، ويقال إنها قد أصبحت مَكبًا للنفايات.

انحشرت عائلتنا الكبيرة المؤلفة من اثني عشر فردًا بشقة سكنية شغلناها في عمارة كبيرة في منطقة السباع، التي كانت نهارًا تعج بضوضاء وصخب كبيرين جراء أعمال الحدادة واللحام وقطع الأخشاب وتجارة مستلزماتهما، أما ليلاً فكانت المنطقة تتمتع بجو رائق وهادئ، إذ أنها تقع بقرب هذه الحدائق التي قضيت فيها أجمل وأتعس أيام مراهقتي.

أجلسُ تحت ظلال الأشجار الكبيرة الوارفة في أوقات النهار حين ترتفع درجة حرارة الجو أكثر من خمسين درجة مئوية، أحتمي بظلالها من أشعة الشمس الحارقة وأنا أحتضن كُتبي وكراساتي بكل قوة وعزيمة؛ لاجتياز الامتحانات النهائية بنجاح وتفوق، وحين يأخذ مني التعب والإرهاق مأخذهما؛ أفترش الأرض دون فراش وألتحف السماء، أستلقي وأغُط في قيلولة قصيرة لا ألبث أن استيقظ سريعًا لنداءات معدتي الخاوية.

كنت مع أصدقائي أقضي معظم أوقاتي في حديقة السباع؛ التي هي المتنفس الرائع الوحيد لأهالي المنطقة، خصوصًا بعد انتهاء ضجيج كفاح العمال النهاري، أحيانًا أكون مأخوذًا بالضجيج الذي تعودت عليه طويلاً، إذ هو يُحيط بكل شيء في حياتنا، وأحيانًا أخرى ألوذ بالصمت وأنزوي مع كتبي.

أيام امتحانات البكالوريا كنت وأصدقائي ندرس ليلاً على قناديل حدائق السباع حتى وقت متأخر جدًا، نتنشق هوائها الممزوج بعبق زهورها وأشجارها في جو هادئ نقي خالي من ضجيج العمل ودربكة الحياة النهارية، كنا نستغل هذا المكان السحري كي نحظى بوقت مناسب للدراسة والمذاكرة، بصحبة العديد من

الطلاب الذين لا يبخلوا بتقديم العون والمساعدة في توضيح وتفسير ما يصعب على البعض.

لا يُخفى على أي شخص مِنا أنها كانت أيام جميلة رغم مرورها عصيبة وحاسمة، كانت جلساتنا لا تخلو من الأحاديث حول الصبايا والفاتنات في حيِّنا، أو اللواتي يمرن من قربنا كحوريات الجنة، يلتحفن بعباءاتهن أو يتزينَّ بملابسهن القصيرة، مبرزات مفاتنهن في إغراء فاضح ومقصود.

حدائق السباع العظيمة وما يحيطها كانت مسرحًا لأحداث سياسية كثيرة عنيفة ومهمة في تاريخ العراق، إذ شهدت العديد من المظاهرات المُعارضة للسلطة، وأحداث عنف كقصف خزان ماء السباع بالمدفعية، وإحداثها فتحة كبيرة فيه إثر تَحصُن بعض أفراد الحرس القومي سيء السُمعة أعلى قمته، مِما استدعى المُنتفضين خلال انقلاب الثامن عشر من تشرين ١٩٦٣ إلى إطلاق النار عليه، مما تسبب في سقوط واستسلام عناصر الحرس القومي.

الشمس أكملت مهمتها في منح الدفء الكوني لذلك النهار، حتى ودعت كبد السماء وانزوت بعيدًا تحت الأفق الأحمر البعيد، فبزغ مساءً تداعبه نسائم باردة نسبيًا، تمنح المرء إحساسًا بالرضى والهدوء، اليوم الذي يسبق امتحانات البكالوريا وغدًا سيكون امتحان أول مادة وهي اللغة العربية التي لم أحبها إطلاقًا، كنت أرقد ببطنٍ خاوية على فراش وضعته والدتي الحنون مباشرة على الأرض، أمي التي قلبها لا يعرف سوى مشاعر الحب وسخاؤها، لا يعرف للعطاء حَدًّا، كانت شجرة مِعطاءة وارفة الظِلال، أمي ميزان الحب والحنان السماوي تجلس إلى جانبي بهدوء الأنبياء، تضع يدها الدافئة على جبهتي وكأنها تصب في من طاقتها وإكسير حياتها، تُدخل أصابعها الناعمة بين خصلات شعري الأسود الرطبة فأشعر بلذة خارقة، تبتسم رغم ذبول نضارتها وبريق عينيها يتراقص حزنًا علي، تُمسد شعري بلطف بالغ، ثم ما تلبث أن تتساقط من عينيها كرات صغيرة من دموع متلألئة صافية كصفاء الماء الحي القادم توًا من

عالم الأنوار، دمعات أمي كالماء الحي العائدة أسرع من الملائكة إلى السماء، تارة تَهمس في أذنيَّ بلحن حنين أغاني الأمومة التي تدغدغ شغاف قلبي، وتارة أخرى تدعو لي ببراءة الأطفال بالتعافي السريع والحصول على نتائج باهرة تؤهلني أن أصبح مهندسًا طيارًا.

رفعت أمي رأسها إلى الأعلى شاخصة وجهها ويديها إلى السماء بخشوع كبير وتَلت صلاواتها، ثم تمتمت في سرها وقالت بصوتٍ مسموع: (يا هيي[1]... يا ماري[2]... يا مندا ادهيي[3] احفظ ولدي الحبيب وعافه وامنحه الصحة والقوة على مواصلة وتأدية امتحاناته؛ كي يحصل على نتائج متفوقة ويصبح مهندسًا طيارًا).

تحيرني حتى الآن نظرة أمي الخارقة للمستقبل، إذ كانت هذه المرأة مُصممة على أن أكون مهندس طيار، لم أفهم حينها كيف خطر على بال والدتي هذه الأمنية ولكني راسخ الثقة واليقين أن دعاء والدتي النابع من قلبها الصادق قد ارتفع داويًا إلى السماء فاستجاب له الله فورًا، منحتني أمي الصبر والقوة والعزم والمواصلة كي أحقق هدفي، ولم تنقطع أبدًا عن دعواتها وصلواتها لي بالتوفيق والنجاح, قطعت وعدًا على نفسي وقسمًا ثقيلاً على تحقيق أمنية أمي في أن أصبح مثلما تتمنى.

ذات المساء زارني صديقي المندائي نهاد الذي يقطن حاليًا في العاصمة السويدية ستوكهولم كي يطمئن علي، ويتأكد من قدرتي وقراري في الذهاب إلى الامتحان في اليوم اللاحق، لم أكن آنذاك بالوضع الذي يسمح لي باتخاذ مثل هكذا قرار مهم وحاسم, إلا أن نهاد أبلغني أنه في جميع الأحوال سيعرج عليَّ

١- هيي: الحي وهو الاسم الذي يُطلق على الله في المندائية.

٢- ماري: وتعني الرب، ذلك أن الحي هو رب جميع الأكوان والمخلوقات وسيدها.

٣- مندا ادهيي: وتهني العليم أو العارف بالحي، صفة للحي إذ أنه العليم بكل شيء، وتأتي بمعنى الملاك القدير الذي له الحسم في دحر عوالم الظلام وسيادة النور.

صباحًا في طريقه إلى مكان الامتحان، تركني نهاد بعد أن تمنى لي الشفاء ومضى، نمتُ ليلتها وأنا أشعر بخواء تام حيث اكتويت بنار المرض والقلق من مُستقبلي المجهول.

نهضتُ بتثاقل والهزال ظاهر عليّ بوضوح، لم أقوَ على رفع أقدامي التي تسمرت كجذور شجرة عتيدة امتدت لسنين طوال في أعماق الأرض، صباح جديد مُشرق بضياء رائع ولكن ساخن جدًا، مُتحصنًا بدعاءات أمي اتكأت على كتف صديقي الوفي نهاد ناهي الصالحي، الذي أصرَّ على مساعدتي واصطحابي إلى المدرسة، لم يتوفر في بيتنا فطور صباحي، انتعلت صندل بالي وذهبت مع صديقي كأضحية العيد سيرًا على الأقدام إلى قدري، حيث مركز الامتحانات في مدرسة تقع في منطقة النهضة التي تحتضن مرأب الحافلات العامة.

اتخذت مكاني المُخصص قرب النافذة، لفحتني أشعة الشمس الصيفية اللاهبة بعنف دون رحمة، ارتفعت حرارتي بسرعة، أحسستُ بالغثيان، لقد آذاني لهيب الشمس، سالت مني أنهار من العَرق وشعرت بجوع شديد ينهش معدتي الخاوية، تماسكت أخذت نفسًا عميقًا كي أغسل أدران مرضي وأزيل آثار قلقي، قرأت أول سؤال وإذا به نفس الموضوع الذي كان قد أخبرني به أصدقائي سابقًا ولم أعِرهُ أي اهتمام، بسبب كثرة مجاميع الأسئلة المسروقة المُفترضة للامتحانات التي تمَّ إرسالها إلى الطلبة ذلك العام.

تَدهورت حالتي الصحية أكثر مما هي عليه، تحطمت تحضيراتي بشكل لافت وانهارت حالتي النفسية, شعرت بالإحباط الكامل، وضعت قلمي على دفتر الامتحانات وسرحتُ بين همومي في الماضي البعيد، يبدو أن الحرارة ضربت رأسي وأحدثت فعلها فيه فسحبتني عبر الزمان إلى الماضي، إلى أحداث أول مغازلة رومانسية حدثت في حياتي وما أزال مراهق ساذج، حينها كنت أقف أمام شباك رواق شقتنا المُطل على شارع ضيق جدًا في إحدى أزقة حي

الشورجة وسط بغداد التي تعج بالمحال التجارية والحياة الصاخبة، أصوات مُفعمة بالحياة كأصوات عُمال الحمالة وعربات نقل الفاكهة والمواد الغذائية المتنوعة التي كانت تستورد من الخارج، طلاب المدارس يسيرون على شكل مجموعات صغيرة يصرخون أحيانًا ويتقافزون أحيانًا أخرى، رائحة الطعام من مطابخ الشقق والبيوت الأخرى تخترق أنفي فتحدث تأثيرها المباشر في معدتي، على سطوح البيوت القديمة التي تقع أسفل بنايتنا العالية تتكدس أنواع الأجهزة والمواد المستهلكة المهملة التي غطاها التراب وتظهر من الأعلى كأنها خارطة جوية لموقع عسكري متروك.

ضجيج الناس وأبواق السيارات على أوجه، عوادم سيارات الحمل تطلق دخانًا أسود تلوث البيئة رغم صفاء حالة الجو العام، أقف أشاهد مسرحية الحياة بتفاصيلها الدقيقة، حينها كانت جدتي والدة أمي قد قدمت من إيران لزيارتنا لأول مرة، كانت جدتي تجلس في البيت مع أمي التي لم تلقها لسنين طويلة يتداولان أحاديث الفراق والشوق والحنين والماضي المعتادة في مثل هذا اللقاءات الحميمة، لذا اتخذتُ قراري لأدعهما يتحدثان بسلام وراحة أكثر، خرجتُ من باب شقتنا نحو شباك الرواق الذي يبعد عدة أمتار، توقفت عنده أنظر إلى ما يجري أسفل العمارة كأني أشاهد عرض فيلم حَي.

فاجأتني يد دافئة تجلس برقة بالغة على ظهري، لم أعلم يد منْ هذه، إلا أني ارتحت لها قليلاً، ما أن أدرت نظري نحو صاحب هذه اليد الحانية حتى رأيت جبلاً من جمال وإثارة وشهوة، هذه اليد تعود لأجمل شابة في حَينا المسحوق، حينها سَرَتْ في جسدي الهزيل رعشة قوية لذيذة وأخذتني إلى جو وردي آخر.

- ما الذي تفعله هنا؟

قالتها بدلع وغنج الأميرات وما زالت يدها تتربعُ على ظهري تمنحني طاقة هائلة ودفء وحنان عظيمين

- أراقب حركة الكون...

أجبتها بسذاجة وتلكؤ بعد أن سقطت سهام عينيَّ على وجهها الدائري المضيء كالقمر في وحشة الليل الحالك، ونزلت نحو الوادي الذي يفصل بين نهديها الكبيرين، فوزية شابة قصيرة الطول نسبيًا، تتمتع برشاقة الغزال وخفة الفهد في مشيتها المثيرة، ولقد زرع الله فيها جمال الكون كله وأبدع في صنعه، ذات شعر فحمي طويل، هذا الشعر الذي أبكى الرجال ولم يبقَ أي ذكر في حَينا إلا وانحنى أمامه وتمنى أن تكون صاحبته خليلة له، أو حتى أن يحظى بلحظة واحدة كي تمنحه سعادة أبدية وحياة بلا نهاية.

سلسلة ذهبية رفيعة متلألئة تحمل صندوق صغير على شكل قرآن صغير تتدلى بين نهديها العارمان الثائران حيث تبرز حلماتهما كبراعم طرية من خلال ثوبها الساتان الشَّفيف الناعم ذو اللون الأخضر الفاتح، تُحرك يدها الرقيقة نحو أعلى ظهري فتزداد درجة حرارة جسمي دون سيطرة مني، أصابعها الترفة أسشعِرُ بها تتحرك بحرية تجلدني بنشوة ثائرة لم أشعر بها أبدًا بحيث بت لا أرى ما يجري أسفل عمارتنا، ولا أسمع أي صوت للحياة، إذ أن جميع أحاسيسي غير المفهومة أصبحت أسيرة تحت سلطة يدها الطرية، ثوبها المكشوف عند صدرها الأبيض البض يجلس على جسدها المثير ليبرز جميع مفاتنه وانحناءاته الغائرة...

- ما بالك تقف جامدًا لا تتحرك؟

تسألني بغنج أكبر وسط دهشتي وشبقي غير المفهوم الذي لم أخبرهُ سابقًا، تأخذ يدي لتضعها على خصرها الممتلئ لتغوص في بحور سعادته، لا أقاومها بل أسرح معها في محاولاتها العذبة، أتحسس ثوبها بهدوء حتى أشعر بتلامس أصابعي مع جلدها اللدن الناعم دون أي عوائق، تزداد حرارتي أكثر تتجمع فصوص العرق على جبهتي بغزارة وليس في مقدوري من شدة الإثارة أن أزيلها، الموقف يربكني بالكامل ولساني ينعقد عن الحركة والنطق، الخوف يأخذ مني مأخذًا كبيرًا، أتلفتُ يمينًا وشمالاً ولا أجد أحدًا.

تستمر في مداعبة ظهري وأنا منغمس معها دون تصعيد، كلماتها تخرج من فمها الشهي دافئة عطرة عبقة بشهوتها الكبوتة كأنها تستغيثُ بي عطفًا، شفاهها الشهية ترتجف رغمًا عنها، وأنا كالصخرة الصوان جامد لا أتحرك، تقترب مني أكثر أتحسس فحيحها، أشعر بلوعتها ودفئها حتى كادت أن تحتضني، لفت ذراعها الثانية حول خصري وصارت على مرمى من الشبق، بيدها الأخرى ترفع يدي التي تجلس على جسدها إلى الأعلى، أشعر وكأنها تتحرك على جبل من زبد بلدي طازج، تصل أصابعي إلى جذر نهدها الطري، ما أن اصطدمت إبهامي بأسفل نهدها الذي برزت حلمته وانتصبت بشكل جنوني؛ حتى أحسستُ بلذة فائقة لم أكن أدرك مغزاها حينئذ، كانت نبضات قلبها التي أحسست بها من خلال يدها السحرية تزداد وتتاجي بالغيث، كأنها بكل جوارحها تدعو وتستجدي الحنان، حتى أنها أطلقت تنهيدة ساخنة مكتومة بدت وكأنها ترغب بالانطلاق إلى عالم آخر.

رغم نشوتي البريئة العارمة إلا أنَّ ذراعي أخذت تؤلمني فتترك جسدها وتنزل إلى الأسفل دون وعي، وفجأة بدأ كل شيء في النزول، ضاقت عيناها قطبت حاجبيها وانتفضت كأن عقرب سام لدغها وأخرجها من شهوتها وعالمها الرومانسي، لم يعجبها فعلي لذا أشاحت بنظرها عني، لملمت بقاياها تركتني وهمت ذاهبة، وهي في طريقها رمقتني بعينيها الواسعتين الجميليتين وأطلقت نحوي نظرة يجتمع فيها شعور الحقد والعتاب وحتى الكراهية لم أفهمها آنذاك، تركتني ومضت إلى شقتها، كنت أرى مؤخرتها المكورة تتماوج بتناغم فريد مع سير حركتها الأنثوية المثيرة رغم انكسارها.

صوت خشن للمدرس المراقب يرتفع يقتحم عليّ هيامي ويعكر صفوي بعنف:
- هل انتهيتم؟ أسرعوا... الوقت يوشك على الانتهاء.

يعيدني إلى واقعي الأليم، الزمن الثقيل يمر مملاً، كتبت من طرف أنفي ما قدرت وخرجت متخاذلاً مهموم ومُنكسرًا، ولكن في نفس الوقت كان يختلجني

شعور لذيذ، فكرت جديًا في تأجيل الامتحانات جميعها ومعاودة المحاولة مُجددًا في الدور الثاني، ولكن يبدو أن دعوات أمي لم تذهب هباءً؛ إذ تحسنت حالتي الصحية بشكل لافت، وبدا وكأن الله قد تقبل صلوات أمي ومنحني طاقة مضاعفة وقدرة صمود كبيرة، وهكذا أكملت امتحاناتي بمعنويات أفضل.

ما أن انتهت الامتحانات حتى بدأت مرحلة القلق والتحسب والترقب لنتائجها، كنت مُطمئنًا للنتائج فيما عدا مادة اللغة العربية، إذ كانت إجابتي فيها غير مقبولة إلى حد ما، أو على الأقل بالنسبة لي.

مع صديقي سعد طه ذهبت إلى المدرسة لاستلام نتائج الامتحانات، كان سعد طالبًا حريصًا متفوقًا ذكيًا جدًا على الرغم من أنه كان يعمل نهارًا كحدَّاد بالتوازي مع دراسته، وكنت غالبًا ما أعول عليه في مساعدتي في الكثير من المواضيع التي تصعب عليَ ولكن...

وقف الطلاب وسط هياج وضجيج كبيرين ينتظرون بشوق ولهفة غير صبورة نتائج الامتحانات ومصيرهم اللاحق، ما أن بدأ مدير المدرسة بتلاوة النتائج حتى أصبح الجو ساكنًا كهدوء المقابر، تسمع صوت الإبرة إذا سقطت وسطهم، وبعد حين جاء اسمي وقرأ المدير مجموع علاماتي، أغمضتُ عينيَّ وأنا أتمتم صلواتي وشكري لله، مرت لحظة صمت قصيرة استطعت بعدها تركيب أجزاء جسدي في قطعة واحدة والوصول إلى إدراك يؤكد حقيقة أنني فعلاً حصلت على نتيجة ممتازة ومعدل عال، وهذا يعني تفوقي وانتصاري الكبير على نفسي وعلى جميع تحديات الجوع والمرض والحرمان.

دون وعي لم أتمالك نفسي حتى أطلقت لساقيَّ العنان وأخذتُ أذرعُ ساحة المدرسة الكبيرة ذهابًا وإيابًا عدة مرات، حتى صرفتُ الكثير من طاقتي الهائلة، هدأت سريرتي قليلاً وأصبحت قناعتي راسخة لنجاحي بتفوق واضح ثُمَّ عدت إلى جانب صديقي سعد، بقينا ننتظر لحين أعلن المدير اسم سعد وعلاماته، وهنا كانت المفاجئة الكبرى، لم نعتقد يومًا أن نتيجة سعد ستكون بهذا الشكل، إذ

أنه حصل على نتيجة مقبولة وليست فائقة، وهذا ما ساءه كثيرًا وأحزنني بشدة، أما نهاد فحصل على نتيجة جيدة وكان فرحًا بها.

رغم صدمتي بصديقي العزيز سعد إلا أن نشوة النصر والنجاح غمراني بقوة كبيرة وأنسياني حزنه، كان أول ما خطر لي أن أتوجه راكضًا إلى مكان عمل أبي المناضل كي أضع في يديه الكريمتين نتيجتي، التي هي حصاد نضاله وشقاءه، وأزفُ له بشرى نجاحي الباهر، بيده اليمنى التي تُغطيها حبات الذهب المتلألئة رفع نظارته القديمة ووضعها على قمة رأسه، بوقار الرسل نهض والدي من خلف منضدة عمله العتيقة مع عيون تبرق فرح وكبرياء، وجنتيه المتعبتين تطغي عليهما سعادة فياضة، شفاهه تصرخ بسمة خارقة عميقة، تمتم في سره كأنه يتلو دعاء الشكر لله، احتضنني بقوة، طبع قبلة حانية على جبهتي الرطبة وتمنى لي التوفيق والنجاح الدائم.

لقد سكب أبي في قيم الرجولة والكرامة والكبرياء، أما أمي فلقد صبت في نفسي كل حنان الأرض وبساطتها، لذا كان من أولى أولوياتي في الحياة هو الوفاء والبِرُّ لهما.

على فوري طِرتُ مُسرعًا إلى البيت لأبشر أمي الحبيبة، نبع المحبة والعطاء ورمز التفاني الإنساني العظيم، لكي أضع نتاج صلواتها الصادقة ودعائاتها المُستجابة وثمرة جهدي بين يديها الحنونتين، وأدخِلُ البهجة إلى نفسها الطاهرة النقية، وأثبت لها أن صلواتها لم تذهب سدى، ضمتني أمي إلى صدرها الدافئ بالحب الملائكي الصادق، دون مقدمات وعلى فورها قالت لي بعفوية الأطفال وبراءة ملائكة الله:

– هذه خلاصة دعواتي لك يا بني، إنّ الله سبحانه القدير قد استجاب لي كي تصبح مهندس طيار.

أفرحتُ أمي وأبي رحمهما الله وكانا يستحقان هذه البشارة بجدارة، سُرَّ أشقائي وشقيقاتي وجميع أقاربي بهذا النجاح والتفوق الذي كان نتيجة دموع وسهر،

جهد ومرض، معاناة وجوع، تعب وإصرار؛ قفزت من مرحلة مؤلمة في حياتي وابتدأت مرحلة جديدة لا أعرفُ أسرارها بعد أن حصلت على معدل يؤهلني القبول في الكلية والتخصص الذي أرغب به دونما عناء، أو هكذا اعتقدت.....

البعثة إلى الاتحاد السوفيتي

على قدر حُلمك تتسع الأرض

لم أكن بعثيًا من أتباع حزب السلطة الحاكم آنذاك...

لم أكن غنيًا أو ميسور الحال...

لم تكن لي ولا لأهلي أية صِلات بذوي نفوذ أو سلطة، وكما يُقال عنها بالعراقية العامية (الواسطة)...

لم أبلغ سن الرشد بعد ولم أحصل على دفتر الخدمة العسكرية...

وكذلك لم أكن مُسلمًا في بلد إسلامي يعتمد على هذا الموضوع في أولوليّاته...

ورغم كل هذا تمَّ قبولي كأول طالب بعثة دراسية حكومية رسمية إلى خارج العراق وفي أهم مفصل من مفاصل الدولة الحيوية ألا وهو الجيش؛ وتحديدًا سلاح الطيران!

* * *

صيف عام ١٩٧٣ بآلامه وأحلامه، ألسنة الشمس الحارقة تتماوج بفرح في كبد السماء وتقصف من تختار فوق الأرض بحممها دون رحمة، الحر كعادته ثقيل يضرب قمم رؤوس الناس بعنف فيحيلها إلى حمام ساخن وبركة صغيرة.

استقرت حالتي الصحية والنفسية بعد مرضي الشديد وشعرت بالرِضا إثر تفوقي وحصولي على علامات جيدة جدًا، وهنا بدأت مرحلة جديدة من حياتي وهي التقديم إلى الجامعة، والسعي للحصول على الكلية ونوع الدراسة التي أرغبُ بها، وبرزت مخاوفي الكبيرة في عدم استطاعتي تأمين مستلزمات الدراسة الجامعية من كتب وملابس مناسبة (الزي الجامعي الموحد) وأجور

النقل؛ بسبب حالة العائلة المادية المُتَدنية، إلا أن رحمة الله دائمًا ما تكون حاضرة، وإنَّ أقدار البشر قد تأتي في أية لحظة دون ترتيب مُسبق.

أعود إلى صديقي الصَدوق (علي حسين علوان) الذي ينحدر أصلاً من عائلة مُحافظة في مدينة ديالى سلة الغذاء العراقية، والتي تقع شمال شرق بغداد، ويسكن مع عائلته في إحدى أضيق الأزقة الشعبية لحي الفضل الشعبي في قلب بغداد، كان علي من أسرة ميسورة نسبيًا، إذ أن والده كان يمتلك محل لبيع المخللات في منطقة سوق قنبر علي الشعبية، كنت غالبًا ما أرافق علي في جولات المذاكرة، وأذهب معه كثيرًا إلى بيتهم الذي كان يعجُ بقوارير الفخار الكبيرة التي يصنعون المخللات فيها.

كان المشي في بيتهم ولغاية الصعود إلى طابق سكنهم الأول غاية في الصعوبة، كالقفز فوق حبل السيرك المتأرجح، لكثرة وعدم انتظام صفوف القوارير الفخارية التي يحفظون بها تلك المخللات اللذيذة، ناهيك عن رائحة الخل الحادة وفضلات مواد الخضار وغازات التخمير ورائحة البهارات العبقة، وما أن تصعد إلى بيتهم تجده بسيط ولكنه نظيف جدًا ومُرتب، يعكس حرص واهتمام ربة البيت أم علي طيبة الذكر.

والد علي الذي أعياهُ العمل الشاق، والمرض أجلسه الفراش، وجعلهُ مُتخصص وبمزاج عكر دومًا في إصدار الفرمانات الملكية لجميع أفراد العائلة التي تتكون من ثلاثة ذكور وزوجته دون استثناء أي أحد منهم، عاملتني أم علي كابنٍ رابعٍ لها، أطعمتني ما جادت به يديها الكريمتين ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بنكهة طعامها البغدادي الفائق الجودة.

حصل علي علامات جيدة في امتحانات البكالوريا لكنها كانت أقل بقليل من علاماتي، وبدأنا معًا رحلة التقديم إلى الجامعة، لا أعرف كيف ولكن علي عَلِمَ أن الدولة ترغب بإرسال عدد محدود جدًا من الطلبة المتفوقين إلى خارج العراق لغرض الدراسة في اختصاص هندسة الطائرات، وأن وزارة الدفاع

العراقية وتحديدًا قيادة القوة الجوية هي التي ستتحمل جميع تكاليف البعثة والدراسة، كان هذا في عهد الرئيس العراقي أحمد حسن البكر.

يبدو أن القدر أحيانًا ما يبتسم للمرء حتى وإن بدا له ذلك كسراب، رغم أنَّ هذه المعلومة بالنسبة لي كانت بمثابة نقطة التحول الكبرى التي غيرت مسيرة حياتي كلها، لذا قررت وعلي أن نمضي في هذا الدرب، اقترح علي استشارة أحد أقارب والدته، وكان يعمل ضابط رفيع الرتبة في قيادة القوة الجوية ويسكن محافظة ديالى؛ بغية الحصول على معلومات أوفى منه فيما يخص هذه البعثة والدراسة.

مساء اليوم التالي؛ رافقت علي سيرًا على الأقدام إلى مرأب الحافلات العامة في النهضة والذي يعج بالحافلات الكبيرة والصغيرة وسيارات الأجرة وفوضى المسافرين وباعة الجرائد والسجائر والمأكولات المكشوفة، جلسنا فوق مقعد إسمنتي بارد بانتظار موعد الحافلة التي ستنطلق به إلى محافظة ديالى، ما أن فتحت الحافلة أبوابها حتى تكدست أكوام الأجساد البشرية تتدافع نحوها على أمل الظفر بمقعد مريح، كان صديقي يناضل بقوة من أجل الحصول على واحد، أخيرًا استقر علي على مقعد قرب شباك الحافلة وأشار إليَّ بيده مودعًا، ومضت الحافلة بعد أن هدرَ محركها بقوة وأطلق موجة من الدخان الأسود الذي تغلغل في رئات الناس دون استئذان ولوثَّ بيئة المرأب، ودعته على أمل لقائه بعد يومين مع أخبار سارة.

لم يكن الضابط قريب علي مقتنع برغبة قريبه في التقديم للبعثة، خصوصًا بعد معرفته بعلامات علي المتفوقة، حيث قام بنصحه لإكمال دراسته الجامعية في إحدى الكليات المدنية الجيدة في بغداد، دون الدخول في معترك الجيش والتزاماته ومشاكله.

تمامًا بعد يومين عاد علي، أسرعت بلقاءه حيث أخبرني بكل ما حصل عليه من معلومات غير مُشجعة، رغم هذا قررنا أنا وعلي ألا نُعير لكلام أقاربه أي وزن

أو اهتمام، وأن نمضي قدمًا بهذا المسار بعد أن اقتنعنا بشكل لا يقبل الشك بجدوى هذه البعثة ومنافعها، حيث كانت تحديدًا بالنسبة لي كطوق النجاة الذي يُرمى إلى غريق يائس في لُجَّة البحر الهائج.

قدمت وعلي الأورق المطلوبة مع المئات أو الآلاف من الطلبة الآخرين إلى مديرية التدريب الجوي التابعة لقيادة القوة الجوية ولم أزل دون سن الثامنة عشر، حتى أني لم أحصل على دفتر الخدمة العسكرية آنذاك، وهذا يعني أنني قد أكون العراقي الوحيد الذي لا يمتلك هذه الوثيقة المهمة جدًا حتى الآن، والتي تلعب دور مهم في حياة العراقيين أجمع.

الأيام تمضي والأحلام بدت بعيدة، تمَّ إرسال جميع الطلبة المتقدمين إلى مستشفى القوة الجوية لغرض الاختبار الصحي، إذ كان يجب فحص أجسامنا وتوفر الشروط الصحية اللازمة للقبول كضباط في الجيش العراقي، لا بد من الإشارة إلى موضوع ظريف حصل معنا أثناء الفحص، وكان مثيرًا للعجب، إذ أنهم أرادوا فحص أعضائنا التناسلية ولا أعلم حتى الآن لماذا تمَّ ذلك، ولكن الأكثر غرابة أن يتم ذلك من قبل طبيبة، وتحديدًا على يد امرأة شابة، وهذا ما أثار موجة من الدهشة والضحك والخجل.

بعد ذلك حصل ما لم يكن في الحُسبان، رغم نحافتي الشديدة وهزال بدني الواضح بعد مرضي المجنون تخطيت جميع الفحوصات بنجاح تام، وأذكر جيدًا أن وزني كان أقل من أربعين كيلوغرام فقط، أما صديقي علي فلم يحالفه الحظ، إذ فشل في فحص البصر حينما تبين أنه مصاب بمرض عَمى الألوان، وبهذا تلاشى حلمهُ كالسراب في صحراء شاسعة.

عُدنا أنا وعلي والدهشة تركبنا من رأسنا حتى أخمص قدمينا، إذ لم نكن نتوقع إطلاقًا عدم قبول علي، وتحديدًا لهذا السبب السِّري وغير المتوقع، توجهنا على فورنا إلى بيت علي، جلسنا حائرين كيف نُخبر أهله، وإذا بوالد علي يستفسر عن ما حصل معنا, أجابه علي بكل صراحة وضوح بأنه لم يعد ضمن قوائم

المتقدمين إذ أنه لم يستطيع اجتياز فحص البصر، لم يكن الموضوع مفهومًا لوالديه، ولقوة الصدمة كان من الصعب جدًا عليهم تقبل الموضوع حتى إن والده قال:

- وهل أنت أعمى أم ماذا؟ ألا تستطيع الإبصار؟

هنا تعطلت لغة الكلام عند علي فالتجأ إلى الصمت، سَكتَ ولم يجب، وبعد ما حصل لم يكن علي إلا خيال علي، دفع علي بأوراقه إلى الجامعة وعلمت لاحقًا أنه قد تمَّ قبوله في كلية الهندسة التابعة لجامعة بغداد، ومضى في دراسته فيها حتى النهاية والتفوق، أما أنا فلقد أكملت مشواري بكل ثقة واقتدار.

الأمل بدأ يتصاعد شيء فشيء، وحلمي بالطيران أخذ ينمو حتى وإن كان ببطئ شديد، لابد لي من ذكر حادثة نادرة قد يعتقد البعض أنها قد تكون إرادة إلهية أو تواصل حي لمسلسل صلوات أمي حتى أنها تصلح كسيناريو لفيلم هندي، حيث أنه وحسب سياقات الجيش المعتادة تقوم إدارة الاستخبارات العسكرية بالاستفسار الدقيق عن الطالب المتقدم للجيش وخصوصًا فيما يخص البعثة، والتثبت في موافاته لجميع الشروط السياسية والأخلاقية وغيرها، على أن يكون المُتقدم للجيش غير منتمي إلى حزب آخر أو سائر في اتجاه مُعادي للثورة والحزب الحاكم آنذاك.

دارت الأرض دورتها فبدا أن شمس بغداد تذوب في كبد السماء بلطفٍ وهدوء واستحياء، حتى بادرها الأفق الأحمر البعيد ببالغ الحُب والسلام المجيد، لملمت ذيولها بكبرياء وعناية وأصبحت قريبة من أفق النهاية، مُتجهة نحو وجه الأرض الآخر كي تمنحه نور وضياء، وتهبهُ من طاقة الكون خير وعطاء، مساء ذلك اليوم الصيفي الصافي ذو الهواء الجاف اللاهب وبينما كانت أمي في طريقها إلى سوق قريب للتبضع؛ استوقفها أحد الأشخاص وسألها عني دون أن يعلم أنني ابنها وهي بدورها لم تخبره بذلك، استعلم الشخص منها بتأني وإسهاب عن سلوكي وتوجهاتي السياسية، وسألها هل أنا من صُناع المشاكل مع

أهالي الحَي وغيرها الكثير من الأسئلة، حصل على جميع الإجابات على أسئلته الكثيرة من أمي، ألقى عليها السلام فرِحًا كونه وجد من يحدثه عني بتفصيل شافي ووافي، حيث استطاع أن ينجز مهمته بسرعة مُذهلة دون عناء، ورحل إلى وجهته بعد أن شكرها كثيرًا، ولما كانت المتحدثة هي أمي لذلك لم تتوانَ عن كيل كافة أنواع الإطراء، كما لم تبخل بأي جهد لتتفنن في مدحي.

كانت أمي الطيبة لا تعلم أنها توًا قد فعلت مُعجزة أخرى، بعد أن اتضح أنه أحد رجال الأمن أو الاستخبارات العسكرية، والمُكلف بالسؤال عني وتحديدًا فيما يخص البعثة الدراسية.

يوم جديد وأمل مُتجدد، تمَّ تحديد يوم المقابلة، وهكذا شاءت الأقدار أن أكون أول من يُدعى إلى المقابلة من بين مئات أو آلاف الطلبة بعد أن لم يحضر الطالب الأول للمقابلة، وقيل إن له خلفيات سياسية غير مرغوبة، الحرُّ على أشده والجو في أزقة قيادة القوة الجوية الضيقة وبين زحام ورائحة عرق الطلاب خانق، تمَّ استدعائي إلى القاعة المُخصصة للمقابلة التي كانت صغيرة جدًا.

حال ما دخلت إلى القاعة فوجئت بالعدد الكبير من رجال مرموقين يظهر عليهم الهيبة والحزم، يجلسون على شكل مربع ينقصه ضلع، ويرتدون بزات عسكرية مُثقلة بالنجمات المتلألئة مع خطوط حمراء قانية طرزت أكتافهم – لاحقًا أدركت أنها علامات شهادة كلية الأركان العسكرية – الذين بدو كأنهم استعدوا لهجوم شامل، ينظرون إليَّ بنظرات بعضها يشوبها الابتسام المُبطن، والآخر منها غير مفهومة قد تكون متسائلة؛ هل هذا الصغير الهزيل النحيل هو هدفنا كي يصبح مهندسًا للطائرات؟، وأنا كطفل صغير أغور في ظلي.

وقفت أمامهم جائع خائر حائر خجل أرتجف خائف، أخذت أبتلع ريقي الذي كان أصلاً جاف بصعوبة بالغة، كنت أرتدي نعال قديم طويل كنعال أبي القاسم الطنبوري، مع بنطال ضيق كعود الناي العربي، على شكل اسطوانة لم يلامس

سطحه جهاز كوي الملابس يوم، هنا عزفت الطنابير في رأسي فتشتت تركيزي وضعفت قدرتي، بدت الدنيا لي وكأنها أطبقت عليَّ من جميع المحاور، أنظر إليهم فيزداد رُعبي فأنحني قليلاً من ثقل الحدث، ثم أحاول رفع نفسي قدر ما أستطيع رغم خواء معدتي.

بدا الوضع برمته كفيلم مصري يظهر فيه بطل الفيلم أمام محكمة، وعليه أن يدافع عن نفسه كي يتبرأ من التهمة الموجهة له، بدأ الضباط واحد تلو الآخر يصوب سهامه نحوي، وأخذت أسئلتهم تنهال علي من كل صوب وحدب، وفي مختلف الاختصاصات العلمية، كنت أجيب بقوة خفية ألهمني بها الله وحده رغم شقائي، حتى سألني أحدهم عن أسباب عدم انتمائي إلى الحزب الحاكم، وكانت إجابتي له أني فقير وليس لدي مال كي أعطيه كانتساب شهري للحزب، وأني أركز جهدي على دراستي فقط، وأخيرًا تمَّ سؤالي عن منجزات الثورة فأوجزتُها جميعها بعد أن كنتُ قد حفظتُها كالببغاء.

دامت المقابلة حوالي نصف ساعة كاملة، بدت لي وكأنها نصف قرن من الزمان، خرجت من القاعة أجرُّ خُطاي بصعوبة، متعبًا مُنهكًا لا أقوى على الوقوف، ما أن أطليتُ برأسي من الباب ورأتني حشود الطلبة الهادرة حتى هرع نحوي مئات أو آلاف الطلبة، الذين انتظروا لحظة خروجي من قاعة المقابلة، أحاطوني من كل جانب وانهالوا عليَّ بوابل هائل من الأسئلة التي تدور حول المقابلة وأسئلتها، كمدفع رشاش أوتوماتيكي أجبتهم جميعًا دون وعي، وبشكل آلي وسريع حتى خارت قواي بالكامل، ولم أعُد أقوى على الكلام إذ تلاشى صوتي، نَهَرني أخرهم الذي التقاني في نهاية الزقاق قرب الشارع الرئيسي لكوني لم أقوَ على إجابته لاختناق صوتي في جوفي.

بدأت الخطى تتسارع وتحقيق حلم هندسة الطيران أصبح قاب قوسين أو أدنى؛ إذ حل موعد الحقيقة وجاء يوم الحساب الكبير وهو إعلان أسماء الطلبة الاثني والعشرين المقبولين في البعثة، من ضمن المئات أو الآلاف المُتقدمين والذين

سيرسلون إلى الاتحاد السوفيتي، لدراسة هندسة الطيران على نفقة وزارة الدفاع العراقية، والذين وحسب الأوامر العليا للدولة والقيادة سيشكلون نواة القوة الجوية الحديثة للبلد.

جاء الضابط المسؤل يحمل ملف الأسماء، وجميع الطلاب في لهفة وخوف وحذر لمعرفة نتيجة مصيرهم، سرتُ سريعًا وأصبحتُ بجانبه وسألته عن نتيجتي بعد أن أعطيته اسمي الكامل ومجموع درجاتي، فما كان منه إلا أن قال لي:

- أنت صاحب العلامات ٧٠٠[١]؟

- نعم سيدي...

أجبته فورًا فقال:

- أنت رقم واحد في قائمة المقبولين في البعثة...

لم أذكر أني شكرته أم لا وقتها، لم تسعني الدنيا من الفرح، شعرت بكثير من الفرح والسعادة حين اعتقدت أنَّ الحظ بالفعل قد ابتسم لي لأول مرة في حياتي، وأحسستُ بالفخر الكبير في نفسي، حين أخذ الجميع يشيرون إليَّ بالبنان.

دعوات أمي أخذت تفعل مفعولها السحري، تحديدًا في هذه اللحظة الحاسمة كان الله قد حدد مستقبلي وخط حياتي ومصيري، أما الطلبة الذين لم يحالفهم الحظ فتم توجيههم إلى الكلية الفنية العسكرية، التي كان من المخطط أن تُفتح في بغداد لاحقًا.

١- ٧٠٠: اعتمدت قيادة القوة الجوية في العراق آنذاك مجموع علامات الطالب الحاصل عليها، مُضافًا إليها درجة كل من مادة الرياضيات والفيزياء، ولمَّا كان مجموع علاماتي هو ٥١٣ يضاف إليه ٩٨ للرياضيات و٨٩ للفيزياء فيكون المجموع ٧٠٠، علمًا أن علامات الطالب رقم ٢ من مجموع الاثني والعشرين كانت ٦٧٠ أي بفارق ٣٠ درجة.

كان على المبعوثين الاثني والعشرين أن يقدموا كفالة بمبلغ خمسة آلاف دينار عراقي لوزارة الدفاع، كضمانة لعودتهم إلى البلد وكي لا تتكرر ظاهرة هروب المبتعثين وبقائهم في الدول الأجنبية، هذه الكفالة أعادتني وعائلتي إلى ظُلمة كُبرى وجعلتنا على المحك، إذ أننا لم نكن نملك سوى قوتنا اليومي، ناهيك عن عدم امتلاكنا لأية أملاك أو أراضي، كما أنَّ الأقارب لم يكونوا على استعداد لركوب هذه المغامرة الخطرة بسبب ضخامة المبلغ المطلوب آنذاك، وكذلك لتحسبهم المُسبق في احتمال عدم رجوعي إلى العراق، لذا بدأتُ ألعن سر هذا الزمن الأغبر، فمبلغ خمسة آلاف دينار آنذاك كان كبيرًا جدًا ويساوي سعر بيتين كاملين مجتمعين، ولهذا كان من المستحيل الحصول على مَنْ يقوم بهذه المهمة الخارقة.

كما يقول المثل الشائع (إذا خُليت قُلبت) فالطيبون أهل الإحسان كثيرون ويتوافرون في كل مكان، وإذا ما ضاقت الدنيا فلابد أن تفرج، إزاء هذه الحال انتفض والدي المناضل وجال على جميع أقربائنا في بغداد وعلى كل من اعتقد أنه قادر أن يقوم بالمهمة المُستحيلة ولم يفلح معه الأمر، علمًا أن قيادة القوة الجوية كانت قد منحتنا وقت محدود جدًا لتأمين الكفالة، وعكس ذلك فإنَّ أمر بعثتي سيفشل بالكامل وهنا انحسرت ثقتي بالسفر والبعثة وهندسة الطيران، هبطت معنوياتي إلى الحضيض، وبدا حلم هندسة الطيران بعيد جدًا، واعتقدت أنني لن أمس طائرات السماء إطلاقًا، لقد كان وقت عصيب جدًا علي وعلى عائلتي.

كان لوالدي الطيب صلات رحم طيبة مع معارف مندائيين قريبين له يقطنون في مدينة البصرة، لذا عزم أمره وشد رحاله للذهاب إلى مدينة النخيل (البصرة الفيحاء) ثغر العراق الباسم، إلى أصدقائه المُخلصين الذين اعتقد أنهم لن يخذلوه إطلاقًا.

وفعلاً حصل أن ابتسمت له ولي الحياة، وحالفه الحظ واستطاع تأمين الكفالة بواسطة شراكة اثنين من أصدقائه الطيبين وهما {عبد العالي راهي المعناوي وهادي السبتي} (رحمهما الحي العظيم وأثابهما خير ثواب)، مع جهود طيبة من قبل أخي (حبيب) الذي كان يعمل موظف صحي ويقطن في مدينة البصرة.

لم تمر أيام ثقيلة وعصيبة حتى عاد المُكافح والدي إلى بغداد حاملاً البشرى مصحوبًا بوثائق الكفالة ومُحرزًا فتحًا كبيرًا، وبذلك أصبحت على مرمى حجر من الرحيل إلى الاتحاد السوفيتي ودراسة هندسة الطيران.

هنا وفي هذه اللحظة الحاسمة لا بد من أشير إلى شيء غاية في الأهمية؛ هو أن أمنية أمي الحنون بعد صلواتها المُستجابة قد تحققت بالفعل وأصبحت واقع حَي بأن أكون مهندس طيران.

ملأت صدري بهواء العراق الدافئ ليرتجف جسدي كلهُ رهبة وانفعال من المجهول الذي ينتظرني، تركت أمي وأبي وإخوتي وأصدقائي، لم أترك أي شيء مادي أعتز به، لأني ببساطة لم أكن أمتلك أي شيء خاص بي، هكذا رحلت من بلد مولدي ولم أزل صبي نحيف يافع أخضر العود، لم أكمل بعد عمر البلوغ، إلى بلد غريب أجهله تمامًا هو الاتحاد السوفيتي، انتهت رحلتي القاسية مع الجوع والحرمان وبدأت هجرتي الجديدة مع الغربة القاسية، كل ما كان يهمني هو التقدم والتطلع إلى المستقبل لا إلى الماضي الأليم.

بعد مرور خمس سنوات استطعت الحصول على شهادة الماجستير في هندسة الطيران بتفوق، كما حصلت على شهادة جامعية إضافية في اللغة الروسية وترجمتها، عدت إلى الوطن بشهادتين بدلاً عن واحدة، وبدأت مشواري العملي في الخدمة في الجيش العراقي والقوة الجوية العراقية.

بعد أن بدأت خدمتي في القوة الجوية العراقية إثر حصولي على رتبة ملازم أول مهندس؛ عملت في السرب ٤٤ في قاعدة الحبانية (تموز) الجوية على

طائرات السوخوي ٢٢ روسية الصنع، كانت علاقتي الشخصية مع الطيارين وخصوصًا الشباب منهم ممتازة جدًا، وكانت تجمعني بهم علاقة عمل رائعة، غالبًا ما كُنا نتحدث ونتبارى في المعلومات الهندسية وكذلك أمور الطيران، حتى إن أحدهم ويدعى (ناجي) رحمه الله - حيث استشهد في أولى أيام الحرب العراقية الإيرانية- تحداني أن أحلق يومًا بطائرة مثله، قبلت تحديه وقلت له إني قد أصبح يومًا ما مدرب له أو طيار فاحص.

في بغداد كنت أسير بزيي العسكري مزهوًا بأجنحتي ونجماتي الذهبية المتلألئة، بينما العديد من الناس يحدقون بي بدهشة كوني كنت صغير العمر نحيل البدن، حتى أنَّ بعض الفتيات الجميلات كن يحاولن جذب انتباهي لهنَّ.

كان التحليق يمتلكني كليًا كي أطير كطائر حر في فضاءات الكون الصافية، تذكرت كلمات أمي أن أصبح (مهندسًا طيارًا)؛ وهنا تجدد حُلمي وهوسي في الطيران مرة أخرى، وهذا ما دفعني إلى أن أُفكِّر جديًا بدراسة الطيران والالتحاق بكلية القوة الجوية كي أصبح طيارًا، إضافة إلى كوني مهندس ومترجم، وبذلك أحقق رقم قياسي فريد في الحصول على ثلاثة ألقاب وثلاثة مِهن، وأن أكون مهندس وطيار فاحص ومترجم في بلد لا يمتلك من يجمع هذه الاختصاصات.

قررت أن أذهب إلى المستشفى العسكري في القاعدة لأعرض نفسي على طبيب مُختص، ما أن ولجتُ المستشفى حتى جال ببالي منظر الطبيبة الشابة وهي تقوم بفحص أعضائي الذكرية بيديها العاريتين، كان ذلك حين تقدمت للفحص الطبي قبل خمس سنوات، فأطلقتُ في سري ضحكة خفيفة، ولكن هذه المرة كان الطبيب رجل طيب وبرتبة عقيد، استقبلني بحرارة، بعد العديد من أحاديث المجاملة قصصتُ له حكايتي ورغبتي في الطيران، ورجوته كي يفحصني بشكل كامل ويتأكد من صلاحيتي وسلامة بدني كي أستطيع التقديم لكلية الطيران بغية دراسة وتعلم الطيران.

كان أملي كبير بتحقيق هذا الحلم، إلا أن القدر هذه المرة لم يسمح لي بتحقيقه وجاءت رياح الطيران بما لا تشتهي أشرعة سفني، إذ تبين أن صحتي لا تسمح بذلك، كون بصري وكذلك وضع جيوبي الأنفية لا تؤهلاني للطيران، هذا ما أخبرني به صديقي الطبيب، وبذلك فشلت محاولتي في التحليق والطيران وسقط حلمي مثل (عباس بن فرناس)، ولكن دون أن أضحي بحياتي مثله.

لم يكن بصري ومقدرتي الصحية الضعيفة لتؤهلاني كي أمضي نحو التحليق للسماء والطيران، ومع ذلك فلقد حزَّ في نفسي هذا العائق وجعلني أتراجع عن التحدي القاطع لزميلي الطيار ناجي، إذ أنه قد كسب الرهان دون منازلة عادلة.

أبي و الحرس القومي

عندما يغيب القانون يحل الطغيان

كان ترددي صيف عام ١٩٧٣ في الانتماء إلى حزب البعث الحاكم مُبررًا، إذ سرعان ما عادت ذاكرتي إلى أحداث إلقاء القبض على أبي المسكين والتنكيل به وتعذيبه إثر انقلاب الثامن من شباط الأسود عام ١٩٦٣، وقاده حزب البعث العراقي؛ الذي شكَّل ميلشيا الحرس القومي التي عاثت في البلد فسادًا، نشرت الرعب وأشاعت الفوضى والجريمة، وأجازت لنفسها انتهاك القانون وحقوق الإنسان.

ألقى الحرس القومي القبض على كل من اعتقدوا أنه مناوئ لهم بأفكاره وتوجهاته، ولم يخلص منها حتى الغُرماء من كان له معهم خصومة شخصية، قادوا الناس كالخراف إلى مقراتهم العفنة وأذاقوهم الذُل والهوان، داهموا بيوت الناس دون احترام أو إنسانية، ومنها كان بيتنا، حيث أرادوا إلقاء القبض على شقيق أبي الأصغر، ولله الحمد أنهم لم يفلحوا، فلو فعلوا لكانوا على عُجالة قد انهوا حياته، ولكن مقابل ذلك ألقوا القبض على أبي الذي لم تكن له أية علاقة بأي حزب سياسي، ولا أية نشاطات نقابية، وتم زجه في السجن وتعذيبه والتنكيل به أشد تنكيل.

كان الحرس القومي سيء الصيت قد شُكِلَ أساسًا لحماية الانقلاب وحزب السلطة الحاكم الجديد، وهو حزب البعث العربي الاشتراكي، كانت قيادة الحرس القومي قد أوكلت إلى الطيار أنور الونداوي وتألف من بعض عناصره البعثيين، انضم إليهم العديد من الانتهازيين والبائسين والعاطلين ومُثيري المشاكل وكل من له عداوات ضد آخرين.

استهدف الحرس القومي جميع الأشخاص المناوئين له من الشيوعيين وغيرهم، ولم تكن مصادفة أن يكون عمي الأصغر عيدان شيوعيًا؛ إذ كانت له نشاطات سياسية ونقابية مشهودة في المجال النقابي.

صباح جديد في يومٍ حزين غير عادي، مُصاحبة لأجواء مُضطربة في البلاد، متوترة وخارجة عن السيطرة، جاءوا كالطوفان حين دخلت مجموعة من الحرس القومي مُدججين بالرشاشات إلى ورشة عمل والدي الواقع في خان الشاه بندر، بقلوبهم المتحجرة وكأن الشرَّ قد عشعش في عقولهم، حيث تواجد معه عمي الأكبر وأخي حبيب الذي يكبرني بخمس سنوات، وكانوا يهدفون إلى إلقاء القبض على عمي الأصغر عيدان، أو على الأقل معرفة مكان تواجده.

عمي الأكبر (داهر جميل) عطر الذكر طيب القلب بريء النوايا؛ ارتعب كثيرًا وتحشرجت روحهُ في صدره أثناء استجوابه، حتى طلب أحد الحرس الآخرين أن يتركوه رأفةً به قبل أن يحتضر، لذا تمَّ تركيز استجوابهم على أبي، أَنَفَ أبي بشدة عن تلبية رغباتهم، وبعد أن عجزوا عن إجباره على الاعتراف اقتادوه أخيرًا بشكلٍ عنيف وفظ كأضحية تتبع راعيها إلى المذبح يوم عيد، إلى بيتنا الواقع في منطقة سوق حنون الشعبية، الذي يقع في الشارع خلف شارع الكفاح وسط بغداد.

من دون رحمة اقتاد الجلادون أبي المسكين من ورشة عمله، بِعنف ودون استئذان اقتحم الحرس القومي بيتنا بعد أن ركلوا أبوابه بأعقاب أحذيتهم الحديدية دون احترام لحرمة البيوت، وانتصبوا كالقدر المحتوم في فناء البيت، كان يصحبهم أحد المَحليين الفاشلين يدعى لطيف، كان دَميم الوجه أنفه كبير كخنزير بري، عريض الكتفين كمصاص الدماء، يستند عليه رأس كبير يحمل عقل أصغر من عقل ضفدع لا يفقه من العلم شيئًا، ينحدر من عائلة ساقطة ولا يمتُ للأخلاق بأية صلة، داهموا كُل من وما كان في البيت.

عمي عيدان أصغر أعمامي عمرًا، وهو شاب في الثلاثينيات من عمره طويل القامة مهيب الجانب حاسم الطبع ومُفعم بالحركة والحياة، ناشط جدًا في السياسة جريء وفاعل في عمله النقابي، ويبدو أنه كان على اطلاع كامل بما يجري، وقد علم بشكل مؤكد أنه سيكون هدفًا لهم في هذه الحملة الشعواء، لذا اتخذ قراره بالهروب جنوبًا عن طريق البصرة إلى إيران، هناك آواه أقارب مندائيين لنا يسكونون في مدينة الأهواز.

كأنهم ذاهبون إلى حرب؛ اقتحمت زُمرة الحرس القومي أبواب بيتنا الخشبية الواسعة بمنتهى الوحشية، وتوزعوا فورًا على جميع أرجاء البيت، منهم من دخل غرف النوم وآخر من استقل السلم صعودًا إلى الطابق الأول، وقام جميعهم بتفتيش البيت بالكامل، قلبوا رأس البيت على أعقابه، توقفت الحياة في البيت بشكلٍ كامل، مراجل النار المخصصة لطبخ الطعام أُطفئت، تركت النسوة غسيلهن بسرعة ومَسحنَ أياديهن بذيول أثوابهن، وبان الخوف والهلع في عيون الجميع.

خلف أمي كنت أقف مُظهرًا جزءًا من رأسي، انظر إلى ما يحصل وأمسك بذيل ثوبها الفضفاض وهي مُرتعبة حد الموت تحاول أن تسند قامتها بعناء، أسمعها تتمتم (دخيلك يا هيبيل زيوا) [1]، أشعر بخوفها ينتقل كعدوى الطاعون إليَّ من خلال رجفة يديها التي أمسكتني بها، بذلت أمي جهد كبير في المقاومة لكنها لم تصمد كثيرًا من هول ما تراه، فتحيرت قطرات المطر الشفافة في عينيها وتكورت وأخذت تنزلق بهدوء على خديها الورديين الناعمين، عندها أطلقت أمي عنانها في بكاء صامت مخنوق، حال ما رأيت بكاء أمي، لم انتظر كثيرًا حتى أطلقت حنجرتي صرخة مُدوية دون قصد انتبه لها الجميع.

١- هيبل زيوا: ويُسمى المُخلّص، ملاك نوراني، وهو رسول الحي.

بعد أن كان الأطفال أولادًا وبناتًا قبل وهلة فرحين يلعبون يتسامرون ويمرحون في فناء البيت الكبير، الذي غدا كساحة حرب لوفرة الأسلحة والعيون الشاخصة الحاقدة لا يُعكر صفوهم أي شيء؛ الآن علتْ وجوه الأطفال حيرة ودهشة كبيرة لدخول هذا العدد الهائل من المُسلحين إلى وسط الدار الذي كان مُفعمًا بالأمن والحب والسلام.

نعم؛ الأطفال لا يفقهوا كثير مما يدور حولهم وتراه عيونهم، ولكنهم بالتأكيد يدركون لغة الجسد من خلال أسلوب الدخلاء الفظ العنيف، وطريقة صراخهم وتلويحهم بالبنادق المُصوبة في وجه الكبار، الذين تجمدوا كجذوع أشجار يابسة، لذا فجأة أجهش الأطفال بالبكاء وأطلقت حناجرهم الطرية ألحانها دفعة واحدة، جلجل صوتهم بسخاء كبير أحال صفاء البيت إلى مقبرة وقت دفن عزيز قوم، هذا ما زاد الأشرار خبلاً وأطار عقولهم من اقحافها.

لم يجد أفراد الحرس القومي والحمدُ لله أي شيء مما توقعوا، مثل أسلحة أو كتب سياسية ومنشورات حزبية أو غيرها، حتى قاموا باستجواب جميع أفراد عائلتنا بطريقة فَجَّة وعنيفة وكنت شاهدًا للحادثة، استجوبوا زوجة عمي عيدان بشكل مُركز ودون رحمة، مُحاولين انتزاع أية معلومة منها ليستثمرونا في معرفة مكان تواجد زوجها وإلقاء القبض عليه... أحد أفراد الحرس القومي يطلق نظرة ساخرة حانقة شاهرًا سلاحه بوجه زوجة عمي، ومطلق في وجهها السمح البريء دخان سيجارته الكريه:

- أخبرينا أين زوجكِ؟

تجيب بنوع من التردد والتهيب والخوف:

- كان هنا صباحًا وخرج باكرًا كالمعتاد إلى عمله.

- أين هو الآن؟

تتلوى زوجه عمي محاولة استراق نظرة خائفة سريعة إلى أبي دون جدوى، وأخيرًا بعد أن تتماسك تقول:

- لا أعرف... كل ما استطيع القول إنه خرج صباح اليوم إلى عمله ولم يعد حتى الآن، وها نحن في منتصف النهار ولا أدري أين هو.

الحرس الذي بدا غاضبًا وهو يحدق بعيون هر عجوز:
- إن لم تخبرينا بمكانه فلسوف نُلقي القبض عليك ونقتادك إلى المقر، وهناك تعرفين ماذا سيحل بك... هناك نستطيع انتزاع اعترافك ببساطة وسهولة، وسوف ترين... ها هل ستخبرينا أم.....

هنا لم تمسك زوجة عمي نفسها وأجهشت بالبكاء، سقطت دموعها ساخنة على خذودها الوردية التفاحية اللون، مما زادها جمالاً وإثارة، سيما وأنها كانت رائعة الجمال وفي ريعان شبابها، أخذت تتوسل إليهم بحرقة وتُقسم لهم بأغلظ الأقسام والإيمان وتصرخ قائلة:
- والله العظيم لا أعرف مكان زوجي...

أحد أفراد الحرس شاخص عينيه يرفع سبابته بوجهها بصرامة ويُضيف:
- وهل اتفقتِ معه على الهروب أيضًا؟ إذًا أنت أيضًا سوف تهربين معه، أليس كذلك؟ قولي لنا وإلا سوف تندمين كثيرًا، عاجلاً أم آجلاً نجد زوجك المناااااضل هذا...

عندها أطلق ضحكة مجنونة سخيفة هاها... هاها، زوجة عمي تنهار وتقول لهم:
- لا أنوي السفر لأي مكان وأنا باقية هنا، أرجوكم ارحموني أستحلفكم بالله أن تتركوني...

واصلت بكائها ونحيبها وشاركنها بقية النسوة، ومع ازدياد عويل وصراخ الأطفال تحول البيت بأكمله إلى سيرك بكاء مجاني، عندها أمر قائد المجموعة الذي أخذت عيناه تطلق شررًا وشرًا بصوتٍ حازم وقاطع أحد أعوانه بإلقاء

القبض على زوجة عمي واقتيادها إلى مقرهم، فما كان من منه ألا أن أمسكها من زندها الطري بقوة وجرها بشدة.

لم تذعن لهم ولم يحصلوا منها على إجابة تدلهم على زوجها، فما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليها واقتادوها معهم، لكن أبي وبشهامته المعهودة تدخل سريعًا، أوقفهم ترجاهم توسل إليهم وسط عويل النسوة وبكاء الأطفال، استحلفهم بالله وأبدى استعداده الكامل لمرافقتهم والذهاب معهم بدلاً من زوجة عمي، عندها وافقوا على اقتياده بدلاً عنها.

اقتاد الحرس القومي أبي المسكين الذي لم يكن له في السياسة لا ناقة ولا جمل، سوى ولعه الكبير للإنصات ليلاً إلى إذاعة لندن عبر مذياعه الترانزستور الصغير الذي يعمل على البطارية ولا يفارق أذنه أبدًا، إذ كان أبي يؤمن أن إذاعة لندن تذيع أخبارها بمصداقية أكبر من الإذاعات المحلية، اقتادوه كالمسيح يحمل صليبه على ظهره إلى مقرهم في منطقة الفضل وتحديدًا في مركز شرطة الفضل الذي تمَّ تحويله إلى مقر للحرس القومي.

ما أن تخطت أرجل أبي بوابة مقرهم العفن؛ حتى سمع صراخ عنيف كأنه يخرج من قعر الجحيم، وأصوات مكتومة سرعان ما أدرك أبي أنها أصوات سجناء ناتجة عن استخدام وسائل الضرب والتعذيب معهم، لم يمضِ لدخوله ثوان إلا وتلقى ضربة حقودة على مؤخرة رأسه من يد أحد جلادي الحرس الثقيلة أفقدته توازنه كادت تسقطه أرضًا.

في هذا المكان يستطيع المرء سماع أحقر أنواع السباب والشتائم التي لم تبتكر بعد في قاموس حياة العراقيين آنذاك، لا نعرف من أين أتي بها هؤلاء الصعاليك، دفع أحدهم أبي بقوة إلى قعر زنزانة صغيرة نتنة بعد أن ركله بعقب حذاءه الثقيل وتوعده بالمزيد، أرعبه وضع السجن والسجناء، هاله ما رأى من أعمال تعذيب وحشية ومن أنين مكبوت، فالخوف والرعب قد طغى على الموقف بالكامل.

بهدوء جلس أبي القرفصاء وهو يتلوى من شدة ألم الضربة التي تلقاها توًا على الأرضية التي بدت لزجة رطبة من آثار دماء الأبرياء، شَمَّ روائح كريهة، الدماء القانية تبدو طازجة تُلطخ الجدران، كلمات ركيكة مكتوبة بالدم الذي يسيل تحت حروفها، تواريخ مشوهة ومحكوكة دون نظام، رسوم غير مفهومة وأسماء بقلم رصاص كأنها كُتبت على عجل، رائحة الظلم تسود في المكان، ارتعب أبي لحاله وأخذت صور الموت تتقافز بين ناظريه، صعب عليه بلع ريقه اليابس أصلاً، وعندها رفع يديه إلى صدره واتجه برأسه إلى الأعلى وكأنه يخاطب السماء وتمتم في سِره (احفظني يا هيي... احفظني يا ماري... احفظني يا مندا ادهيي) وفوضَ أمره لله.

لم يأخذ أبي نفسه حتى نادوا عليه وهنا بدأت مسرحية حزينة جديدة، استجوب الجلادين أبي طويلاً، كالوا له أنواع الشتائم وجربوا معه أشكال التنكيل والضرب المبرح، وهددوه بتعليقه من يديه بالمروحة السقفية مُحاولين استنطاقه بالقوة وانتزاع المعلومات حول مكان تواجد أخيه الأصغر، أصَرَّ والدي على الإنكار بعدم معرفته أي شيء، ادعى أن عمي قد خرج إلى عمله صباح نفس اليوم مبكرًا ولم يره لاحقًا، فما كان من مُحقق التعذيب إلا أن بدأ بإطفاء السجائر المتوهجة بتلذذ ودم بارد، واحدة تلو الأخرى على يدي أبي ولم يكتفِ حتى قام بضربه بشكل مبرح وقاسي على وجنتيه، ثم على أذنيه، ضربة أحدثت نزفًا شديدًا في غشاء أذنه أدَّت إلى إعاقة سمعية مزمنة لوالدي الطيب لازمته طيلة حياته.

استمرت ماكينة التعذيب اللا إنسانية لأبي من الصباح لغاية المساء دون توقف، وهو يعاني كثيرًا من ظلمتين؛ إحداهما آلام التعذيب الجسدي وسوء وضعه النفسي، وثانيهما خوفه الشديد مما يمكن أن يحصل لعائلته خارجًا... أبي المسكين الذي لم يتعرض طيلة حياته لمثل هذا التعامل غير الإنساني حيث كان

في أسوأ حالاته، إذ لم يكن بإمكانه شرب جرعة ماء ولم تدخل معدته لقمة طعام واحدة منذ الصباح الباكر حين انطلق إلى عمله.

يبدو أن الله والقدر قد استلطفا حال والدي حين مر أحد الحراس الشباب الذي كان لحسن الحظ يعرف والدي قليلاً - لا أعرف كيف - ويعلم بوضعه المُسالم البعيد كل البعد عن أمور السياسة ونشاطاتها، وبعد أن راعهُ ما شاهد في حال أبي المُزري وهو يعاني الأمرين بعد التعذيب الوحشي؛ قام هذا الشاب برجاءهم لإطلاق سراحه، ويبدو أنه كان يحظى باحترامهم فتم له ذلك، أطلقوا سراح أبي بعد أن أجبروه بالتعهد بعدم البوح لأي أحد بما جرى له، وكذلك هددوه بالأسوأ في حال إن فتح فمه.

عصر ذلك اليوم المشؤوم عاد أبي إلى البيت؛ بدا كظل هزيل مسحوق مهموم خائر القوى، بعد أن أغرقه التعذيب في ظلمات الكون وهدَّه التعب، لكن داخله كان فرحًا صامد الإرادة كونه لم يخبر الأوغاد بأي حرف عن مكان تواجد أخيه الأصغر، وكان منتصرًا لإنقاذه شرف العائلة من دنس الأشرار.

استقبلته دموع أمي قبل يديها، وكل من كان في بيتنا بعيون لامعة دامعة حزن وألم شديد عليه، راعنا ما شاهدنا، لقد كان أبي كشبح يتكئ على ظِله حين يمشي، أجلسناه بحنان على بساط بلدي مزركش قديم في غرفة نومه، اتكأ أبي على جدار الحائط وبدا أنه مُتألم، تملأ حدقات عينيه أسرار عميقة، وبعد أن نظر بتفحص ودقة إلى جميع من حوله أخذ نفس عميق مطمئن، وهنا لم يتمالك نفسه فبكى بحرارة وحسرة على كبرياءه الذي أهدره الجلادين، عندها سقطت دموع كل من كان حوله كأنهار وغسلت أرواحهم المُعذبة، بعد وهلة تماسكوا قليلاً قاموا بغسل دمائه، داووا جراحه، سقوه جرعة ماء باردة جلبوه في إناء نظيف مباشرة من صنبور الماء، وقدموا له الطعام الذي لم يقربه بعد أن فقد أبي شهيته للأكل تمامًا، من يرى ما شاهده أبي ستعاف نفسه أي طعام.

بعد أن هدأ قليلاً أخذ أبي يسرد حكايته، وبحزم طلب منا عدم البوح لأي أحد بما جرى له، خوفًا من عودة الحرس مرة أخرى، لم تكن أمي الحنون متأكدة من عودة والدي سالمًا إثر ما تراءى على مسمعها من جرائم فظيعة كالقتل والتعذيب واغتصاب للنساء وغيرها قامت بها ميلشيا الحرس القومي الإجرامية.

ويجدر الإشارة إلى أن من حُسن الصدف أن عمي كان قد أخلى بيتنا من جميع أنواع الكتب والمنشورات الحزبية قبيل هروبه إلى إيران، عدا مسدس صغير كان قد دفنه في حفرة تحت إحدى بلاطات أرضية البيت، على إثر ما حدث قام والدي وأخي ليلاً بإخراج مسدس عمي ولفاه بقطعة قماشية وقذفاه في بالوعة المجارير القريبة من بيتنا، وبهذا تمَّ إزالة ومسح جميع آثار التورط وأدلة الجريمة السياسية، ونحمد الله أن الحرس القومي لم يستطيعوا اكتشاف هذا المسدس اللعين، وإلا لكان وضع وأبي وحال كل أفراد العائلة أسوأ بكثير، وما من أحد يمكنه تكهن ما الذي كان يمكن أن يحصل لهم لو وجدوا هذا المسدس.

بعد فترة ليست طويلة من إطلاق سراح أبي من الاعتقال اتخذ قراره الحاسم بالتشاور مع زوجة عمي أن تقوم الأخيرة مع بنتيها بالهروب من البلد والالتحاق بزوجها في إيران؛ خوفًا من عودة الحرس القومي واعتقالها والاعتداء عليها، لاسيما وأن سمعتهم في مجال اغتصاب النساء كانت تزكم الأنوف، وهكذا حصل؛ تدبروا الأمر وهربت زوجة عمي مع بناتها إلى البصرة، بمساعدة أقارب لنا في البصرة تمَّ تهريبها إلى إيران حيث اجتمع شملها بزوجها.

استأجر عمي غرفة في بيت أحد أقارب لنا في مدينة الأهواز الإيرانية، واستطاع أن يحصل على عمل كميكانيكي على مكائن الخراطة، وبقي مع عائلته هناك حتى ما بعد قيام انقلاب الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩٦٣ الذي أطاح بحكم حزب البعث على يد عبد السلام عارف، بعيد الانقلاب وبعد

استتباب الأمن وإحلال الأمان في العراق وبغداد؛ عاد عمي وزوجته وبناته من منفاه في إيران إلى بغداد بعد أن رزقه الله هناك بتوأمين بنات.

لقد ترك الحرس القومي انطباعًا لم ينسه أبي طيلة حياته، بسبب الآلام النفسية وجميع أنواع الضرب والتعذيب الجسدي التي طالته على يد جلادي هذا النظام اللاإنساني وحرسه اللعين، ظل والدي طوال حياته يمقت بقوة هذا الحزب وهذه الزمرة الشيطانية.

في حادثة منفصلة أخرى ما زلتُ أذكرها تمامًا إلا أنها لم تكن بسبب نشاط عمي الأصغر السياسي، وليست مع أبي المسكين، وإنما كانت بسبب حادث إطلاق رصاص عشوائي حصل في حيِّنا، مما استدعى الحرس القومي إلى اقتحام وتفتيش جميع بيوت الحي ومنها بيتنا لإيجاد مصدر هذه النيران وإلقاء القبض على فاعله.

كان يوم عادي بجو مشمس رائق، حينها كنتُ ألعب في فناء بيتنا الواسع مع الأطفال الآخرين، كنتُ أستطيع مُشاهدة ابن عمي الأكبر نزار وهو يسير ببطئ شديد قاطعًا سطح الطابق العلوي ذهابًا وإيابًا، يمسك كتابه بيده يُذاكر دروسه المدرسية، فجأة اقتحم عناصر الحرس القومي كعادتهم مُدججين بأسلحتهم أبواب البيت دون استئذان أصحابه، وانتشروا كالسرطان في أرجاء البيت، بعضهم ما أن رأى ابن عمي في سطح الطابق العلوي حتى صرخوا به مصوبين رشاشاتهم نحوه ومطالبينه بالتوقف الكامل وإلا سيكون هدفًا لسلاحهم.

توقف جميع الأطفال عن اللعب، هرب بعضهم وارتموا في أحضان أمهاتهم، البعض الآخر من الحرس القومي صعد سلم البيت بسرعة هائلة كي يلقي القبض على ابن عمي المسكين بعد أن اعتقدوا أنه هو الذي أطلق النار، هرعت الأمهات إلى فناء البيت كي يعرفن ماذا يدور في البيت، اصطدمت وجوههن بفوهات البنادق وأعقاب أحذيتهم الحديدية، جمدن في مكانهن دون حياة أو حركة.

بدهشة وخوف عميقان وقف ابن عمي تحيطه فوهات رشاشاتهم من كل جانب، رموا كتابه من يده على الأرض، فتشوه بطريقة وحشية تفتيشاً كاملاً، فحصوا رائحة ملابسه، كمجرم حرب سألوه آلاف الأسئلة والتي لم تخطر على بال شاب يافع يوم، وبعد أن تأكدوا من أنه ليس الفاعل تركوه كشبح شبه إنسان، هبطوا السلم بسرعة، تركوا البيت على عجل دون اعتذار أو وداع، وأسرعوا إلى بيت آخر.

هكذا طُلِبَ منا الانتماء إلى حزب البعث

السُلطة لا تُغير الأشخاص
هي فقط تكشفهم على حقيقتهم

خوزي موخيكا - رئيس الأورغواي

أوكرانيا... وتُلفظ أوكراايينا وعاصمتها مدينة كييف الخضراء، بلد السهول والخصب والأنهار والجمال يقطنها حاليًا اثنان وأربعون مليون نسمة، وهي أحد مؤسسي الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٢، وبقيت ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي حتى انهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ حيث أصبحت جمهورية مستقلة بنظام مختلط نصف برلماني ونصف رئاسي.

عام ١٩٧٣ استقليت القطار أنا وواحد وعشرون طالب بعثة رسمية بصحبة ضابط عراقي برتبة ملازم أول، رافقنا من موسكو إلى وجهتنا الأخيرة إلى العاصمة الأوكرانية كييف، هذه المدينة الجميلة التي تخلب مناظرها اللب وتجعل الرائي يُحلق في أجوائها طربًا، بعد مسيرة ليلة كاملة بين الغابات الكثيفة الخضراء وصلنا العاصمة كييف، حيث استقبلنا عدد من ضباط الأكاديمية التي بقينا فيها مدة خمس سنوات لاحقة.

كييف مدينة عصرية جميلة خضراء مترامية الأطراف، تقع على ضفاف نهر الدنيبر الذي يقسمها على طولها، يتوسطها مركز المدينة الذي يشقه شارع رئيسي عريض يُدعى (الكريشاتيك)، تنتصب في هذا الشارع الفنادق الراقية والمطاعم الفاخرة ومجمعات التبضع الكبيرة على جانبيه، نهاية الشارع تصل إلى حافة نهر الدنيبر العظيم حيث يطلُّ على ضفافه الشاهقة تمثال للشاعر

الأوكراني الشهير شيفجينكا كحارس أبدي، ورغم برودة شتائها إلا أننا تأقلمنا مع جوها البارد سريعًا.

الأكاديمية الهندسية العسكرية الجوية العليا في كييف تقع في إحدى ضواحيها بالقرب من ساحة تدعى (رواد الفضاء)، وهي عبارة عن مجمع عسكري كبير يحوي على عدة كليات عسكرية ومن ضمنها كلية الأجانب التي درسنا فيها، كما تضم منطقة سكنية مخصصة لذوي العاملين وتلتئم على فندق راقٍ نسبيًا اعتُمد مقر لإقامتنا.

استُهلتْ دراستنا بتعلم اللغة الروسية التي لم أكن أعرف أي شيء فيها، كانت معلمتنا ناتاليا الكسييفنا امرأة في أواسط العقد الثالث من عمرها، ذات وجه نوراني دائري فائق الجمال وأنف دقيق مستقيم، بشرتها الناعمة البيضاء تتحدى لون الثلج الروسي، كشلالات نياغارا ينساب على كتفيها شعرها الأسود الفاحم الناعم، فارعة الطول مُكتنزة الجسم وعلى قدر كبير من الدلال والرِّقة.

لم تمضِ أيامٌ حتى انضم إلى مجموعتنا ضابط عراقي آخر برتبة ملازم أول يُدعى (أ.ر)، وهو نفس الضابط الذي أخبرني في بغداد عن قبولي في البعثة، كان انضمامه من أجل أن يكمل دراسة الهندسة في مجال تخصصه السابق، مع صفة إضافية هي مسؤول حزبي للبعثة.

الضابط (أ.ر) طويل القامة أسمر اللون معتدل البنية شعره أسود فحمي مُجعد ذو شاربان كثيفان يُغطيان فمه، ينحدر من محافظة البصرة ولا يمتلك شهادة تعليم جامعية مثل باقي ضباط الجيش العراقي الآخرين، وأمثاله يُطلق عليهم بالعُرف العسكري العراقي ضابط (مَسلكي)، هذا يعني أنه أصلاً كان نائب ضابط وتم منحه رتبة ملازم بعد اجتيازه دورة سريعة خاصة بالحزبيين البعثيين، في محاولة من حزب السلطة في السيطرة على مفاصل الجيش وزيادة تنظيمات الحزب فيه، كان سريع الحركة، طموحًا، سريع الحكم على الأشياء،

ويمتلك دهاء وأساليب يتميز بها نواب ضباط الجيش العراقي التي يعرفها جميع العراقيين جيدًا، كما كانت له نظرة خاصة في التعامل مع طلاب البعثة.

في ظهيرة أحد الايام الدافئة نسبيًا بأشعة الشمس الأوكرانية الخَجِلة؛ استدعى الملازم أول (أ.ر) جميع الطلاب إلى اجتماع عام في بهو الفندق النظيف دومًا، والمُخصص لعقد الاجتماعات والاستراحة ومُشاهدة التلفاز، والذي يحتوي على أثاث تقليدي مُريح ومُرتب. بعد أن جلس جميع الطلاب دخل الضابط وهو يحمل كتيبات عديدة ربما كانت بعدد أفراد البعثة، وضع الكتيبات على الطاولة العريضة المزركشة التي أمامه، اعتدل في جلسته على كرسي قيصري وثير، بدأ بسَرد منجزات ثورة السابع عشر من تموز وفق منظوره (الانقلاب العسكري وفق المنظور العام)، ويشير إلى مبادئ حزب البعث الحاكم، وعن الاهتمام الكبير الذي توليه القيادة السياسية للشعب بكل فئاته.

أضاف أن (الثورة) سائرة بالوطن والشعب نحو الحرية والرفاهية والعيش الرغيد، وخير دليل على ذلك هو انتقاؤنا في هذه البعثة التي سُميت (بعثة البكر) لتكون نواة لقوة جوية حديثة في الجيش العراقي المعاصر، بعد هذه المقدمة قال: [إن حزب البعث حزب ديمقراطي ويؤمن بحرية الفكر، وأن الانتساب إليه هو ذاتي وطوعي ودون إكراه، ولذلك فمن يرغب في الانتماء للحزب ما عليه إلا أن ينهض ويتناول كتيبًا من هذه التي على الطاولة، وبهذا تتم عملية انضمامه الرسمي للحزب].

كنت أستمع له غير مقتنع بما يتحدث به، قافلاً بذاكرتي على الأحداث التي حصلت بُعيد انقلاب الثامن من شباط عام ١٩٦٣، حين ألقى الحرس القومي القبض على أبي وقاموا بإهانته وتعذيبه، استحضرت كل تلك الذكريات بشريط سريع مرَّ عليّ وصرت أسأل نفسي ما السبيل وكيف التصرف في موقف يتطلب القرار سريعًا؟ لم أكن أرغب بالدخول في مُعترك السياسة المقيت، فأنا لم أحب السياسة يومًا ولم أرغب إطلاقًا التورط بها.

بقيت متوترًا حائرًا مترددًا، واستمرت حيرتي وازداد قلقي أكثر حين بدأ الطلاب بالنهوض واحدًا تلو الآخر، يتناول كل منهم كتيب من على طاولة الضابط ثم يعود لمكانه، علمًا أنَّ بعضهم بالأصل كان حزبيًا، ماذا سيحصل لاحقًا؟ وهل سيبقى أحد آخر جالس فيشاركني موقفي؟ مرَّت الدقائق ثقيلة وأنا متسمر على كرسي، يا إلهي كم كنت أتمنى أن يبقى بعض من الطلاب على كراسيهم غير آبهين بهذا الموضوع لأكون من ضمنهم، نهض آخرون ولم يبقَ إلا ثلاثة ثم اثنان... وأنا غارق بصمتي وحيرة أفكاري.

قلت في نفسي: أنا صابئي مندائي وسط مجموعة مُسلمة بالكامل، وعند عودتنا بعد انتهاء الدراسة سأعمل في بلد إسلامي وأكون وسط المُسلمين، سأكون ضابطًا في الجيش وهو عمل رفيع وفي مكان حساس جدًا هو القوة الجوية، ترى هل يمكنني العوم عكس التيار أو الاستمرار في هذا الطريق دون أن أكون ضمن اتجاه التيار العام؟ لا أستطيع أن أكون في وضع يخالف جميع أقراني في كل شيء، وبالنتيجة فإني لا أستطيع المُضي وحدي كبطة سوداء ضمن سرب أبيض، عندها قررت النهوض ولو متثاقلاً، تناولت كتيبًا، وفي هذه اللحظة أصبحت بعثيًا.

لم يكن يعني لي شيئًا سواء كنت بعثيًا أم غير ذلك، ما دمتُ إنسانًا وعراقيًا ومندائيًا، شربت من ماء دجلة والفرات حتى صار ماؤهما يجري بعروقي، وإصطبغتُ[1] بمياههما الحَيّة فزادني طهارة وإخلاصًا، كيف لا وأنا سليل هذه الأرض العتيدة، قلت في سري مثلما أنا فخور بنفسي دائمًا سأكون أمينًا على عملي وتاريخي المُشرف ووطنيتي العالية. هكذا بقيت طوال فترة عملي رغم أن كل الأمور المعنوية التي اعتدتُ بها قد تحطمت لاحقًا بشكل شبه كامل، ولم

١- إصطبغتُ: الصباغة وتقابل التعميد في المسيحية وهو الرسم الذي يتم فيه الانتساب للديانة المندائية وكذلك للتبرئة من الخطايا وتتم بالماء الجاري.

أندم أبدًا ولغاية اللحظة أني خدمت بلدي العراق من خلال تطوعي كضابط مهندس في صفوف الجيش العراقي الباسل والقوة الجوية، بكل وطنية وكفاءة وإخلاص، رغم ما أصابني من حيف. لم أكن أبدًا أؤمن ولغاية الآن بأمور السياسة اللعينة ولا بأفكار أي حزب منها، من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها، والتي كانت وما تزال جميعها وحسب رأيي مجرد أدوات في يد الأنظمة الشمولية الحاكمة للبلدان، في ممارساتها القمعية تجاه شعوبها.

إنَّ السبب وراء فخري واعتزازي بكل هذا وذاك؛ هو أنني استطعت ومن خلال تواجدي في الجيش وحزب السلطة الحاكم أن أمضي بحياتي وعملي بسلام نسبي، والأهم في هذا الأمر هو أنني استطعت أن أنقذ رقاب وحيوات كثير من الشباب والرجال العراقيين الأبرياء، وإبعادها عن حبل المشنقة أو رصاص الإعدام، كوني وجدت في نفسي الشجاعة الكافية لاقتحام المجهول، لم أجامل على حساب الحق ولم أبالِ حين كنت أسير بمفردي على ألسنة النار وأركب الأخطار مهما كانت، كي أنطق بالحقيقة وأنصف المظلومين، غير آبهًا بنتائج أفعالي وتحذيرات الأقربين أو تهديدات البُغاة.

لقد جازفت بحياتي وتأرجحت على حبل الموت مرات عديدة كي أنقذ حياة أحدهم؛ سواء كان مسلم شيعي أم سني أو كان مسيحي، عربي كردي أم تركماني، شيوعي بعثي أو من حزب الدعوة أو غير كل ذلك، لم يكن الدين أو الطائفة أو المذهب أو التوجه السياسي للأفراد يومًا هو من حفزني ودعاني أن أتخذ مثل هذه المواقف الحاسمة والخطيرة، بل كانت إنسانيتي النقية، مبادئي وقناعتي الراسختين وإرادتي القوية بضرورة قول الحق في جميع الظروف، والإدلاء بالشهادة الصادقة التي تصون كرامة الإنسان البريء وتحفظ حياته، لم أذعن إطلاقًا لتهديد أو تلويح بعصا غليظة، بل خاطرت حتى أحيانًا بقول أشياء أخرى خارج نطاق الحقيقة لحفظ حياة مظلوم من الإعدام، وسيكون بإمكانكم الاطلاع على بعض من تفاصيل هذه الأحداث التي حصلت معي لاحقًا.

أبــو طبــر

أجمل ابتسامة...

تلك التي ترسمها على محيا والديك

حين أزور بغداد التي أعشقها وأحبُ عبق هوائها حتى وإن كان ساخنًا لاهبًا؛ أدور في أزقتها وحواريها الضيقة الملتوية كأفعى الغابات، أبنية البيوت ذات الشناشيل المزركشة التاريخية الجميلة على جانبي الطرق تكاد تنطبق أو تلتصق بعضًا ببعضها، وتشكل أفياء رائعة تجلب نسمات باردة تنعش المارة بسخاء، ظهرًا أسير في الطرقات ولا يفوتني التقاط كل ما يصدر من كلام من داخل البيوت المغطاة أبوابها بستائر قماشية ملونة، رغم انتصاب هذه الستائر إلا أني أستطيع أحيانًا وبغريزة الصياد الماهر وعبر الأبواب المفتوحة في لحظات خاطفة تتطاير أثناءها الستارة التقاط لقطات حية رائعة، كأن تكون لسيقان بيضاء ملفوفة لامرأة مُكتنزة تتربع على حوض غسيل الملابس، أو نظرة سريعة عابرة لنهود سمراء تائهة، لمراهقة رشيقة تحاول التقاط شيء من الأرض.

أعشق التجوال والسير في هذه الطرقات، إنها طقسي المقدس الثابت والمفضل، الناس تهرب من أشعة الشمس الحارقة وأنا أخرج من بيتي كي أتفسح في شوارع بغداد الجميلة أتبضع بعض الأشياء من محلات شارع الرشيد والسعدون، وحين أشعر بالعطش أدخل إلى إحدى بارات شارع الخيام المُكيفة الباردة، وأغطس كهارون الرشيد في أحضان كرسي وثير، منصت إلى الألحان الخالدة لكوكب الشرق المطربة أم كلثوم وهي تصدح بصوتها الشجي بأغنية (ليلة حُب) التي أعشقها، أحتسي زجاجتين من البيرة المُثلجة المنعشة نوع

(فريدة) اللذيذة المذاق مع السلطة المكونة من أنواع مختلفة من الخضار الطازجة، مُضاف إليها زيت الزيتون البلدي والخل المصنوع من التمر طيب المذاق، أنهضُ مُنتعشًا قافلاً إلى البيت، مارًا بمنطقة سوق حنون الشعبية، حيث لا تفوتني إطلاقًا متعة مشاهدة بيتنا القديم الذي يقف بتواضع بعد أن بدا لي سابقًا عالي البنيان شامخ عملاق.

في بداية عام ١٩٧٤ حين أكملت النصف الأول من سنة دراستي الجامعية الأولى في الاتحاد السوفيتي؛ ضربت الغربة أطنابها في رأسي، وزاد شوقي لأهلي، خصوصًا لأمي وأبي، وقبيل العطلة الشتوية قررت بشكل مُفاجئ ولأول مرة أن أزور العراق دون أن أخطرهم، وذلك لأن وسيلة الاتصال الرئيسية كانت عبر الرسائل البريدية التي كانت تستغرق وقت طويل.

حزمتُ أمري وأمتعتي وضعت الهدايا التي هيئتها لأهلي في حقيبتي الصغيرة، استقليت مع زملائي الطائرة المتجهة إلى بغداد، وصلت الطائرة مطار بغداد الدولي في ساعة مُتأخرة من الليل، تسلمتُ حقيبتي الصغيرة وبسرعة خارقة اتجهت نحو بوابة الخروج لكن رجل الأمن استوقفني ولم يسمح لي بالخروج مما أدهشني كثيرًا.

كوني أحمل حقيبة صغيرة فإن البواب اعتقد أن خروجي مؤقت وسوف أدخل صالة المطار ثانيةً لأستكمل تَسلم باقي حقائبي، أخبرته أني سأخرج ولن أعود ثانيةً، لأني ببساطة لا أملك أية حقائب كبيرة أخرى سوى هذه التي في يدي، ورجوته أن يدعني أذهب لأني في شوقٍ كبير لأهلي، حينها أفرج عني فتسللت بسرعة كالأرنب المذعور.

اتخذت مكاني في المقعد الأمامي لإحدى سيارت التاكسي بعد أن ودعت أحد أصدقائي باللغة الروسية وسمعنا سائقها، حييت سائق سيارة الأجرة بكلمة (هالو) فاعتقد أنني أجنبي وبدأ يُحيك خططه الجهنمية كي يستغلني بأبشع صورة، إذ أنها فرصته الذهبية، أخذ يتخيل أنه سوف يقبض أجرته مُضاعفة

وبالدولار الأخضر، لكنه تفاجأ كثيرًا عندما سألته عن الأوضاع في بغداد باللهجة العراقية الدارجة، اندهش بقسوة حين سمع لهجتي البغدادية الأصيلة حتى النخاع، فلم يتمالك نفسه فابتسم ثم ضحك ملئ شدقيه، وأخبرني بما كان يضمر لي من خُبث، فأطلقنا سويًا ضحكة مُجلجلة وصلت أعالي السماء، وانطلق بي كالصاروخ إلى البيت.

عمارة البغدادي وتقع في شارع السباع في بغداد، سميت على اسم مالكها التاجر البغدادي المحُسن الثري طيب القلب الذي كان يوزع المال ولحوم الأضاحي على الفقراء والمُحتاجين، صبيحة كل عيد إسلامي، حينها كنت أذهب وأشقائي الأصغر مني سِنًا إلى مكتبه الذي لا يبعد أكثر من مائة متر عن مكان سكننا، باتجاه شارع الشيخ عمر، نتزاحم مع باقي الأطفال لغرض الحصول على بضعة دراهم، وكانت كبيرة القيمة لدينا، إذ تُعطينا قدرة كبيرة لشراء الحلويات خلال أيام الأعياد، نفرح بها كثيرًا، لكننا لم نكن نستطيع الحصول على قطعة من اللحوم كونهم اقتصروا توزيعها على الكبار.

هذه العمارة السكنية كأنها زُرعت في غير محلها، تمَّ بنائها في حي صناعي يعجُ بالحركة والحياة والعمال ذوي السواعد السمر وأعمال الحدادة الشاقة، الكل منهمك في عمله بتطويع الحديد وجعله أنتيكًا حيث تُسمع أصوات مكائن قطع الحديد المزعجة وأزيز اللحام مع أشعته البراقة التي تعمي الأبصار وثرثرة حَمالي نقل البضائع، الكل هنا في حركة دؤبة والحياة صاخبة تحت أشعة الشمس اللاهبة، ولا مجال للسير نهارًا إلا وعلى المرء أن يشق طريقه بدقة متناهية بين الحديد والنار، أو أن يصطدم بعربة نقل أو قطعة حديد ناتئة.

تحديدًا هنا عشت مع عائلتي ردحًا من الزمن، ولسنوات طوال نتنقلُ بين رُكام الحديد ورائحة غازات اللحام نهارًا، وعبق الزهور ورائحة الأشجار ليلاً، تصالحنا جيدًا مع أصحاب وعمال محلات الحدادة التي تقع أسفل كتفي عمارة البغدادي، وكانوا طيبين ذو أخلاق عالية قدروا حالنا واحترموا الجيرة.

لفظتني سيارة التاكسي في أولى ساعات الصباح عند مدخل عمارة البغدادي، نقدت السائق الماكر أجرته بالدينار العراقي الذي كنت أحتفظ به، ومضى على رزقه، مستندًا على حقيبتي الصغيرة تخطيتُ بوابة العمارة التي كانت والحمد لله مفتوحة بشكلٍ دائم، بتثاقل صعدت السلم الملتوي، وأخيرًا وصلت إلى بوابة بيتنا الدافئ، طرقت الباب بخجل وهدوء فلا مُجيب، طرقت ثانية بصورة أقوى فلم تظهر أية إشارة للحياة، كررت ثالثة ثم ناديت: افتحوا الباب، فسمعت من الداخل أصوات وتمتمات غريبة، ثم صرخة بصوت صارم فجائني صوت أمي الحنون قائلاً: (دخيلك يا هيي)[1]، فارتاح قلبي ورق لها وله كثيرًا...

- من الطارق ليلاً؟

أجبت بسرعة هائلة:

- أنا يا أمي.

- من أنتَ؟

- أنا عباس افتحي الباب رجاءً...

حينها كررت سؤالها:

- وأي عباس أنت؟

- أنا عباس ابنك يا أمي، افتحي لي الباب حبيبتي لأني متعب للغاية وفي شوق كبير لكم.

هنا خرج صوت أبي مُعلنًا أنه يحمل مُسدس أسود اللون، متوعدًا وسائلاً:

- من أنت يا هذا، القادمُ لنا في منتصف هذا الليل الحالك؟

قالها بصوتٍ اهدأ وأكثر رقة، ولكن جاء حازمًا وأضاف:

١- دخيلك يا هيي: هيي وتعني الحي وهي اسم الله بالمندائية، أما دخيلك يا هيي فتعني أني في حمايتك يا الله.

- ما الذي أتى بك ليلاً إلى هنا؟

أعتقد أنه كان يريد التحدث معي كي يتعرف على صوتي ويطمئن تمامًا قبل أن يفتح الباب لي.

- نعم يا أبي أنا عباس ابنكم، لقد جئت لتوي من روسيا لزيارتكم ورؤية وجوهكم الطيبة، وكلي شوق إليكم فافتح يا أبي ولا تخف... أنا متعب جدًا، افتح الباب أرجوك.

فتح أبي الباب ببطء شديد وهدوء تام، وظهرت لي كُتلة بشرية ضخمة رؤوسًا وأجسادًا كثيرة متراكبة تجمعت في فراغ واحد بعيون شاخصة حذرة، وأيادي تحملُ أسلحة بيضاء متأهبة للقتال، ولكن أبي لم يكن يحمل مسدس، فهو كان كعادته يبغي التحذير والترهيب فقط.

لقد كانت مُفاجأة كبرى لي ولهم، لم يُصدق أهلي عيونهم من شدة الصدمة أني ابنهم بلحمي ودمي أقف أمامهم حيًا أرزق، إذ أنهم اعتقدوا أني احتضن الدببة البيضاء في القطب الشمالي البعيد والقارس البرودة في تلك اللحظة، حاولت وحاول أهلي استيعاب كل شيء بسرعة وهم ينظرون إلي بفضول وريبة.

ما أن تجاوزت بوابة بيتنا حتى غديت كدمية تتقاذفها أيادي الأطفال بعطفٍ وحنان، احتضنتني أمي، قبلتني بمقدار حرارة الشمس، بشكلٍ لا يُصدق وضعتني بين ثنايا روحها والوجدان، شمتني بعنف كأنها تحاول الغور في مسام طفولتي، شممت رائحتها العطرة التي اعتادت أن تضعها، فعادت روحي المُعذبة والتحقت بجسدي التعب، برقة سحبني أبي إلى حضنه، عانقني بحرارة وسكب في كل حنان الكون وحبهُ، وهكذا الحال كان الحال مع أشقائي وشقيقاتي.

ما أن انتهت طقوس التقبيل الشهيرة عند العراقيين حتى بدأوا بتوضيح ما جرى عند باب البيت، وقالوا إنهم اعتقدوني المدعو (أبو طبر) وكركروا طويلاً،

حصل أن تزامنت زيارتي غير المُعلنة إلى أهلي؛ بتلك الأيام الاستثنائية التي مرت على العراقيين وأحدثت موجة هائلة من الرعب في نفوسهم.

وأسردُ عليكم حكاية أبو طبر الشهيرة، والتي هزت بغداد وأثارت الرعب والترويع في نفوس أهاليها، حين قام شخص يدعى (حاتم كاظم الهضم) من أهالي الحلة/ قضاء المسيب، تسانده زوجته (ساجدة على محمد)، يساعده عدد من أقاربه بعدة جرائم بشعة وغريبة على المجتمع العراقي، تتلخص عندما يتسلل أفراد هذه العصابة الإجرامية إلى أحد البيوت، فيقومون بقتل جميع أفراد العائلة، عن طريق ضرب الضحايا بقضيب حديدي، كما أن أبو طبر كان يحمل معه مسدس وقفازات، ولكن ما أشيع عنه أنه كان يقتل بالطبر (الساطور) – الآداة الخاصة بتقطيع لحوم الحيوانات – كان من باب الإشاعات التي تمَّ تداولها وانتشارها كالنار بين الناس، استمرت الإشاعات طويلاً حتى أنني سمعتُ أن عصابة أبو طبر بعد أن تقوم بأعمال القتل؛ فإنهم يوغلون في جريمتهم بتقطيع أجساد القتلى إلى أوصال بطريقة مُقززة وغير إنسانية تمامًا.

إثر تكرار هذه الحوادث اتخذت السلطات العراقية الرسمية إجراءاتها الأمنية المُكثفة من حملات تفتيش كبيرة طالت جميع بيوت بغداد، بحثًا عن أوصاف الشخص المشتبه به، حتى وصلت إلى إعلان منع التجوال الشامل في بغداد وإغلاق مؤقت لمطار بغداد الدولي في وجه الملاحة الجوية، مع استقدام فرق خبراء روس وفرنسيون في مجال مكافحة الجريمة، حتى تمَّ إلقاء القبض عليه بتاريخ ٣٠-٣-١٩٧٤.

بعد سنين عديدة سمعنا شائعات تُفيد أن الحكومة أو المخابرات العراقية هي من كان يُدير هذه العملية عن قصد، لتصفية خصوم سياسيين إثر محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها (ناظم كزار)، ولكن تبقى الحقيقة كما تعودنا في مجتمعاتنا العربية غائبة أو مُغيبة، في السنوات الأخيرة قد تمَّ عرض قصة المجرم (أبو

طبر) في مسلسل تلفزيوني تداول الأحداث، مع فبركة واضحة في بعض جوانبها وفق منظور السلطة الحالية.

ما أن انتهى طقس التقبيل العظيم، حتى بدأت مراسم الاستقبال الرئاسية الرسمية، مراسم الأسئلة، حيث انهالت عليَّ ملايين الأسئلة والاستفسارات العجيبة والغريبة، والتي كنت أجيب فقط على بعض منها لشدة تعبي وإرهاقي، ولكن بعد أن هدأنا جلسنا على فراش نوم والديَّ أحاطني الجميع يحملقون في غير مُصدقين عيونهم، أمي التي كانت لها طريقة رائعة في التعامل مع البشر والأشياء، إذ لم تدع لحظة إلا وتضع يديها على رأسي، وهذه الحركة التي أعشقها منها، ثم تقبلني وتدغدغني كطفل وتقول لي:

– يا صغيري الحبيب كيف أنت وكيف صحتك ودراستك؟ هل تأكل جيدًا، أرى أن الهزال لا زال يأخذ منك مأخذًا.

لا تدعني أجيب بل تواصل كلامها العذب، في عيناها يتلألأ السائل المُحيط بحدقاتها من شدة غبطتها، وتطلقان شعاعات الحب والرأفة بي، تزيدني راحة وسعادة.

– احكِ لنا يا بُني كيف وجدت روسيا؟ هل أهلها ناس مثلنا أم يختلفون عنا؟

سألني أبي بابتسامة مع بعض الجدية التي بانت على عينيه:

– نعم يا أبي؛ الروس[١] أناس دمثي الأخلاق مثلنا، طيبون متواضعون وكرماء جدًا إلى حدٍ كبير، رغم إمكانياتهم المالية المحدودة، إذ أن راتب العامل الشهري لا يتجاوز تسعون روبل، وهذا غير كافي بالمرة، ولكن لديهم قدرة خارقة على خلق الحياة وإيجاد لحظات حلوة من السعادة فيها... حين تزورهم يملأون الطاولة بكل ما لذ وطاب من مشرب ومأكل، ولا يقبلون بتواضع الضيف، بل

١– يطلق العراقيون كلمة (الروس) على جميع سكان الاتحاد السوفيتي السابق بمختلف بلدانهم وقومياتهم.

يعاملوه كأحد أفراد العائلة، إنهم بيض البشرة وشعرهم أشقر، أما نسائهم يا أبي الحبيب فحدث دون حرج، جميلات بشكل مُلفت وصارخ، رشيقات كالغزال البري، هُن غاية في التواضع، طيبات ومتراضيات مع أنفسهن، أما موسكو مدينة القياصرة فهي مدينة شاسعة الكبر رائعة التنظيم، شوارعها نظيفة عريضة ومستقيمة، أبنيتها القديمة ذات طراز قيصري مُميز، أما الحديثة التي بُنيت بعد الحرب العالمية الثانية منها؛ فهي على شكل مكعبات متشابهة، المدينة تحتوي على الكثير من الحدائق والمتنزهات والمسارح ودور السينما، كما أن تماثيل عُظمائهم تُزين ساحاتهم الكبيرة الكثيرة، محلات التبضع فيها كبيرة جدًا ذات طوابق عديدة، لا يكفيك يوم كامل للتجوال في جميع أقسام إحداها، نعم إنها مدينة فريدة من نوعها كل شيء فيها كبير وعملاق وشامخ.

يضيف أبي:

– وكيف تجري أحوال دراستك، أتمنى أنها تسير على ما يرام.

– نعم يا أبي دراستنا تجري على قدمٍ وساق، ولقد بدأت التكلم الروسية جيدًا، وإن شاء الله أرفع رأسكم بتفوق جديد بعد دعواتكم وصلواتكم لي.

قلتها وابتسمت، وجدتها فرصة طيبة لأريهم الأشياء التي ابتعتها لهم من كييف وموسكو، بدأت رحلة توزيع الهدايا ففرحوا بها كثيرًا، في حين طرتُ أنا فوق أجنحة المحبة والحنان وطار تعبي من الفرحة الكبيرة والسعادة الأكبر.

كنت قد ابتعت من مطار موسكو الكثير من قناني المشروبات الكحولية الصغيرة المُختلفة لرغبتي أن يقوم أبي بتذوقها والتلذذ بها، فاقترحت عليه أن نشرب كأسًا منها ونرفع نخبًا سعيدًا، فوافق على الفور رغم علمه بضرورة نهوضه المبكر ليلتحق بعمله، ولكن أي عمل هذا ونحن في لُجة السعادة، مجتمعين فرحين مسرورين، ولا تسعنا الدنيا كلها بعد فراقنا الأول من نوعه الأليم والطويل.

احتسينا أنا وأبي الطيب بعض من أنواع الفودكا الروسية الفاخرة نوع (ستاليجنايا)، والكونياك الأرمني الشهير والعديد من الأنواع الأخرى التي لا أذكر حاليًا أسمائها، سكرنا وحلقنا بسعادة لا توصف إلى سماءات صافية، كانت لحظات لا تنسى، مرت الليلة الليلاء بسلام وهدوء دون أن يلحق بنا ساطور (أبو طبر) شرًّا أو أذى، تحدثنا كثيرًا ثم أسدل الليل ستاره علينا فاندسسنا في فراشنا وخلد الجميع واستسلموا بعمقٍ للنوم يعانقون أحلامهم الجميلة.

ليس على عادتي وإثر أحداث الليلة الفائتة العاصفة نهضت مبكرًا أخذت دوشًا باردًا، تمتعت بفطوري المحبب الذي حضرته والدتي الطيبة بسعادة كبرى، ارتديت ملابسي على عجل بعد أن أمطرتني أمي بعدة أسئلة عن سبب خروجي الباكر، نقشتُ قبلة حانية على جبهة أمي ولم أجب عليها بتعمد وعن حسن نية، وأخيرًا انطلقت فرحًا في مهمتي التي جئت من روسيا لأجلها.

شارع السباع ما زال بكرًا هادئًا لم تغتصبه أصوات طرق الحديد وأزيز اللحام بعد، أشرت إلى إحدى سيارات الأجرة توقفت بسرعة، أخبرت سائقها إلى الجهة التي أقصدها... سيارة الأجرة تمضي بنا مسرعة في شوارع بغداد الحبيبة بينما صوت المطربة الرائعة فيروز الرخيم يصدح ويدخل القلب دون استئذان، لفني الوجد لكِ يا بغداد الحبية وأضناني الهوى لصباحاتكِ الساحرة...

الهواء ما زال باردًا قليلاً ونقيًا، النسمات المنعشة تهب من كل جانب، الشمس تسعى أن تُهيمن على الصباح، أشعتها الدافئة تسقط بحنان تحاول أن تنفذ في جسمي وتتغلغل داخل عظامي التي قرصها وقلصها برد روسيا القاسي، عظامي تشتاق لفيتامين شمس بغداد كي تتمدد وتعود إلى حالها الأول، تحاول جاهدة لكن برد روسيا الذي طغى وتسيد عليها يقاوم التلاشي، يعاند، يتمنع، لا يقبل الهزيمة، ولكن أخيرًا تنتصر شمسنا الساطعة عليه ويقتحم الدفء جسمي وترتاح عظامي، تهدأ نفسي، يا لها من نشوة رائعة تساوي كنوز الدنيا بأجمعها.

السيارة تنهب الأرض وتصل بنا إلى ساحة الطيران التي تقع في قلب بغداد، الحركة فيها ليست على عادتها، العمال الذين اعتادوا افتراش الأرض بانتظار رزقهم اليومي اختفوا، السيارت التي تدور في الساحة الشهيرة عددها قليل، أصحاب عربات بيع المأكولات منهمكين في تحضير طعامهم استعدادًا لطلب الجائعين، الطيور البيضاء والرمادية هي فقط من لا يبالي بأبي طبر، إذ تجوب السماء بحرية ورشاقة تدور حول خزان ماء الشرب الكبير الذي ينتصب شامخًا على طرف الساحة العتيدة دون خوف أو قلق تطلق صيحات الصباح، البلابل كذلك تشدو بألحانها طربًا وتتزاحم فيما بعضها حول فتات خبز صغيرة.

يبدو أن جرائم أبو طبر قد أثرت بالفعل على حركة بغداد المعتادة، وأن ساطوره قد منع عن البغداديين نعمة النوم الهانئ، السيارة تتجه نحو ساحة الأندلس والسائق يطرب إلى صوت فيروز الشجي العذب يردد معها دون ملل أغنية (رجعت الشتوية)، لا يبدو عليه التعب أو الخوف، بينما في سري أغني بسرور غامر (ولت الشتوية وعادت الصيفية)، وفجأة يضغط السائق بقوة على الفرامل، تتوقف السيارة بعنف عند ناصية قيادة القوة الجوية، يلوي السائق رأسه نحوي تظهر على محياه ابتسامة خفيفة، ولا يزال يردد أغنية فيروز ويقول ها قد وصلنا، نقدتهُ فورًا ورقة نقدية عراقية كبيرة الحجم زرقاء اللون، شكرته وترجلت بسرعة.

ما أن رأيت جدران قيادة القوة الجوية حتى عدتُ بذاكرتي إلى ستة أشهر مضت، حين قدمت وثائقي إلى مديرية التدريب الجوي لغرض الالتحاق بالبعثة، حينها كانت كتل بشرية هائلة من الطلاب المتقدمين تتكوم وتتراكم فوق بعضها متدافعين نحو شباك التقديم، كما تذكرت لحظات السعادة التي خبرتها عندما علمتُ بقبولي في البعثة.

هؤلاء الطلاب منهم من ابتسمت له الدنيا ورحل إلى الاتحاد السوفيتي ثم دخل في نفق الغربة القاتل، ومنهم من عثر حظه في القبول وبقي ينعم في أحضان

العراق وحنان أهله، دخلت مديرية التدريب الجوي وتوجهت فورًا إلى شخص يدعى نائب ضابط حمزة وكان مسؤولاً عن أمور التدريب، ألقيت عليه السلام ثم طلبت منه أن يرشدني إلى كيفية عمل وكالة رسمية كي يستطيع والدي أن يتسلم جزء من راتبي، هنا وردت لذهني صور الفاقة والحرمان التي عشتها في طفولتي البريئة ومراهقتي القاسية بسبب الفقر القاتل، وأدركت أني وعائلتي قد تعدينا توًا هذه الحالة، ولن تعود إطلاقًا.

زودني حمزة، الذي قيل إنه كان عضوًا في حزب الدعوة وكان ينقل المعلومات إلى إيران وتم إعدامه لاحقًا؛ بالمعلومات والوثائق المطلوبة، شكرته بقوة وتوجهت على فوري نحو أقرب مصرف من موقع سكننا في شارع الكفاح كي أكمل إجراءات الوكالة.

ساعتان وأنجزت الوكالة بالكامل ولكن لم أنجز مهمتي بأكملها، أحسستُ أن أعصابي قد ارتاحت وهدأت سريرتي، وشعرت أني قد أوفيت بالتزاماتي تجاه بؤس أبي وشقاء أمي، وأعدتُ جزء صغير من جميلهم الكبير علي، وبذلك أصبح من حق أبي الحبيب الذهاب إلى البنك القريب جدًا عليه واستلام راتب شهري وهو خمسة وثلاثون دينارًا بالكمال والتمام.

عزيزي القارئ الكريم لابد أن تعرف أن راتبي الذي كنت أتقاضاه عام ١٩٧٣ أثناء فترة دراستي الجامعية في الاتحاد السوفيتي كان أكثر من ٨٥ دينار عراقي، ما يعادل ويزيد عن ثلاثمائة دولار أمريكي، علمًا أن الدينار العراقي المدعوم بالذهب آنذاك كان يساوي ثلاثة دولارات أمريكي ونصف، وهذا يعني أن مبلغ ٣٥ دينار عراقي التي سيتسلمها أبي كل شهر كان يزيد عن راتب موظف ذو شهادة جامعية والذي يتقاضى ٢٨ دينار عراقي شهري.

لم تنتهِ مهمتي بعد ولسوف أكملها وأزف البشرى لوالدي المناضل، سأذهب إليه كما فعلت سابقًا وقبل ستة أشهر حين تسلمت نتائجي المتفوقة في امتحانات البكالوريا النهائية، نعم سأتجه لمحله حالاً، بهمة وعزم مع شعور بالفخر وعزة

الوفاء بالجميل، سرت بسرعة نحو خان الشاه بندر حيث محل عمل والدي، أسرعت من خطواتي يلازمني شعور لا يوصف، إنه مزيج من السعادة الحقيقية مع الفرح الكبير والنشوة الغامرة، اعتراني شعور بالنصر على الفقر، تعديت المتحف البغدادي الرائع بواجهته التراثية الجميلة دخلت خان الشاه بندر من جهة شارع المأمون الذي يؤدي إلى جسر الشهداء من الفرع الضيق المتجه إلى خان الياهو دنكور، الجو أصبح أكثر سخونة، ولكن لهذا الممر الضيق صفة عجيبة إذ دائمًا ما يكون أكثر برودة لالتصاق سطوح أبنيته بعضها مع بعض حيث تهب فيه نسائم باردة ومنعشة.

واصلت سيري ولم تمضِ ثوان إلا وكنت انتصب في مدخل محل أبي، بوقار كان أبي يجلس على منضدته العتيقة، يشيح في عمله مرتديًا نظاراته القديمة التي بدت متلألئة بسبب انعكاسات ذرات الذهب المتراكمة عليها، يمسك بإنبوب ذهبي طويل يسنده على قطعة خشبية بارزة عن المنضدة العتيقة ويقوم بشحذه وصقله بمبرد حديدي ليجعله ناعمًا أملسًا بعد أن أكمل لحام حافتيه، من شدة تركيزه على عمله لم ينتبه أبي لدخولي، جلست على أريكة متهالكة مقابله، وتنحنحت كي لا أفزعه...

أخيرًا انتبه لي والدي الذي بدا نضر متورد الخدين، ابتسم، حياني ورحب بي بقوة، طلب لي كأسًا من الشاي إثر مرور بائع الشاي الشهير عند الصاغة الذي يدعى عزيز، وضع أبي إنبوب الحجل على المنضدة، نفض يديه من بقايا الذهب، غسل يديه بماء موضوع في وعاء بلاستيكي مفتوح كي يزيل الذهب العالق بيديه ويحتفظ به، رفع نظاراته وجعلها منتصبة أعلى جبهته، نهض بهدوء قبلني بحنان بالغ ثم جلس بقربي واضعًا إحدى يديه أعلى كتفي، أفصح لي عن بالغ سعادته لزيارتي رغم الفصل السخيف الذي مر لحظة وصولي إلى البيت، ضحكنا قليلاً، نظرت إليه بإجلال كبير وحب أكبر وقلت:

– يا أبي الحبيب إن تذكر قبل ستة أشهر حين جئت لك هنا ووضعت نتائجي المتفوقة في امتحانات البكالوريا بين يديك الكريمتين، أعتقد أنك تذكرها جيدًا – هنا هز أبي رأسه دلالة على الموافقة – واليوم جئت أيضًا كي أضع بين يديك هدية متواضعة أخرى، وكي أبرك وأرد جزء صغير من إحسانك الكبير وفضلك الأكبر وعطاءك الواسع علي...

توسعت عينا أبي الناعسة من الدهشة وانفرجت أساريره، وبان الفرح على محياه مما أقول رغم التعب الواضح عليهما لقلة النوم بسبب سهرتنا المتأخرة، مع التأثير الواضح لربع زجاجة عرق المستكي الذي يتناوله كطقس مقدس يوميًا، إضافة إلى تأثير زجاجات الفودكا والكونياك الأرمني الصغيرة وغيرها، وأخذ ينصت إليّ باهتمام بالغ، وبان عليه شوق كبير لمعرفة ماذا أخبئه له، وأضفت:

– واليوم يا أبي المناضل أقدم لك هديتي المتواضعة هذه (وضعت أوراق الوكالة الرسمية بين يديه) أرجو أن تقبلها مني.

– ولكن ما هذه الأوراق التي زرعتها توًا في يدي وتعرف أني لا أجيد القراءة...

نطق أبي بهذه الكلمات مُبتسمًا فأجبته بهدوء وثبات بعد أن غطت صفيحة رقيقة من السائل الصافي حدقات عيوني، التي ترنو إليه وتستدر عطفه ونعمته ورضاه:

– إنها وثيقة القفز على حاجز الزمن الأغبر، إنها يا أبي صك اللاعودة إلى الفقر والفاقة والحرمان، هذه الأوراق هي مفتاح عائلتنا نحو السعادة والاكتفاء الاقتصادي، إنها ببساطة معاهدة صلح مع المستقبل الآمن، هي صمام الأمان الذي يجعلك تقف بكبرياء الأنبياء صامد مرفوع الرأس حين تشح موارد عملك، إنها باختصار يا أبي أوراق الوكالة الرسمية التي عملتها لك توًا، والتي بموجبها تستطيع استلام مبلغ قدره خمسة وثلاثون دينار أزرق عراقي كل شهر وتعني

بمثابة راتب شهري جاري... وما عليك سوى أن تذهب بداية كل شهر إلى البنك القريب من هنا وإشهار هذه الأوراق كي تستلم الراتب، هذه هديتي المتواضعة كرد جميل لنضالك وكفاحك يا أبي فأرجو قبولها...

قلتها واضعًا يديه كعصفور بين يدي ومستجمعًا كل حنان الكون، قبلته في جبهته الناصعة... لم يتوقع أبي أن يحدث معه يوم ما مثل ما حدث الآن، نعم إنه مصدوم ومنبهر كليًا من الفرح، لا رد فعل له سوى النظر إلي بتعجب وذهول، الدهشة استولت عليه تمامًا وأفقدته التحكم... إنها لحظات الحقيقة التي تصدم الإنسان وتنفذ إلى داخله دون إرادته تشل حركته وتسحق ردة فعله، الزمن يكافئ من يكافح ويجتهد، الذي يزرع الطيب لابد أن يحصد ثماره، وبجدارة استحق أبي هذه الثمار، لم يعرف أبي كيف يتصرف إذ أن الحدث أسره واحتواه... ولكنه بتواضع الرُسُل قبلني في وجنتي وقال:

– شكرًا لك يا بُني، شكرًا لقد أفرحتني كثيرًا بفعلتك هذه... (نهض وضمني بقوة وقبلني بحرارة ثم قال) هذا عهدي بك...

– الآن يا أبي وبعد أن أنهيت مهمتي بالكامل وأرضيت ضميري؛ أستأذنك بالانصراف إلى البيت كي أبشر أمي الطيبة... قلتها ومسرعًا مضيت إلى البيت...

لا يفوتني إطلاقًا أن أذكر حدث مهم آخر يعطي لبر الوالدين مداه ومعناه الحقيقي، وذلك في بداية الفترة حين أصبحت ضابطًا في الجيش العراقي، وفي أخر يوم في الشهر الأول لخدمتي؛ تسلمتُ أول راتب لي كضابط وكان ٢٤٢ دينار عراقي، حينها فرحتُ فرحًا عظيمًا، وضعته في جيبي فخورًا مُختالاً، وبعد انتهاء الدوام الرسمي لي في قاعدة الحبانية توجهتُ ببزتي العسكرية إلى بغداد، وفورًا عرجت على مكان عمل أبي.

دخلتُ إلى الورشة وكان أبي مشغولاً جدًا بعمل أحد المصوغات الذهبية، حييته بقوة بعد أن قبلته عدة مرات ثم جلست لعدة ثواني كي ألتقط أنفاسي وأرتب

كلماتي حتى أخرجتُ راتبي الكامل من جيبي، أمسكته بيدي ونهضت ووضعته بيد أبي قائلاً:

- يا أبي هذا أول راتب لي كضابط في الجيش أضعه بين يديك الكريمتين وفاءً مني لجهدك الكبير وشقاءك الأكبر وكي أبر بك.

قبلته بحرارة على جبهته، نهض من مقعده بعد أن لمعت عيناه وأطلقت بريقًا حنونًا، احتضنني بقوة، قبلني بحرارة وأعاد المبلغ إلى جيبي قائلاً:

- شكرًا يا بني الله يوفقك ويمنحك الصحة الوافرة.

بفرح غامر مضيت إلى البيت.

الضابط حسن

رحيل ظالم

اندلعت الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨١؛ وبناءً على طلبي التحقت فورًا بالقاعدة الجوية في البصرة، أمضيت فترة أكثر من شهرٍ كامل دون رؤية أهلي وحبيبتي بغداد.

في أول إجازة لي لبغداد؛ وكما اعتدت أن أزور قريبي وصديقي الحميم الصائغ (ح.هـ) في محله الواقع في شارع النهر مركز تجارة الملابس والذهب في بغداد، هذا الشارع هو قلب بغداد النابض التجاري الحديث الذي يعجُ بالحياة والحركة، كل شيء فيه في تطور ونمو، ترتاده النساء الجميلات الساحرات اللواتي يرتدين أخر صيحات الموضة العالمية في مكياجهن الصارخ وحمرة شفاههن الحمراء الفاقعة، الشابات يتحركن برشاقة مثيرة مرتديات الميني جيب القصير جدًا الذي يفضح سيقانهن الطرية، وأفخاذ النساء المكتنزات بحرية مطلقة، دون أن يسعين لإنزال تنوراتهن إلى الأسفل، وكأنهن بطريقة أو أخرى يسعين إلى إثارة شهية الفحول، وبجانبهن تسير النساء اللواتي يرتدين العباءة النسائية التقليدية العراقية اللماعة السوداء الطويلة التي لا تتنافس أبدًا مع الميني جيب.

أما الشباب فيرتدون البنطلونات نوع (الجارلس) ذات النهايات العريضة جدًا، يسيرون في الشارع وعيونهم ترنوا إلى أفخاذ النساء البضة الشهية الجميلة، كان العراقيون أحرار في الكثير من علاقاتهم وملبسهم وطريقة عيشهم وترفيههم، وخصوصًا البغداديين منهم، حيث كان المرء يجد ضالته في كثير من المطاعم ومحلات بيع المشروبات الكحولية والبارات المُكيفة التي تصدح

فيها أغاني كوكب الشرق المطربة أم كُلثوم، وصولاً إلى النوادي الاجتماعية والمهنية كنوادي المهندسين والأطباء وغيرها التي تتبارى فيما بينها لتقديم أفضل أنواع الطعام والشراب والخدمات العائلية والأمسيات الطربية، ناهيك عن الملاهي الليلية التي تنتشر في مناطق بغداد الراقية على أطراف ضاحية الكرادة والتي تتنافس بشدة لعرض خدماتها وعروض الفرق الراقصة، العربية منها والأجنبية وصولاً إلى الموائد العامرة بالطعام الفاخر والنساء الجميلات.

قريبي (ح.هـ) رجل دمث الأخلاق طيب القلب كريم النفس، قصير القامة ممتلئ البدن دائب الحركة سريع البديهة، تاجر من نوع ممتاز رغم عدم امتلاكه لشهادة تعليم مدرسي، صديق صدوق وقت الشدائد يعشق الحياة والطرب والمغامرة.

ما أن تخطيت عتبة باب المحل الموارب قبل منتصف النهار حتى رأني وهبَّ واقفًا، محاولاً جهده الالتفاف حول منضدة عمله العتيقة المليئة بأنواع كثيرة من المصوغات الفضية والذهبية، وكذلك أنواع مسدسات الزينة القديمة التي تُستخدم في البيوت، حيث تُثبت على جدران المنازل لإظهار نوع من الترف والعظمة والهيبة لأصحاب البيت، هتف قريبي بصوته الجهوري المُميز الذي يكاد يخرق الأذان:

– يا أهلاً وسهلاً بابن عمي العزيز ملازم أول عباس.

كان دائمًا ما يناديني مع رتبتي العسكرية أمام الآخرين، وأحيانًا ما يناديني برتبة أرفع لأسباب في نفسه، يمكن أن تكون اعتزازًا بي أو غيرها، وفي جميع الأحوال كان هذا الرجل شجاعًا شهمًا مقدامًا لا يهاب شيء، كما أن له صلات طيبة ببعض المسؤولين الذين يتكئ عليهم حينما تلم به الشدائد.

غالبًا ما كان يدعوني ونخرج بعد انتهاء عمله إلى أماكن اللهو والترفيه والشرب والطرب، نجلس نتسامر نضحك ملئ قلوبنا نتحدث في كل شيء، وحين تنتهي جولتنا الليلية الصاخبة؛ والتي غالبًا ما تنتهي في ساعات الصباح

الباكر، أقفل عائدًا إلى بيتي، أو أذهب معه أحيانًا إلى بيته فأنام عنده في انتظار إفطار رائع وأحاديث أروع من سيدة منزله الرائعة زوجته الطيبة (ع.ب).

اتخذت مكاني على أريكة ضيقة وغير مريحة في محله الصغير ولكنها مفروشة بسجاد من النوع الفاخر، فورًا نادى (ح.هـ) على بائع الشاي الذي مرَّ لتوه من أمام المحل وطلب لي وله شاي مع الحليب، قائلاً ضاحكًا:

– هذا الشاي مع الحليب سيفيد صدرك ويقوي قلبك، لاسيما وأنت تقاتل على الجبهة وتقصف الأعداء...

هو يعلم جيدًا أني لا أطير إطلاقًا، بل أنا مهندس طائرات، لكنه وجميع العراقيين قد جُبلوا على تلخيص كل ما يخص عمل القوة الجوية بكلمتي الطيار والقصف، أحيانًا أتعرض إلى حرج بسبب تكراره لهذا الموضوع ببراءة في حضرة البعض الذين يعرفون جيدًا أنني لست بطيار، حينها أتدخل بمرونة لتصحيح الموضوع.

أخذنا الحديث عن أمور الحرب وأحوال البلاد، وأطلقت حنجرتي بحرية وسردت له عما جرى لي في فترة غيابي الطويلة نسبيًا، أخبرته أنني طلبت الذهاب إلى البصرة، كما أخبرني هو عن أحوال العاصمة وأجواء الحرب وأصداءها فيها وصعوبة الحصول على بنزين السيارات، وأجواء الليل التي أصبحت ليست كما قبل، كما تحدثنا باختصار عن المغامرات مع النساء وخططنا اللاحقة.

وما نزال في لُجَّة الحديث عن النساء وإذا برجل في أواخر الخمسينيات من عمره، أشيب الشعر طويل القامة لا اذكر اسمه يدخل علينا ورأسه مطأطأ، عيناه غائرتان في بحر أسود يحيط بهما، يلقي علينا التحية ويقف مشدوهًا ينظر إلينا دون أن يبصر شيء، يبدو أن عقله وفكره كانا بعيدان كل البعد عنا، يحاول الكلام مع (ح.هـ) ولكنه يعجز عن ربط الكلمات كي يجعل منها جملة مفيدة، وبذلك تخرج كلماته مبعثرة، كان علينا محاولة بذل جهد غير قليل

لإعادة تجميع عبارته حتى نفهمها، رجاه (ح.هـ) أن يجلس ففعل دون وعي واستقر إلى جانبي.

استرسلنا أنا وقريبي في حديثنا وهو ينصت بهدوء صامت، لكسر حاجز الصمت الذي أطبق على هذا الرجل طلب قريبي الشاي له وبادر بسؤاله عن أحواله وأحوال عائلته، وإذا بهذه الأسئلة تقع على الرجل كصاعقة حارقة من السماء تنزل على رأسه وتجعله ينتفض ويتوتر كمن صعق بتيار كهربائي عالي القدرة، وأخيرًا استجمع قواه بعد أن بلع ريقه عدة مرات وقال:

- أرجوكم ساعدوني... ابني سيضيع مني.

قال قوله وسكت بعد أن ترقرقت في عينيه دموع شفافة صافية:

- وما الذي حلَّ بابنك؟

سأله قريبي فورًا...

- ابني أخذوه جماعة الأمن وهو حاليًا عندهم ولا أعرف ماذا أفعل ولا أجد من يساعدني، يالله يا آدم أبو الفرج[1] أعِني على ما أنا فيه وأنقذ ابني من هذه الورطة.

قالها ولم يتمالك نفسه فأجهش بالنحيب الصامت، ترجيناه أن يهدأ كي نفهم منه ما الذي حدث وكيف السبيل إلى مساعدته... لم أكن أعرف ولم أرَ سابقًا هذا الرجل، فسألته بعد أن دهشت حقًا وراعني ما رأيت فيه من انهيار معنوي كامل وخوف كبير مما يمكن أن يحدث لابنه، وسألته بحذر شديد:

- ولماذا اعتقلوا ابنك يا عم؟

سكت بهدوء بعد أن سحبت قامتي إلى الخلف واتكأت على الجدار كي أفسح لقريبي إمكانية رؤيته وهو يتحدث.

١- أدم أبو الفرج: شخصية مندائية نقية كان لها دور في نصرة المندائيين ضد من تصدى لهم وهزيمتهم.

- يقولون إنه شيوعي وأنهم قد جاءوا إلى بيتنا وألقوا القبض عليه وهو بريء، أنا متأكد هو بريء، إنه طالب صغير العمر يافع ناعم العود ولا يفقه في السياسة شيء... إنه بريء.

قالها وبكى بحرقة فسقطت دمعاته ساخنة... لم أكن مهتمًا بالسياسة إطلاقًا ولم أحبها أبدًا، لا بل كنت وما أزال أمقتها، حيث أني لم أبذل أي جهد للتدرج في مراتبها عكس ما كان يطمح له الكثيرون، وحتى أني لم أكن أفقه فيها شيء سوى أنها فن التعامل مع الممكن.

- نعم يا أخي اهدأ قليلاً وسيكون الله إلى جانبك وسيفرج عن كربك وسينقذ ابنك من شدته.

شدد قريبي على كلماته الأخيرة، وهنا تشجعت وقلت له:

- يا عم ما دام ابنك لم يفعل شيء خطأ فسيخرج حرًا قريبًا ولا تبتئس وكن متفائلاً بعدالة الله، فتشجع وادعوا له بالفرج.

- من أين أستلهم الشجاعة وأنا محطم كليًا، ولا أعرف عن ابني شيء منذ عشرة أيام، هل أكل شيء، هل أعطوه شرابًا، هل هو حي أم ميت؟ لا أعرف البتة... لا أعرف أي شيء عنه... لا شيء.

- أنت تقول يا عم أن ابنك ليست له أية علاقة بالشيوعيين، ولا أية علاقة بالسياسة من أصلها، فكيف يقبضون عليه بهذه التهمة؟

سألته عن قصد كي أعرف أكثر ما يمكن من معلومات عليه... تمتم في سره وكأنه يدعو لابنه السلامة وبدأ حديثه:

- أنا متأكد أنه بريء ولكن المشكلة في كيفية الوصول إليه!! من يستطيع الوصول إليه وهو داخل سجن الأمن، هذا المكان الذي ترتعب من ذكر اسمه جميع نفوس العراقيين.

- يا عم اهدأ وتماسك وسأعمل على مساعدتك قدر استطاعتي...

وقلت:

- أبشر يا عم... لي صديق يعمل ضابط في الأمن العام اسمه (حسن) تربطني به صلة طيبة، فنحن نخرج ونسهر سويًا مع أصدقاء طيارين لي ومن ضمنهم أصدقاء مندائيين من طائفتنا، سأعمل على الاتصال به فورًا عن طريق الهاتف وسأرى ماذا سيحدث وكيف يمكنه مساعدتنا في الأمر.

أخذت اسم الشاب السجين من والده وكتبته على قصاصة صغيرة احتفظت بها في راحة يدي، وعلى فوري رجوت (ح.هـ) أن يعيرني جهاز هاتفه فسلمني إياه، رفعت سماعة الهاتف، بهدوء أدرت رقم البدالة كي أحصل على رقم مديرية الأمن ثم اتصلت بمديرية الأمن العامة، وبحزم العسكر رجوت عامل بدالتهم بعد أن أعطيته رتبتي واسمي الكامل أن يوصلني بالملازم حسن، والذي كانت مجموعتنا تُلقبه (حسن بزون) ولا أعلم لماذا أطلقوا عليه هذه اللقب، ألقيت التحية على حسن، عرفته بنفسي وسألته عن صحته وأحواله وعمله، ومن ثم تحولت إلى الموضوع مباشرةً وقلت له:

- أخي حسن أتصل بك الآن كي أطلب منك خدمة صغيرة...

فقال:

- تفضل أخي عباس أنا تحت أمرك...

صمت فأضفت:

- أخي حسن لدي شخص قريب مني وهو شاب يافع بريء، تمَّ اعتقاله من قبل جماعتكم، فأرجو مساعدتك على إيجاده وإعلامي كي أستطيع زيارته، ومن ثم نرى ما يمكن فعله لإطلاق سراحه من دائرتكم.

- وما هي تهمته ولماذا اعتقلوه؟

- يقول والده إنهم يدعون أنه شيوعي...

لم أكمل جملتي وإذا بي أسمع حسن يقول باضطراب واضح، بغير هدوء، وانزعاج بائن وبصوت بعيد نسبيًا كأنه أبعد سماعة الهاتف عن أذنه وفمه:
- ما الذي تقوله يا عباس هل تريد أن تخرب بيوتنا؟!

وعندها ودون أية كلمات توديع أقفل خط الهاتف في وجهي، ولم أعُد أسمع سوى: توت... توت... توت.

انتهت على هذا الشكل محادثتي مع ضابط الأمن حسن دون أي تقدم يذكر، ولم أحصل على أية معلومة تُهدئ من روع الأب، حصل كُل هذا في حضرة والد الشاب المندائي الشيوعي وعلى مسمع ومرأى قريبي.

لم أستسلم للواقع المرير ولم أبتئس لما فعله هذا (البزون)، وقلت للوالد المسكين الذي قدر كثيرًا محاولتي الجدية لمساعدته بعد أن علم من قريبي أني ضابط في القوة الجوية، وقلت له:
- يا عم سوف أذهب بعد غد إلى مديرية الأمن العامة وأرى ماذا أستطيع فعله كي أقابل ابنك، وسأعلمك بكل ما يحصل، ولكن أرجو منك أن تتماسك وتدعو لولدك بالنجاة، ولي بنجاح مهمتي.

الوالد المسحوق ينهض على طوله ينحني علي ويقبلني في جبهتي، ولا أعرف بماذا يتمتم في سره وقال:
- سوف أعرج غدًا إلى هنا وسأجلب معي بعض الملابس الداخلية والطعام له، أرجو منك أن تأخذها له معك إن أمكنك ذلك.

أجبته:
- نعم طبعًا سأخذها وأدعو هيي أن ألقاه وأعطيه الأغراض، وسأعمل قدر استطاعتي أن افعل شيء له.

على هذه الكلمات انتهى حديثي مع هذا العم لذلك اليوم واتفقنا على اللقاء مساء اليوم بعد التالي في محل قريبي، ومضى الرجل المسحوق يجر أقدامه من

الأرض جرًا دون أي أمل له بالحياة، وكأن الدنيا أطبقت عليه من جميع الاتجاهات فتهالك مرة واحدة.

لقد عكرت صفونا هذه المحادثة الحزينة، وآلمنا وضع هذا الرجل البائس اليائس وانقلب مزاجنا رأسًا على عقب، ولكن يا لطبيعة الحياة ومُستجداتها السريعة، إذ لم تمر ساعة واحدة إلا وكُنا قد نسينا ما قلب مزاجنا وعادت معنوياتنا إلى صفوها وحالها الأول.

اتفقتُ وقريبي على سهرة الليل التي سنقضيها في مطعم خان مرجان التراثي الرائع، الذي بُني عام ١٣٥٨ على يد (أمين الدين مرجان)، حيث كان نزلاً وساحة سوق ويقع في مدخل شارع البنوك، ليس بعيد عن كتف نهر دجلة العظيم حيث بُني وشُيد وفق الطراز المعماري البغدادي القديم، تمَّ تنفيذه بحرفية متناهية الجمال، يتميز بديكور الشناشيل البغدادية الجميلة ويتضمن فضاء واسع مفتوح تمَّ هندسته بعناية فائقة، المطعم يقدم خدمات راقية حيث العمال يرتدون أزياء تراثية مُميزة ويقدمون طعامهم التقليدي الفاخر، تلك الليلة الساحرة قضيناها على أنغام فرقة الجالغي البغدادي الرائعة.

مساء اليوم التالي زرت كعادتي محل (ح.هـ) بعد أن عرجتُ أولاً على محل والدي الطيب وأصدقاء طفولتي في خان الشاه بندر، حيث دعاني والدي الطيب لتناول وجبة الغداء الأسطورية المكونة من كُبة السراي ذائعة الصيت ورائعة المذاق مع الصمون (الخبز) العراقي الطازج والساخن التي أعشقها.

ما أن اتخذت مكاني في محل قريبي حتى دَسَّ في يدي كيس من البلاستك يحوي على ملابس داخلية و(كليجة) عراقية (معجنات داخلها تمر)، وأغراض أخرى كان الرجل المسكين قد جلبها وسلمها له ظهرًا، أخذتها منه، شكرته وواصلنا أحاديثنا الشيقة حول الحياة والحرب والسلام والنساء.

بعد سويعات مرحة أغلق قريبي أبواب محله وانطلقنا إلى نادي التعارف الخاص بأبناء طائفة الصابئة المندائيين، احتلينا مكان هادئ قرب منصة غناء

الفرقة الموسيقية التي عزفت ألحان غربية عالمية رائعة، احتسينا العرق العراقي الرائق الذي يصبح لونه حليبي بعد مزجه بالماء المثلج مع أنواع عديدة من المازات، كخليط اللبن الخاثر الممزوج مع الخيار والثوم ونوع من السلطة المضاف إليها حبات اللبلبي[1] وكذلك بعض المكسرات، سكرنا حتى بدت لنا الدنيا حلوة ورائعة ونسينا الحرب والقنابل وجبهات القتال وكوارثها إلى الأبد، وأرحنا بالنا بالمرة وكما يقول المطرب المصري الرائع (محمد عبد الوهاب) في أغنيته الشهيرة (انسى الدنيا وريح بالك).

نهضت ليس على عادتي أثناء إجازتي مبكرًا، وكأني أستعد للذهاب إلى جبهات القتال، تناولت إفطاري من يدي أمي الحنون، والمكون من الخبز البلدي المخلوط بالبيض المخفوق ويُسمى بالعامية (الدوك) مع بعض الخضار، شربت الشاي المضاف إليه الهيل الذي يعطيه مذاق رائع وروائح زكية، ارتديت ملابسي العسكرية، نظرت إلى المرآة وتطلعت إلى نجماتي الذهبية الأربع، والأجنحة التي تجاورها وهي تملأ كتفي بالكامل بإعجاب وفخر كبيرين، وهمست في نفسي أدعو من الله أن يُعينني على إنجاز مهمتي، وأن يساعدني كي أنقذ حياة هذا الشاب المندائي الشيوعي المسكين... خطر على بالي الرحيل الظالم لابن خالتي الشاب الطيب البريء (عزيز بطيخ ساهي الدهيسي) الذي قام النظام الحاكم بإلقاء القبض عليه في الفترة نفسها وإعدامه لاحقًا بسبب انتمائه للحزب الشيوعي، تألمتُ كثيرًا، إنما زادني ذلك عزمًا كي أسعى جاهدًا وأقدِّم أفضل ما عندي لإخراج هذا الشاب البريء

هَممتُ بالخروج حينها، توجهتُ لوالدتي وطبعتُ قبلة حارة على جبهتها ورجوتها أن تدعو لي بالتوفيق في مُهمتي، وضعت كيس الملابس تحت إبطي ونزلت سلم بيتنا الملتوي الطويل الذي يشبه أفعى الأناكوندا الجبارة، أوقفت

١- اللبلبي: الحُمص المسلوق.

سيارة أجرة بعد أن أخبرته بوجهتي، وانطلقت السيارة كالسهم نحو مديرية الأمن العامة الواقعة في مركز بغداد مقابل القصر الأبيض.

كان السائق شابًا كثيف الشارب هزيل البدن أسمر البشرة لطيف المعشر حلو اللسان، بدا لي وكأني أعرفه زمناً، تحدثنا تمازحنا مما شجعني أن أطلب منه أن يختار لنا أغنية مناسبة كي أرفع بها من مزاجي وأنسى للحظة مهمتي المستحيلة، فأخذ يقلب كاسيتات مسجل سيارته حتى وجد كاسيت المطربة السورية الرائعة (أسمهان) وهي تصدح بأغنية (يا بدع الورد يا جمال الورد)، سعدت معه بسماع صوت أسمهان الذي يدخل القلب دون استئذان، لحين ما رجوته بإيقاف السيارة بجانب القصر الأبيض الذي يقع على الجانب الآخر لمديرية الأمن العامة، ترجلت من السيارة، أخرجت محفظتي كي أنقدهُ حقه وإذا به يرفض استلام المال ويقول:

- أنتم يا سيدي تضحون بأرواحكم في سبيلنا كي نعيش هنا بسلام وأمان، فكيف لنا ألا نُجازيكم احترامًا وخيرًا، اذهب محفوفًا بسلامة الله وحفظه.

حاولت معه كثيرًا إلا أنه رفض رفضًا قاطعًا، لقد أحرجني هذا الإنسان الرائع وأشعرني أن الدنيا مليئة بالناس الأصلاء الخيرين، وكذلك أنساني قلقي مع الأمن العامة، شكرته كثيرًا على سمو أخلاقه ووطنيته العالية وتمنيت له الرزق الوفير والتوفيق والصحة الوافرة.

مضى سائق التاكسي وأنا مُتسمر في مكاني أنظر إلى بناية القصر الأبيض هذا المَعلَم التراثي التاريخي العريق، الذي تمَّ تشييده عام ١٩٣٤ في العهد الملكي، وتم افتتاحه من قبل الملك غازي الأول، وكان دار للضيافة يتم فيه استقبال ضيوف العراق من زعماء وملوك ورؤساء وغيرهم.

دخلت مقر مديرية الأمن العامة التي كان اسمها وما يزال يُفزع أكبر عراقي ويفقده صوابه، هذا الاسم مقرون بالقتل والتعذيب والدهاليز المظلمة التي تحصل فيها أنواع مُبتكرة لانتزاع الاعترافات، وكذلك اغتصاب النساء، ولقد

ارتبط اسمها باسم (ناظم كزار) الذي هو من أبشع الجزارين في تاريخ العراق، وهو مديرها في زمن الرئيس أحمد حسن البكر بُعيد انقلاب السابع عشر من تموز ١٩٦٨، علمًا أن ناظم كزار قاد محاولة انقلابية عام ١٩٧٣ للإطاحة بنظام الحكم، إلا أن محاولته فشلت وتم إعدامه على أثرها.

ما أن أسير متر حتى يسألني أحدهم إلى أين فأجيبه أن لدي سجين وأرغب بزيارته، فيسمح لي بالتقدم متر واحد، وهكذا حتى وصلت مكتب الاستعلامات، عندها توقفت ورجوت المسؤول بالسماح لي بزيارة هذا الشاب وأعطيته ورقة تحمل اسمه الكامل، كما أخبرته أن لدي أغراض أود تسليمها له، بعيون قط مخضرم نظر إليها بتمعن كبير، بعد أن توسعت عيناه وطلب مني اتخاذ أحد الكراسي والانتظار.

كانت الساعة تُشير إلى التاسعة صباحًا، مرت ساعة كاملة ولم يشير إليّ مسؤول الاستعلامات بأي شيء، وأنا كتمثال من عصر الفراعنة أجلس في مكاني وأنتظر، سئمتُ فما كان مني إلا أن نهضت وتوجهت نحوه وسألته إذا ما كان قد نسيني، أجاب بكلمة لا، فعدت إلى مكاني.

الوقت يمضي ببطء قاتل شديد، تمر ساعة ثقيلة وتحل محلها ثانية أثقل وتمضي ثالثة كريهة والقلق يلفني بالكامل ولا يدعني أخذ نفسي براحة، أنا أنتظر وأنتظر، ما أن يهُم المسؤول أن يتكلم حتى أقوم بتركيز كل انتباهي تجاهه، عساه أن ينادي علي ولكن لا صوت سوى الفراغ... "يا إلهي أنر الطريق لي واجعل قلوبهم تخفق بالعطف كي أنقذ حياة هذا الشاب البريء، أقولها وأكررها في سري".

مرت أربع ساعات وأنا مُتسمر كشجرة ضاربة جذورها في الأرض عميقًا أجلس على كرسي خشبي غير مُريح، فكرت في نفسي أن أسال عن صديقي الملازم حسن، وعدت وأخرجت هذه الفكرة من رأسي، إذ قام هذا الصديق بإغلاق سماعة الهاتف بوجهي حال ما سمع بكلمة الشيوعي.

بعد وهلة خرج أحد أفراد الأمن ونادى باسمي، قلت جاء الفرج فتقدمت منه بسرعة، سألني عن الأغراض التي كانت ما تزال بحوزتي فأعطيتها له وقلت له هل سآتي معك لأراه أجابني بكلا، إلا أنه أضاف أنه سيحرص على إيصال الأغراض له، وطلب مني الجلوس والانتظار... جلست وفوضت أمري لله.

كنت شابًا مندفعًا مفعمًا بشعور الوطنية الحقة والولاء للوطن، وتطغى على سلوكي ملكة إبداء المساعدة للآخرين دون مقابل، حتى وإن كنت أتوقع الأخطار من جراء فعل ذلك، لم أحفل بأي من تلك المخاطر إطلاقًا، لم أدرك آنذاك أن الدنيا تسير ليست حسب ما أعتقد وأفكر أنا، إنما تسير وفق منظور السلطة وقادتها وما يروه هم.

انتظرت طويلاً ولم يسمح لي أي أحد بلقاء هذا الشاب المسكين في حين بدأ صبري ينفذ شيء فشيء، حرارتي أخذت بالارتفاع الافتراضي بسبب انزعاجي الكبير، أفكار غريبة عجيبة بدأت تراودني وتأخذ مني مأخذ، هنا تذكرت جيدًا كلام الملازم حسن حين قال (هل تُريد أن تخرب بيوتنا) وفهمتها بإمعان.

وصلت عقارب الساعة الرابعة عصرًا وأنا كطفل تركه أهله ونسوه، أتألم من حسرتي على نفسي أولاً، وقلة الاهتمام التي جوبهت بها والتي أدَّت إلى جرح كبير في كبريائي، وأيضًا من حسرتي الثانية على حياة هذا الشاب الغض صغير السن، وكذلك من حسرتي الثالثة على ماذا سيحصل لوالد هذا الشاب المسكين حين أخبره بما جرى، نعم لقد وقعت في مأزق كبير دون دراية بما سينتج عنه وعلي أن أتحمل نتائجها مهما كانت ولست بنادم إطلاقًا.

أحاول تشتيت تركيزي وأجولُ بفكري نحو اللحظات الأولى التي تعارفتُ فيها على أول فتاة روسية في مدينة كييف الأوكرانية عام ١٩٧٣، وتدعى (روزا)، وكانت بالفعل اسم على مُسمى، فتاة في ريعان شبابها ترفل بجمال طاغي، طويلة القامة رشيقة ذات وجه مستدير كأنه قمر مستنير، وخدان مكتنزان بلون شقائق النعمان وشعر أشقر لماع سحري يأخذ العقل، طويل ينسدل على كتفيها

براحة واطمئنان حتى يتجاوز مرتفعات نهديها الشامخين نحو خصرها الدقيق، حين تبتسم تتفرج شفاتاها المخضَّبتان كالورد، حتى يطلق فمها عطرًا وعبق يحيل أي ذكر إلى أجزاء مُبعثرة.

مساء ذلك اليوم كنت أسير مع صديقي رحيم في الشارع الذي يخترق متنزه حدائق كبير يطل مباشرة على نهر الدنيبر العظيم، ويؤدي إلى المرقص الصيفي المكشوف الخاص بالشباب بعد أن أنعشنا مزاجنا بكأس من الكونياك الأرميني الشهير مع القهوة، كانت هي تسير مع صديقتها بنفس الاتجاه، ما أن رأيناهما وبطريقة الشرقيين حتى قام كل منا باختيار واحدة لنفسه، وكأنه أجرى معها توًا عقد زواج رسمي.

تقدمنا نحوهما بلطفٍ بالغ وتعارفنا دون عناء، معهما اتجهنا نحو المرقص، رقصنا على الموسيقى الروسية السريعة التي لم نكن نجيدها، ثم بدأت الموسيقى البطيئة حتى التحمت الأجساد والشفاه وغارت الأيادي إلى أماكن مجهولة تبحثُ عن مقاصدها، أسقطتُ في أذنها كلمات عن الحب كنتُ تعلمتها توًا فضحكت وصححتها لي، فما كان مني إلا أن أتحلى بشجاعة أكبر وأدعوها إلى التنزه خارج المرقص فوافقت على الفور.

أمسكتُ يدها التي ذابت بين يدي بينما سَرتْ في جسمي رعشة قوية لنعومتها وطراوتها، سرنا نحو ضفة نهر الدنيبر الذي يشق مدينة كييف إلى نصفين، كنت أجول بنظري وأبحثُ عن مكان مناسب كي أفرض سطوتي العاطفية عليها دون أن تظفر بنا عيون المارين الحاسدة، لم أجد مكانًا مناسبًا سوى القاعدة المكشوفة من جوانبها، والتي يقف عليها نصب الشاعر الأوكراني الشهير (تاراس شيفجينكا) وينتصب شامخًا كأنه آلهة أبدية تحرس النهر الخالد، في سابقة هي الأولى في حياتي أحسستُ بطعم قبلة الفم، كالتي كُنا نشاهدها في الأفلام المصرية مثل (أبي فوق الشجرة) للممثل الرائع عبد الحليم حافظ

والممثلة الجميلة نادية لطفي، وما زال طعم رضابها في فمي، كما شعرتُ بتدويرة الأثداء الطرية.

الأمور في مديرية الأمن العامة تجري بشكلٍ سيء ولا بد من اتخاذ أقصى درجات اليقظة، إذ لا يمكن التكهن بما يمكن أن يحصل لي ولهذا الشاب، أناجي نفسي وأقول إنهم يقومون بإهانة إنسانيتي بهذه الطريقة، فيا ترى ماذا عساهم يفعلون بهذا الشاب الصغير؟ لكن ما العمل! لا شيء سوى الانتظار.

الجو خانق وثقيل ومُكهرب والكل في حذر قاتل، الناس في هذا المكان على اختلافهم وحذرهم ثلاثة أنواع، الأول من يقبع تحت الأرض في أقبية وزنزانات هذه المديرية المُظلمة لا يعرف معنى النور ولا يرى بَصيص أمل في الحياة، فهو مَنسي ولا يمت للحياة بصلة، والنوع الثاني من يعمل فيها وهو أيضًا حذر من أية زلة كلام قد تُرسله دون مشقة إلى مكان تواجد النوع الأول، فهو آداة تعذيب آلية لا أكثر، والنوع الثالث من أهل الله كما يُقال عنهم مثلي حيث لا ناقة لي ولا جَمل في كل هذه اللُجَّة، يبدو أن الكل في هذا المجتمع ضحية، الضحية ضحية والجلاد أيضًا ضحية، ولكن شتان ما بين الاثنين.

كل لحظة كانت تمر عليّ كأنها دهر حالك السواد، نهضت إذ بدأت قدماي بإيلامي بعد طول فترة جلوسي وقلة الحركة، ملابسي العسكرية أصبحت رطبة وشبه مُبللة لحرارة الجو وتأثير الانتظار النفسي القاسي عليّ، مرة جديدة توجهت بالسؤال إلى مسؤول الاستعلامات الذي بدا وكأنه يراني لأول مرة ويجيبني بهدوء مُر وقاتل، عندها أدركت أن ما يحصل هو عبارة عن مسرحية تراجيدية بطلها أنا وليس غيري، وأنهم غير معنيين إطلاقًا بما جئت من أجله وهم يراهنون على قلة صبري وضعف حيلتي، وهذا حسب رأيي أفضل من أي إجراء آخر يقومون به ضدي.

لقد سقطت الرحمة والإنسانية من جدول حسابات من يعمل في هذا الموقع اللعين لذا أسقطتهم من اهتمامي، قلت في سري (اللعنة على الظالمين في كل

زمان ومكان) توكلت على الله بعد أن سلمت أمري له، حملتُ جسدي المتعب ونهضت بعد أن رسمت بصعوبة بالغة شبح ابتسامة على وجهي، أخبرت المسؤول بأني ذاهب وشكرته على عمله، رفع حاجبيه إلى الأعلى زَمَّ شفتيه دون أن ينطق بكلمة ومضيت.

إن كان أحد يسألني عن شعوري آنذاك فأجيبه بسهولة أني كنت في قمة التعاسة والحزن والخذلان، كوني لم أستطع إنقاذ أو على الأقل تقديم الدعم المعنوي لهذا الشاب الطري العود الذي لم أعرف مصيره، لم أحفل بعدد ساعات الانتظار الشاقة ولا بإحساس الحرج والإهانة التي أصابت كبريائي بمقتل، ولكني سأوفر على نفسي ذلك العناء وسأخرج طوعًا من هذه المديرية اللعينة مخذولاً دون نضارة بعدما دخلتها مزهوًا بلمعان نجماتي الأربع مع أجنحتها، التي لم تعنِ أبدًا على التحليق والطيران كي أقابل هذا الشاب وأمد له يد العون، لقد علمتني هذه التجربة القاسية الكثير ولكنها لن تحد من مَسعاي لتقديم أي مساعدة إنسانية إذا ما تطلب موقف لاحق ما.

غادرت مديرية الأمن العامة والشياطين تلبسني، غاضب ألهث وعرقي يتصبب مني غزير، فالتعب والتحسب وسَقم الانتظار وبعض الخوف قد فعلوا فعلتهم في، باختصار لقد أوضح قادة الأمن في الدولة لي دون كلمات مُباشرة ألا أتدخل أبدًا في مثل هذه الأمور الخطيرة، إنها من اختصاصهم وحدهم فقط دون غيرهم.

الجو حار جدًا والشمس الحارقة كأبليس تجلد رأسي بسياط أشعتها اللاهبة دون رحمة، أشرتُ إلى سيارة أجرة توقفت في الحال، اتفقت مع سائقها وانطلق بها نحو البيت... أجلسُ في مقعدي الأمامي أطأطئ رأسي وأفكر صامتًا أقلبُ أفكاري، لم أفهم ما الذي جرى وما يدور حولي.

عدتُ خائبًا إلى بيتي الواقع في ساحة السباع العظيمة، دخلت البيت ألقيت التحية على أمي الحنون بعد أن أخذ الجوع والعطش ومشاهد مسرحيتهم الحزينة

مأخذًا في جسدي وضميري، نزعت عني ملابسي العسكرية التي أصبحت مُبللة تمامًا، دخلت على فوري إلى الحمام كي أنتعش في ماءه وأغسل ما علق بي من أدران الأمن، وأنسى بعض مما حصل لي، لكن الماء كان ساخنًا جدًا بحيث لم أتمكن من الاستمتاع بدوش كامل، خرجت مُسرعًا أتمتم في نفسي وألعن كل هذا النحس الذي صادفني طوال اليوم.

مددت يدي إلى الطعام الشهي الذي جلبته لي أمي وأكلت قليلاً دون رغبة كبيرة كأن نفسي قد عافَت الطعام، رأتني أمي مهمومًا منكس الرأس، سألتني عن نتائج مهمتي فترددت في الإجابة، ويبدو أنها بفطرتها ومعرفتها بي قد فهمت فلم تلح عليّ وغيرت موضوع الحديث، ولكن كلماتها وقعت في نفسي وأشعرتني بنوع من الاستقرار والطمأنينة.

ارتديت ملابسي المدنية التي كانت حسب موضة ثمانينيات القرن الماضي بسرعة هائلة، واتجهت مباشرة إلى محل قريبي، لم يستغرق الذهاب إلى شارع النهر طويلاً، وأعود مرة أخرى إلى شارع النهر هذا المكان الجميل الساحر حيث يتنافس فيه المارة مع السيارات لتكون خليط غير متجانس، ولاحقًا تمَّ منع مرور السيارات وخُصص للمشاة فقط، كمثل شوارع المشي في عواصم الدول المتقدمة، وبذلك أصبح أكثر جمالاً وأفضل تنظيمًا وأكثر هدوء.

شارع النهر عامر بمحلات صياغة وتجارة المصوغات الذهبية والفضية، حيث يوجد أمهر صاغة العراق الذين تنتج أياديهم الماهرة أرقى أنواع القطع والتحف الفنية الذهبية والفضية المزخرفة والملونة بمادة المينا، والتي تحمل صور وأشكال تاريخية مُستوحاة من تراث العراق وحضارته، مثل تمثال أسد بابل وطاق كِسرى وبوابات بابل وغيرها، وتستمدُ كذلك مادته من بيئته الخلابة مثل النخيل وبيوت الأهوار، كما تعج هذه المنطقة بالسواح الأجانب القادمون من كل أرجاء الدنيا والذين يقدرون ويعشقون هذا الفن الأصيل ويبتاعون هذه القطع النادرة.

دخلتُ المتجر الصغير لقريبي والذي يقع على زاوية الشارع الموصل بين شارع النهر مع شارع الرشيد التراثي، وإذا بالرجل المسكين والد الشاب المسجون يقفز طائرًا بعد أن كان في حديث جدي مع صديقي، على ما بدا كان النقاش بينهما ينصبُ على ما سيحصل معي، ألقيت التحية بهدوء الأمراء وبقيت واقفًا انظر لعينيهما مباشرة، وبدأت بإخبارهما ما حصل معي بالتفصيل المُمل، وتمامًا كما حصل معي وقلت بأسى:

- يا عماه لم ألتقِ بابنك مع الأسف، ولكني سلمتُ كيس الأغراض بيد أحدهم الذي وعدني بإيصالها له، نعم إن ابنك في مديرية الأمن العامة، لم يسمحوا لي أن أقابله شخصيًا، حاولت جهدي وللأسف لم أفلح، لقد انتظرت من الساعة التاسعة لغاية قبل ساعة دون نتيجة تُذكر، لقد كانوا يسخرون مني حين جعلوني أنتظر طول هذه الساعات الثماني دون أية نتيجة...

أخفضت رأسي نحو صدري وتأسفت مرة أخرى... شكرني الوالد المسحوق على محاولتي رغم تحطم أخر بصيص أمل لديه تمامًا وفوض أمره لله، هزَّ رأسه لمرات إلى الأعلى والأسفل زامًا شفتيه بعنف، عاقدًا حاجبيه بقوة بحيث ظهرت جميع خطوط تجاعيد وجهه بوضوح أكبر، بدا كأنه قد شاخ بسرعة فائقة خلال ثواني معدودات، نهض مكسور الجناح ومضى، ولم أرهُ لاحقًا ولم أعلم عن مصير ابنه الشاب إطلاقًا.

مرَّت السنون، نضجت تجربتي الحياتية والعملية وتوسعت آفاق أفكاري رغم عدم تغير مبادئي وأسلوب حياتي وطريقة تعاملي مع الناس والأشياء، عندها فهمتُ أمورًا لم أكن أفقهها آنذاك، وهي أني كنت وكأني أسير على حافة السكين بفعلي هذا، والذي بدأ من اتصالي الهاتفي بالملازم الأمني حسن حتى ذهابي للبحث ومساعدة أحد الشيوعيين، الذين كان النظام يعتبرهم أعداء وخونة وفق منظوره آنذاك...

وحيث إني كنت مندائيًا وضابطًا في نفس الوقت، وتحسب عليّ جميع تحركاتي، أولهما كمندائي تُحسب عليّ تهمة الانتماء للشيوعية كون العديد من أبناء هذه الطائفة كانوا قد انضموا إلى الحزب الشيوعي، وهذا ما أسبغ طائفتنا باللون الأحمر، ناهيك عن أول تقرير حزبي كان قد كُتب يفيد باحتمال انتمائي للحزب الشيوعي، وثانيهما كضابط فإنه من غير المقبول إطلاقًا من وجهة نظر السلطات أن أقوم بالدفاع عن شخص شيوعي مناوئ لها، لقد جمعت أنا كلا الصفتين وبذلك كان الموضوع غاية في الخطورة التي لم أدركها ولم أعرها أية أهمية، ولكن الله الحي العظيم ملك أكوان النور قد حماني وحفظني من كل مكروه.

لاحقًا وحتى بعد أن علمت بخطورة فعلتي هذه لم أتردد يومًا في مساعدة مظلوم أو بريء، أو أي شخص تظلمه الدنيا وتحاول أن تسحقه ماكينة القتل اليومي العنيفة.

تجربتي و حرب الخليج الأولى

الحروب تُفقد الحياة بَريقها

بدأت الحرب العراقية الإيرانية أو حرب الخليج الأولى وأطلق عليها العراقيون تسمية قادسية صدام رسميًا في الثاني والعشرون من سبتمبر ١٩٨١، والتي دامت ثماني سنوات دموية، إثر انطلاق موجات كبيرة من الطائرات الحربية العراقية وقصفها للكثير من المطارات والمواقع العسكرية المهمة في إيران، بهدف شل القدرة العسكرية للجيش، التي كانت بالأساس منهكة إثر التصفيات الكبيرة التي حصلت للجيش بعد الثورة الإيرانية، وكذلك بهدف تحييد القوة الجوية الإيرانية، على إثر الضربات الجوية العراقية قامت إيران مباشرة وكرد فعل بالإغارة على المواقع العسكرية والقواعد الجوية العراقية ومنها القاعدة التي كنت أعمل بها، وهي قاعدة تموز الجوية (الحبانية)، وكنت أعمل ضابط برتبة ملازم أول مهندس في وحدة الهندسة الخاصة بطائرات السوخوي ٢٢ الروسية الصنع، حين كانت الطائرات الإيرانية تحلق على ارتفاعات منخفضة بشكل غير معقول، بحيث أمكننا مشاهدة رأس قائد الطائرة المُغيرة من الأرض.

أتوقف قليلاً لأحدثكم باختصار عن تاريخ قاعدة الحبانية، التي تُعد من أقدم القواعد الجوية في العراق تمَّ تحديثها وتوسيعها لاحقًا. بنى الإنجليز مطار ومعسكر الحبانية الذي يبعد مسافة ٧٠ كيلومتر غرب العاصمة بغداد بين مدينتي الفلوجة والرمادي إبان فترة احتلالهم للعراق، بعد أن اختاروا أفضل المواقع التي لا تبعد كثيرًا عن العاصمة، وتتميز بموقع فريد بين نهر الفرات وضفاف بحيرة الحبانية الذي يلتف كأفعى حول مطار الحبانية.

يتميز هذا المطار بمكان مثالي سواء فيما يتعلق بالدفاع عنه أو من ناحية جمال الطبيعة التي تحيطه، إذ تكثر الخضرة والمياه والتضاريس الأرضية المختلفة، أبدع المهندسون الإنجليز ببناء مرافق المطار ومنشئاتها ودور سكن الضباط والمراتب ودور استراحتهم، التي تميزت بالخُضرة والأشجار وكثرة الحدائق الغَناءة فيها، استخدم الإنجليز السكان المحليين لأعمال خدمة الإنجليز من منتسبي المطار، كان المطار بشكلٍ عام غاية كبيرة من الدقة والترتيب والجمال، المطار احتوى على مدرج بطول ثلاثة كيلومترات مع خط درج موازي له، كما تضمن عدة مخازن حديدية كبيرة لخزن الطائرات ومنشآت أخرى.

ولاحقًا ونظرًا لتزايد الحاجة إلى مطار أكبر قامت الحكومة العراقية بعد عام ١٩٦٨ بإنشاء قاعدة متكاملة جديدة تقع أعلى الهضبة التي تطل مباشرة على ضفاف بحيرة الحبانية، حيث احتوى على مدرج أطول من سابقه يسمح بإقلاع وهبوط الطائرات القاصفة بعيدة المدى الروسية الصنع، من نوع توبوليف ١٦ و٢٢، وتضمن كذلك على العديد من الملاجيء الكونكريتية لحماية الطائرات، والكثير من مقار الأسراب المقاتلة والقاصفة قريبة المدى، وكذلك منشآت كثيرة أخرى.

لابد من الإشارة إلى أن علاقتي بالعاملين معي من الضباط والرتب الأدنى كنواب الضباط والعرفاء والجنود المُكلفين كانت على أحسن ما يُرام، حيث ووفق سلوكي ومواصفاتي الشخصية التي أعتَدُ بها؛ كانت تجمعني بهم علاقات عمل مبنية على الثقة والاحترام والمودة، ناهيك عن الالتزام الكامل بضوابط الخدمة العسكرية، وبذلك كنت أحقق بنجاح بالغ أهداف عملي، متلازمًا مع بلوغ الحد الأعلى من العلاقات الإنسانية، لقد كانت المجموعة التي تعمل معي من أكفأ المتخصصين في عملهم، وطالما قدرت فيهم هذه الصفة وأكرمتهم لأجلها.

لغرض الاحتماء من قصف الغارات الجوية الإيرانية؛ قمنا بحفر خنادق شقية أرضية بعمق متر تحت سطح الأرض مباشرة، على الخطوط الفاصلة بين أوكار الطائرات وخط الطيران، في أول يوم من بدء العمليات الجوية وبُعيد عودة طائراتنا المقاتلة من إيران؛ حصل وأن ذهبت إلى منصة مدفع رُباعي مضاد للطائرات كانت قد نُصِبت بالقرب من وحدتي وعلى مقربة من خط الطيران، بهدف الاطلاع عليها - رغم أنها خارج اختصاصي - والتحدث مع العاملين عليها، وفي اللحظة التي كنت فيها أهم بالجلوس خلف مقعد قيادة المنصة؛ إذا بصافرة الإنذار تطلق صفيرها مُعلنة عن غارة إيرانية معادية، كنت قد جلستُ بالفعل خلف الرشاشة قبل أن أتمكن من معرفة طريقة عملها، وإذا بطائرة إيرانية تطير مباشرة فوق رؤوسنا بسرعة بطيئة وارتفاع منخفض جدًا، بحيث كُنا نرى رأس الطيار.

لم يسنح لي الحظ الحصول على فرصة إسقاط هذه الطائرة التي أخذت تحلق لاحقًا، وكأنها تقوم بألعاب جوية فوق القاعدة دون خوف، بعد أن ألقت خزانات وقودها الإضافية، حينها اعتقد الكثيرون أن الدفاعات الجوية العراقية قد أسقطت الطائرة، وتم الإعلان عن ذلك في نشرات الأخبار بزهوٍ كبير.

مرت بضعة أيام والحرب الشاملة بين العراق وإيران دائرة بشراسة ودون هوادة، كانت الغلبة فيها للجانب العراقي، إذ استطاع الجيش العراقي التوغل داخل الأراضي الإيرانية واستعادة بعض المناطق الحدودية التي احتلتها إيران سابقًا، ولكن الحرب الجوية الفعلية فيما يخص طائرات السوخوي ٢٢ التي أعمل عليها كانت تحتدم في الجبهات الشمالية في قاعدة الحرية (كركوك) وقاعدة فرناس (الموصل)، وكذلك قاعدة الوحدة في البصرة جنوبًا.

بقيت في قاعدة الحبانية ولم أكن أؤدي سوى أعمال دعم بسيطة، لم أقتنع ولم أشأ أن أستمر على هذه الحال، لاسيما وأن شُعلة الشعور الوطني على أوجها كانت قد طغت علي وتملكتني بالكامل، كما أن اندفاع وحماسة الشباب قد

طفحت على سلوكي وأثرت بي كثيرًا، هذا ما دفعني إلى الاتصال بأحد القياديين في قيادة القوة الجوية وإعلامه ورجاءه بقوة برغبتي الشديدة للتوجه إما شمالاً أو جنوبًا حيث تدور العمليات الجوية، لغرض الالتحاق برفاق السلاح هناك، وكي أكون في قلب الحدث، وأن أشارك فعليًا في العمليات الجوية الجارية.

بعد لا أكثر من ساعة واحدة اتصل بي القائد ليُعلمني بالتوجه مع أفراد وحدتي الهندسية إلى قاعدة الوحدة الجوية (الشعيبة سابقًا)، فورًا على إثرها بَدأت باختيار أفضل ما لدي من النواب الضباط الفنيين، مع إجراء حملة سريعة لتهيئة المستلزمات الهندسية المطلوبة للعمل الميداني، وهذا تطلب مني الاتصال بقائد القاعدة للحصول على موافقته على تأمين طائرة هيليكوبتر، لكي استطيع إعادة المستلزمات الهندسية من مطار ثانوي قرب مدينة هيت غرب بغداد، كُنا قد نقلناها إليه قبيل بدء العمليات الجوية، تحسبًا لنزول اضطراري لطائراتنا هناك.

وفي أجواء المعركة المحتدمة؛ أقلعت بي الهليكوبتر ليلاً، والتي كادت أن ترتطم عند هبوطها بأرضية المطار الثانوي وتتحطم، لانعدام الرؤية بسبب تطاير الرمال الكثيفة، أو لقلة خبرة الطيار في مجال الطيران الليلي، ما أن عُدنا إلى قاعدة الحبانية مُحملين بالمستلزمات الهندسية؛ حتى حزمنا أمرنا بالتوجه إلى البصرة ليلاً، بواسطة عجلتين عسكريتين كبيرتين، وانطلقنا بكلِ سرعة نحو هدفنا.

صبيحة اليوم التالي اقتربنا من حزام مدينة البصرة الجميلة ومررنا بساحة سعد البصرية الشهيرة ومضينا غربًا حتى وصلنا إلى قاعدة الوحدة الجوية، لم تكن في القاعدة وحدة هندسة جوية مُتخصصة في طائرات السوخوي ٢٢، وكان قدومنا إليها وإسنادنا سرب المقاتلات فيها؛ بمثابة إنقاذ حقيقي لرفع موقف صلاحية الطائرات، وعلى فورنا بدأنا العمل، كان تواجدي مع مجموعتي الهندسية التي قَسمتها لاحقًا إلى مجاميع عمل صغيرة في أوكار حماية الطائرات

الكونكريتية التي تقع مباشرة على خط الطيران، واتخذنا هذا الموقع للاحتماء من ضربات الطائرات الإيرانية المُغيرة وكذلك القصف المدفعي الإيراني لاحقًا.

سعى الطيارون العراقيون إلى التحليق على ارتفاعات منخفضة لتفادي رصد الدفاعات الجوية الإيرانية، ولكن وبسبب قلة خبرة الطيارين الحربية آنذاك التي كانت تجعلهم يدخلون في مجال تشظي رمايتهم، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث أضرار جسيمة في جسم ومحركات طائراتهم، وهذا ما جعل عملنا مُضاعفًا، أنهك جُهدنا وأثر جدًا على خزين المواد الاحتياطية للطائرات.

ما كانت الطائرات العراقية المُغيرة تعود إلى أوكارها حتى نهرع مُسرعين لفحص محركاتها، التي غالبًا ما كُنا نجدها متضررة، الأمر الذي يتطلب تبديلها، نعم لقد قمت مع مجموعتي بتبديل العديد من محركات الطائرات المتضررة حيث بلغ عددها إلى أكثر من خمسة عشر محرك خلال أسبوعين لا أكثر، وهذا أدَّى إلى صرف كامل خزين المحركات الموجود في مستودعات القوة الجوية وشحة غير متوقعة للمحركات الاحتياطية آنذاك، هذا تزامن مع عدم وصول محركات احتياطية جديدة من الاتحاد السوفيتي (سابقًا)، مما حدا بالقيادة إلى تغيير أوامر وتكتيكات الرمي للطيارين، لغرض تفادي دخول الطائرات في مجال تشظي رمايتهم وإصابة طائراتهم، من الجدير بالذكر أن عمليات تبديل المحركات كانت قبل الحرب تجري بشكل نادر جدًا.

المثل الشائع يقول: "الضرورة أم الاختراع"، ولحاجتنا القصوى إلى محركات جديدة لتأمين نسبة صلاحية قصوى للطائرات؛ بغية استمرار زخم الطيران وإدامة السيادة الجوية للقوة الجوية العراقية على سماء المعركة في الجبهة الجنوبية، وخاصة إقليم البصرة؛ قمت بتجاوز بعض محدوديات الاستخدام المُثبتة في الكتب الفنية، وأذكر هنا حالتين أولهما حينما قررت استخدام محرك ذو صلاحية خزن مُنتهية؛ حيث أن المحرك كان يُعتبر وفق التعليمات الفنية

مُنتهي الصلاحية ولا يجب تركيبه على الطائرة، وكان يُفترض أن يُرسل إلى الاتحاد السوفيتي لغرض إخضاعه إلى التصليح العام، بعد أن قمت بتركيبه على إحدى الطائرات وتشغيله ليلاً وفحصه عدة مرات والتحقق الكامل من صلاحيته، حينها أثنت القيادة على قراري وأصدرت أوامرها بالسماح للطائرة بإجراء فحص جوي...

وحسب طلبي حلقت الطائرة بقيادة أحد الطيارين العراقيين الماهرين، وبعد أن قام الطيار بإجراء الفحوصات الجوية المركزة عليها، كنت بانتظار لحظة هبوطه بلهفة شديدة، وطرت فرحًا حين علمت أن المحرك كان يعمل بشكل جيد وحسب المواصفات الهندسية المطلوبة دون أية ملاحظات أخرى.

الحالة الثانية وليست الأخيرة؛ كانت حين تضررت إحدى طائراتنا بواسطة الدفاعات الجوية الإيرانية الكثيفة حيث أصابت إحدى قذائفهم جسم الطائرة واخترقته، أصابت الجزء الخلفي للمحرك وأحدثت ثقبًا فيه، مما استدعى إلى إخراج المحرك من الخدمة.

كنا بِأمس الحاجة إلى زيادة نسبة صلاحية الطائرات في ظل شحة المحركات الاحتياطية، وتحديدًا المحركات، ومع إصراري وقراري الحازم أرسلت جزء المحرك المعطوب إلى معمل تصليح الطائرات الواقع في بغداد، وتم من قبلهم لحام الثقب وإعادته إلينا بالسرعة القصوى، قمت بتركيبه ثانية وفحصه لعدة مرات وبشكل مُركز لغرض التحقق من صلاحيته، بعدها قررت إعطاءه الصلاحية الكاملة للطيران، كان هذا خارج السياقات الهندسية والعملية المتبعة في العمل على الطائرات.

يُقال إن (الفُنون جنُون) وإذ كنت ضابطًا شابًا يافعًا مندفعًا عالي الهِمة مُفعم بالوطنية، كنتُ أتحرق رغبة في الدفاع عن بلدي العراق، وصون شعبي من العدوان ونوايا الاحتلال، فلقد قمت ببعض الأعمال التي كان لا يمكن لي أن أفعلها لو كنت أكثر نضجًا، ومنها أذكر حالتين مُتميزتين عن سواهما؛ أولهما

حين قامت طائرتان مُحَملتان بحاويات النابالم الحارقة وهدفها حسب أوامر القيادة العسكرية العليا قصف وإحراق الغابات والنخيل، التي تجاور خط الحدود الجنوبية الفاصلة بين البلدين، والتي كان يتحصن بها الجيش الإيراني ويستخدمها كقاعدة انطلاق لمهاجمة قطعاتنا العراقية، حلقت الطائرتان نوع سوخوي ٢٢ بقيادة أمهر الطيارين من سرب ١٠٩ تجاه أهدافها، وبعد مضي حوالي نصف ساعة هبطتا بعد أن عجز الطياران عن رمي حمولتهما، ولم يفلحا في تحقيق أهداف القيادة العسكرية المرسومة.

لقد كان وقت عصيب على جميع مُنتسبي القاعدة، وكذلك الحال على القيادة العسكرية العليا، التي انتظرت نتائج إيجابية لهذه الطلعة المهمة جدًا، والتي لم تتحقق لسبب غير مفهوم للجميع، كما أن الهاجس الأمني كان قد حضر آنذاك بقوة، وتمحور حول احتمال عدم رغبة الطيارين طوعيًا بعدم إلقاء حمولتهما قد أضفى أهمية كُبرى للتحقيقات، لاسيما وحسب ما علمنا أن الرئيس صدام حسين بنفسه كان يتواجد في مقر القيادة العامة للقوات المسلحة آنذاك.

هبطت إحدى الطائرتين، وفي لحظة تماس عجلاتها بأرضية المدرج حدث أن انفصلت إحدى حاويات النابالم من الطائرة بسبب قوة الارتطام بالأرض، والتي أدَّت إلى تحطمها وانتشار مادة النابالم على المدرج واشتعالها، مما أدَّى إلى توقف مؤقت لعمل المدرج، ولكن ولله الحمد أن الطائرة لم تتضرر ولم يصب الطيار بأي ضرر.

هرعنا على فورنا إلى خط الطيران وبدأنا بإطفاء حرائق النابالم وتجميع المتبقي منه في مكان بعيد عن خط الطيران، بغية إعادة تشغيل المدرج والسماح للطائرات بالتحليق والهبوط منه، كان عملنا هذا مُنافي تمامًا لتوصيات السلامة الجوية، حيث كانت الطائرات تهبط بالقرب مِنا وبسرعها العالية، ولم نكن نبالي إذا كانت تُشكل خطورة بالغة على أرواح العاملين.

ومن طرائف الأمور التي ما زلت أذكرها جيدًا وأضحكُ كثيرًا حين تطوف كغيمات صغيرة في خيالي، ومنها في ذلك اليوم رغبت بشدة احتساء الخمر، حيث مرت أسابيع دون أن أفرغ قطرة كحول في بدني، لذا أوصيت مسؤول حانوت القاعدة الذي يتبضع يوميًا من مدينة البصرة الرائعة والتي تملأني ذكرياتها الجميلة بأحلى الأحداث؛ أن يشتري لي زجاجة ويسكي أو عرق أو أي نوع من أنواع الخمور، عاد خائبًا ولم يجلب لي أي شيء، كنت ذلك اليوم قد عقدت عزمي وتحت أية ظروف على شرب أي شيء يحتوي نسبة من الكحول يمكنه إسكاري وتخدير عقلي مؤقتًا، حتى وإن كان عطر كولونيا، كما التزمتُ بالتعهد لزملائي الضابطين اللذين يُشاركاني غرفتي إن أقيم لهما حفل ساهر في المساء بعد انتهاء العمليات الجوية، تُتوجه زجاجة ويسكي اسكوتلندي.

فقدت أملي في الحصول على زجاجة الويسكي، أو على الأقل العرق العراقي، لذا استدعيت النائب ضابط مسؤول مستودع المواد الاحتياطية في وحدتنا، حيث يتوفر كحول فني مُخصص للاستخدامات الفنية للطائرات، طلبت منه ملء زجاجة نظيفة بالكحول والإتيان بها لي ففعل دون تردد، قلت في نفسي سوف أضع كأس العرق هذه الليلة على رأسي وأجعل جميع سكان البصرة يرقصون حوله.

هذا الكحول الفني يستخدم في منظومة تبريد رادار الطائرة، ويكون على نوعين أحدهما سام قاتل ينقل شاربه إلى الجحيم كما حصل مع بعض الخبراء الروس سابقًا، والنوع الأخير طيب ورحيم ويرسل صاحبه إلى النعيم، فكيف لي معرفة الصالح من الطالح منهما؟ وهنا ومضت في ذاكرتي شرارات أحداث حصلت لي أثناء دراستي في الاتحاد السوفيتي مع الفنيين الروس، حيث علموني بذكاء كيفية اختبار نوع الكحول، ذهبت إلى مطعم الضباط دخلت إلى المطبخ حكيت مع الموظف المدني مسؤول المطبخ وطلبت منه حبتي بطاطا نيئة فأعطاني

فورًا، ابتعت قناني بيبسي كولا مع بضعة أنواع من المازات اللذيذة وبسرعة الصوت عدت إلى غرفتي.

بكفاءة مهندس ناجح، وبعزم لا يلين لتحقيق هدف سامي وهو الوصول إلى حالة تسامي على جراح حالة الحرب الزائلة والعودة إلى أصل الحياة، وكأنني أجري فحص على طائرة معطوبة؛ قمتُ بجعل كل بطاطا نصفين، وسكبت الكحول عليهما فلم يتغير لون البطاطا إلى اللون الأزرق، واحتفظتا بلونهما الأصفر الشفاف، ففرحت وكأني انتصرت في الحرب، ولزيادة الاطمئنان كررت العملية مرة أخرى وحصلت على نفس النتيجة فزاد إحساسي بالنصر الحاسم المؤزر، فجأة سرت رعشة لذيذة خفيفة في بدني طربًا، إذ أن فحصي أثبت توًا صلاحية الكحول وأن زجاجة الكحول هذه ستذهب بي وبزملائي إلى جنان الخلد، شربنا تلك الليلة الرائعة سكرنا حتى الثمالة تحدثنا بشوق عن أهلنا وعن النساء بحنان محموم، نسينا همومنا، هجرنا قساوة الحرب وآلامها وأضعناهما خلف ظهورنا، عدنا إلى إنسانيتنا كبشر صالحين وانطلقنا إلى سماء صافية نقية.

فجر اليوم التالي وصلت لجنة التحقيق الخاصة قادمة من قيادة القوة الجوية مكونة من ضباط رفيعي الرتب والمرتبة إلى قاعدة الوحدة الجوية، لغرض تقصي الحقائق وكشف الخلل في عدم سقوط حاويات النابالم من الطائرات، وكنت أرافقهم منذ اللحظات الأولى كوني المهندس المختص في هذا النوع من الطائرات.

بدأت اللجنة عملها بفحص حمالات الحاويات وأقفال الإحكام للطائرة، وكذلك حمالات الحاويات، ولم يجدوا أي شيء شاذ فيها, فما كان مني أن أقترح عليهم أن نقوم بعملية فحص مُطابقة تمامًا لما يحصل في الجو بعد رفع الطائرة على حوامل خاصة وتشغيل محرك الطائرة، وزيادة قوة الدفع، ومن ثم تجربة إطلاق حاويات النابالم منها.

إن فكرتي هذه كانت من أكبر أعمالي تهورًا وغير المحسوبة النتائج، والتي لا تخضع لأي من التعليمات الهندسية للطائرة، ولا لتعليمات سلامة الطيران وأمن الأشخاص قمت بها في حياتي، كانت اللجنة تنصت إلي باهتمام واحترام بالغين، ولقد وافقوا على تنفيذ فكرتي، وفعلاً تمَّ لهم ذلك بعد أن تمَّ ملء الحاويات بالماء والرمل بنفس وزن مادة النابالم تقريبًا.

تربعت كقيصر روسي في قمرة قيادة الطائرة، كبستُ على زر التشغيل، زأر المحرك، أطلقت له العنان فانتفض كالمجنون، قمت برفع عجلات الهبوط التي تستند عليها الطائرة على الأرض، وجعلت الطائرة تستند كليًا على الحوامل الثلاث فقط وكأنها في وضع الطيران في الجو تمامًا، دفعت قابض المحرك إلى ما قبل الدفع القصوي بقليل، هنا أخذت الطائرة بالاندفاع نحو الأمام، وفي هذه اللحظة قمت بعملية إطلاق الحاويات، في حين كان أعضاء لجنة التحقيق يتابعون الحدث بتركيز وحذر كبيرين، لم يحصل أي شيء ولم تُقذف الحاويات، قمت بتكرار محاولة الإطلاق ولم تنجح مرة أخرى، أعدنا الكرة مرات عديدة ولم تفلح العملية تمامًا بعدها فقدنا الأمل، أنزلت عجلات الطائرة أطفأت المحرك وترجلت منها كمقاتل متخاذل لم يُنجز نصره.

اتخذت القيادة العسكرية العليا ذلك اليوم قرارها بإلغاء عملية القصف بالنابالم كليًا، بعد أن اقتنعت تمامًا أن هناك خلل فني بحت وراء فشل عملية القصف، وهو بالتأكيد خارج عن إرادة الطيارين، وهذا يؤيد بشكل لا يقبل الشك عدم مسؤولية الطيارين في إفشال مهمة القصف.

نعم لقد شاركت فعليًا بمهمة إبعاد الشبهة الأمنية، وتبرئة صديقي الطيارين الماهرين، وإنقاذ سمعتهما، حيث كان الأمر يمكن أن يُعتبر خيانة عُظمى تأتي على حياتهما وحتى حياة عوائلهما، لقد كان يُمكن للطائرة التي قمت بتشغيلها وفحصها بهذه الطريقة غير المألوفة في عالم الطيران أن تنتهي بكارثة محتملة كبيرة، وذلك في حال سقوط الطائرة عن محاملها وانفجارها وإصابة جميع

الأشخاص في الوكر التي كانت تربض فيه، ولكن الله تعالى كان دومًا وما يزال يقف إلى جانبي في الصِعاب، يحفظني، يقيني كل أنواع الشرور، إذ أنه سبحانه وفي علياه يعلم جيدًا بنواياي الصادقة.

أحداث كثيرة حصلت معي أثناء الحرب وأذكر منها ما حصل لي في قاعدة علي بن أبي طالب الجوية في الناصرية، حين تمَّ إرسالي إليها عام ١٩٨٦، وبعد أن انحدر موقف صلاحية الطائرات نوع السوخوي ٢٢ هناك وتعسر إصلاح الطائرات العاطلة، كنت حينها أعمل في قاعدة البكر الجوية التي تقع قرب مدينة بلد شمال بغداد, حين صدرت لي أوامر قيادة القوة الجوية باعتباري مهندس ذو خبرة مُتخصص في هذا النوع من الطائرات، بالتوجه إلى الناصرية لمدة أيام معدودة لدراسة الموقف الهندسي والوقوف على أسباب تردي صلاحية الطائرات، وعدم قدرة الكادر الهندسي هناك على تصليح الطائرات، لرفع صلاحية الطائرات المقاتلة كي تستطيع التحليق والطيران لتنفيذ الواجبات القتالية التي تصدرها القيادة العامة للقوات المسلحة.

تركت زوجتي في قاعدة البكر مع ابني البكر الصغير وابنتي حديثة الولادة وهي مريضة، والتي جاءت توًا بولادة مبكرة، وانطلقتُ بسيارتي الشخصية بهمة مواطن عراقي غيور يعشق كل ذرة تراب من بلده، ويذود عن حياضه لأخر قطرة في دمهِ نحو الناصرية وبدأت عملي فور وصولي.

ما أن أطلعت على الموقف القتالي للطائرات وكيفية سير عمليات التصليح والإدامة؛ حتى تبلورت في عقلي فورًا أسباب تردي أعمال التصليح والصيانة التي تكمن في سِر انخفاض صلاحية وجهوزية الطائرات للقتال، قمتُ بتشخيص الخلل وأطلعتُ قائد السرب هناك، وكان الطيار (م. م)، الذي بدوره أخبر قائد القاعدة العميد الطيارة الركن (الموصلي) بالأمر، كنت على اتصال دائم بالضابط المسؤول في قيادة القوة الجوية وهو المقدم (ع.ع)، الذي وعدني أن تكون فترة مهمتي لعدة أيام فقط، رجاني قائد السرب الطيار (م.م) أن أكتب

تقرير مفصل عن الأسباب، وأن أدرج حلولي ومقترحاتي للمعضلة، ففعلت بكل طيب خاطر حيث نقله مباشرة إلى قائد القاعدة.

قام قائد القاعدة الموصلي الأصل بإرسال تقريري إلى مديريتي الحركات والعمليات في قيادة القوة الجوية، وطالبهما بإبقائي في القاعدة، رغم صدور قرار نقلي من قاعدة البكر الجوية إلى معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية في التاجي في بغداد.

تمر الأيام وصلاحية الطائرات آخذة بالارتفاع البين، يرتاح قائد السرب والقاعدة وكذلك مسؤولي القيادة جميعهم ولكن لا أحد منهم يوافق على عودتي إلى وحدتي الأصلية، حتى هذا ضابط القيادة (ع.ع) الذي وعدني كان قد انقلب عليّ ونكر وعده، مما اضطرني إلى أن أنهره بقوة عبر مكالمة هاتفية وهذا ما أساء في وضعي أكثر.

ساءني الوضع بالكامل، إذ شعرت أنه قد تمت التضحية بي من دون جميع المهندسين الآخرين بسبب كفاءتي وإخلاصي في عملي، دون أن تكلف قيادة القوة الجوية نفسها في إرسال مهندس آخر يكمل المهمة، بعد أن شخصت المشكلة وأصلحت أضرارها بالكامل.

أول إجازة لي عدتُ إلى بغداد حين كانت زوجتي مع أولادي ما تزال في بيت أهلها، كنت مُشتاق جدًا ومتلهف لرؤية ابني زيد وابنتي الحديثة الولادة التي تركتها وهي مريضة جدًا، لم أستطع التعرف عليها إذ تحسنت صحتها خلال أسبوعين فقط، وكبرت واستدار وجهها وأصبح كالقمر المنير، لذا لم أستطع تمييزها عن الأطفال الآخرين مما أحدث عليّ حينها فصلاً فكاهيًا نتذكره بدهشة بالغة حتى الآن.

تمر أسابيع وشهور دون تغيير رغم محاولاتي الرسمية الحثيثة في العودة التي تتكسر على صلابة موقف قائد القاعدة ومطالباته القوية في إبقائي، في زياراتي

إلى قيادة القوة الجوية استطعت الحصول على وثائق قرار نقلي إلى التاجي، والصادر من إدارة الضباط، حيث جلبته معي وسلمته إلى مقر قاعدة علي، وهذا أيضًا لم يُحدث أي تغيير، كررت المحاولة عدة مرات دون نتيجة تذكر، يأست وتأقلمت على الوضع السيء ورسخت في بالي فكرة واحدة هي أن في هذا البلد يتم استغلال المواطن الصالح والإنسان الوطني والشخص المبدع أبشع استغلال، في حين يجلس الشخص الغبي والمهمل متربعًا على عرش الراحة والاستقرار.

استمر هذا الحال البائس حتى صدور أمر يقضي بنقل قائد القاعدة الموصلي، وقدوم العميد الطيار الركن مزاحم الحسن ابن عم رئيس النظام السابق صدام حسين، السعادة لا تأتي دون ثمن وعليّ ألا أذعن للمحتوم، وما أن بدأ القائد الجديد عمله في القاعدة حتى كتبت رسالة في طلب مقابلته شخصيًا.

فصل الشتاء البرد قارس رغم سطوع الشمس الدافئة، الحرب مستمرة بعنف لا مثيل له والمعارك على الجبهات تستعر رحاها بقوة، عمليات القصف الجوية على أوجها، الطائرات العراقية تبسط سيادتها المطلقة على أجواء الحرب حتى تكاد تحسم المعارك الأرضية جميعها.

العالم كله يُساند صدام في حربه ضد الخميني، دولاً وحكومات وشركات ودوائر استخبارات تدعم العراق، عشرة بالمائة من المنتج الحربي العالمي يأتي إلى صدام حيث أخذت طائرات الحمولة التي تنقل أسلحة وقنابل وصواريخ تهبطُ مباشرة في قاعدتنا في الناصرية كي توصل الذخائر بسرعة أكبر، كي يتم تحميلها على طائراتنا ورميها على الإيرانيين دون تأخير، أحيانًا تتوقف العمليات الجوية بسبب سوء الأحوال الجوية وتردي مدى الرؤية لدى الطيارين، عناصر التصنيع العسكري المسؤولون عن الأسلحة الكيمياوية يزاولون عملهم بسرية فائقة، الطائرات وحسب أوامر القيادة العامة للقوات المسلحة تحلق نحو

أهدافها في إيران كي تسحق أرواح الشباب الذي يرسلون بالآلاف إلى جبهات القتال دون حساب أو تعداد.

دخلتُ إلى مكتب قائد القاعدة الجديد ابن عم الرئيس، كان رجل متواضع استقبلني مُبتسمًا وطلب مني الجلوس، ما أن استقريت في مقعدي ونظرت إلى وجهه حتى تراءت لي لحظة مصافحتي لابن عمه قبيل ابتداء الحرب، كان الشبه بينهما واضح كما هي الثقة العالية بالنفس. طلب مني تفسير لسبب مقابلتي له فما كان مني فجأة ودون مقدمات أن قلت له:

– يا سيدي أنا أعرف من تكون لذا سوف أقولها لك بصراحة مطلقة كي تطلعوا على حقائق الأمور، في هذا البلد هل يجب أن يعامل الشخص الذي يعمل بجد وبضمير وإخلاص ووطنية عالية، هل يجب أن تتم معاملته بشكل سيء بينما الشخص غير الكفء لا يعاني في حياته وعمله من آية معوقات أو مشاكل؟

فأجابني وعيونه ترسلُ توهج يدل على الرِضا والقبول قائلاً:

– أنا أتفق معك، لا يجب أن يعامل أي وطني بهذا الشكل، ولكن دعني أسألك ما الموضوع وما المشكلة؟

– يا سيدي لقد عوملت بطريقة سيئة، وبشكل غير إنساني بالمرة حين أرسلت من قاعدتي إلى هنا بواجب لمدة أيام معدود، لتزويد القاعدة والعاملين فيها بالاستشارة الهندسية اللازمة لغرض رفع صلاحية الطائرات وتشخيص علة تلكؤ تصليح الطائرات في القاعدة، وها أنا أقبع لأكثر من ثمانية أشهر كاملة رغم صدور أمر نقلي من مديرية إدارة الضباط إلى معمل محركات في التاجي، هل ترضى قيادة البلد وقائدها بهذا الحال؟

قائد القاعدة مزاحم:

– طبعًا لا...

وحال ما أحسستُ بتجاوبه الكامل معي أضفت:

- يا سيدي هل تريدون أن أنصح الضباط المهندسين الأقل رتبة أو الجدد ألا يكونوا على كفاءة، ألا يعملوا بجد وإخلاص كي لا يقعوا في نفس المأزق وقلة الراحة هذه التي أعانيها؟ هل هذا ما تريد القيادة؟ لا سيما وأنا أشعر أن حيفًا كبيرًا قد وقع عليّ بسبب كفاءتي وعملي الجاد المخلص؟

قائد القاعدة مزاحم يبتسم كي يزيل عني هموم الشعور بالظلم ويقول:
- طبعًا لا...

- سيدي تفضل هذا قرار نقلي إلى معمل تصليح المحركات في التاجي، تفضل اقرأه واقرأ تاريخ إصداره...

تطلع بأمر نقلي باهتمام بالغ وأضاف:
- لا تهتم كثيرًا، سوف تتسلم كتاب نقلك اليوم والآن تحديدًا، اطمئن ولا تنزعج بقوة عزيزي مقدم عباس، فالدولة لا تقبل بمثل هذه التصرفات التي حصلت لك والتي نتيجتها لا تخدم العمل في الجيش أو القوة الجوية.

ضغط قائد القاعدة على جرس خاص كي يدخل المقدم ضابط ركنه، قال له أن يُكمل كتاب نقلي إلى وحدتي فورًا... شكرته كثيرًا، أخذت كتاب نقلي غير مصدق ما حصل لي، كان الجو رصاصيًا غائمًا بكثافة، إلا أنني لم أستطع مقاومة رغبتي بترك هذه القاعدة إلى الأبد حتى وإن كان مساء ماطر بقوة، لذا أطلقتُ العنان لسيارتي مُتجهًا نحو بغداد ولم أعد إليها أبدًا.

حادثة طريفة وخطيرة أخرى حصلت حين استأجر العراق عدد محدود من الطائرات الفرنسية نوع (سوبر إتندار) القادرة على حمل صورايخ من نوع (أسكوسيت) المضادة للسفن والبواخر، قامت هذه الطائرات بالعمل من قاعدة الوحدة الجوية في البصرة حيث كنت أعمل، وأخذت تضرب أهدافها البحرية بكل دقة واقتدار مُحققة نتائج باهرة مما أحدث خلل كبير في عمليات تصدير

النفط الإيراني الذي كان يُصدر من خلال الخليج العربي، وأربك قدرة حركة السفن والبواخر الإيرانية كثيرًا.

كان الأمن العراقي في القاعدة قد تكتم على هذه الطائرات بشكل غير مسبوق كي لا يعلم الإيرانيون بمكانها، فيسعون للإغارة على القاعدة وتدمير الطائرات، كما قام بتأمين حماية كثيفة وقوية جدًا لها، بحيث كانت عجلات الأمن نوع بيك أب تسير بسرعة هائلة مُخلفة عاصفة من التراب على جانبي هذه الطائرات أثناء تسارعها على الأرض ولغاية تحلقيها إلى السماء متجهة نحو أهدافها الإيرانية الموجودة في عرض البحر.

كان الأمن صارمًا في هذا الموضوع حتى أنه لم يسمح لأي شخص وحتى لي شخصيًا التقرب من طائرات السوبر أيتندار، عند محاولتي مشاهدتها عن قرب، كان لي قريب اسمه (ف) يسكن مدينة البصرة، لم يكن يتصل بي إطلاقًا على هاتف القاعدة، وإنما كُنا نكتفي باللقاءات في المدينة عند خروجنا للتمتع في أجواء نوادي البصرة الليلة الرائعة. مساءً وحين حل الظلام وخيم السكون على الكون بعد أن هدأت أرضية مدرج القاعدة من ضغط عجلات وهدير الطائرات، رن جرس هاتف مكتبي واقتحم عليّ هدوئي، بينما كنت أهم بتغيير زيي العسكري بغية الذهاب إلى نادي الضباط في البصرة لتناول عشاء المشويات اللذيذ مع احتساء بضع زجاجات من البيرة الطيبة المذاق، قطع (ف) عليّ كل هذا باتصاله الذي بدأه قائلاً:

– أهلاً عزيزي عباس كيفك إن شاء الله بخير؟

لم أكد أجيبه على سؤاله حتى بادر:

– وكيف طائرات السوبر أيتندار عندكم؟ أنا أعرف أنها موجودة في قاعدتكم وتطير منها؟ هل شاهدتها كيف هي؟

لم ينقطع عن إطلاق آلاف الأسئلة نحوي، حاولت بقوة أن أحرف الموضوع في اتجاه آخر فسألته عن أخباره وأحوال الأهل، إلا أنه كان مصرًا على الاستمرار

في موضوع الطائرات المحذور جدًا، الجميع يعلم أن جميع خطوط الهاتف في العراق وقت النظام السابق كانت مراقبة، إلا أن الخطوط العسكرية كانت مراقبة بشكل دائم ومركز، وهذا يعني أن المكالمة بأكملها كانت قد سُمعت وتم تسجيلها بالكامل، لقد كنت في غنى عن أية مساءلة أمنية جديدة، أنا أتلكأ في حديثي وهو مستمر بعفوية الشباب، فما كان مني إلا أن أضع سماعة الهاتف وأنهي المحادثة وبهذا أنهيت الموضوع.

لم تمر سوى أيام حتى التقيته، كلمته، عاتبته بهدوء وشرحت له خطورة التحدث في مثل هذه المواضيع على هاتف عسكري، فهم الموضوع ووعدني بعدم تكرار ذلك، وهذا ما أصبح سابقة طريفة نتندر بها حين تضرب الخمرة في رؤوسنا في الليالي الملاح ونضحك عليها كثيرًا.

صواريخ ذرية عابرة للقارات

الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب

أرسطو

الثاني من أيلول عام ١٩٩٠، تحت جناح الليل عبرت القوات العراقية خط الحدود الكويتية وغزت دولة الكويت الصغيرة ذات الثروة النفطية الهائلة، وأخضعتها للسيطرة العراقية بالكامل دون مقاومة تُذكر، فارِضة أمر واقع جديد بموجبه تمَّ السيطرة على كامل الثروة النفطية للكويت، وتم الإعلان عن ضم الكويت رسميًا كمحافظة برقم تسعة عشر وتشكيل حكومة كويتية شكلية.

انصعق العالم بأسره وأصيب بصدمة كُبرى إثر هذا العمل الجريء الذي قام به الرئيس العراقي صدام حسين، وما أزال أخدم في الجيش العراقي آنذاك، أصبتُ أنا شخصيًا بصدمة كبيرة حين علمت بالنبأ الصاعق وأنا أتوجه صباحًا إلى معمل تصيلح المحركات النفاثة الجوية في ضاحية التاجي شمال بغداد، اعتبرتها آنذاك حركة تكتيكية مؤقتة لغرض الضغط على الكويت لتغيير سياستها.

من الناحية العسكرية يمكن تفسير ما حدث بأنه عملية استثمار النصر الذي حققه الجيش العراقي على الجيش الإيراني في حرب الخليج الأولى، ومحاولة إبراز القدرة العسكرية الكبيرة للجيش العراقي، لاسيما وأن الرئيس صدام حسين قد تسلم الضوء الأخضر من الأمريكان وإخضاع الكويتين لإرادة ومطالب صدام الاقتصادية والنفطية.

لقد حقق الرئيس صدام ما عجزَ عن تحقيقه الزعيم عبد الكريم قاسم سابقًا، ولكن هذا الغزو قد حدث في ظروف مُغايرة تمامًا، وفي ظل نظام سياسي عالمي جديد، وهذا ما لم يدركه صدام.

اعتقد صدام أن الكويتيين يحاولون الإضرار بالعراق اقتصاديًا بعد خروجه مستنزفًا من حربه مع إيران، وذلك عن طريق إغراق السوق النفطية الذي يؤدي إلى انخفاض سعر النفط، وبالنتيجة أدَّى إلى انخفاض كبير في واردات العراق النفطية، في الوقت الذي كان العراق يحتاجها كثيرًا لإعادة بناء بُنيته الأساسية وتعمير ما تمَّ تدميره في الحرب وتسيير عجلة الدولة الاقتصادية.

إن عدم تجاوب قادة الكويت مع مطالب صدام، الأمر الذي اعتبره إعلان حرب على العراق، مع الأخذ بالاعتبار موقف الإدارة الأمريكية الذي جاء على لسان سفيرته في العراق (أبريل غلاسبي) أثناء لقائها بصدام، واعتبارهم الموضوع شأن عربي / عربي داخلي، التي اعتبرها صدام إشارة خضراء، كما – وحسب ما أعتقد– أنه أراد أيضًا استثمار قوته الهائلة التي خرج بها بعد حرب الخليج الأولى، وإظهارها كقوة مُهيمنة رادعة في المنطقة، بسب كل هذه الأمور اتخذ صدام قراره بغزو الكويت.

استمر غزو العراق للكويت عدة شهور على الرغم من صدور عدة قرارت من الأمم المتحدة بضرورة انسحاب الجيش العراقي من الكويت، وكذلك محاولة العديد من القادة العرب والأجانب التوسط لحل الخلاف وإقناع الرئيس العراقي بالانسحاب، إلا أن صدام تعنت وظَل مُصر على موقفه ولم يسحب قواته منها.

كُنت وزملائي الضباط في وحدتي العسكرية نناقش حدث الغزو بحذر شديد، إذ أن أية كلمة إضافية يمكن أن تُؤدي بقائلها آنذاك إلى المهلكة لا محال، ولكن يمكن القول إن الكثير من العراقيين كانوا فرحين نسبيًا لهذا الإجراء دون وَعي أو اكتراث بنتائجه الكارثية غير المتوقعة.

استمر الأمر على هذا الحال والأجواء السياسية مُلبدة ومُغلقة، والاستعدادات العسكرية الأمريكية آخذ بالازدياد، والعالم كله يترقب ويحبس أنفاسه لما سيحصل لاحقًا.

دخل الرائد (ك) ضابط التوجيه السياسي في معملنا إلى مكتبي والذي كان قد نُقل قبل أشهر قليلة إلى وحدتنا، قادمًا من مديرية الاستخبارات في قيادة سلاح الجو العراقي، أدَّى التحية العسكرية دون تكلف وتربع دون استئذان على كرسي يقابلني، أخرج علبة سجائره من جيبه وأشعل لفافته وبدأ ينفث دخانه في أجواء مكتبي النظيفة، الرائد ينحدر من محافظة تكريت مسقط رأس الرئيس صدام حسين، وهذا ما يمنحه قوة ومركز سلطة ويُضفي على كلامه مصداقية أكبر، إضافة إلى مركزه الكبير في حزب البعث الحاكم، هو رجل معتدل القامة نسبيًا أبيض البشرة جميل الطلعة، يتحرك بهدوء مُصطنع وكأنه يُقلد الرئيس صدام في حركاته وطريقة سيره، والتي تُظهره بهيبة أصحاب السلطة.

تحدثت والرائد عن أمور العمل، ثم انتقلنا إلى الأمور السياسية وعن احتمالات حدوث الحرب، وإذا به يُصرح بقناعة صُناع القرار وثقتهم أن الحرب لن تحدث إطلاقًا، وعند استفساري منه عن مبرراته أجابني بحزم:
- إنهم (يقصد الأمريكان) يعلمون جيدًا بقدرة العراق الردعية الهائلة، وهذا ما يجعلهم يفكرون ألف مرة قبل الإقدام على شن الحرب ضد العراق.

- يا إلهي، ولكنهم يحشدون قواتهم وأساطيلهم بأعداد هائلة، فكيف تفسر ذلك يا رائد (ك)!!

- دعهم يحشدون ويقرعون طبول الحرب بقوة، ولكنهم لن يقدروا على القيام بها.

قال الرائد بهدوء كامل وراحة تامة... زدتُ من نبرة سؤالي أكثر ولكن بحذر:

– وهل تستطيع إخباري عن مدى قدراتنا الدفاعية، وما الذي يجعلهم كما تقول يفكرون ألف مرة قبل شن الحرب؟

أجابني:

– لأنه لدينا ما يؤذيهم في الصميم، نعم لدينا الكثير لردعهم.

– وما هو بحق السماء! هل لديك معلومات عن قدرتنا الدفاعية أو الهجومية؟

– سوف أفشي لك سِر يا أخي وسيدي وأرجو أن تحفظه، نعم لدينا يا أخي صواريخ عابرة للقارات...

– هل حقًا لدينا مثل هذه الصوريخ؟ أنت أعلمُ بذلك يا رائد (ك) بالتأكيد، فزدني من معلوماتك وارفع من معنوياتي ولا تبخل.

– نعم لدينا صوريخ عابرة للقارات وتحمل ترابًا ذريًا، وهذا ما يجعلهم يهابون العراق، ولذلك لن يتجرأ أحد للعدوان على العراق تاج رأسهم.

– لم أسمع قط أننا نملك صوريخ عابرة للقارات!

بدهشة كبيرة قلت له...

– نعم لدينا منها الكثير، ولقد قمنا بتجربة أحدها وذلك بإطلاقه على أهداف مُحددة في موريتانيا، حيث حلقت الصواريخ نحو أهدافها بدقة مُتناهية سحقتها بقوة مُحققة نتائج باهرة... وبهذه الصواريخ نستطيع أيضًا ضرب نيويورك وسحقها.

– حقًا... يا إلهي... وهل تستطيع هذه الصواريخ أن تضرب أمريكا؟

– نعم إنها مصنوعة خصيصًا لتصل وتضرب أمريكا، ومداها يصل إلى نيويورك وواشنطن، وهذا سر خوف أميركا من قدرات العراق الاستراتيجية.

– ولكن يا عزيزي ما هذا التراب الذري الذي تتحدث عنه؟

- التراب الذري هو نوع من مُخلفات المواد الذرية التي ننتجها هنا في العراق، وله قدرة تدميرية هائلة، حيث يستطيع تدمير مدن بأكملها خلال ثوانٍ معدودات...

قالها مُبتسمًا متفاخرًا...

- يعني نحن لدينا ما نفخر به ونُقاوم به إذا ما حصل عدوان على العراق!!

- نعم بالتأكيد لدينا ولذلك هُم يخافون من العراق ألف مرة.

- وهل معلوماتك هذه أكيدة يا عزيزي؟

- نعم إنها أكيدة مائة بالمائة ولدينا أسلحة سرية أخرى لا ترغب القيادة بالإفصاح عنها وستكون مفاجأة كبرى.

- هذا يعني أن الحرب لن تقوم، بَشّرك الله خيرًا...

- شكرًا... نعم الحرب لن تقوم إطلاقًا.

أنهى الرائد (ك) حديثه وبعد أن نفث أخر نفس من غليونه مضى إلى وجهتهِ.

هكذا انتهت محادثة الرائد معي قبيل فترة قصيرة من العدوان الأمريكي ضد العراق، لقد حفظت كل ما أفادني به ولكنني لم أحفظ سرهُ، إذ أفشيتُ به إلى العديد من أصدقائي المؤتمنين وبعض أقاربي.

انتهت المُهلة التي أعطتها الأمم المتحدة للعراق لإخراج قواته من الكويت ليلة الخامس عشر من يناير كانون الثاني ١٩٩١، ولكن الرئيس صدام لم يستجب، بعد منتصف ليل السابع عشر من يناير بدأت عاصفة الصحراء واستُهِلت بحملة جوية كثيفة لقوات التحالف، لضرب أهدافها في العاصمة العراقية بغداد وبقية مراكز القيادة، والسيطرة بواسطة الآلاف من الطائرات القاذفة والصواريخ المُسيرة بعيدة المدى نوع كروز وتوما هوك.

ليلتها كنت ومعي عائلتي الصغيرة وعائلة والدي وعوائل أشقائي وشقيقاتي وعائلة عمي وأولاده وعوائلهم، باختصار أن كل أفراد عائلتي الكبرى قد تجمعوا في نقطة واحدة عندي وفي بيتي، كُنا جميعًا نقبع تحت سقف بيتي الواقع في ضاحية الغزالية في جانب الكرخ من بغداد، تجمعنا جميعنا نترقب ما سيحصل بخوف وحذر شديدين، بعد أن كنت قد هيأت جميع مستلزمات الغذاء والدواء وأماكن الحماية الممكنة داخل البيت.

في محاولة منا لتفريغ شحنة القلق والخوف الكبيرة التي عشناها تلك الليلة؛ قمنا بلعب الورق دون رغبة، واحتساء بعض من قناني الجعة العراقية اللذيذة، بغية قتل الوقت وتهدئة أعصابنا، لم تكن قناعتنا قوية في إقدام جميع أمم الأرض على إجراء كبير وعنيف ضد الشعب العراقي، الذي لم يزل يئن تحت وطئة حرب الثماني سنوات مع إيران، وكان رجاءنا من الله ألا يحدث المحذور وتقع هذه الحرب القذرة.

انتهينا من لعبة الورق قبيل منتصف الليل بقليل ولم يحدث شيء، فزادت معنوياتنا قليلاً ولكن هاجسنا لم ينتهِ، كفندق بخمس نجوم اتخذ الجميع أماكن نومهم فيه، وكان الأطفال على غير عادتهم غير هادئين إطلاقًا، وكأن حدسهم كان يخبرهم بحتمية اشتعال نيران الحرب في اللحظات القريبة القادمة. تمدد الجميع في فراشهم ولكن أحد لم يستطع أن ينام، وما أن بدأت عيوننا تشعر بالإرهاق، وجفوننا أخذت تهبط بثقل، وعقولنا تودع وعيها؛ حتى نهض الجميع على أصوات الانفجارات التي كانت تُسمع من كل جهات البيت، انطلقت صفارات الإنذار مُعلنة عن بدء الغارات الجوية، تجمعنا خائفين مرتعبين، بدأ الأطفال بالبكاء وابتعدنا عن الشبابيك خوفًا من تحطم الزجاج، أطفئنا جميع أنواع الإنارة التي بالأساس كانت ضعيفة جدًا، وحبسنا أنفاسنا بانتظار ما سيحصل أكثر، كنت وزوجتي نهتم كثيرًا بابنتنا (فرح) الوليدة حديثًا، والتي

ولدت قبل شهرين فقط، نتنقل بها في أرجاء البيت من مكان إلى آخر كي نضعها في مكان أكثر أمنًا.

اهتز بيتنا من شدة القصف الجوي والصاروخي، وكذلك من صوت وأنوار المقاومات الأرضية العراقية التي استمرت طول الليل، ونورت بقوة سماء بغداد اللاهبة آنذاك، سمعنا هدير شديد لحظة مرور أحد الصواريخ الموجهة كأنه مر من فوق رؤوسنا، حينها زاد هذيان الأطفال من غير إرادتهم، بعض النسوة بدأت بالبكاء رُعبًا من شِدة أصوات القصف واستمر الحال حتى الصباح.

صباح اليوم التالي للعدوان وبعد محاولاتي العديدة للاتصال بقائدي؛ انطلقت إلى الموقع البديل، وهي مدرسة طلاب في منطقة العامرية كُنا قد أقمنا فيها مقر مؤقت، استقر فيه ضباط ومراتب وحدتنا، وتم حفظ بعض من مُعداتنا الهندسية فيها.

قبل أيام من بداية الحرب، وتحسبًا من شحة المواد الغذائية في الأسواق، ولعلمي المسبق بقدوم أهلي جميعًا إلى بيتي؛ قمت بشراء كميات هائلة من مواد التموين الجافة وتخزينها، وكذلك ابتعت كمية كبيرة من مختلف أنواع اللحوم التي غَصَّ بها جهاز التجميد الكهربائي حتى حافته العليا.

أعلنت الحرب رسميًا مع استهداف الطائرات الأمريكية محطات توليد الطاقة الكهربائية في عموم مناطق العاصمة بغداد، الأمر الذي أحال ليل بغداد الجميل إلى ظلام مرعب دامس، اعتقدت أن انقطاع التيار الكهربائي لن يطول كثيرًا ولكنني كنت على خطأ كبير، في حين بدأت كميات المواد واللحوم الموجودة في جهاز التجميد بالتحلل والذوبان، مما استدعى النسوة إلى طبخ بعض من هذه المواد وتقديمها للموجودين، ولكن بسبب حالة الخوف والرعب اللتان أصابتا الجميع أفقدتهم شهية الأكل تمامًا، ولم تقرب أياديهم الطعام إطلاقًا، مما حدا بي لإخراج كميات كبيرة من اللحوم وتجفيف بعضها بعد تغطيتها بطبقة كثيفة من

الملح لغرض زيادة فترة خزنها لطبخها لاحقًا، كما منحتُ الكمية الأكبر منها إلى الجنود المرابطين في نقطة الحراسة القريبة من بيتي.

على الجهة المقابلة للمدرسة التي تقع في ضاحية العامرية؛ كان يقع مقهى شعبي يُقدم الشاي العراقي ذو مذاق الهيل الرائع والقهوة الساخنة، في الأيام العادية يمارس الناس فيه أنواع اللعب الشعبية مثل الدومينو والشطرنج والنرد، ولكن بسبب الحرب وقصف الطائرات والصواريخ؛ فإن زبائن المقهى قد اختفوا ولزموا منازلهم خوفًا.

اعتدنا ومن باب الحيطة والحذر والتحسب من أن تقوم الطائرات الأمريكية بقصف المدرسة بعد أن أعلنوا في بياناتهم – أن الجيش العراقي يستخدم المدارس كمخازن للأسلحة – أن نذهب إلى هذا المقهى، نجلس فيه حيث تمتد عيوننا إلى السماء باحثة عن موجات الطائرات وآثار الصواريخ.

وفي أحد الصباحات الشتوية الباردة والشمس تطلق أشعتها مهزوزة مُنكسرة وخائفة كحال العراقيين البائس؛ كنت أجلس في المقهى أنهب النظر بعيون مرهقة إلى السماء، كي أرقب الطائرات المُغيرة والصواريخ المسيرة كروز – التي تحلق بسرعة منخفضة نسبيًا، وعلى ارتفاعات منخفضة جدًا تُتيح للناظر إلى إمكانية متابعتها – وأدعو الله أن يُنهي هذه الحرب غير المتكافئة بسرعة، أو كما أسميتها في نفسي بالمجزرة البشرية الهائلة من طرف واحد، وألا تطول كأختها وسابقتها التي كانت مع إيران...

في هذه اللحظات طرق في بالي لحظة ولادة ابنتي فرح التي ولدت قبيل بدء الحرب بأقل من شهرين، فرح طفلة جميلة تُضيء كالقمر، بيضاء البشرة شقراء الشعر صغيرة الوزن والحجم، تشبه لحد ما وجه إنسان أوروبي، لذا أطلقنا عليها اسم (بوش) دلعًا وتشبهًا بالرئيس الأمريكي جورج بوش من ناحية الألوان وسحنة الوجه، جاء مخاض زوجتي في مساء يوم كنت فيه أعمل في وحدتي العسكرية في معسكر التاجي شمال بغداد، حينها كان الجيش في وضع

استعداد قصوى، اتصلت بزوجتي هاتفيًا لتعلمني أن موعد ولادتها قد أزف وأنها ترقد في مشفى اليرموك الواقع في جانب كرخ بغداد.

زرتها في اليوم التالي ولم تكن قد أكملت مهمتها، لذا عرجتُ على بيت خالها الواقع أيضًا في ضاحية اليرموك وليس بعيد عن المشفى، قضيت وقتًا طيبًا مع ابن خالها (ص.ج)، حيث احتسينا العرق العراقي اللذيذ مع ما جادوا به من مازات طيبة ومكسرات وأحاديث عن الأوضاع العامة في العراق، التي لم تخلُ عن مواضيع السياسة وصولاً إلى نقاش سياسية عن البيريسكرويكا والغلاسنوست التي انتهجها أخر رئيس للاتحاد السوفيتي السابق وهو ميخائيل جورباتشوف، كانت لحظات طيبة قضيناها بفرح غامر في انتظار مولودنا الموعود.

فجأة قدمت إحدى قريبات زوجتي لتخبرنا بحصول الولادة وأن الله قد رزقنا بطفل جديد، نهضت على فوري واتجهت مسرعًا نحو المشفى، ما هي إلا دقائق معدودات حتى تخطيت عتبته سائلاً عن مكان زوجتي، جلست في غرفة انتظار الزائرين لفترة قصيرة حتى جاءت إحدى الممرضات التي أعلنت عن اسم زوجتي، عندها هممتُ بالوقوف، كانت الممرضة ليست بمعنوية جيدة حين أخبرتي أن زوجتي قد ولدت صبية وليس صبيًا، ولم تكن تتوقع أن أنقدها ببعض المال إكرامًا لبشارتها كما معهود في مثل هذه الحالات، لكني فاجأتها حين قلت لها – الحمد لله إننا قد رزقنا بصبية وسنطلق عليها اسم فرح ابتهاجًا لمقدمها – بدت على المُمرضة علامات الدهشة والارتياح، خصوصًا بعد أن دسست بيدها مبلغًا جيدًا كي تتقاسم به مع زميلاتها المُمرضات الأخريات في قسم الولادة.

لم تكن صحة زائر الحياة الجديدة على ما يرام، وكان يتطلب إبقائها في قسم الولادات الخاصة لعدة أيام، مرت أيام ذهبت أنا مع شقيقة زوجتي الصغرى إلى مَشفى اليرموك، أخذنا صغيرتنا الجميلة فرح وبدلاً أن نذهب بها إلى البيت

مباشرة اتخذنا قرار بالذهاب إلى الأسواق المركزية في ضاحية العدل لتسوق بعض الأشياء احتفاءً بالزائر الجديد، ولهذا اتخذت ابنتي فرح هذا السلوك كطقس دائمي في حياتها وأصبحت تعشق التسوق.

فجأة ودون سابق إنذار وقعت عيني على وجه شخص مألوف وكان الرائد (ك) يسير على بُعد أمتار من أمام المقهى متبخترًا كالملك، بمشيته الهادئة، غير آبه بما يجري، يرتدي بنطلون الجينز ويمسك بطرف سيجارة من نوع أجنبي، ناديت عليه فأقبل، ألقى التحية، دعوته لتناول كأس من الشاي فلبى دعوتي، ألقى بجسده المُكتنز على كرسي انتصب إلى جانبي وبدأنا الحديث... حاولت استغلال هذه الفرصة لأشفي منه غليلي بطريقة غير مباشرة ودون قسوة، كوني كنت قد نقلت حديثه الناري سابقًا إلى أهلي وبعض أصدقائي والذين سخروا مني لاحقًا بعد الهجوم، بحذر وبطريقة ظهرت وكأنها أقرب إلى الجَد والبراءة والمواساة أطلقت استفساري، مع تكلفي برسم ابتسامة رعناء غير مفهومة على وجهي المُتعب، إذ أن أي استفزاز له قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة العواقب.

- هل تذكر يا رائد (ك) حين قلت لي إننا نملك صواريخ عابرة للقارات ذات رؤوس تحمل تراب ذري قادرة على ضرب واشنطن ونيويورك فتمحقها وتسحقها، أين هذه الصواريخ ونحن نرى أن صواريخهم تُمطر سماء بغدادنا الحبيبة كل دقيقة وثانية، وتُحيل نهارنا ليلاً وليلنا إلى نهار ساطع؟ أين كلامك يا رائد (ك)؟ (بجدية بالغة) هل تنتظر قيادتنا الحكيمة الوقت المناسب لإطلاقها أم ماذا؟.

بحرج بالغ أطرق الرائد برأسه، تململ في جلسته كأنه يحاول اكتشاف الكلمات من باطن الأرض، جفون عينيه تتحرك كأجنحة الفراشة التي تحاول الهروب، مرات بلع ريقه بصعوبة وأخيرًا انتقى كلماته بعناية كبيرة كي لا يقع في شباك خطأ جسيم وقال:

- لقد تبين أن كل ما قيل لنا كذب... لا نمتلك أية صورايخ ذرية ولا هُم يحزنون.

وسكت...

- يا إلهي ولكن كيف تقول إنه كذب وأنت بثقة كبيرة قلت لي إننا نملك أسلحة سرية وصواريخ عابرة للقارات وأن الحرب لن تقوم! والأكيد أن هذه الحرب قد قامت وأن الدنيا استعرت كجهنم بالنار، ونحن لم نطلق أي من هذه الصواريخ العابرة للقارات!

أطلق الرائد (ك) ابتسامة المهزوم وقال:
- لا أعرف والله... لقد كذبوا علينا... قد يكونوا حاولوا رفع معنوياتنا بهذا الكلام... وتبين أن الأمر كله هراء في هراء.

هز الرائد (ك) يده بحركة تُعبر عن استخفافه التام واستهزاءه برمة الأمر، نهض من مكانه ومضى... مضى الرائد ولكن الحرب استمرت ولم أره طول فترة الحرب.

لم تكن للعراق أية صواريخ بالستية عابرة للقارات كما ادعى الرائد (ك)، ولم يكن هناك تراب ذري، ولكن الأكيد أن بلدنا إثر قصف الحلفاء له دون رحمة أو إنسانية؛ تحول إلى كومة من تراب.

عملية قصف مفاعل ديمونة الإسرائيلي

مهمة كادت أن تُغير التاريخ لم تنجز

بعد ظهيرة أحد الأيام الصيفية شديدة القيظ عام ١٩٧٩؛ انتهت فترة الطيران والتدريب الاعتيادي في سرب المقاتلات القاصفة نوع سوخوي ٢٢، مُتغيرة الجناح الروسية الصنع، الذي كان يتواجد في قاعدة تموز الجوية (الحبانية) حيث كنت أعمل، أخذ جميع أفراد طاقم الطيران من طيارين ومهندسين وفنيين استراحة الغداء وتوجهوا بعد ذلك إلى دور استراحتهم.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى تمَّ استدعاء جميع الطيارين والمهندسين على عجل من غرفهم إلى مقر سرب الطيران ٤٤، كما استدعي المراتب الفنيون إلى وكر الطائرات، أسرع الجميع للالتحاق بوحدتهم ولم يعلم أحد سِر هذا الإنذار المُفاجئ.

دخل جميع الضباط إلى مقر السرب ووجدوا قائد السرب آنذاك المقدم الركن الطيار (غ. ك)، الذي عقد على فوره اجتماعًا على قدر كبير من الأهمية والسرية لضباط السرب، وأبلغهم بصدور الأوامر من القيادة العليا إلى السرب لتنفيذ مهمة جوية غاية في الأهمية، وكانت الخطة تقضي بالتهيؤ الكامل لإعادة تموضع طائرات السرب بأكمله إلى قاعدة قريبة من إسرائيل، ومن ثم تنفيذ عملية قصف مفاعل ديمونة النووي الإسرائيلي الذي يقبع في قلب صحراء النقب.

جدران مقر السرب ٤٤ كانت قبل عام ١٩٧٩ تعجُ بصور كبيرة للنساء الفاتنات، حتى إن بعضهن ظهرن شبه عاريات، ولكن بعدما حدثت الثورة الإسلامية في إيران حتى تغير الوضع تمامًا، إذ تمَّ إزالة هذه الصور من

الجدران، وكذلك أخذ بعض الطيارين الذين كانوا يعاقرون الخمر بشراهة ويتفاخرون بمرافقة النساء؛ بترك كل ما يتعلق بحياة الدنيا والتوجه نحو التَعبد والدين.

إن موجة التدين أخذت تتوسع وتزداد، بحيث أصبح تأثيرها واضح على البعض، الذي أخذ يحتسي الخمر بالخفاء خوفًا أن يكتشفهم الآخرون، وكانت غرفتي شاهد على هذا، كانت السلطات وقيادة القاعدة على علم بما يجري، إلا إنها لم تستطع فعل شيء، ذُهل جميع الضباط من شدة المفاجأة وخطورتها، إلا أنهم أبدوا حماسة واستعداد كاملين لتنفيذ المهمة كما خُطط لها حرفيًا.

تم تحديد خطة الهجوم ومراحلها والقائمين عليها، وتسمية المهندسين والفنيين الذين سيتحركون في الرتل الأرضي لاستقبال الطائرات المُغيرة في المطار الجديد – ولم أكن من ضمنهم، لالتحاقي حديثًا بالسرب – كما صدرت الأوامر لتحميل الطائرات فورًا بخزانات وقود إضافية كبيرة مع حمولة قصوى من القنابل.

هرع الجميع كخلية نحل تمَّ تحريكها توًا إلى تنفيذ العملية بهمة عالية في ظل حرارة الجو القاسية، حيث كانت الشمس الحارقة تُسقط أشعتها عمودية غير مُبالية على رؤوس العاملين، معدن الطائرات كان ساخنًا جدًا، ما أحدث صعوبة على العاملين في عملهم أثناء لمسهم سطح الطائرات، إلا أنهم رغم ذلك استطاعوا وبسرعة كبيرة تجهيز جميع طائرات السرب بالحمولة المطلوبة حسب الأوامر، وأصبحت الطائرات وطياريها على أهبة الاستعداد لتنفيذ مهمة قصف مفاعل ديمونة النووي الإسرائيلي، والذي يبعد مئات الكيلومترات عن بغداد.

قام مهندسوا السرب والذين تمَّ تسميتهم للتحرك ضمن الرتل الهندسي الأرضي بتهيئة جميع المستلزمات من أدوات وعدد ومهمات أرضية، وكذلك عجلات إدامة وتشغيل وفحص الطائرات وجعلها موضع الجهوزية الكاملة.

أخذ طيارو السرب جميعًا بدراسة خرائط منطقة الطيران وتضاريسها، وخط سير طائراتهم الأكثر أمنًا للوصول إلى أهدافها، دراسة جميع الاحتمالات الواردة التي يمكن أن تُعيق إنجاز العملية المهمة، وبذلك أصبح الجميع على أهبة الاستعداد لتنفيذ أعقد وأخطر عملية جوية يقوم بها سلاح الجو العراقي ضد هدف حساس جدًا؛ ألا وهو المفاعل النووي الإسرائيلي ديمونة.

انتظر الجميع بحذر شديد الأوامر العسكرية العليا في لحظة التنفيذ والتحليق في سماء مفاعل ديمونة، وزمان تحرك الرتل الهندسي الأرضي، ولم تصدر الأوامر، أصبح هاجس الجميع هو استلام الأوامر والتنفيذ ولكنها تأخرت، الطيارون والمهندسون لا يستطيعوا تنفيذ منهاج التدريبي اليومي المعتاد كون الطائرات مُحملة وفي وضع استعداد قصوى بانتظار الأوامر العليا.

مرت أيام عديدة والجميع في ترقب مُمل ولم يستلم المنفذون أي إشارة بالتحرك، الجميع في وضع خمول تام، إذ يمر الوقت ثقيلاً وبطيئًا دون عمل أي شيء نافع، تساءل الجميع في سِرهم متى سيتم تنفيذ العملية التي ستكون بمثابة صفعة قوية لإسرائيل الطاغية على شعب فلسطين، والمُتعالية على جميع شعوب الأرض، والتي ستحدث بالتأكيد صدمة كبيرة لها وللعالم بأسره، انتظر الطيارون والمهندسون أكثر فأكثر، سأموا الانتظار حتى تلاشت أحلامهم ويأسوا تمامًا وماتت آمالهم بالكامل.

الأوامر بتنفيذ علمية قصف المفاعل الإسرائيلي لم تصدر إطلاقًا، ويبدو إن القيادة السياسية والعسكرية للبلد قد قررت إلغاء تنفيذ هذه العملية الخطرة خوفًا من ردود أفعال إسرائيل القاسية، والتي كان يُمكن أن ترد على صدام بالضربة النووية، وكذلك تحسبًا من ردود أفعال الدول الغربية الداعمة لإسرائيل أو حتى بسبب الخوف من تعرض مملكة الأردن المُجاورة للإشعاعات النووية في حال حدوث تسرب نووي إثر قصف المفاعل.

بعد حين صدرت الأوامر لمنتسبي السرب بإزالة حمولة الطائرات وخزانات وقودها الإضافية، والاستمرار بواجبات التدريب العادية للسرب، وسار كل شيء في السرب على حاله الأول دون حماس... لا يزال هذا الموضوع يكتنفه الكثير من الغموض ولم يفك أحد طلاسم وسِر هذه العملية الجوية الحاسمة التي لم ترَ النور إطلاقًا.

لم يتم التطرق يومًا إلى هذا الموضوع بتاتًا لا في الأوساط العراقية سواء داخل الجيش، أو في مضمار السياسة، كما لم تتناولها وسائل الدعاية العالمية كما تعودنا، وكذلك لم تتلقفها أقلام الصحفيين الجرئيين العاشقين للقصص المشوقة التي يلفها الغموض والسرية، وبقيت عملية ضرب مفاعل ديمونة النووي تطويها جدران السرية والضباب.

إنَّ من غير المُستبعد تمامًا أنه قد تمَّ تسريب معلومات هذه العملية الخطيرة عبر منافذ التجسس المتعددة إلى جهة أخرى ووصلت إسرائيل، مما حدا بالأخيرة إلى أن تشعر بجدية بالغة إلى أنّ وجودها ومصير شعبها يتعرضان إلى خطر كبير بتوفر نوايا شريرة مُبيتة ضدهم من قبل العراق وصدام، وأن أمنها القومي كان على المحك، لذلك استعدت إسرائيل جيدًا وهيأت جميع مستلزمات وسبل الرد المناسب، وقامت لاحقًا بالرد عليها وبالطريقة نفسها.

كان الرئيس العراقي صدام حسين واستنادًا إلى عقيدته المنبثقة من فكر حزب البعث العربي الاشتراكي التي تدعو إلى ضرورة وحدة الأمة العربية؛ ينادي دومًا بضرورة العمل على حرية الشعب الفلسطيني، وإزالة إسرائيل من الوجود، وتحرير فلسطين من احتلالهم الغاشم، كما أن صدام امتلك جميع مقومات تنفيذ سياسته، وتتمثل في الاقتصاد الملياري القوي، وتوفر النفط والغاز، وأنشأ سلسلة علاقات قوية وجدية مع الكثير من الدول العربية والغربية، وبدأ ببناء جيش حديث قوي، ولا يخفى على أحد سعيه الحثيث لامتلاك القوة النووية، حيث استطاع صدام الحصول على مفاعل نووي فرنسي لأغراض

البحث والطاقة النووية السلمية، ولكنه يبقى بالأخير تقدم نووي ملحوظ وغير مقبول من جانب إسرائيل.

إنّ إسرائيل شعرت بخطر كبير من سياسة صدام واعتبرته العدو الأول لما يمتلكه من فكر مُعادي وقدرة هائلة لتحقيقه، لذا سعت بكل جهدها إلى تطوير قدراتها العسكرية والاستخبارية التي تمكنها من التفوق الدائم عليه وتأمين السيادة العسكرية المُطلقة على المنطقة.

بعد ثلاث سنوات من التحضير الحثيث للقيادة الإسرائيلية والتدريب العالي والتهيئة النفسية للكادر الجوي، وبالأخص الطيارين، وقبيل الساعة السادسة مساء يوم الأحد المصادف السابع من حزيران صيف عام ١٩٨١؛ حلق سرب من الطائرات القاذفة إف١٦ والمقاتلة إف ١٥ الإسرائيلية الأمريكية الصنع لمدة دقيقتين كاملتين حاسمتين، فوق سماء العاصمة العراقية الهادئة بغداد، مُستهدفة مفاعل تموز النووي العراقي، مُلقية بدقة مُتناهية ستة عشر قنبلة دمرت قلب مفاعل تموز النووي بشكل كامل، دون أن تجعل مبناه ينهار كليًا، نَجم عن كُل هذه العملية الاستراتيجية قتل عشر ضحايا عراقيين، وخبير فرنسي واحد، وكان نتيجة إصابتهم من قبل المضادات الأرضية العراقية.

هذه الضربة الجوية الإسرائيلية كانت مُفاجأة صادمة كبرى للرئيس العراقي صدام حسين، أصابته في الصميم، وأثبتت قصور كبير في فاعلية دفاعاته الجوية، وبذلك بدا الأمر وكأن صدام والعراق والعالم بأسره قد أخذوا على حين غرة.

أتذكر هذه اللحظات الحاسمة جيدًا حيث كنت أزور بعض صاغة الذهب من أقاربي في شارع النهر الشهير الذي يقع في قلب العاصمة العراقية حينها، أطلقت صفارات الإنذار تحذيرًا من غارة جوية، وبدأت المقاومات الجوية العراقية بإطلاق وابل كثيف من الإطلاقات النارية في السماء رأيتها بأم عيني، ولكنها لم تُسقط أي طائرة معادية، عادت جميع الطائرات الإسرائيلية إلى

قاعدتها الجوية السرية الواقعة في قلب صحراء سيناء التي كانت تخضع للسيادة الإسرائيلية آنذاك بسلام.

الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية كان قد رأى بعينيه ومن على يختهِ أثناء فترة استجمامه؛ الطائرات الإسرائيلية وهي تحلق على ارتفاعات منخفضة مُتجهة شرقًا، وقال في سرهِ إنهم يتجهون نحو أخواتنا، ثم اتصل للإبلاغ عن الغارة.

الغير معقول كُليًا أن القوات العراقية ودفاعاتها الجوية التي يُفترض أن تكون متأهبة دومًا أثناء حربها مع إيران لم تفعل أي شيء، ولم تُطلق أية من صواريخها المضادة للطائرات من نوع سام روسية الصنع، كما أنَّ الأغرب من ذلك كُله أنه لم تكن هناك أية طائرات مقاتلة عراقية تجوب سماء بغداد وتحميه من الطائرات المُعادية، وهذا ما أدهش الطيارين الإسرائيليين حيث توقعوا أنهم سيلقون مقاومة عنيفة في بغداد، إلا أنهم استطاعوا إنجاز مُهمتهم الخطرة بكل يُسر، وعمليًا دون مقاومة تذكر.

لم يستطع الرئيس صدام حسين تَحمُل هذه الضربة التي أتته من خلف ظهره، أي من الجهة الغربية لبلده، في الوقت الذي كان اهتمامه واهتمام العراق ينصب نحو الحدود الشرقية، ولم يستوعب صدام أيضًا تدمير إسرائيل لأحد أهم رموز العراق وكبرياءه الشخصي ألا هو مفاعل تموز السلمي، ولذلك ظلّ موضوع الثأر من إسرائيل حاضر في خُلدِ صدام بقوة.

لم تهدأ حفيظة الرئيس صدام إطلاقًا لفعلة إسرائيل القاسية هذه، وظَلّ يضمر لها العداء، ويبدو أنه قد كتم غضبه على مضض وقاسى كثيرًا ولم يجرؤ على اتخاذ ردة فعل مباشرة لعدم توفر الظروف المناسبة لانشغاله بحربه مع إيران، ولكنه لم ينسَ ولم يستكن وسيأتي رده حاسمًا في وقتٍ لاحق ومناسب.

ولقد جاء الرد ولو بعد حين طويل، وتحديدًا في عام ١٩٩١، وإبان حرب الخليج الثانية أو عاصفة الصحراء حين انقضت جيوش ٣٤ دولة بقيادة الولايات المتحدة الأميريكة على العراق، ضمن عملية تحرير الكويت، فما كان من الرئيس صدام وبهدف خلط أوراق المعركة، وعن طريق محاولة جر إسرائيل إلى الحرب الذي يمكن أن يُثير حفيظة الشعب العربي، ويؤدي إلى تفكيك التحالف؛ إلا أن ينفذ عملية ثأرية ذكية، حينما أطلق ٣٩ صاروخ بعيدة المدى من نوع سكود الروسية الصنع، تمَّ تطويرها على أيدي الخبراء العراقيين في بغداد، ضد أهداف مُنتخبة في قلب إسرائيل، وبذلك يكون قد وفى صدام بوعده لنفسه في الثأر من إسرائيل لضربها مفاعل تموز السلمي رغم أنها لم تكون مُدمرة كما حسب.

إن عملية قصف المفاعل النووي الإسرائيلي والتي كادت أن تكون مُوازية بحجم أحداث الحادي عشر من سبتمبر لو كُتِبَ لها النجاح؛ لكان لها أن تقلب موازين العالم رأسًا على عقب وتُغير مجرى التاريخ، ولكانت قد أحدثت تغييرات دولية كبيرة، وارتدادات إقليمية أكبر.

طائرة الميك ٢٩

طوفان إثر طوفان يجتاح العراق ويعصف بحال أبناءه

مطار جليبة واحد من أهم وأكبر المطارات العسكرية العراقية، الذي يمكن أن يكون بحجم قاعدة جوية، يقع على الحدود الإدارية بين محافظتي ذي قار والبصرة، ويحتوي على ٢٤ ملجأ محصن للطائرات، كان هذا المطار قد خُصص كقاعدة استراتيجية لضرب وتدمير القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها إبان حرب الخليج الثانية، أو عاصفة الصحراء عام ١٩٩١، ولقد تمَّ تجهيزه بالعديد من أسراب الطائرات الروسية الحديثة مثل الميك ٢٩ وغيرها والتي جعلته كرأس حربة للقوة الجوية الضاربة، إلا أن هذا المطار تعرض إلى ضربات قوية جدًا أثناء الحرب أحدثت دمارًا هائلاً فيه، وقبيل انتهاء الحرب قام الأمريكان بتدميره بالكامل إذ تمَّ إنزال قوات خاصة والتي قامت بتفجير جميع منشآت المطار بالكامل بواسطة استخدام ٤٠ طن من المتفجرات، وبذلك ضمنت عدم استخدامه مجددًا، إثر ذلك تمَّ إلحاق مطار جليبة بقاعدة علي الجوية من الناحية الإدارية، حتى وإن أصبح بعد ذلك مجرد خراب وأنقاض.

وضعت الحرب أوزارها وتم نقلي إلى قاعدة علي بن أبي طالب الجوية في الناصرية، وبدأت عملي كقائد للجناح الهندسي فيها، كنت أيضًا أشغل منصب قائد القاعدة وكالة في حالات عدم تواجد القائد الأصلي للقاعدة وهو العميد الركن الطيار (ع.ح).

يوم عمل عادي أجلس خلف مكتب قائد القاعدة أمسك قلمي اقرأ بريد القاعدة وأضع إمضائي على بعضه حين رن جرس الهاتف وقطع خلوتي، كان على الجهة المقابلة النقيب (م.ص) ضابط أمن القاعدة وهو من أهالي تكريت، ألقى

علي التحية، تحدثنا عن عدة أمور تخص العمل ثم عرج على موضوع بعيد كل البعد عن عملنا اليومي إذ اقترح عليَّ زيارة مطار جليبة كي نراه عن قرب ونستطلع ما فيه، وافقت فورًا على مقترحه واتفقنا على زيارته اليوم التالي.

استقلينا العجلة العسكرية نوع لاند كروز الخاصة بضابط الأمن مبكرًا، واتجهنا نحو مطار جليبة بعد أن تسلحنا بالرشاشات الروسية الصنع نوع كلاشنيكوف، في حين حرص السائق على تأمين الطعام والماء وبقية المستلزمات، انطلقت عجلتنا تنهب أرض الصحراء تاركة القاعدة ومحدثة خلفها عاصفة من التراب، توقفنا لبعض الوقت لالتقاط أنفاسنا وشرب قليلاً من الماء والتمتع بالمناظر الصحراوية الخلابة، لاسيما وأن حرارة الجو لم تزل معتدلة، ترجلنا حينها أخرج النقيب (م.ص) بندقيته راغبًا بصيد شيء ما، أطلق بعض العيارات نحو أهداف أصابها كونه ابن بادية ومتمرس على عمليات الصيد والقنص، بعد ذلك ناولني البندقية وأطلقت النار على أهداف وهمية دون إصابة أي منها، لقد كان كل ذلك استعراض مجاني تمتعنا به قليلاً وخففنا عن أنفسنا به، ثم سارت بنا العجلة لا تلوي على شيء حتى وصلنا إلى هذا المطار الذي كان يطلق عليه يومًا ما اسم قاعدة.

ما أن ترجلنا حتى أصبت بصدمة كبرى، وهي أكبر بكثير من صدمتي بخراب ودمار وحدتي السابقة معمل تصليح المحركات في التاجي الهائل، ما أراه بعيني لا تصدقه أي عين بشرية، لا يستوعبه أي عقل ولا يقبله أي منطق، دمار جَلل، هلاك خراب عملاق، ويل هدم وموت عظيم بقايا أكوام أنقاض، يا إلهي إنه الجحيم بعينه.

سأصف لكم ما شاهدته في هذا الجحيم ملاجئ الطائرات العملاقة المحصنة تمَّ ضربها بواسطة قنابل خارقة موجهة بالليزر محدثة فيها فتحات كبيرة مرعبة، كأعواد اسباكيتي مطبوخة تظهر قضبان التسليح الحديدية وهي خارجة من طبقات الإسمنت نحو داخل الملجأ، مُحدثة لوحات تجريدية مع أشكال غريبة،

وإذا ما سرنا داخل الملجأ نرى دمار أكبر، إذ تمَّ احتراق وانصهار كل شيء فيه، الطائرات أصبحت ترابًا وأطلالاً، العجلات لم يتبقَ منها سوى آثار إطارات سوداء، المعدات اختفت تمامًا ولم يتبقَ منها إلا صهارات خفيفة, لم يبقَ أي منشأ في القاعدة إلا وأصبح أكوامًا من طابوق وركام...

الأنقاض تملأ المكان، قضبان الحديد المنصهرة الملتوية تنتصب مخترقة أرضية المطار دون نظام وتشير نحو السماء، مدارج الطيران أصبحت مجموعات من حفر سوداء كبيرة، تقاطعات المدرج مع خط سير الطائرات انمحت تمامًا واتحدت بالأرض الشاسعة التي تحيط بها وأصبحت لا تُرى من شدة القصف، الملاجئ التي لم يتم استهدافها من الجو تمَّ تفجيرها بواسطة المتفجرات من قبل القوات الخاصة الأمريكية, الفوضى تعم المكان بالكامل، لا يوجد أي شيء صالح أو قابل للعمل أو للحياة حتى الأشجار لم يتبقَ أي منها تمامًا، أجزاء المعدات تنتشر على مساحة المطار.

دمار عظيم لا يمكن تصديقه، لا يستطيع المرء تخطي متر واحد دون أن يحاول الالتفاف على الأشياء المدمرة والمحترقة تحت قدميه، لم أرَ في حياتي شيء كهذا، حتى في أفلام الحرب العالمية الثانية لم أشاهد مثل هذه الصور المروعة، إنها فعلاً جهنم متجسدة على الأرض، لا يوجد شيء واقف، كل شيء كان مدمر ومستلقي على الأرض، عدا شيء واحد وكان في زمن ما يسمى طائرة، بل إنها آثار أو بالأحرى أطلال طائرة، إنها هيكل عظمي لشيء كان يومًا ما اسمه طائرة.

تفحصتها بعينيّ بعناية فائقة ولم أستطع تفسير طريقة حرقها وتخريبها، نعم إنها كانت يومًا ما تسمى ميك ٢٩، لكنها الآن كمن خرج توًا من فرن نار في جهنم الحمراء، كل شيء فيها منصهر ذائب خرب ومحترق لم يتبقَ شيء من جسمها أو سطحها أو معداتها يمكن رؤيته، إنها باختصار كعجلة طفل قديمة بائسة بثلاث مساند هزيلة ومتهرئة ولا تصلح حتى للركوب.

لم أصدق عيني حين رأيت أجزاء من محركات بعض العجلات التخصصية الكبيرة، مثل مولدات الكهرباء للطائرات أو عجلات تزويد الطائرات بالهيدروليك قد اختفى، أو تسامى أجزاء منها دون أي أثر لانصهارات أو آثار قطع ميكانيكي، المرء لا يستطيع أن يعقل كيف حصل هذا، هل يمكن أنهم استعملوا مادة أو طريقة مبتكرة لم نسمع بها سابقًا، ولاحقًا سمعت بعض الاشعاعات من المحليين أو العسكريين تفيد أن الأمريكيين قد استعملوا مادة على شكل بخاخ رشوه على هذه المعدات فتسامى بعض أجزائها!

الأمر برمته بعيد كل البعد عن المنطق والقبول، الوضع أشبه بفيلم رعب رهيب، لقد صدمنا في صميمنا، لم يشأ عقلي تقبل كل هذا الذي رأى، أصبت بذعر شديد في داخلي وتشائمت كثيرًا.

قفلنا راجعين إلى قاعدتنا وشقت عجلتنا تنهب طريقها في رمال الصحراء، مُخلفة ورائها عاصفة من التراب الأصفر، تمضي كالسهم دون توقف نحو هدفها، في حين جلسنا أنا والنقيب (م.ص) في مقعدها الخلفي، مطأطئي الرؤس متعبين مهمومين منهارين ومسحوقين تمامًا، جلست في صمت حزين أصارع نفسي من شدة الصدمة دخلتُ في حالة اللاوعي، أصبحت أشاهد مرور الأماكن عبر نافذة العجلة دون أن أراها، الجو حار وثقيل، أصبحت لا أقوى على حمل أهدابي حتى هويت في سلطان غفوة أخذتني ودخلتُ في دوامة سحقية هائلة.

أنا أغرق في بحرٍ عميق مُعتم، بت خائفًا أرتعد من شدة رعبي، يا إلهي ما هذا؟ أهبط إلى الأسفل والظلام الذي تتخلله خطوط حمراء شديدة الضياء يخيفني، خوفي يشتد وأنا أنحدر وأنحدر، كدت أنفجر من شدة فزعي حتى تلقفتني أيادي حانية ورفعتني بهدوء رغم تعاستي، رفعتني بهدوء وراحة كاملة إلى السماء، أتساءل هل تركتُ البحر والأرض وأرتفع الآن إلى السماء؟ وبأيادي مَنْ؟ ما هذا يا ربي؟ مَن هذا الوقور؟

لماذا أنا برفقة هذا الملاك الجميل الذي يرتدي رداء ناصع البياض يُضيف له هيبة ووقار؟

- يا إلهي هل أنا في طريقي إلى عالم الأنوار، هل أنا ميت؟

أحدثُ نفسي...

- كلا يا بني البشر، أنت حي بين يديّ في السماء وفي حضرة الحي العظيم، أخبرني ماذا تريد أيها الصابئي؟

- لا أريد شيء سوى رضى الله عليّ ورؤية وجه ولدي القادم، إذ أن زوجتي ترقد في المستشفى قاب قوسين أو أدنى من أن تطلق الروح من روحها.

الملاك الطاهر يطلقُ ابتسامة تسع الكون بضيائها:

- لماذ تريد رؤية ولدك الذي سيحمل اسم زيد وأنت في رحاب الذات الإلهية، ألا يكفيك هذا؟

- بلى يكفيني هذا يا ملاك الله الطاهر، ولكني في شوق كبير إلى رؤية القادم الحبيب، ألا تكرمني بذلك وأنت الكريم الصافي الأمين؟

- نعم سأدعك ترى وريثك الشرعي، سأكافئك بقدرة الله لأنك صادق مع نفسك، شجاع لا تهاب الموت من أجل الحقيقة والعدل، هذه أفضل صفات البشر عند الله، إنك لم تدع الظالمين يحققون مآربهم الشريرة على الأرض ألا تذكر؟

- كلا يا سيدي الطاهر لا أذكر، ألا تستطيع تذكيري بذلك رجاءً؟

- نعم سأفعل ذلك، ألا تذكر يوم جازفت بحياتك لإنقاذ عددًا من البشر الذين استطاعوا بفضل عملك الصادق رؤية أبنائهم وذويهم، كما تطلب أنت مني الآن

- بلى... أذكر جيدًا ولكن هذا حدث قبل سنين عديدة فكيف عرفت بذلك؟

- نحن في السماء نرقب كل شيء نُمهل ولا نُهمل، نرى الأعمال السيئة منها لأصحابها الأشرار ونحاسبهم يوم الدينونة أشد حساب، كما نرصد كل عمل

طيب والقائمين به ونجازيهم خير الجزاء بقوة الحي العظيم... وأنت لك أجر عظيم إذ لم تدع الظلم يستشري في الأرض ولو بحدود قُدراتك... ألا تذكر يا ابن آدم ماذا فعلت؟

– نعم يا سيدي ملاك الله الطاهر أذكر الآن كل شيء، ولكن هل تدعني أرى ابني؟

– نعم سأخذك يا ولدي، وفي لحظة زمن ستكون معه لحظة نفخ الروح به، ألا ترغبُ بذلك يا ابن آدم؟

– نعم، نعم يا مولاي الكريم أرغب بذلك كثيرًا وأشكر الله على نعمته الكبرى وأشكرك على فضلك أيها الجليل.

لم تتعدَ لحظة واحدة حتى وكنت في مستشفى مدينة الطب حيث ترقد زوجتي، الليل حالك الظلام والجو شتوي بارد، أقطع ممر قسم الولادات ذهابًا وإيابًا وأنا في شدة قلقي عليها، تتألم تصرخ بهدوء مخنوق وأنا أتألم لألمها، أسأل إحدى الممرضات الخارجات من قسم الولادة فتجيبني أن الله هو الذي سيقرر لحظة الفرج ولحظة إخراج الروح من الروح.

استمر في قلقي لحين بدأ شعاعات غبش الصباح بالظهور... لحظة حاسمة وأسمع صرخة بدء الحياة، هنا أدركتُ لقد أصبحت أبًا، نعم لقد أصبحتُ أبًا... جاءتني الممرضة وأخبرتني أن الله قد رزقني بولد صالح سوف يحمل اسمي وأن زوجتي بصحة وعافية...

– شكرًا لك يا رب العالمين على هذا الفضل الكبير... إذًا سوف ينادوني بأبي زيد... الدنيا لا تسعني من الفرحة والسعادة.

– سيدي، سيدي استيقظ قريبًا سنصل إلى القاعدة، يبدو أنك قد غططت في نومٍ عميق مع إطلاقك شخير قوي أفسد عليّ هدوئي.

يأتي صوت الرائد يجعلني أستفيق، يقطعُ عليّ حلمي اللذيذ، استدركت حواسي فإذا بي وأنا في قلب الصحراء أعودُ لواقعنا القاسي والمؤلم... في نهاية طريق عودتنا مضى الوقت ثقيل طويل حزين، ونحن في صمت مطبق حتى تخطينا البوابات الرئيسية لقاعدة الإمام علي، وذهب كل منا مُكفهر في حال سبيله.

أول ما خطر على بالي هو التوجه فورًا إلى الحمام وأخذ دوش بارد منعش كي أزيل من بدني ونفسي كل أدران الحزن والهَمْ الذي علق بهما، بعد ذلك ارتديت ملابسي المدنية، استقليت سيارتي المدنية وانطلقتُ بها نحو مدينة الناصرية، تجولت في مركز المدينة وشارعها الرئيسي (الحبوبي) تنقلت بحرية لكن بحذر بين أزقتها وحواريها، جلست في أحد مطاعمها الشعبية التي تقدم المشويات اللذيذة، تناولت عشائي ثم عرجت على محل بيع الخمور، ابتعت زجاجة من العرق العراقي، عكفت على محل لبيع الفاكهة والخضار وتزودت منه ببعضها وقفلت منتصر بزجاجتي نحو القاعدة.

ما أن حطت رجلي أرض مكتبي في الجناح الفني حتى فوجئت بوجود قريبي الذي حلّ عليّ ضيف دون إخطار مُسبق، وهو يتربع على كرسي في مكتبي، ويقف فوق رأسه جندي الخدمة الخاص بي يقدم له الشاي والقهوة وأنواع الطعام الأخرى.

قريبي (س) شاب متوسط القامة جميل بهي الطلعة طويل القامة أبيض البشرة أشقر الشعر يتمتع بروح الفكاهة والمرح، كثيرًا ما يطلق كلماته دون تحفظ فتظهر كأنه يحكي نكتة أو أسطورة غريبة، في العشرينيات من عمره خريج كلية الهندسة، كجميع أفراد طائفتنا المندائية يعمل في مجال صياغة الذهب، جندي ضمن خدمته الإلزامية في الجيش، وكان قد غاب من وحدته التي تقع ليس ببعيد عن القاعدة الجوية في الناصرية لسبب ما، قائده أصدر أمر بمعاقبته بحلاقة رأسه وسجنه لمدة خمسة عشرة يوم مما استدعاه إلى ترك وحدته.

استولت عليّ الدهشة واحتوتني حتى الأعماق حال رؤيتي له، ألقيت عليه التحية وسألته فورًا عن سبب هذه الزيارة غير المتوقعة، فهمت منه أنه يود العودة إلى وحدته العسكرية نادم، إلا أنه يخاف من العقوبة التي ستواجهه إذا ما ذهب وحده، لذا كان يرغب أن أصطحبه كي لا يعاملوه بشكل قاسي أو يودعوه السجن.

قضينا ليلتنا في الأحاديث العائلية الجميلة والذكريات الرائعة بعد أن احتسينا كأسين من زجاجة العرق التي ابتعتها من محل لبيع الخمور في مدينة الناصرية، وعدته بالمساعدة وكيف لي الرفض وهو قريبي وصديقي، اتفقنا أن نذهب إلى وحدته في اليوم التالي وانتهت ليلتنا السعيدة على ذلك.

اليوم التالي أزاول عملي في مكتبي، بينما هو يجلس في غرفة نومي الخاصة والمُلحقة بالمكتب يتناول الفاكهة ويشرب الشاي والقهوة التي يغدق جندي الخدمة بها عليه باستمرار، قريبي يزهو وينتشي ولا يصدق نفسه حين يناديه الجميع بكلمة (سيدي)، وهم لا يعلمون أنه جندي هارب من الخدمة، حتى وصل الأمر بأحد النواب ضباط أن يرجوه ليتوسط لديّ كي أمنحهُ إجازة من العمل.

عصر ذلك اليوم انتهى وقت عملي، أخذت حمام بارد، ارتديت زيي العسكري الخارجي، استقلينا عجلتي العسكرية وتوجهنا إلى وحدة قريبي العسكرية التي لا تبعد كثيرًا عن القاعدة الجوية، دخلنا إلى مكتب الضابط المسؤول وكان برتبة رائد الذي استقبلنا بحفاوة بالغة ووعدني خيرًا بعد أن أشار إلى مرافقي أن يلتحق مع زملائه الجنود، ما أن أنهيت مهمتي على أكمل وجه حتى توجهت نحو مدينة الناصرية للتنزه وتناول وجبة عشاء طيبة.

أكملت جولتي في مدينة العشق الناصرية وقفلت عائدًا إلى القاعدة وما أن دخلت إلى غرفتي، وإذا بقريبي (س) يفاجئني وهو يتربعُ خلف مكتبي بزهو وكبرياء المنتصرين، وقد وضع أمامه إناء كبير من الفاكهة المختلفة، صعقتني الدهشة وتملكتني المفاجأة لم أتمالك نفسي كدت أنفجر وأموت من الضحك المُجلجل

وسألته على فوري عن سبب عودته إلى هنا، فكان جوابه أنه قد شعر بالخوف من تنكيل القائد بعد ذهابي ولذلك قرر الهروب مرة أخرى.

قضينا ليلة جميلة أخرى وأجهزنا على ما تبقى من زجاجة العرق في أجواء المرح والضحك على ما حصل، بجدية بالغة أخبرته بضرورة الالتحاق بوحدته في اليوم التالي دون أية مواربة أو إهمال والبقاء فيها، أوصلته إلى وحدته مرة أخرى وأخذت عهد من قائده بعدم معاقبته إطلاقًا، بعد أن وعدته بتزويد وحدته بماء الشرب لشحنه في وحدته وحاجة الجنود والضباط الماسة له، تركتهم بعد أن أكدت على (س) بضرورة البقاء والالتزام بالدوام في وحدته العسكرية، كما أخذت منه عهد ألا ألقاه مُجددًا في مكتبي، وفيت بوعدي لقائده إذ أرسلت لوحدته عجلة مع خزان ماء للشرب لمرتين وبالمقابل لم يعاقب قريبي.

مرت أيام عدة ونحن في خضم عملنا نجتهد، نُعيد بناء ما يمكن بناءه من منشآت القاعدة، وتصليح الأجهزة والمعدات والمكائن، نتعامل مع مقاولين غاية في المكر والتحايل رغم ادعائهم بغير ذلك، لا هَمّ لهم سوى الحصول على مبالغ عقود البناء دون السعي لتنفيذ ما مُتفق عليه.

الساعة تشير إلى الحادية عشر قبل الظهر، أجلس في مكتب قائد القاعدة الذي ذهب في إجازته الدورية إلى بغداد، رن جرس الهاتف الذي يَصم الأذان، أمسكت بالسماعة رددت رتبتي واسمي، جاءني على الطرف الآخر صوت بعيد نسبيًا وغير واضح:

- أنا الفريق ركن (لا أذكر اسمهُ) من القيادة العامة للقوات المسلحة مع من أتحدث؟

أكرر ذكر رتبتي العسكرية واسمي الكامل بتأني واضح بعد أن أيقنت أن الأمر في غاية الجدية والأهمية...

الفريق الركن:

- أين قائد القاعدة أريد أن اتكلم معه؟

- نعم سيدي قائد القاعدة في إجازة في بغداد وأنا أحل نيابة عنه.

- ابني أنا الفريق الركن (فلان) من القيادة العامة للقوات المسلحة ولكن من أنت؟

اخبرني باسمك الكامل:
- يا سيدي أنا المقدم المهندس عباس الزهيري قائد الجناح الهندسي، وحاليًا أشغل منصب قائد القاعدة وكالة، تفضل سيدي بماذا أستطيع أن أخدمك؟

- ابني ما هي حكاية طائرة الميك ٢٩ هل تعلم أي شيء حولها؟
- سيدي ماذا تقصد بطائرة ميك ٢٩ وأي طائرة؟

الفريق الركن بانزعاج واضح:
- ما هذا... أنتم لا تعلمون ماذا حلَّ بطائراتكم؟ هل أنتم تاركين طائراتكم في العراء وتحت تصرف الناس؟ أنا أقصد الطائرة ميك ٢٩ الموجودة في قاعدة جليبة...

ويضيف الفريق الركن بقلة صبر وعصبية واضحة:
- هل تعلم أن أحد المواطنين قد وجدها ويريد تسليمها للدولة مقابل استلام مبلغ سعرها الكبير؟

في هذه اللحظة الحاسمة تأملت قليلاً، وتذكرت هذا الشيء الذي يشبه إلى حد كبير عجلة أطفال محترقة تمامًا، وغير صالحة للركوب إطلاقًا والتي يوم ما كانت تسمى طائرة ميك ٢٩، حينها قلت في نفسي الحمد لله كوني أعلم بالموضوع ويمكنني الإجابة الآن بقوة وحسم، حينها أجبت الفريق الركن:
- سيدي إن كنت تعني طائرة الميك ٢٩ التي توجد في قاعدة جليبة فهي محطمة كليًا، محترقة مهترئة تمامًا وغير صالحة لأي استخدام، ولا يوجد فيها أي جزء قابل للاستخدام، سيدي إنها آثار أو أطلال طائرة...

قلتها وأنا على ثقة كاملة، كنت أسمع أن الفريق الركن كان ينقل كلامي حرفيًا إلى أحد الأشخاص ويناديه بكلمة سيدي لم أكن أسمع صوت الآخر كي أميزه، ولا أعلم من كان هذا الشخص الذي يحمل صفة (السيدي) على الفريق الركن هل هو الرئيس صدام حسين أم غيره لا أعلم.

الفريق الركن:

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- نعم سيدي أنا أنقل لك ما شاهدته بعيني قبل أيام، إذ أني زرت جليبة واطلعت على كل ما فيها وأنا متأكد مائة بالمائة مما أقول...

وكي أجعله أكثر ثقة أضفتُ:

- يا سيدي أنا أتحمل كامل المسؤولية عن ما أقول.

- وكيف تكون متأكد لهذا الحد يا مقدم... ما هو اسمك؟

- مقدم عباس سيدي.

أجيبه بصبر وتوتر كبيرين:

- نعم سيدي أنا أؤكد لك ذلك، سيدي لقد زرت قاعدة جليبة قبل أيام قليلة مصطحبًا ضابط أمن القاعدة، واطلعنا على جميع منشآت القاعدة ورأيت هذه الطائرة التي هي أشبه بهيكل عظمي مُجرد لا يصلح لأي شيء، ولو كان أي شيء يصلح للاستخدام فيها لكنت قد اتخذت إجراء مناسب، يا سيدي لا توجد أية طائرة لا ميك ٢٩ ولا غيرها ويمكنك الاعتماد على كلامي مائة بالمائة ولا تدعو هذا الشخص يبتز الدولة ويأخذ أموالها دون مقابل.

يبدو أن الفريق الركن اطمئن لكلامي كونه جاء قاطعًا حسامًا دون تردد أو ارتباك، فغير من لهجته القاسية بعض الشيء وأضاف:

- ابني أرى أنك متأكد جدًا من إجابتك، اخبرني مرة أخرى برتبتك واسمك الكامل بوضوح.

أخبرته فورًا بما طلب عندها أغلق سماعة الهاتف ولا أذكر أنه قد ودعني أو شكرني أم لا، كنتُ في غاية التركيز على كلماتي، إذ ليس من السهل السيطرة على كل الأحداث والمفاجآت التي تحدث دون ترتيب.

لم تدم المكالمة الهاتفية سوى دقائق معدودات ولكنها حملت في طياتها مسؤولية كبرى، نعم في بلد مثل العراق قد تكون دقيقة واحدة هي من يحدد مصير أو حياة المرء، إني أشكر الله عز شأنه أنه سنح لي فرصة الاطلاع المُسبق على قاعدة جليبة وهذه الطائرة المشؤومة، وإلا لكان الأمر قد انتهى على شكل سيء ونتيجة أخرى.

الصفعة

النَدم ليس عيبًا بل دليل قاطع
على أنك شخص لديه ضمير

المكان: قاعدة الإمام علي الجوية في الناصرية.
الزمن: سنة ١٩٩١ بعد انتهاء حرب الخليج الثانية.
الوقت: السابعة مساءً.
الموقع: دور سكن الضباط.
رتبتي العسكرية آنذاك : مقدم مهندس.
المنصب: قائد الجناح الهندسي.
قائد القاعدة الجوية : العميد الطيار الركن (ع.ح).

في إحدى الليالي الشتوية المُقمرة الرطبة حيث تقطع غيمات المطر ضياء القمر من وصوله إلى الأرض للحظات، تاركة إياها تحت رحمة سيف الظلام، قبيل منتصف الليل بقليل؛ اتصل بي العميد الركن الطيار قائد القاعدة هاتفيًا وطلب مني أن أوافيه بسرعة إلى مقر القاعدة، لم يَزِد ولم يُعلمني سبب الاستدعاء.

غيرت ملابس الراحة التي كنت أرتديها في غرفة راحتي، بزيي العسكري المُعتاد على عجل، واتجهت على فوري إلى مقر القاعدة وأنا أحبس أنفاسي لاعتقادي الراسخ بأهمية الموضوع، دخلت المقر أديت التحية العسكرية للقائد، بجدية بالغة طلب مني الجلوس، وفورًا أصدر لي أمر عسكري مباشر وصريح أن أتولى قيادة القاعدة في حالات عدم تواجده لأي سبب كان، وأن أباشر عملي في مقر القاعدة، رغم وجود ضابط آخر أقدم مني، وكان برتبة عقيد ويشغل

منصب قائد الجناح الإداري للقاعدة، أصابتني الدهشة وهو لم يُفاجأ من ردة فعلي، فإذا به يقول لي:

- أخي مقدم عباس أنا أفهم سر دهشتك وتعجبك بوجود العقيد، ولكني أود حين أترك القاعدة أن أكون مرتاح ومُطمئن أن الأمور ستسير كما يجب، وإني على ثقة كبيرة بك، بآداءك وعملك، وأعلمُ جيدًا وفق خبرتي أنك ستؤدي هذه المُهمة بنجاح فائق.

ثم توقف برهة عن الكلام مفسحًا المجال لي...

- شكرًا سيدي على ثقتك بي، ولكن يا سيدي أنت تعلم بوجود عقيد (ع.أ) في القاعدة، وأنا مقدم وهو أعلى رتبة مني، فكيف يستقيم الأمر، لاسيما وأنا في غنى عن أية إشكالات يمكن أن تحدث معه، وهو صديقي أيضًا ولا أرغب بمضايقته.

- مقدم عباس؛ لقد اتخذت قراري وانتهى الموضوع.

- ولكن سيدي القائد هل أبلغت العقيد بقرارك هذا؟

- أنا سأكون في بغداد غدًا، وأنت ستأتي إلى المقر صباح غد وستُدير شؤون القاعدة، وإن سألك العقيد فيمكنك القول إني قد أصدرت لك الأمر وكل شيء سيكون على ما يرام.

- أمرك سيدي سأفعل ذلك ولكن..... أنا في حرجٍ كبير...

- أنا أصدرت الأمر لك وستنفذ...

- نعم سيدي، أمرك مُطاع، شكرًا على ثقتك وسيكون كل شيء على ما يرام، وما عليك إلا أن تكون مطمئنًا مرتاح البال، وأن تقضي إجازتك براحة وسلام، وأن تعود لنا بأمان.

- شكرًا مقدم عباس، وأنا واثق من ذلك، والآن تستطيع الذهاب إلى غرفتك وترتاح، وأعتقد أنك لن تجدني صباح غد.

خرجت من مكتب القائد مندهش ومنشطر إلى قسمين، جانب مني مُغتبط ومزهو بسبب ثقة القائد بي، وجانبي الآخر غير سعيد كون صديقي العقيد قد يعتقد أني خططت لذلك، وقد يتخذ موقف غير مناسب، ولا أريد أن أفقد صداقته كوننا نعيش في ظرف حساس وقلق جدًا، نحتاج أحدنا للآخر.

بين عتمة الليل الحالك وضياء القمر المتقطع سرت على أقدامي ببطء متعمد قاصدًا بهو الضباط، وأنا أتطلع إلى السماء المُرصعة بالنجمات المضيئة التي بدت كحبات ألماس تمَّ تقطيعها بعناية، وتركيبها على أسوارة سوداء، إحداها كانت كبيرة كمنارة البحر تعطي إشعاعات متقطعة، بينما انتصب القمر كحارس أبدي بشموخ ظاهر يرصد بحنان فائق كل ما يجري في الكون في ظل غياب أمنا الشمس، يسعى منح ضيائه جميع زوايا الأرض ويغمرنا بالدفء والاطمئنان، إنه حقًا ليل مثير وعجيب، إنه مصنوع من ومضات لامعة معلقة في كبد السماء البعيدة، هكذا سرت ليلتي بين التوجس والقلق، ولكن ما ذنبي أنا إن خرجت الأمور عن قواعد العرف العسكري، بعد سويعات رحل قائد القاعدة إلى بغداد مُبكرًا وتركني أضرب أخماسي بأسداسي لا أعلم ما الذي سيحدث صباحًا.

صباح رائق والشمس تعلو على سطوة الشتاء، حضرتُ إلى مقر القاعدة، وكملك إفرنجي تربعت على عرش القائد الوفير بزهو وتوجس كبيرين، لم تمر دقائق معدودات إلا ويدخل العقيد قاطعًا عليّ خلوتي وزهوي، بعد أن رأني نهضتُ على الفور، ألقيت عليه تحية الصباح ثم جلسنا على الأريكة الوفيرة التي تقع إلى يسار عرش القائد، جلس بقربي وقال بلهجة مترددة:

– صحيح أنّ القائد قد رحل؟

– نعم سيدي لقد رحل القائد وها نحن هنا.

بهدوء وابتسام أجبته... الجو مُفعم بالتوجس والحذر...

– كيف ستسير الأمور الآن؟

أضاف العقيد وكأنه قد عَلِمَ بالأمر...

خطرت لي فكرة مدهشة سرعان ما تبددت في الكون، إذ لم تتمكن من بلورة نفسها فتركتها تنحدر وتتلاشى في الأفق البعيد، فما كان مني إلا أن أسعى لأوضح له حقيقة الأمر كما هي دون أية مواربة، بهدوء يشوبه القلق قلت:
– يا سيدي العزيز نحن أصدقاء ونعيش ذات الظروف الصعبة في هذا الوقت العصيب، وأعلم جيدًا أنك أعلى رتبة مني، وفي حال غياب القائد يفترض وحسب الضوابط العسكرية ودون أدنى شك أن تتولى القيادة، ولكني سأعلمك بما جرى ليلة البارحة.

حكيت له بالتفصيل ما حصل مع القائد ليلاً، وأخيرًا أوجزته بأني سأقبل أي خيار يتخذه العقيد، على أن يتحمل مسؤولية قراره أمام القائد.

تململ العقيد بصوت غير مفهوم وعَدل من جلسته كأنه أمام قاضي تحقيق شرس في قضية مصيرية، فكر في سِره قليلاً، تأفأف ومن ثم تكلم دون صوت، ولكنه نجح القول أخيرًا بصوتٍ مبحوح أنه سيقبل الوضع على ما هو لأنه لا يرغب بأي مشاكل لا مع القائد ولا مع غيره... هدأت سريرتنا، ارتاح العقيد واطمأنت نفسي وانتهى الأمر على سلام، الشيء بالشيء يُقال سيما وإنه قد حصلت معي مواقف مُشابهه لما جرى هنا في وحدات عسكرية أخرى وسأبينها لاحقًا.

قد يعتقد القارئ الكريم أن ما حصل لا ينسجم وعنوان حكايتنا هذه، وهذا صحيح إذ أن موضوع الصفعة سيأتي الآن...

دخل الجندي السائق – ولا أذكر اسمه – إلى مقر القاعدة في ثاني صباح لي على عرش القاعدة، ألقى التحية العسكرية وطلب الإذن منيَّ للرحيل مع عجلته إلى مركز مدينة الناصرية، لكي يملأ خزانها الكبير بالماء، ومن ثم جلبه للقاعدة لتوزيعه على الخزانات الفرعية لوحدات القاعدة الكثيرة، ومن ضمنها دور

سكن الضباط... أبلغت السائق أن يُسرع بمهمته لكي يقوم بتوزيع ماء الشرب على جميع الوحدات وكذلك خزان دور سكن الضباط ومضى.

سار ذلك اليوم على خير ما يرام لاسيما وأن المقدم ضابط ركن القاعدة كان صديقي ويشاركني غرفة سكني وكذلك مقر القاعدة، كُنا نتشارك العمل نمزح نتناول طعام الغداء سويًا أحيانًا ونتشاور في حل المشاكل أحيان أخرى، وهكذا انتهى يومي وعملي الشاق مساءً، ذهبت مُتعبًا إلى غرفتي كي أستحم لأزيل ما ترسب من قلق وإرهاق في بدني المسكين، ولكي أنعم بدقائق سعادة وانتعاش من خير الماء الحي الجاري.

دخلتُ الحمام أدرتُ قبضة رشاش الماء وأنا في غبطة فائقة، انتظرت لحظة نزول رذاذ الماء على رأسي وجسمي لكي تزول أدران القلق، ولم تنزل، انتظرت فترة أطول ولم يأتِ الماء، اعتقدت بوجود خطب ما في صنبور الماء ففحصته، ولم يكن أي خلل فيه، حاولت مرارًا ولم أفلح في شيء، ذهبت إلى غرفة مجاورة كي أتأكد وكانت النتيجة نفسها – لا يوجد أي ماء في خزان ماء دور سكن الضباط.

غضبت كالشيطان، انتفضت كالملدوغ في فراشه من عقرب خبيث، فارَ الدمُ في عروقي وتوعدت في نفسي هذا السائق عدلاً وقصاصًا، ارتديت ملابسي على عجل وأنا مازلت أمطر غضبًا، رفعت حاكية الهاتف واتصلت بمسؤول مرأب عجلات القاعدة وأمرته بإرسال هذا السائق لي فورًا، وأكدت عليه أني سوف انتظره في واجهة دور الضباط.

بهدوء ودون اكتراث ترجل السائق من عجلتهِ وتقدم نحوي ببطء، توقف وألقى التحية العسكرية وكانت علامات الدهشة تبدو على مَحياه وقال:

– نعم سيدي طلبتني فجئت...

حاولت كَبتْ جِماح غَضَبي قدر ما استطعت، وأمطرته بعدة أسئلة وكان أولها:

- لماذا لم تملأ خزان ماء دور الضباط؟ ألم أبلغك بذلك؟

- نعم سيدي لقد أبلغتني ولم أفعل لأنني بالأصل لم أستطع ملء خزان عجلتي بالماء.

- لماذا وكيف؟ لاسيما وأنت توجهت نحو الناصرية في الصباح الباكر!!

- نعم سيدي لقد كان الدور على ملء العجلات كبيرًا فلم أحصل على ماء.

- وماذا عن مئات الناس في القاعدة، ألم تزودهم بماء الحياة؟

قلتها وبدأ دخان الانفجار يتصاعد من بطني ويضرب في رأسي بسرعة البرق...

- كلا سيدي لم املأ أي من تلك الخزانات...

أضاف والخوف بدأ يلمع في عينيه شعاع أسود...

- وأين كنت طوال هذا اليوم؟ وماذا عملت طول هذه الساعات العديدة خلال النهار؟ ولماذا لم تأتِ لتخبرني أنك لم تُزود الناس في القاعدة بإكسير الحياة؟

- نعم سيدي...

قالها بتلكؤ واضح وسكت وطأطأ رأسه إلى الأرض، ومن ثم قال:

- وماذا أفعل ومن أين آتي بالماء؟

هنا انتهى وقت النقاش العقيم والاستفسار الفارغ والكلام غير المُجدي، وحان وقت الفعل فقلت له:

- هل أنت حيوان! ألا تفهم أن الناس يحتاجون إلى ماء الشرب لكي يستطيعوا الاستمرار في العيش والعمل والاغتسال!!

- نعم سيدي... لم أحصل على ماء بسبب الزحام!

توقفت عندي لغة الكلام، وهنا لم أستطع إمساك أعصابي أكثر فصفعته مرة واحدة على وجهه وقلت له أن يَغرب عن وجهي فورًا، على أن يكون كل

سائقي عجلات الماء حاضرون في التعداد (التجمع) الصباحي لمنتسبي القاعدة غدًا، وانصرف بخذلان بعد أن أذنت له بذلك.

تحدثت مع العديد من الجنود في وحدات مختلفة في القاعدة حول موضوع تزويدهم بالماء فأعربوا عن استيائهم الشديد من شحة ماء الشرب على الدوام، هاتفت المسؤول في مكان ملء ماء الشرب وعَلِمتُ أن السائق كان قد ملأ خزان عجلته بالماء ومضى وليس كما ادعى هو، وكذلك عَرفت أنه يقوم ببيع ماء شرب جنود القاعدة على المواطنين المدنيين في مدينة الناصرية ليكسب المال، ولذلك قررت أن تكون عقوبته علانية قاسية وأمام الجميع.

صباح اليوم التالي وقفت حازمًا أمام جميع مُنتسبي القاعدة ضباط ومراتب وجنود وبعد اكتمال مراسيم الإحصاء أمرتُ رئيس عرفاء القاعدة أن يُحضر كرسي ويضعه أمام المنتسبين، على أن ينتصب حلاق القاعدة خلفه ويكون جاهز لعمله العلني فورًا، فكان لي ذلك، وأصدرتُ أمر آخر:

- على جميع سائقي عجلات ماء الشرب أن يتقدموا إلى الأمام...

ففعلوا...

- أين هذا السائق الذي لم يسق منتسبي القاعدة بماء الشرب يوم أمس وذهب ليبيعه في المدينة...

قلتها بصوتٍ جهوري كي يسمع الجميع، فتقدم هو مُطأطئ رأسه نحو الأسفل...

- اجلس على الكرسي أيها السائق.

قلتها بحزمٍ قاطع فجلس، أمرت الحلاق ألا يبقي أي أثر لشعر رأس السائق، ففعل بسرعة وإتقان، فزدتُ بصوتٍ شديدٍ ثابت:

- على السائقين الآخرين الجلوس على الكرسي ذاته كي يأخذوا دورهم في حلاقة رؤوسهم حتى لا يُكرِّروا ما فعل رفيقهم...

ففعلوا جميعًا وطارت شعورهم بسرعة البرق، وكأن الحلاق كان في شوق عظيم لذلك... وقلت بصوت عالٍ وحاسم:

- إن من لا يحترم عمله ولا يُراعي حاجة الناس، ويستهتر بقوتهم من ماء وطعام أو أي شيء آخر سيكون مصيره هذا وقد يكون أقسى، على جميع السائقين الحضور إلى مقر القاعدة يوميًا مُبكرًا، وكذلك عليهم تثبيت أوقات ذهابهم وإيابهم من وإلى القاعدة، على أن يجلب كل واحد منهم الماء للقاعدة مرتين يوميًا وتوزيعه على جميع نقاط القاعدة، وبالأخص البعيدة منها... هل هذا مفهوم؟

فأجاب جميع السائقون بنعم سيدي، وانصرف الجميع إلى أعمالهم بينما تجمع سائقوا عجلات الماء الذين بدت جلدات رؤوسهم طرية وناعمة أمام مقر القاعدة لتثبيت حضورهم.

وهكذا أخذ السائقون حليقي الرأس بتزويد منتسبي القاعد بماء الشرب يوميًا بشكل مستمر ومنتظم، ولقد فرح جميع جنود القاعدة وتنفسوا الصعداء، إلا ضميري الذي عذبني كثيرًا ولا يزال، بسبب الصفعة التي وجهتها للسائق المُحتال رغم ارتكابه لجريمة لا تغتفر.

فعلتها مرة واحدة في حياتي ندمت وما أزال نادمًا على ما فعلت، وتمنيت لو أنني لم أصفع هذا السائق واكتفيت بنهره وإزالة شعره، أو حتى إلى إلقاءه في السجن، رغم أنه كان قد استحقها بجدارة فائقة، لكن الذي حدث قد حدث ولم يعد بالإمكان إعادة عقارب الزمن إلى الوراء، رغم أن ما فعلت عدا الصفعة كان قانونيًا وعادلاً وقد نال رضى الجنود والقائد على السواء.

عاد قائد القاعدة بعد أيام من إجازته وتولى شؤون القاعدة بعد أن أوجزته بكل ما جرى خلال فترة غيابه، أثنى عليّ كثيرًا، لم يُعقب على هذه الحادثة بحرف واحد واكتفى بالغمز مع إطلاق ابتسامة عريضة لي، دلالة على رضاه الكامل وقناعته بما حدث وتحقق.

لا بد من الإشارة إلى أني تعرضت أثناء خدمتي في الجيش إلى حالات مشابهة، وأعني عند توليتي على مقاليد وحدة عسكرية بوجود ضابط أو ضباط أرفع مني رتبة فيها.

أذكر قبيل حرب الكويت بعدة أشهر، تمَّ إرسالي بعد أن كنت برتبة عقيد وأشغل منصب قائد لجناح التصليح العام في معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية في التاجي، إلى جناح الإنتاج، حيث يتواجد فيه ضابطان برتبة جنرال (عميد)، كان جناح الإنتاج يتلكأ في عمله ويتعرض إلى عدة مشاكل تنظيمية وإدارية رغم تواجد العديد من الضباط، ولهذا اتخذ قائد المعمل قراره بإرسالي إليه بعد أن أصدر أمر عسكري رسمي يقضي بذلك.

لم يكن من الصعوبة عليّ إدارة جناح الإنتاج، إذ كنت على دراية كاملة بمكامن الخلل فيه، ولكن الصعوبة والحرج كانت تكمن في كيفية التعامل مع جنرالين رغم أنهما كانا متعاونان للغاية معي، في فترة قياسية استطعت إحداث تغيير جذري في العمل والتنظم والإدارة، كما أخذت على عاتقي أيضًا إدارة وتنظيم مطعم وسكن المراتب التي كانت بحال يرثى لها، لم تدم هذه النعمة سواء على مُنتسبي جناح الإنتاج أو مرتادي مطعم وسكن المراتب سوى أشهر معدودات حتى جاءت الحرب ودمر القصف المكثف، وللأسف الشديد كل شيء تمَّ تعميره وتحديثه.

منبر الإنسانية قلبها الصامت لا عقلها الثرثار

جبران خليل جبران

(ز) فتاة عراقية بغدادية كهضبة خضراء طولها، متوسطة الجمال رفيعة الأخلاق، شعرها فحمي بلون الليل طويل يطلق خصلات صغيرة منه حرة تتلقفها النسمات بحنان، تلفُ خصرها النحيل بعباءة سوداء لا تبدو عليها آثار الترف غير مُكترثة كثيرًا بها حين تتطاير، ثغرها الجميل حين تبتسم يشع بالطيبة والحنان وهي تظهر حازمة بأريحية حين تنطق، مُتحررة نشطة قادرة على إدارة دفة الحديث بلباقة وعفوية، تُشعرك أنها إنسانة قوية ومقتدرة، رقيقة ومُرهفة تجاه المواقف الإنسانية، ألهمها الله مَلَكة ثقة الناس بها، بحيث يستطيع المرء الاعتماد عليها بسرعة كبيرة.

جلستُ أضربُ أخماسي بأسداسي متربعًا على عرشي الأنيق في محل عملي المتواضع، أُفكِّر كيف لي الخلاص من هذه الورطة! نعم إنها ورطة ما بعدها ورطة، المهم كيف ليّ النفوذ من عنق الزجاجة سالمًا والخروج دون أذى كبير! كما أني لا أريد أن تتورط عائلتي بهذه المشكلة... إنهم يتابعونني بإصرار كالثيران التي تبحث عن علم أحمر، جاعلين أيامي مع لياليها كابوس مزعج، فكيف لي الرحيل من هذا الانحدار!

إثرَ مقابلتي لمسؤول كبير في قيادة القوة الجوية؛ استطعت إقناعه بحُججي تمَّ إحالتي على التقاعد الكامل، بعد تقديمي لسلسلة من الاستقالات دون راتب، ولذلك إكرامًا لخدمتي الجليلة في الجيش العراقي وهكذا أصبحت نوعًا ما كمواطن مدني ولكنهم لم يكفوا عن ملاحقتي يوميًا.

رجوت أصدقاء الخدمة لسنين طويلة في الجيش أن يساعدوني، إلا أنهم تملصوا ببساطة دون أي رد واستمر مسلسل الضغط عليّ وإلى أين المَفر!!

لدي أشخاص كانوا لسنين طوال تحت قيادتي قد حصلوا على مراتب متقدمة في حزب السلطة الحاكم في العراق آنذاك، رجوتهم، حاولت الحصول على مساعدتهم، وعدوني بذلك ولم يَفوا جُبنًا وتمنعًا... استمرت متابعتهم لي بطريقة مُبتكرة أخرى وهي عن طريق التأثير على عائلتي والضغط على زوجتي، فكيف لي السبيل لإنقاذ نفسي وعائلتي من هذه الظُلمة الظلماء!

كانت (ز) تزور متجري بين فترة وأخرى لشراء بعض الحاجيات الذهبية والفضية البسيطة، وكانت غاية في دماثة الخلق والتهذيب، لها لسان كماء النهر الجاري عذب وصافي وينطق بالحكمة والإنسانية ممزوجتان ببساطة حنونة.

فشلت جميع محاولاتي ولم يبقَ لي ولعائلتي إلا أن نستعين بأفكار مستحدثة ومنها أن نركن سيارتنا في جراج جيراننا الطيبين لعدة أيام، وأخرى إطفاء أنوار بيتنا ظنًا منا أنهم سيتركونا وشأننا ولم تنجح هذه المحاولات، إذ بدأوا بوضع قصاصات تبليغ تفيد بضرورة التحاقي بالشعبة الحزبية المسؤولة في ضاحية سكني الغزالية، والتي تقع على بعد أمتار مقابل محل عملي.

مرة أخرى دخلت حلوة المعشر (ز) إلى متجري وتبضعت أشياء صغيرة، سامحتها في الأسعار فكانت شكورة وممتنة وقبل انصرافها قالت لي:
- أنت بمثابة أخي الأكبر، وأشعرُ بأني أكون أخت لك، هذا شعوري نحوك وأحمدُ الله على ذلك...

ألقت تحيتها تاركة ورائها شحنة كبيرة من عطر الكرامة والإنسانية.

لم أغير مكان قصاصة تبليغهم وأبقيتها في مكانها، استعنت برحمة الله واتخذت أسلوب جديد في المُمانعة، حيث أرسلت زوجتي وأولادي إلى بيت أهلها في

ضاحية السيدية التي تقع في جانب الكرخ من العاصمة بغداد، وبقيتُ وحدي أدركُ حياتي في ظلامٍ مُصطنع، ولم ينفكوا من محاولاتهم الحثيثة.

لم أكن أرغب بالاستمرار معهم بعد أن فقدت قناعتي التامة بالنظام الحاكم بأكمله، وتلاشت قناعتي بمفهوم الوطنية والمواطنة إثر حرب الخليج الثانية (حرب الكويت) عام ١٩٩١، نعم لقد اتخذت وعد على نفسي أن أنفصل عن كل ما يربطني بهذا النظام والحزب الحاكم والمنظومة بأكملها، وها أنا بحذر شديد أنفذ سياستي كي أصبح حُرًا ومتحررًا من جميع قيودهم وضغوطهم وريائهم، ولكني أشقُ طريقي بخطورة وصعوبة بالغة، مُستند على خبراتي الحياتية والعملية في هذا المضمار، والتي أتت بأكُلها سابقًا وأثمرت خيرًا.

زارتني (ز) مساء يوم صيفي حزين تبتسم وبريق عينيها يتراقص فرحًا وطلبت تصليح إسورة فضية معطوبة، أنجزت إصلاحها لها فورًا وبشعور ينمُ عن احترام وطيب خاطر رفضتُ استلام أجرة التصليح منها كردة فعل على كلماتها الطيبة بحقي، لم ترضَ بذلك إطلاقًا، حاولت إقناعها بكل السبل فلم تقبل إطلاقًا، فما كان منها إلا أن تركت مبلغ من المال على منضدة عملي، وألقت تحيتها برقة وكبرياء ومضت إلى عملها في الشعبة الحزبية، وأنا أغرقُ في شدة دهشتي مما فعلت للتو، بعد ذلك تكررت زياراتها السريعة لي.

الحمدُ لله أنهم لم يُدركوا مكان عَملي الذي يقع على بعد أمتار فقط من مقر الشعبة الحزبية، حيث الفتاة الطيبة (ز) تعمل لديهم، وهي التي أصبحت لاحقًا مَكمن سَعدي وحُسن طالعي، تركت بيتي وآثرت المبيت في بيت أهل زوجتي لعدة ليالي، ولم أجنِ سوى الفشل حيث استمروا بمضايقتي.

كان من الصعب عليّ أن أفعل شيء عن غير قناعة، أريد أن أتنفس بحرية دون ضغط، لذا أبيت أن أنصاع لرغباتهم، عندها ضاقت الدنيا بعيني حتى فكرت أن أنتقل إلى مكان سكن آخر، وفي هذه الفكرة تكمنُ صعاب جمة.

جاءت (ز) الطيبة وجاء الفرج معها، جلست على الأريكة الوثيرة التي كنت قد جلبتها من البيت خصيصًا كي يجلس الزبون بين طياتها مُسترخيًا حين يتبضع مرتاحًا، أسرعتُ لتقديم الماء البارد لها، لاسيما يبدو وكأنها قد سارت مسافة طويلة وتعبت حد اللهاث، ما أن هدأت حتى بادرتُ بالحديث وسألتها عن أحوالها وصحتها وحال أهلها فردت بهدوء ورقة ودلال غير مبالغ فيه، وقالت إنهم والحمد لله بخير وصحة وافرة، أعقبت بحديثي قائلاً:

- عزيزتي (ز) أنت قلتِ لي مرة أنك تعتبريني كأخ أكبر لك... هل تتذكرين؟

- نعم أتذكر جيدًا، وما أزال أكرر ذلك.

لم أدعها تكمل إجابتها إذ أطلقت عبارتي التالية:

- يا أختي (ز) إنني في مأزق عميق وأتمنى مساعدتك، وإن لم تقدري فلكِ العذر، ولكن تذكري قولك إنك أخت لي، فإن لن تقدري عوني فأرجو أن تدعي الموضوع جانبًا وتنسيهِ كُليًا، مع رجائي منكِ بعدم إثارته مع أي من الآخرين لأن الموضوع الذي أرجو مساعدتك فيه حساس جدًا وخطير، هل تعديني بذلك؟

قلتها ويديّ على قلبي، لحظة وندمتُ على أني أقدمتُ على هذه المحاولة لأن أية كلمة تخرج عن الخط الأحمر المرسوم من قبل النظام ستكون بمثابة رصاصة الرحمة في رأسي.

كانت تحدق في وتركز انتباهها على كلماتي التي خرجت من فمي مرتبكة ومُحافظة جدًا، كانت هادئة ومستقرة، بنظرة ثاقبة نظرت إليّ، وبابتسامة شُبه جامدة استقرت عيناها التي لمعت في عيناي، وفجأة عدلت من جلستها ولبست ثوب الجدية وقالت:

- ابشِر يا أخي أبا زيد، ما هو الشيء الخطير الذي تبغي فيه مساعدتي وإني لأوعدك خيرًا.

تلكأت وتأتأتُ ثم استجمعت أجزاء بدني ومن بعدها قوايَّ، تلوت صلواتي وقلت:

- هل تستطيعين جلب إضبارتي الحزبية من الفرقة الحزبية لتنظيم ضباط الغزالية؟ لقد ضايقني الرفاق كثيرًا للعودة والعمل في التنظيم المدني بعد تقاعدي من الجيش وليس لديَّ وقت لهذا، لاسيما وأنا أعمل وكما ترين جاهدًا كي أعيل ثلاث عوائل وأؤمن قوتهم، وأنا حاضر لأي خدمة أو غير ذلك.

كطفلة بريئة أطلقت (ز) بكل جوارحها ضحكة تعجب صاخبة ساخرة، بعد أن خرجت من وقارها المعهود قليلاً كاشفة في فمها عن صفوف أسنان مرصوفة كلؤلؤ ناصع البياض قائلة:

- أنا آسفة يا أخي على ضحكتي... عجبي على ما تقول، وهل هذا الشيء خطير جدًا لكي تُرعبتني به حيث توقعت أنه حقًا شيء كبير جدًا، أنت تتدلل على أختك وسوف أفعل ما تطلبه بكل يسر وممنونية...

وأضافت:

- إن جميع أضابير رفاق الفرقة والشعبة الحزبية موجودة في أرشيفنا، وأنا أعمل فيه وسأتي لك بها قريبًا، إنه حقًا لأمر بسيط جدًا فلا تبالي إطلاقًا وارتح...

غادرت المحل وعبائتها تُرفرف في الهواء مُخلفة عطرها خلفها، تاركة نفسي ترتجفُ رعبًا تحسبًا وانتظارًا، ما هي إلا ساعتين بحجم دهرين وتدخل (ز) محلي ثانية وهي تطلق ابتسامة عريضة وتقول:

- أبشر يا أبا زيد أنا وجدت إضبارتك الحزبية وهي في حوزتي...

سكتت تود إضافة شيء، لكني بدهشة ولهفة عارمة باغتتها بسؤالي:

- وأين هي يا أختي (ز)؟ هل جلبتها اعطني إياها!

- كلا لم أجلبها ولكن ذلك ضمن قدرتي وبسهولة، هل تُريدني أن أجلبها لك؟

أجبت حازمًا قبل أن تُنهي عبارتها فورًا:
– نعم، نعم اجلبيها من فضلك والآن إن استطعت شكرًا جزيلاً لكِ.

اتجهت (ز) مرة أخرى إلى مقر الشعبة الحزبية وما هي إلا دقائق معدودات إلا وتحتل مكانها على أريكتي المريحة، ترفع نهايتي عباءتها وكأنها تريد كشف طالع البشرية القادم كاشفة بيديها الرقيقتين عن إضبارة سميكة عتيقة كبيرة ثقيلة نتنة وتدفعها باتجاهي قائلة: تفضّل.

لم أصدق عينيّ، اعتقدت أني في حلم جميل، فورًا عدتُ بذاكرتي سنوات عديدة إلى الزمن السحيق حيث تذكرت أول تقرير حزبي كتبه أحد المناضلين ضدي وأنا في الأيام الأولى لسنتي الأولى كطالب جامعي في الاتحاد السوفيتي، وأنا جالس على عرشي الذهبي مددتُ كلتا يديّ، تلقفت هذه الإضبارة المقيتة كجندي على ساتر جبهات القتال الأمامي يتسلم كتاب إنهاء خدمته من الجيش، أو كنبي يمسك كتاب نزل عليه توًا من رب العظمة، حمدت ربي كثيرًا وسكنت قليلاً سريرتي وارتحتُ كثيرًا.

شكرتُ (ز) كثيرًا ووضعت قطعة ذهبية مناسبة في كيس مُلون ظريف، وحاولت دَسهُ في يدها بطريقة لا تحرجها ودون أن تجرح مشاعرها، لمعت عيونها اعترضت (ز) بقوة رافضة ذلك وبصرامة المُحاربين نبَسَت شفاهها بوضوح:
– أنا فعلت هذا الشيء البسيط جدًا لك لأنك أخي، وليس مُقابل أي شيء آخر، لذا أرجوك ألا تجرحني بهذا!

قالتها بهدوء الملائكة وانصرفت بكبرياء الأميرات، وتركتني أغرق ببحر حيائي وأحتضن إضبارتي الحزبية[1]، سِر تاريخي الضائع ومصدر قلقي خوفي وعذابي.

وهل تعلمون يا أعزائي القُراء ماذا وجدتُ في هذه الإضبارة اللعينة؟

(إنه شخص صابئي يمكن الاستفاد منه كمهندس فقط).

هكذا لَخَّصَ الضابط (أ.ر) المسؤول عن البعثة حياتي وحصيلة دراستي لخمس سنوات طوال شاقة بهذه الكلمات الثماني العنصرية المؤلمة...

نعم صدمتني هذه الكلمات القليلة بعددها والكبيرة بمضمونها الخبيث، إنها أصابتني في أعماقي حد النخاع، إنه ألغى بها إنسانيتي ومضمونها، إنها جرحت كبريائي وسحقتني، إنه مسح وطنيتي بجرة قلم، إنها آلمتني بشدة حتى أعماقي، إنه تعمد تمييزي بعنصرية كوني لست على دينه... إنها آذتني بقوة حتى أحدثت ألم في معدتي، إنه تَقَصَدَ مَحو عراقيتي، وباختصار أطبقت عليّ كما تطبق السماء على الأرض حين تحين نهاية الزمان.

نعم هذه الثماني كلمات اختزلت خمس سنوات من حياتي دراستي وأصحابي، شقائي وغبطتي، أشيائي المحببة وأحلامي، جهدي كبريائي ونشاطي، كلماتي وأقلامي، لوعتي وهمساتي، وقاحتي ورغباتي المحمومة، جهدي وسهري، مرضي وسعادتي، حزني وفرحي، غضبي وضحكاتي، جديتي ومزاحي، مراهقتي وعشقي، شَططي وتمردي، سُكري وتمردي، عواطفي ودموعي، رسائلي ورسائل أهلي، هفواتي وجُرأتي، خوفي وشكواي، إخلاصي واندفاعي، صبري وقلة حيلتي، قوتي وضعف مشاعري، حبيباتي وعلاقاتي، ذكرياتي

١- الإضبارة الحزبية: الملف الذي يشمل جميع المعلومات الأمنية والسياسية والاستخبارية والحزبية عن الشخص العراقي المتنمي إلى حزب ما.

ونزواتي، ابتسامات شبابي البريء ووحشة حياتي، لياليّ ونهاراتي، وفائي لصلوات أمي ودعوات أبي وأخيرًا غربتي القاتلة عنهم وعن الوطن.

لقد حطم هذا الرجل في أصنام الرغبة في الحياة وأعادني إلى مربع الذكريات الأليمة الأول، حتى وإن هذه المعلومة قد جاءت بعد أن أقنعتني الأحداث وأثبت لي القدر وأظهرت الحياة لي طبيعة علاقات مجتمعنا المعقدة وجوهر نظرته الدونية إلى مواطنيه الأصليين، والتناقض الصارخ في شخصية الإنسان العراقي، حتى وإن ادعى أرقى أنواع الحضارة والمعاصرة.

نهاية عام ١٩٩٨ وقبيل هروبي من العراق بجواز سفر مزور قمت بتمزيق هذه الإضبارة العفنة ورقة إثر أخرى، وأردت الإيغال في إذلالها بعد رميها في طاسة بناء (إناء معدني مستدير يستخدم لأغراض البناء) وسكبتُ البنزين عليها وأشعلتها وأنا أتطلع إليها بتشف وتلذذ فائق، حينما كانت ألسنة نيران الإضبارة تتراقص طربًا كنت أشاهد ذلك بفرح غامر وألعنُ كل ما كتب فيها.

بين نارين

حرب تلد حروبًا

في ليلة شتوية باردة حالكة السواد؛ اندلعت حرب الخليج الثانية في كانون الثاني عام ١٩٩١م، إثر ضربات جوية وصاروخية مكثفة على أهداف منتخبة في بغداد وباقي مدن العراق، وذلك بعد انتهاء المهلة التي حددتها الأمم المتحدة للرئيس العراقي صدام حسين للانسحاب من الكويت، والتي لم يستجب لها، وكذلك إثر انتهاء المهلة التي أعطاها الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب لصدام بالانسحاب الكامل من الكويت للحيلولة دون المضي في اتجاه الحرب وتجنيب العراق ويلاتها، هذه المُهلة قد ضربها صدام بعرض الحائط أيضًا.

كان الأمريكيون يتعقبون الرئيس صدام بواسطة وسائلهم الإلكترونية الجوية والفضائية الحديثة، وفي لحظة اعتقدوا أنه قد يتواجد في أحد قصوره، ولذلك بدأوا هجومهم السريع والصادم عليه والذي أسموه (هجوم الفرصة) ونجا صدام من هذا الهجوم.

لقد قررت القيادة العسكرية الأمريكية استخدام مبدأ (الصدمة والترويع) في عملياتهم ضد الجيش العراقي، بغية تحقيق أهدافهم بسرعة كبيرة بأقل خسائر ممكنة في قواتهم، مع التركيز على إلحاق أكبر الخسائر الممكنة في قطاعات الجيش العراقي وتقليص قدراته العسكرية إلى أقل ما يمكن، كي يضعوا حدًا لمستوى تهديده للبلدان المجاورة.

وهكذا أصبحت سماء بغداد كأنها مرأب كبير موارب ومباح بالكامل لجميع أنواع طائرات قوات التحالف المشاركة في الحرب، التي استهدفت المئات من المراكز العسكرية والمدنية ذات التأثير المباشر، سواء على العمليات العسكرية

الجارية أو حتى التي تؤثر مباشرة على حياة الناس بصواريخ ذكية بعيدة المدى؛ مثل كروز وتوما هوك.

العراق كله أصبح مركز للعمليات تسرح فيه وتمرح كافة الجيوش التي زحفت من كل بقاع العالم المتحضر وحتى غير المتحضر، كان معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية، وضمن جميع القواعد الصناعية العسكرية في معسكر التاجي الذي يقع شمال بغداد قد تعرض إلى قصف جوي شديد، قبيل الحرب صدرت لنا أوامر عسكرية تقضي بإخلاء أكثر ما يمكن من المعدات والأجهزة والمواد الاحتياطية إلى مدارس طلاب مدنية تقع وسط الأحياء الشعبية في بغداد، وكانت حصة معملنا مدرستين أحدهما في جانب الرصافة والأخرى في جانب الكرخ، في ضاحية العامرية التي تقع على مقربة من مكان سكني في ضاحية الغزالية المخصصة لضباط الجيش العراقي.

صباح يوم بدأ القصف الجوي التحقت أسوة بزملاء العمل إلى مدرسة العامرية، لم أكن وكذلك زملائي الضباط والمراتب نفعل شيء مُهمًا سوى الحديث عن أمور الحرب والدمار والقصف، وكذلك التسكع في شارع العامرية الرئيسي، وارتياد المقهى المقابل للمدرسة لشرب الشاي والقهوة ومراقبة الطائرات والصواريخ وهي تجوب سماء بغداد بحرية دون رادع أو مقاومة تذكر.

حضر قائد المعمل العميد المهندس بشير عبد الواحد إلى مدرسة العامرية، وعلى فوره اجتمع بجميع ضباط المعمل مُصدرًا لنا أوامره بضرورة التحاق جميع العاملين ضباط ومراتب صباح اليوم التالي إلى المعمل في التاجي لغرض إخلاء أكبر ما يمكن من المعدات، وكذلك إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المواد الاحتياطية والأجهزة ونقلها إلى المدارس التي هي أكثر أمنًا، صباح اليوم التالي كان شتويًا باردًا والشمس في أوجها لم تبخل على أبنائها من بني البشر بدفئها وضيائها الرائعين رغم ما يحصل لهم من قتل ومصائب وكوارث في كل لحظة وكل دقيقة.

صباح اليوم التالي دخل الضباط والمراتب إلى معمل تصليح المحركات وهالهم ما رأوا من دمار هائل وخراب شامل، المشهد خارج حدود تصور أو تقبل العقل البشري، دهشوا صدموا في أعماقهم، انعقدت ألسنتهم، أصيبوا بخيبة أمل كبيرة لاسيما وأن المعمل ازدهر كثيرًا ووصل إلى مستوى أقرب إلى الكمال في عمله وتنظيمه وإنتاجه.

لقد كان الدمار غير معقول ولا يقره أي منطق، راعهم ما شاهدوا، الطرق مغلقة تمامًا بسبب الحفر العملاقة التي أحدثها القصف الجوي العنيف، رائحة الانصهار تنبعث من كل مكان، أكوام من التراب المنزوع المُرمى من تلك الحفر يغطي المنطقة بأكملها ويغلف الجدران التي استطاعت الصمود، صفائح أغطية سطوح المباني تستقر على أشكال هندسية مختلفة، طابوق يتلوى يصرخ من شدة الحرارة التي تعرض لها لحظة القصف، جدران تبكي تندب حظها العاثر بسبب فتحات كبيرة نتجت عن اختراق الصواريخ، جدران أخرى مائلة تنتظر دورها في الانهيار، أطنان من الطين الرطب متناثرة صبغت المكان بأكمله باللون الترابي الكثيف، وغطت الجدران التي أصبحت أطلال...

منشآت المعمل الصناعية جميعها تعرضت للقصف المركز الثقيل، المعدات والأجهزة مُبعثرة على مساحات شاسعة بشكل عشوائي، جناح التصليح العام الذي كنت أقوده تمَّ قصفه بعدة صواريخ غادرة أجهزت عليه وعلى كل ما في داخله، وأبقت على بعض من جدران هيكله ومعداته بانتظار موجة القصف اللاحقة، جناح تصليح المعدات الكهربائية تمَّ استهدافه بعدد من صواريخ الحقد، أحالت معظم أقسامه إلى حطام وأنقاض، كما حصل جناح الإنتاج على نصيبه الوافي من هذه المجزرة العلمية وأصيب في عدة أجزاء من جوانبه، لم تسلم كذلك مباني الخدمات اللوجستية للمعمل مثل بهو الضباط والمراتب والمستودعات وغيرها، الفوضى والخراب يعمان المكان بأكمله وكأن السماء قد أنزلت كل غضبها في لحظة واحدة وأحدثت هذا الدمار المجنون.

المعركة مستمرة والهجوم الجوي لطائرات الحلفاء على أوجه يتطور ويتوسع في كل لحظة، الطائرات القاصفة الذاهبة إلى أهدافها أفواجًا نراها تحلق في السماء على ارتفاعات متوسطة بحرية كاملة ونكاد نستطيع حساب عددها، طائرات الاستطلاع الإلكتروني الجوي تحلق على ارتفاعات أعلى لا نكاد نراها، لكن دوي محركاتها يصل مسامعنا، تترصد حركات سلاح الجو العراقي ودفاعاته الجوية وتراقب كل ما تقوم به القِطع العسكرية العراقية، وتبثها إلى مراكز قيادتها في قاعدة السيلية في قطر، التي تصدر أوامرها إلى أفواج طائراتها المقاتلة لإسقاط أية طائرة عراقية تتجرأ على الانطلاق لسمائها العراقية.

يتجول العميد قائد المعمل الذي اصطحب ابنه الصغير بصحبة ضباطه في أرجاء المعمل، وسط ذهول وأسف واضحين، ثم يتوقف في المنطقة المحصورة بين مقر المعمل ومقر جناح التصليح العام وعلى حافة حفرة عملاقة ظهرت كأنها مخروط هائل مقلوب تكونت أسفله بحيرة ماء تغطيها طبقة كثيفة ولزجة من الطين المخضر، الجميع صامت يحبس أنفاسه ويتوقع الأسوأ، أصوات الطائرات الأمريكية في السماء ترتفع تارة مقتربة وتنخفض تارة أخرى، الألم والأسى يُخيم على نفوس الجميع، في حضرة هذا الجحيم الضباط يتهامسون فيما بينهم غير قادرين على تصديق ما ترى عيونهم، يخرج كلامهم دون صوت، طائرات العدو لا تكل من التجوال في سماء بغداد، يتهامس الجميع بهدوء وحذر كأنهم يخافون أن تسمعهم الطائرات التي فوق رؤوسهم فتطلق عليهم إحدى صواريخها، فتحدث قربهم حفرة كبيرة أخرى تكون مثواهم الأخير.

قبل إنشاء هذا المعمل؛ كان العراق يرسل المحركات المعطوبة للطائرات الروسية الصنع من طراز ميك وسوخوي إلى الاتحاد السوفيتي لغرض تصليحها، بعد انتهاء ساعات عملها المُحددة، أو إثر إصابتها بأضرار أو تلف

خارجي، وهذه العملية كانت تأخذ وقتًا طويلاً وتحد من قدرة ومرونة سلاح الجو العراقي على إصلاح طائراته ورفع صلاحية الطائرات إلى أقصاها، خصوصًا في زمن الحرب حيث أعطال وأضرار المحركات على أوجه.

العميد بشير يقف على حافة الحفرة يتمعن النظر نحو أسفلها، ترد على خاطره أفكار عديدة لم يستطع كبحها، كنت أقف في الجهة الأخرى من الحفرة، يحاول التعبير عن صدمته الكبيرة وأسفه الأكبر لخسارة هذا الصرح الصناعي المتقدم والفريد، وفي معرض حديثه عن وصف الخراب الكبير الحاصل يصرح أن الأموال التي صُرفت على التصنيع العسكري كان بها يمكن تبليط جميع شوارع العراق من زاخو حتى الفاو بالمرمر الإيطالي الفاخر، وعاد وقال إن هذا ما تناقلته إحدى الإذاعات العالمية، لم يعلق أحد على ما أدلى به العميد، ثم أصدر أمر لجميع الضباط بضرورة التواجد في مقر المعمل في الساعة الثانية عشر، لغرض الاجتماع وتنسيق الأعمال.

انتهى الموضوع دون أية إثارة، ومضى الجميع كل إلى مكان عمله، بعدها اصطحبني القائد وكان من طبعه أن يمسك بيد مرافقه أثناء حديثه، وكرر على مسمعي نفس ما قال من حديث حول هدر أموال التصنيع العسكري، لم أعلق أو أضيف شيء عليه واكتفيت بالإنصات.

الجو منعش ورائع والشمس دافئة بحنان لكن صور أشلاء المعدات وركام البناء لا يُعطي إطلاقًا للمرء شعور بالانتعاش، بل يمنحه إحساس بقرب نهاية العالم، أصوات الطائرات تدنو وتبتعد.

حضر الجميع إلى مكتب القائد اتخذوا مجالسهم على أطراف كراسيهم، بعصبية واضحة أصابعهم تمسك بأقلام وقصاصات صغيرة من الورق، بدأ الاجتماع الجميع صاروا يدلون بما لديهم ويناقشون خطة الإخلاء المستقبلية بينما القائد يصدر التوصيات النهائية حول ضرورة الإسراع في إنقاذ كل المعدات والمواد الاحتياطية الممكنة وإخلاءها من المعمل تحسبًا من موجة قصف لاحقة، طرق

العميد المهندس (ع. أ) باب المكتب، اعتذر واستأذن القائد بالجلوس فقد وصل كعادته متأخرًا للاجتماع.

صوت الطائرات يقترب، الاجتماع متواصل والأوامر ترد تباعًا، أيدي الضباط تنقش أوامر القائد على كلمات مبعثرة على قصاصات ورق صغيرة، أخذ العميد (ع.أ) بالتحدث عن أمور جناح الإنتاج الذي يقوده والاقتراح حول صعوبة إخلاء بعض المعدات الكبيرة بينما أصوات الطائرات تقترب وترتفع أكثر فأكثر، الجميع في حذر شديد، أحد الضباط قال للقائد إن الطائرات قد أصبحت فوق رؤوسنا، لم يعر القائد أي اهتمام لذلك واستمر في مناقشة خطة الإخلاء، وفجأة ارتفع مبنى مقر المعمل بأكمله بعنف وسقط من علوه على الأرض.

أصوات القنابل والصواريخ تخرق الأذان، الأرض تهتز بعنف تحتنا، أزيز الأجزاء المحطمة تمر بسرعة هائلة، أصوات ارتطام القنابل بالأرض تزداد أكثر فأكثر وتقترب، الكل في رعب حقيقي شديد كأن أبواب جهنم قد فتحت علينا مرة واحدة، طائرات التحالف الدولي تقصف معمل تصليح الدبابات الشرقية الملاصق لمعملنا، الخوف يتسيد الموقف، عيون الضباط وحدقاتها متوسعة إلى أقصاها وشاخصة نحو القائد تنتظر، الكل يحاول أن يستند على كرسيه ولا ينجح، الفوضى عارمة، الجميع يترقب كلمة واحدة تصدر من فم القائد، يجلس القائد على عرشه الوثير بهدوء ويترقب...

الانفجارات تتزايد وتقترب وكأن الشيطان انتفض غاضبًا، هدير الطائرات القريبة يزداد ويعلو وفجأة أصدر القائد أمر بالتوجه نحو ملاجئ حماية الأشخاص التي كانت قد هُيأت قبل الحرب، كالسهام هرع الجميع يسابقون الريح وصوت الانفجارات نحو باب المقر، الكل في حالة هلع وذعر وفزع، البعض ركض بعيدًا عن المقر كي يستقر في مكان أمين، البعض الآخر استقر في قعر الملجأ الشقي القريب...

الرائد المهندس (أ.ع) بعد أن كان مع ابن القائد (سلوان) يتجول في المعمل؛ يقف الآن مُمسك بيد الصغير في باب المقر، مذهولين لا يعرفوا ما الذي يجري وماذا عليهم أن يفعلوا، العيون تتجه نحو السماء التي تُلقي علينا حممها بردًا وسلامًا كما كان الرئيس صدام حسين يقول في خطبه، الأفواه تدعو السلامة من الله، استقريت في جوف الملجأ القريب وعيني تتجه نحو السماء متضرعة للحي العظيم أن يُنجينا من هذه المحنة، الطائرات المُغيرة برشاقة تواصل حركاتها البهلوانية الشيطانية وهي ترش الموت على المكان، أشعة الشمس تسقط على عيوني فتغلق حدقاتها رغمًا عني فيبدو الكون أسود متموج يطغي عليه اللون الأحمر، أنكسُ رأسي للأسفل...

أصوات القصف تتعالى وتستمر، كل شيء يدور عكس الزمن، القصف على أشده، أرفع بصري لأرى القائد قد أخذ مكانه في الملجأ، أسأله عن ابنه ولا جواب إذ أنه اعتقد أن ابنه في أمان مع الرائد (أ.ع)، هدير الطائرات يصم الأذان والجميع في صراع مرير مع الموت، أرى ابن القائد يقف مشدوه مصدوم شديد الحيرة... يقفز القائد دون أن يعلم بمكان ابنه من ملجأه كي يجدهُ وينقذهُ، أقفزُ سريعًا نحو باب المقر لأمسك بيد الصغير أتلقفه وأدفعه أمامي بقوة نحو الملجأ الشقي، هبط القائد أيضًا في ذات الملجأ، سلمت له ابنه مُعافى وألقيت بنفسي في إحدى زوايا الملجأ، بنوع من العتاب اللا إرادي قلت للقائد:
- لماذا أتيت بهذا الصغير إلى هنا يا سيدي؟

مرت دقائق طوال كأنها دهورًا من الزمن، توقف القصف هدأت الدنيا، لم نعد نسمع أية أصوات قصف أو انفجارات، يبدو أن حمولة الطائرات قد نفذت، الحمدُ لله، وهنا قال القائد أبلغوا الجميع مغادرة المعمل قبل أن تعود الطائرات لقصفنا من جديد... لم تمسك الأرض أقدام أحد، كرياضيين في مهرجان ركض عالمي أخذت الجموع البشرية تَجري بسرعة ونشاط غير مسبوق نحو باب المعمل الرئيسي، استقلوا سياراتهم المدنية والعسكرية وكل شيء متحرك ونهبوا الأرض فرارًا.

لا أستطيع نسيان هذه اللحظات العصيبة ما حييت، ولا تختفي عني نظرات الطفل التائه وهو يقف مذهولاً في لُجَّة الحرب والقصف في موقع عسكري لم يكن هناك أي مُبرر لتواجده فيه.

بعد إنشاء معمل تصليح المحركات هذه القاعدة الصناعية المتقدمة؛ استطاعت القوة الجوية العراقية أن تجري جميع أعمال الصيانة والتصليح العام لمحركات الطائرات بكفاءة الكادر العراقي، دون الحاجة إلى إرسال هذه المحركات إلى الاتحاد السوفيتي، في معملنا أصبحت كلفة تصليح المحرك النفاث الواحد أربعة عشر ألف دولار أمريكي، والتي تتم في مدة لا تزيد على أسبوع، بينما كانت تصل سابقًا إلى حدود مليون دولار أمريكي، وتتطلب العملية فترة أكثر من سنة تقريبًا.

إن عدم الاعتماد على الجانب السوفيتي زاد من مرونة وكفاءة عمل القوة الجوية، وبالنتيجة أدَّى هذا إلى ارتفاع الصلاحية القتالية للطائرات، وازدياد زخم العمليات الجوية أثناء الحرب مع إيران، مما جعل العراق يمتلك السيادة الجوية المطلقة على سماء المعركة، مضت أيام عديدة وطائرات التحالف العالمي تهيمن على سماء العراق، تصول وتجول مُلقية آلاف الأطنان من القنابل على كل ما يمت بصلة للمجهود الحربي للجيش العراقي، وكذلك لم تسلم جميع البنى التحتية التي تقدم خدماتها للمواطن العراقي العادي، باختصار لقد استهدفوا كل شيء.

في إحدى ليالي بغداد الشتوية الباردة حيث الظلام يُغلف الكون والخوف يسود على الأجواء، التوجس والقلق يعمان النفوس ويطغيان على المكان، كنت وعائلتي نتخذ إحدى زوايا بيتنا لاعتقادنا أنه أفضل ملجأ للحماية من القصف المحتمل، نتنقل داخل البيت بابنتنا المولدة حديثًا ونحرص أشد الحرص على

وضعها في مكان أكثر أمنًا، نجلس نحتضن المدفأة النفطية نوع (علاء الدين)[1] بحنان بالغ كي نستمد منها الدفء والسكينة ولا ندع شعاع دفء واحد يهرب سدى، رغبتنا شديدة في استغلال طاقة المدفأة بأقصى حدودها، لذا كُنا نضع فوق سطحها العلوي بعض أقراص من حبات البطاطا ونشويها لنحصل على طعام مجاني سريع تشبهًا بمطاعم الماكدونالدز الأمريكية التي تقدم البطاطا المقلية.

الطاقة الكهربائية لا تزال معطلة والجميع يعيش في ظلام دامس، إلا أنني كنت قد ابتكرت وسيلة إنارة نستخدمها في ليالينا الحالكة الكئيبة، وهي عبارة عن سلك كهربائي أوصلته بين بطارية سيارتي وأحد المصابيح الاحتياطية الخاص بالسيارات نستخدمه عندما نشعر ببعض الأمان، إثر زوال موجة قصف بانتظار موجة لاحقة، أو عند حاجتنا الماسة لقضاء إحدى الأمور المهمة، بعدها أقوم بإعادة شحن بطارية السيارة وهكذا...

فجأة يقفز بيتنا من أساسه إلى السماء ويهبط من علوه دون رغبة، كلحظة حدوث الزلزال اهتزت أرضية البيت عدة مرات، جدران بيتنا أخذت تتماوج بعنف، صوت قصف شديد يخرم أذاننا، احتضنت زوجتي ابنتنا الوليدة بينما أخذت ابني وابنتي الأخرى تحت جناحيَّ، لقد كانا انفجارين هائلين متتالين، لم نعرف ماهيتهما ولكننا حزرنا شيئًا واحدًا؛ وهو أنهما كانا قريبين جدًا، ثم سكنت الدنيا وتوقف بيتنا عن الاهتزاز واستقرت أرضيته بعد عناء.

في اليوم الثاني علمنا أن طائرات أمريكية من نوع الشبح قد أطلقت قنبلتين ذكيتين اخترقتا فتحة تهوية أحد الملاجئ الكونكريتية في منطقة العامرية، مُحيلة أجساد المئات من العراقيين المدنيين المجتمعين فيه إلى بخار وسخام، رأيتُ

١- مدفأة علاء الدين: اسم نوع من أنواع التدفئة النفطية، وهي شائعة لدى العراقيين يستخدموها بكثرة أيام الشتاء للتدفئة وكذلك أيضًا لأغراض طبخ الطعام.

ذلك بأُمِّ عيني... هؤلاء الناس كان معظمهم أطفال نساء وشيوخ، وكانوا قد قدموا من بيوتهم مع أفرشتهم ومأكولاتهم وألعاب أطفالهم مُعتقدين أن هذا الملجأ يحميهم من القصف الجوي للطائرات.

اعتقد الامريكان أن هذا الملجأ تستخدمه القيادة العراقية كمركز عمليات حين ظنوا أن الرئيس العراقي صدام حسين كان يتواجد فيه، لذا أطلقت طائرة حربية أمريكية قذائفها الذكية الموجهة بالليزر وأحالت الدنيا داخل الملجأ إلى جحيم أسود وبقايا عِظام.

في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٩١م؛ وافق العراق على مقترح سوفيتي بوقف إطلاق النار والانسحاب من الكويت، إلا أن أمريكا لم تقبل بهذا المقترح وأعطت القوات العراقية مهلة ٢٤ ساعة فقط لإكمال انسحابها من الكويت.

بعد ٤٣ يوم من الحملة الجوية المكثفة للحلفاء؛ بنهاراتها ولياليها الطويلة، حيث قامت طائراتهم بحوالي ١٠٩٨٦٧ غارة جوية، ألقوا خلالها ٦٠٦٢٤ طن من القنابل المختلفة على أرض العراق، على إثرها بدأت الحرب البرية حين توغلت قوات الحلفاء البرية نحو الكويت والعراق واستمرت باندفاعها حتى وصلت إلى مناطق جنوب بغداد، حينها صدرت الأوامر لها بالتوقف.

أشعل الجيش العراقي النار في آبار النفط الكويتية التي أدَّت إلى إحداث كارثة بيئية كبيرة عمَّ تأثيرها جميع بلدان الإقليم والكثير من بلدان العالم.

يوم السابع والعشرون من شباط ١٩٩١ أعلن الرئيس الأمريكي بوش انتهاء العمليات العسكرية وتحرير دولة الكويت، إثر هزيمة الجيش العراقي واستسلامه في معاهدة (خيمة صفوان).

انتهت صفحة الحرب الخارجية وبدأت حرب جديدة داخلية، إذ اندلعت شرارة انتفاضة شعبية واسعة شملت الكثير من محافظات العراق الجنوبية والشمالية، والتي تمَّ قمعها بقسوة لا مثيل لها من قبل ما تبقى من قوات الحرس الجمهوري الموالية للرئيس صدام حسين.

انتهت الحرب وبدأت نتائجها السلبية الكبيرة بالتأثير على حياة العراقيين الاقتصادية والصحية والاجتماعية، كما أن الخدمات قد تردت بشكل كبير إثر الدمار الهائل الذي لحق بالبنى التحتية، مثل مراكز إنتاج الطاقة الكهربائية، ومنشآت النفط ومحطات تصفية مياه الشرب وغيرها.

لا بد من الإشارة إلى أن سلطة الدولة والحكومة قد ضعفت كثيرًا، لذلك أصبحت تخوض بقسوة بالغة عملية الحفاظ على بقائها واستمرارها بأي ثمن، وهذا ما سنأتي عليه لاحقًا، لقد خسر النظام ثقة الشعب بعد أن فقد مصداقيته وانحسرت شعاراته الرنانة.

أشهر مضت على انتهاء الحرب والشعب العراقي يلعق جراحه ويحاول تطبيب ما أصابه من أهوال الحروب التي تعاقبت عليه، أما الجيش العراقي فقد عمل ضمن ما يسمى (حملة إعادة الإعمار) إلى تصليح الأسلحة والمعدات المتبقية، وبناء المنشآت المتضررة وإعادتها إلى الخدمة.

نظرًا للدمار الهائل الذي لحق بمعمل تصليح المحركات النفاثة الجوية وبعد أن أيقنت القيادة بعدم وجود جدوى اقتصادية من عملية إعادة إعماره، لذا قررت قيادة القوة الجوية العراقية تسقيط المعمل رسميًا وإهمال هذا المشروع الحيوي الصناعي الفريد في الشرق المتوسط، اجتمع قائد المعمل مع قادة أجنحته وتداولوا قرار القيادة، وبعد المناقشات المستفيضة قرروا المضي قدمًا في إعادة تأهيله، وهنا بدأت جهود قائد المعمل الكبيرة والتي أثمرت عن نتائج باهرة، إذ استطاع وبطريقته الفريدة أن يُقنع المسؤولين في قيادة القوة الجوية بقدرة منتسبي المعمل على إعادة العمل به والمضي قدمًا في تصليح المحركات إذا ما تمَّ إعادة بناء أبنية المعمل المتضررة.

وبالفعل قامت منشأة الفاو بردم الحفر العملاقة ورصف الطرق المدمرة وترميم جميع أبنية المعمل، بينما هبَّ منتسبو المعمل من ضباط ومراتب بتجميع الأجهزة والمعدات والعدد الصالحة التي سلمت من القصف الجوي وأضافوا لها

المواد التي كانت قد أخليت إلى المدارس، لقد عمل الجميع كخلية نحل يتسابقون ويسابقون الزمن كي يجعلوا من المستحيل ممكن.

كنت أنا أول من أعلن عن جاهزية جناح التصليح العام وإمكانيته استقبال المحركات المتضررة، والبدء في عمليات التصليح العام عليها كما كان سابقًا قبيل الحرب، من خلال إقامة حفل رسمي بمناسبة هذا الإعلان، وبذلك كنا قد تحدينا أنفسنا والزمن والعدوان وأعدنا قدراتنا الصناعية والتكنولوجية إلى وضعها الأول.

بينما كان العراقيون الوطنيون الغيارى على بلدهم وشعبهم وجيشهم يعملون بين أنقاض الصخور المنصهرة، وأكوام الحديد الملتوية، والتراب الذي يغلق الأنوف، والطين الثقيل في أجواء الصيف اللاهبة؛ كانت بعض العقارب تُهيء سمومها مُحاولة الانقضاض على أية فريسة اعتقدوا أنها سهلة المنال، حيث كان هدفهم الرئيسي هو قائد المعمل العميد المهندس بشير عبد الواحد، وهدفهما الثاني هو أنا العقيد المهندس عباس الزهيري، وكانت خطتهم تقضي بضرب عصفورين بحجر واحد، لا يحتاج المرء ذكاء خارق كي يكتشف النوايا التي يخفيها بعض البشر الذين يضمرون الحقد والكراهية لكل ما هو مُختلف عنهم، سواء كان في الدين أو المبدأ.

ونعود لمسألة ضعف الحكومة العراقية بعيد الحرب وتأثيره على هذا الموضوع، إذ أن ضعف سلطة الدولة أحدث انحراف واضح عن الخط الذي كانت تنهجه السلطات في سريان القانون المدني وكذلك في حماية الأقليات الدينية، إلا أن هذا أصبح ليس من ضمن أولويات الحكومة والسلطة، حين ظهرت حالات غير صحية كانت قد انتهت منذ زمن بعيد، مثل عودة موضوع حل الخلافات العامة عن طريق الطرق العشائرية القديمة، بعيدًا عن قوانين ومحاكم الدولة، وكذلك ارتفاع المد الديني المُعادي لوجود الأقليات الدينية، ومعاداتها علنًا، حتى أخذنا نسمع أصوات مكبرات بعض الجوامع والمساجد

تدعو أثناء خطبها وتجاهر علناً بإطلاق صفة الكفر والإلحاد على جميع غير المسلمين، وأن بعض الخطباء يتفاخر أن هؤلاء الناس لا يستحقون الحياة...

ليس هذا فقط إذ ظهرت في الجيش بدعة جديدة وهي الدعوة إلى عدم طاعة أوامر الضباط غير المسلمين، مُستندين إلى نصوص دينية منها ما يرد في سورة النساء (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)، ولما كان المسيحيون والصابئة من غير المسلمين فلذا وجب عدم طاعتهم وعدم الامتثال إلى أوامرهم العسكرية، هذا ما سمعته شخصيًا من أحد أصدقائي الضباط المقربين وزميلي في الدراسة الجامعية في الاتحاد السوفيتي، وهو العقيد (ن.ف) حيث قالها لي بالحرف الواحد دون أية مواربة أو خجل ولكن بطريقة غير استفزازية.

هكذا كانت أجواء العمل في الجيش، الكل يتحسب من الكل، والجميع يحاول الإيقاع بالجميع، الانضباط العسكري الذي هو عماد عمل ونجاح الجيوش انهار إلى الحضيض، وأصبحت كلمة (عيني) أو (أبا فلان) تحل بدلاً عن كلمة (سيدي)، المحسوبية والمنسوبية والرشوة أخذتا مأخذهما في عمل الجيش، كما أن الذي فاقم الوضع سوء هو انخفاض القدرة الشرائية لرواتب أفراد الجيش بشكل عام، إثر التضخم الاقتصادي الهائل وانهيار العملة العراقية إلى أدنى حد بحيث أصبحت رواتب العسكريين ضباط ومراتب لا تكفي لسد احتياجات العائلة، مما دفع الكثير من الضباط إلى العمل في مجالات عديدة مثال التجارة وإدراة محلات وورش تصليح، وحتى في العمل كسائق أجرة بسياراتهم الشخصية التي منحها لهم الرئيس صدام حسين يوم ما.

يوم رائق وسماء زرقاء شفافة وشمس ساطعة، أجلس في مكتبي خلف منضدتي أمسك بقلمي بهدوء أمضي على رسائل بريد وحدتي جناح التصليح العام، بعد أن حصلت على ترقية إلى رتبة عقيد وتسلمت منصب قائد الجناح، رن جرس الهاتف مقتحمًا هدوئي، رفعت السماعة، على الجهة الأخرى يظهر صوت قائد

المعمل مبحوح وضعيف الطاقة يكاد لا يُسمع، يحاول جهده إظهاره فيخذله، يستجمع القائد طاقته كي يطلق عليّ كلمتين فقط (تعال فورًا)، أغلق الهاتف وجعلني في حيرة كبيرة من أمري.

يا إلهي رحماك ما هذا، ماذا حصل كي يكون القائد بهذه الحالة وهو القوي الجبار دومًا؟ لا أعرف... قد تكون هناك مهمة جديدة يريد القائد تكليفي بها وإرسالي إلى إحدى القواعد الجوية، بعد أن تعسرت بهم أمورهم الهندسية، وتحديدًا في موضوع محركات الطائرات.

لقد تعودت كثيرًا على مثل هذه الاتصالات المتأخرة والمفاجئة، وكانت أحيانًا تحصل حتى قبيل انتهاء الدوام الرسمي بدقائق معدودات، كي أحزم عدتي وأمري وأتجه فورًا إلى إحدى القواعد الجوية لحسم أمر مهم ما، أو إلى اتخاذ قرار حاسم حول موضوع هندسي حساس يتعلق بصلاحية المحركات، غالبًا ما كنت أصطحب معي نائب ضابط يمتلك سيارة شخصية كي نذهب بها لانشغال سيارت المعمل العسكرية بنقل الضباط من وإلى دورهم، وحين أنتهي من إنجاز مهمتي بنجاح؛ وكمكافئة متواضعة على جهده كنت أمنحه إجازة إضافية كي يرتاح ويتمتع مع عائلته، أو يستغلها في عمله الثاني.

نهضتُ على عجل أمسكت بغطاء رأسي وضعته ونظرت إلى المرآة، عدلته وبدا جيدًا... كنت أنزعج كثيرًا من إرسالي بمهمات فورية إلى القواعد الجوية مثل قاعدة البكر أو الحبانية وحتى غير القريبة من بغداد، ما أن أكون قد هيأت نفسي للذهاب إلى البيت كي أتناول وجبة طعام شهية مع زوجتي وأولادي وأستلقي لأخذ قيلولة تنسيني تعب الدنيا وهموم العمل، كنت أنزعج أكثر حين لا أجد من يعينني في تنفيذ عملي بعد وصولي إلى القاعدة عصرًا، حيث الجميع قد تركوا أماكن عملهم وخلدوا للراحة في غرفهم، وحيث أن الجو حار ولاهب لا أستطيع حتى أن أضع يدي على جسم الطائرة أو المحرك لشدة سخونتهما.

حثثت خطاي نحو مقر المعمل واتجهت مباشرة لمكتب القائد، طرقت الباب وتجاوزته، أديت التحية العسكرية، القائد طلب مني الجلوس، كان متوتر تبدو على محياه آثار الدهشة والحيرة، نهض وأشار لي أن أرافقه إلى الخارج وقال دعنا نستطلع بعض وحدات العمل، أخذنا نسير في الطريق المؤدي إلى جناح تصليح المعدات الكهربائية، عندها أخبرني أن مديرية الاستخبارات الخاصة بقيادة القوة الجوية قد أرسلت بطلبنا لأمر طارئ ما، كالسيف البتار نزلت هذه الكلمات عليّ وقطعتني أوصالاً وأزالت عني كل آثار الجوع والشهية لأي طعام، هذه الكلمات دفعتني بقوة إلى جوف الزمن الأغبر، وذكرتني بحادثة عناصر حزب الدعوة الذين تمَّ إلقاء القبض عليهم في بداية الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨١، انتشلتني كلمات بسيطة من واقعي الطبيعي وجذوري لترميني لعشر سنوات إلى الوراء، لتعيد ذكريات آليمة وقاسية، إذاً فالتاريخ يعيد نفسه، بئس هذا التاريخ الأسود.

– نعم سيدي... ما هو موضوع الاستدعاء وحول أي شيء؟

بقلق وحذر شديدين سألت القائد، ولكنه لحظتها كان قد شرد بأفكاره ولم يركز على سؤالي بتاتاً، انتظر منه إجابة ولا أي رد فعل منه، كان يرسل نظره إلى المدى البعيد دون نتيجة، اقرأ أفكاره وأرى أن مصيبة كبير قادمة لا محال، ينظر إليّ دون وعيٍ، أحكي معه لا يسمع، ينظر إليّ لكن لا يراني، مضت لحظات عديدة وأخيرًا قال لي:

– لا أعرف لماذا أرسلت الاستخبارات الجوية بطلبنا، ولكن سنذهب غدًا ونرى...

وهكذا انتهت محادثتنا ومضى كل منا إلى وجهته دون رغبة.

العميد بشير رجل متوسط القامة نسبيًا ممتلئ البدن ذو بشرة سمراء وشعر أسود، يمتلك روح الفكاهة والمرح وصنع المقالب المضحكة، قدير في إدارة الحديث، له باع طويل في الشعر والنثر والحكايات الشعبية، مهندس من الدرجة

الأولى خريج الكلية الفنية العسكرية في القاهرة وينحدر من مدينة البصرة، عمل في القوة الجوية وتقلد العديد من المناصب وتدرج بها حتى وصل إلى منصب قائد معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية في التاجي، شارك في العديد من الدورات الهندسية التطويرية داخل وخارج العراق، أخرها كانت دورة تخصصية في التصليح العام لمحركات الطائرات في الاتحاد السوفيتي، حيث كنتُ معه في هذه البعثة.

عملت مع القائد سنوات عديدة وأستطيع الجزم أنه ضابط ذو مواصفات قيادية متفوقة، مهندس كفء محنك ويمتلك قدرة عالية على إنجاز الأعمال الهندسية والفنية والإدارية وتنسيق الأعمال في مختلف الاتجاهات، ونظرًا لكفاءته البائنة فقد تمَّ إرساله ضمن وفود رسمية عديدة منها من يُمثل وزارة الدفاع العراقية، ومنها من يمثل قيادة القوة الجوية أو غيرها فيما يخص عقود شراء الطائرات والأسلحة، وغيرها فيما يخص المباحثات والتعاون العسكري بين العراق والعديد من البلدان الأخرى.

حاز على إعجاب قادته واستنادًا لكل ذلك تمَّ ترشيحه لمنصب رفيع في قيادة القوة الجوية، وهو منصب معاون قائد القوة الجوية للشؤون الهندسية، وهذا مع أسباب أخرى، ما دفع البعض إلى محاربته ومحاولة إسقاطه والزج به في آتون سجن الاستخبارات العسكرية في الكاظمية، على أساس تهمة تتعلق بالتعرض لسمعة الدولة، وأخرى زائفة كثيرة تمَّ تلفيقها له بتخطيط منسق وإحكام وعناية كبيرة.

* * *

المكان: قيادة القوة الجوية في ضاحية المنصور الراقية في بغداد.
الزمن: الساعة التاسعة صباحًا عام ١٩٩٢ ميلادي.
الحالة الجوية: صيف مشمس وحار جدًا.
الموقع: مديرية الاستخبارات الجوية / الشعبة الأولى.
الضابط المسؤول: العقيد (م) التكريتي / مدير الشعبة الأولى.
تخطيت والعميد بشير بوابة مديرية الاستخبارات الجوية، واتجهنا نحو الشعبة الأولى منها حيث ينتظرنا مديرها العقيد (م)، الذي جلس وتربع خلف منضدة كبيرة جدًا يكاد يكون يغطيها بحجمه الكبير، العقيد (م) رجل كبير الجثة عريض الكتفين ضخم الرأس كالشيطان دون قرون، تبدو ملامح وجهه الضخم قاسية رغم محاولاته الفاشلة في الاتشاح بالتواضع ودماثة الأخلاق لإضفاء شيء من اللين، أسمر قاتم البشرة ذو شعر أسود مجعد وينحدر من محافظة تكريت مسقط رأس الرئيس صدام حسين.

ما أن دخلنا حتى نهض العقيد (م) تصافحنا بهدوء رجانا الجلوس، دقائق معدودات من كلام المجاملات المصطنعة التافهة حتى تمَّ استدعاء العميد بشير إلى مكتب آخر وبقيت وحدي مع هذا الثور الأسود، من هذه اللحظة بدأ الوضع ينذر بخطر شديد، لبس العقيد (م) وجهه الحديدي الحقيقي بعد أن ولت الابتسامة المزيفة عنه وهنا بدأ التحقيق الجدي وفي نفسي أهمس وأقول: "يا آدم أبو الفرج[١] أنقذني من شر هذا الغول"، بعد أن أخذ بالتدخين بتلذذ، وبدا كأنه أكثر تركيزًا واستعدادًا للتحقيق، بدأ يوجِّه أسئلته لي:
العقيد (م):
- ما هي صلتك بالعميد بشير؟
- إنه قائدي وأعرفه من سنين، ولقد عملنا سويًا.
- ما نوع العلاقة بينك وبينه؟

١- شخصية مندائية نقية كان لها دور في نصرة المندائيين ضد من تصدى لهم وهزيمتهم.

- علاقتي به علاقة عمل واحترام.

- أنا أقصد علاقتك العائلية به!

- نعم سيدي، الحقيقة ليست لدي به علاقة قُربى قريبة، وكما تعلم نحن من دين واحد، أنا وهو صابئيا الديانة...

- هل هو نسيبك؟

- كلا سيدي، لا أنا نسيبه ولا هو نسيبي.

- هل أنت متزوج من شقيقة العميد بشير؟

- كلا سيدي، أنا غير متزوج من شقيقة العميد، وهو كذلك ليس بزوج شقيقتي.

- لدي بيانات تفيد أنك متزوج من شقيقة عميد بشير فماذا تقول؟

إذًا أرادوا إحضاري إلى هنا كي يهينوا إنسانيتي، العقيد (م) ومن على أمثاله نكرات تحاول الهيمنة على كل شيء حتى حيوات الناس، عليّ تقبل اختلافي عنهم ونظرتهم الدونية، وأتصرف بموجبها كي أستطيع مُجاراتهم، وأن أرد سهامهم المسمومة ضدي نحو نحورها وأمضي قدمًا في حياتي، كان فظًا في إطلاق سؤاله لذا أجبته بشيء من القوة المعجونة باللطافة المصطعنة:

- سيدي أخشى أن تكون بياناتك غير صحيحة، أنا وعميد بشير صابئيان مندائيان، لكننا لسنا بأنسباء، ويمكنني توضيح الأمر لك، نحن الصابئة المندائيون طائفة دينية صغيرة تتكون من سبعة عشرة عشيرة مستقلة، وأنا أنتمى لإحداها والتي تدعى الزهيرية، وزوجتي تنحدر من عائلة أخرى وهي البريجية، كما أن عميد بشير يأتي من عشيرة ثالثة وتدعى الخميسية، وزوجته تنحدر من عشيرة السبتية، لذلك لا توجد بيننا أية صلة نسب أو قُربى وثيقة، ولكننا جميعًا من عشيرة واحدة ونشترك في رابطة الدين والدم، ولدينا علاقات اجتماعية ممتازة نفخر بها، وأنا أفخر كون العميد بشير هو قائدي.

العقيد (م) يحرك رأسه الضخم إلى الأعلى والأسفل زامًا شفتيه الغليظتين قائلاً:

- هكذا إذًا أنتم لستم بأنسباء...

- نعم سيدي، وهل جميع المسلمون أنسباء كونهم من دين واحد؟

- لنتحول إلى موضوع آخر يختلف عن هذا تمامًا، هل تستطيع أن تخبرني عن أموال نثرية جناح التصليح الذي تقوده أنت؟ وكيف يتم صرفها وأين تذهب الأموال؟

- نعم سيدي لدي لجنة خاصة بإدارة موضوع أموال نثرية جناحنا ومشترياتها، مستقلة بعملها وترتبط بي، تتكون من ثلاثة ضباط؛ اثنان منهم برتبة مقدم والثالث برتبة نقيب، وهم غاية في الكفاءة والحرص والأمانة.

- نعم أنا اعرف كل هذا، وبحوزتي سجل النثرية الخاص بوحدتك العسكرية وهذا هو...

(يرفع بيده الثقيلة الضخمة السجل الكبير الذي يأتيني نهاية كل شهر كي أدققه وأصادق عليه ويُشير لي به، لم أعلم كيف وصل إليه ولم يعلمني أحد بذلك).

- نعم هذا هو سجل أموال الصرف الخاصة بوحدتي، ويمكنك الاطلاع على جميع مدخولات ومصروفات وحدتنا، كما يمكنك سؤال ضباط اللجنة ومعرفة الحقيقة منهم مباشرة...

- نعم، نعم لقد فعلت ذلك بالفعل وسألتهم...

- هذه مسؤوليتهم المباشرة، وفي نهاية كل شهر أقوم بعملية التدقيق النهائي للمشتريات ووصولاتها كي أصادق عليها...

- أنا أطلب منك أن تشرح لي كيفية استلام الأموال وصرفها؟

انا مستعد للاحتراق في الجحيم على أن أدع هذا الغول وغيره من أمثاله يتحكم بمصيري، وسأطلق أفضل دفاعاتي ضد ادعاءاتهم الكاذبة وقلت:

- نعم سيدي عند حاجة أعمال إعادة الإعمار الكبرى إلى مبالغ نقدية وهذه الحاجة كما تعلم مستمرة، نقوم بإصدار شهادة صرف بقائمة المواد ضمن مبالغ محددة لغرض شراء محددة، وضمن المواد المُصرح بها، حتى وإن كنا نستخدمها لأغراض أخرى مثل شراء مواد احتياطية لتصليح عجلاتنا العسكرية ومواد أخرى لا تقع ضمن قوائم مواد شهادة صرف المبالغ، وضباط اللجنة يتعاملون مع الموضوع بشفافية كبيرة وأمانة أكبر، وأنا أثق بهم، وفي نهاية كل شهر أقوم بتدقيق الحسابات بالكامل وأصادق عليها، أنا يا سيدي أصدر أوامر شراء بالمواد التي يحتاجها عملنا ولجنة النثرية هي من يقوم بالشراء وباقي أعمال اللجنة.

- لم يبقَ لديّ أي سؤال آخر وإن حصل سأرسل بطلبك لاحقًا... شكرًا وتستطيع الذهاب الآن.

- شكرًا سيدي، وأنا مستعد للإجابة على أي استفسار أو سؤال، ولكن أين العميد بشير؟

- قد تطول قضية عميد بشير، ولكن يمكنك الذهاب إلى البيت.

- على أية حال سأنتظره لأننا قدمنا إلى هنا بعجلة واحدة.

بخطوات ثقيلة متباطئة مندهش؛ نهضت مُبارح مكتب العقيد الأدغم الضخم غير مُصدق أنهم تركوني سالمًا حَيًا، وأن التحقيق قد انتهى بهذه السرعة وهذه السهولة وخلال أقل من نصف ساعة فقط، وإن بدت ليّ دهر.

تدور بي الدنيا وتستقر ثم تدور، وأنا في انتظار قائدي الذي طال انتظاره ولا أعلم ماذا حل به، ولكن يبدو لي أن موضوعه يختلف تمامًا وأكثر خطورة وتعقيد، تختلط الأحاسيس والأفكار عند المرء في مثل هذه الحالات، يقلق يرتبك يقتحمه الخوف ويركبهُ المجهول، يأخذ منه الرعب مأخذ، وبالنتيجة يبقى أسير أفكاره وقلقه دون إجابات ودون أن يستطيع عمل شيء سوى الانتظار القاتل.

ما الذي يحدث؟ ما هذا الذي حصل توًا؟ وما هذا السؤال السخيف الذي طرحه عليّ عن صلة القربى بالعميد؟ لماذا يستدعيني هذا العقيد الأدغم ذو النزعة الشيطانية ويمطرني بأسئلة تافهة كشكله؟ بعضها شخصي جدًا وآخر عن أموال نثرية جناحي؟ ثم كيف وصل له السجل الخاص بمصروفات جناحي وأنا لم أعرف أي شيء عن ذاك؟

ألف سؤال وسؤال أطرحها على نفسي ولا أستطيع الإجابة على أي واحد منها... ثم ما علاقة استدعائي مع قضية العميد، ولماذا يسألني عن صلة النسب معه؟ لا أفهم أي منطق لهذه الأشياء، وما علاقة موضوع نسبي مع أموال مصروفات وحدتي؟ لا يوجد رابط بينهما...

وهكذا يمر الوقت ببطء ثقيل وقاتل، وأنا أستمر في أسئلتي وحيرتي وخوفي من المجهول ولا أحد يجيبني عنها... كل ما أعرف أني في حضرة الاستخبارات وتحت رحمتها الكاملة...

انتظر وانتظر... ساعات تمر وتأتي غيرها، وأنا كمسمار قد دُقّ على خشبة ونَسوه، أعصابي منهارة وقلقي يتعاظم مع مُضي كل ثانية ودقيقة من الزمن، كل شيء يسير بغير عقل، لا نقاش العقيد الأسود ولا أسئلته تتبع للمنطق، أحاول السيطرة على نفسي بصعوبة ولا أقدر.

الموضوع برمته يقلقني كثيرًا وسيبقى يؤرقني لحين معرفة الحقيقة، ولكن متى سيخرج العميد، هو الوحيد من يمكنه أن يضيف إلى معرفتي شيء، وقد يوصلني إلى الحقيقة، وهذه فقط التي قد تريحني وتجعلني أشعر بهدوء نسبي.

أحيانًا يضحك المرء من شدة الألم ولكني لست قادر على الضحك، ويبدو لي أني وسط نزال شرس بين الخير والشر، ولا أعرف من سينتصر أخيرًا، لكن كل ما أعرف ومتيقن من أني لم أفعل شيء يخالف لا القوانين ولا الأعراف،

ولم أخن ضميري، ولهذا فإن عقلي مستريح بعض الشيء، ولكن أحياناً فإن الدنيا غدارة وللشر وجوه عديدة ويمكن للباطل أن يسود.

تعدت عقارب الساعة إلى بعد الظهر ولم يظهر العميد وأنا في انتظاره، يبدو أن قضيته كبيرة وخطيرة وليس مثلي، ولكن ما هي قضيته وتهمته؟ ما الذي يفعله الآن في الداخل؟ هل هو حي أم ماذا؟ يا إلهي ارحمنا وانقذنا من شر الظالمين.

الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر ولقد مضى خمس ساعات كاملة على قدومنا والعميد لم ينته، ما عساي أن أفعل؟ هل أذهب للبيت بسيارة أجرة أم انتظره للنهاية؟ ماذا أفعل يا ربي... ولا أحد يعينني على هذا الحال، إذ أن كل من يمر بقربي هم من جماعة العقيد (م) ذوي القلوب المتحجرة، كالسهام السامة يطلقون نظراتهم وكأنها تصرخ بي ارحل اخرج فورًا وإلا ستبقى دهر تنتظر...

لا أعرف كيف تموت مشاعر هؤلاء الجلادين وتصبح كالصوّان جامدة باردة، للخوف وقع خاص حيث يجعل صاحبه يفقد التحكم بسلوكه وتفكيره، وأخيرًا يظهر شبح ضخم مكفهر الوجه مرتبك كليًا ينظر ولا يكاد يرى، لا أكاد أعرفه لقد تغيرت ملامحه، سحنته، لون بشرة وجهه، عيونه بدت غامقة غائرة في محاجرها، يسير بقربي دون أن يميزني، يتخطاني دون انتباه، نهضت فورًا حييته ولا أذكر أنه أجاب، قلت له انتظرتك طويلاً هل سنذهب الآن إلى البيت؟ فهز برأسه نحو الأعلى والأسفل ومضينا.

اتخذنا مجالسنا في المقعد الخلفي في عجلة القائد العسكرية نوع تويوتا سوبر كراون، وانطلقت تنهب بنا الأرض إلى ضاحية السيدية حيث يقيم العميد، الصمت يلف العميد بكامله، يجلس هادئ ورأسه في صدره، عيناه زائغتان مشدوه البال يبدو أنه في عالم آخر، بطرف عيني أحاول أن أسترق البصر إليه، أرى العرق يتفصص على شكل كرات صغيرة على جبينه ولا يمسحها، ما زال على حاله صامت صمت القبور، اسأله لا يسمع ينظر إليّ دون وعي أو بصر، وفجأة قال كلمة واحدة: "كارثة" وصمت، أصمتُ أنا أيضًا والعجلة تجتاز

الشوارع المزدحمة، الجو خارج السيارة ساخن لاهب لا يطاق، جهاز تكييف التويوتا يناضل بقوة كي يجعل حرارة السيارة مُعتدلة ومقبولة.
يشد السائق على الفرامل تتوقف العجلة والعميد كآلة خارج الزمن ما زال يجلس صامت، أمسكت بهدوء طرف يده اليسرى التفت إليّ، أقول له ها نحن أمام بيتك، دون أن يصرح بأي شيء يسحب نفسه بثقل وتردد يترجل من العجلة، يدخل بيته ولا أذكر أنه حياني مودعًا، أغلقت باب العجلة وانطلقت بي تمخر عباب الطريق السريع تجاه ضاحية الغزالية.

ما الذي يجري؟ وماذا حصل مع العميد؟ لا اعلم... هل أخبر زوجتي مباشرة عن الأمر؟ انتظر قليلاً كي لا أفسد عليها طعام الغداء، نعم هذا أفضل عليّ أن أؤجل الحديث إلى ما بعد قيلولة العصر، ولكن أي عين سيأخذها النوم بعد كل ما حصل، سأحاول وسأقبل الرهان...

مساء نفس اليوم الجو أصبح أكثر اعتدالاً، الشمس سحبت جميع سياطها الساخنة دون حرج فانخفضت درجة الحرارة قليلاً، خرجت إلى حديقة منزلي سقيت الأشجار والزهور بالماء، رشّشت سجادة الحديقة ذات اللون الأخضر الساحر وجلست على الأرجوحة، هبت بعض النسائم المنعشة المُرطبة لرذاذ الماء، أقبلت زوجتي تحمل صينية عليها أكواب الشاي المعطر بالهيل، انضمت إليّ في الأرجوحة، قدمت لي كوب الشاي ذو الحجم الكبير الذي اعتدت عليه وقالت:
- والآن هات ما عندك، فلقد سئمت الانتظار وركبني الخوف من رأسي حتى أخمص قدميّ فأخبرني ما حدث؟

أخذتُ ألملم نفسي وأستجمع أجزاء جسمي، وألصق الأحداث ببعضها كي أستطيع تكوين صورة متكاملة، ولكني لم أفلح بذلك، ألحت عليّ زوجتي بعد أن نفذ صبر النساء فيها، وهنا بدأت أسرد قصتي وقصة العميد بشير دون ترتيب.

تستمع زوجتي صامتة وعيونها زائغة تتوسع شيء فشيء، بدت عليها علامات التعجب، تحول إلى قلق واضح ومن ثم تطورت إلى الخوف وصرحت قائلة:
- ما هذا الذي يحصل لنا، ما الذي فعلناه لهم كي يعاملوننا بهذه الطريقة اللا إنسانية؟ وهل الموضوع له علاقة بكوننا صابئة مندائيون[١]؟

أطلقت مئات الأسئلة التي لم تكن لدي أية إجابات عليها، مرت تلك الليلة الطويلة علينا، الحزن والقلق يخيم على أجواء بيتنا الوادعة ولم أعرف كيف مضت تلك الليلة الحالكة على عميد بشير وأسرته!!

نهضت باكرًا دون رغبة حقيقية، استقليت العجلة العسكرية مع زميلي العميد المهندس (ع) وتوجهنا شمالاً نحو التاجي إلى مكان عملنا، وبدأنا يوم عملنا المُعتاد، كانت تتروادلي أحاسيس تؤكد النظرات الغريبة التي يطلقها بعض الضباط نحوي، ولم أرغب أن أسألهم عن أسبابها.

ما هي إلا سويعات حتى أرسل القائد بطلبي إلى مقره، وما أن تخطيت عتبة بابه حتى نهض، كعادته اصطحبني من يدي وقال لنلقي نظرة على جناح تصليح المعدات وخرجنا... سِرنا وأثناء ذلك أخبرني أنه يرغب بالحديث عن مواضيع خطرة ولكن ليس في مكتبه، إذ أنه يعتقد ويشك أن الاستخبارات قد نصبت أجهزة تنصت وتسجيل، فبدأ بالحديث بعد أن بدا أنه قد استعاد توازنه النفسي نسبيًا واستجمع بعض من قواه، ليسرد ما حصل له اليوم السابق، سألته عن الكارثة التي تحدث عنها فأجاب:
- أخي عقيد عباس لقد حصلت يوم أمس كارثة كبرى، إذ أنهم وجهوا لي العديد من التهم الملفقة والمزورة، تصور عباس سبعة عشر من التُهم الملفقة

١- **الصابئة المندائيون: أقلية دينية تعيش في العراق والجنوب الغربي من إيران. ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ثلاث سور هي الحج والبقرة والمائدة وعدوا من أتباع الديانات التوحيدية، اقترن اسمهم بالنبي يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) مُبارك اسمهُ كأخر نبي ومعلم لهم.**

والمزورة قد كالوا لي وأنا بريء منها جميعها، لا والأخطر ما فيها اتهامهم لي بموضوع غاية في الحساسية والخطورة ويتعلق بالأمن القومي للبلاد؛ وهي التطاول على السياسة العليا للدولة، هل تعرف شخص اسمه نائب ضابط عدنان وهو ينحدر من محافظة الموصل، هذا الكلب قد كتب ضدي تقرير حزبي وأرسله إلى الحزب مُدعيًا أني وخلال أيام أم المعارك قد قلت إن الأموال التي صرفت على التصنيع العسكري بها كان يمكن أن نجعل من شوارع العراق من زاخو إلى الفاو مكسوة بالمرمر الإيطالي، من أين جاء هذا الملعون بهذا الكلام؟ لا أعرف وكيف وصلت إلى مسامعه ما قلت لا أعلم، الموضوع برمته حدث قبل سنتين فكيف تذكر هذا الشيطان وما هو غرضه من إثارته في هذا الوقت؟.

كنت أنصتُ إليه بجدية بالغة، تملكتني دهشة كبيرة وصدمة أكبر جراء سماع ما قال فبادرت الحديث:

- وهل تعلم يا سيدي ماذا سألني هذا العقيد الأغبر؟ لقد سألني عما إذا كنت نسيبك ومتزوج من شقيقتك، وكذلك عن أمور مالية وصرفيات وحدتي، علمًا أن التحقيق كان قصير، وأقل من نصف ساعة، لقد انتهينا بسرعة وبقيت أنتظرك طويلاً حتى فقدت صبري وكدت أفقد عقلي من القلق، ويبدو أن قصتك أكبر وأخطر بكثير هل صحيح ما أقول؟ ولكن من هذا (العدنان)، أنا لا أعرفه ولم اسمع به قط.

العميد يضيف:

- نعم ليرحمنا الله... لقد وجدوا فينا هؤلاء الأوغاد لقمة سائغة اعتقدوا أنهم سيمضغوننا بسهولة، ولكني لن أسكت وسأرد لهم الصاع صاعين، إذ لدي علاقات واتصالات ومعارف على مستوى عال ورفيع، وسوف نرى ما يحصل.

لم أجعله يكمل حتى قلت:

– يا سيدي العزيز، أعتقد أن الموضوع برمته قد تمَّ برمجته بتخطيط فائق بحيث يتخلصوا من كلانا بضربة واحدة لكوننا صابئة مندائيون... والآن أريد أن أقولها لك بصراحة مطلقة، عليك أن تكون أكثر حذرًا أكثر من أي وقت مضى، وأن تتذكر دائمًا أننا صابئة ولسنا منهم في ظل ضعف سلطة الدولة والحكومة، وأتمنى عليك ألا تعتمد على أي شخص آخر، توكل على الله فقط، واعتمد على ذكائك وحنكتك.

يبدو أن كلماتي لم تقع في نفس القائد وأن حديثي لم يرق له فردَ قائلاً:

– وأنت لا تفهم ما يجري...

ومضى دون أن ينبس بكلمة أخرى...

من الواضح أن القائد لم يكن شخص بهذه السذاجة، لكن الخطأ القاتل الذي وقع فيه هو شعوره أنه أصبح خارج نطاق الحساب والعقاب بسبب كثرة معارفه المتنفذين، في حين لم أنسَ طوال حياتي في بلدي ولو للحظة واحدة أنني صابئي ولا شيء يستطيع حمايتي والحفاظ على رقبتي سوى كفاءتي وذكائي في عملي، حرصي وحذري الدائمين.

الناس في العراق كانوا يعتمدون على السلطة سواء كانت المستقاة من الحكومة والمنصب فيها أو القربى من العائلة المالكة، أو يتكئون على السلطة المدعومة من الانتماء للعشيرة، علمًا أن سلطة الدولة وهيبتها قد ضعفت تمامًا إثر هزيمة حرب الكويت فلم يبقَ للناس غير سلطة العشيرة، ولما كانت طائفتنا المندائية هي طائفة دينية صغيرة جدًا ومسالمة وفق مبادئها الدينية، وأن أخلاقياتها لا تقبل ولا تحض على القتل أو العنف أو إثارة المشاكل أو تشكيل المجاميع المسلحة لهذا؛ فهي كانت وما تزال الحلقة الأضعف في المجتمع العراقي، بعد أن حمتها سلطة الدولة المدنية أيام قوتها، والآن وفي ظل انهيار السلطة وتفاقم النعرة الدينية ضد الأقليات الدينية، فقد تمَّ استهداف الضابطين المندائيين أولاً.

وبذلك أصبحت حياة الناس في العراق تعتمد على شريعة الغاب والبقاء للأقوى، إن كل هذا فهمته وأدركته دومًا وعملت بموجبه وتعاملت على أساسه، ولم أنس يومًا أني صابئي مندائي قوتي وسلطتي ونجاتي تكمن في علمي وعملي وكفاءتي وأدائي وحذري ودقتي في العمل، كل هذا مجتمعًا كان السبب الأساسي بعد الحماية الإلهية والتي حظيتُ بها لاستمراري في الجيش دون أن تُرسل رقبتي يومًا إلى المقصلة.

الأيام تمر مشحونة مجنونة قلقة وتحمل في طياتها أنباء لا تُبشر بالخير، إذ زارني بعض نواب ضباط وأحدهم يدعى نائب ضابط (ع) وهم يعلمون جيدًا بالرابط الديني الذي يجمعني بالعميد بشير، أعلموني أن هناك من يُدبر لمكيدة كبيرة وخطيرة للإيقاع بالقائد، وهؤلاء يسعون لجمع شهادات وتواقيع أكبر عدد من منتسبي المعمل بغرض تثبيت ودعم الاتهامات التي وجهت له.

نعم إن نائب ضابط عدنان يُسانده المقدم المهندس (ح.ف) والذي ينحدر أيضًا من محافظة الموصل؛ هما من كانا يقودان حملة جمع الشهادات في معملنا، المقدم (ح.ف) مهندس خريج هندسة الطيران من الإتحاد السوفيتي ضمن الدُفعة الثالثة، معتدل القامة نحيل البنية أسمر اللون ذو وجه أصفر حقود، وكأن نجاسة وخباثة الكون كلها قد تجمعت فيه مرة واحدة، مذمومًا له الكثير من دنائة الطبع، يسعى إلى تقصي عيوب الآخرين دون النظر إلى عيوبه، له طموح غير محدود نحو السلطة والمنصب سواء في الجيش أو الحزب الحاكم، تدرج في حزب السلطة الحاكم إلى أن أصبح عضو قيادة فرقة لغاية ذلك الوقت، والله وحده يعلم كم رقبة بريئة قد أصبحت تحت رحمة سلطته الظالمة حتى وصل إلى هذه الدرجة الحزبية.

أخبرني نائب الضابط (ع) والذي يعمل في حضيرة تصليح العجلات؛ أن مجموعة مقدم (ح.ف) ونائب ضابط عدنان تعمل جاهدة لإقناع أكبر عدد من المراتب للإدلاء بشهاداتهم ضد قائد المعمل.

بعد معرفتي بكل هذه التفاصيل التي استدعتني أن أتخذ إجراء سريع في ضرورة تحذير العميد عما يجري، اتصلت بالعميد بطريقتنا الخاصة وأعلمته بجميع التفاصيل الخطيرة التي وردتني، وحذرته مرة أخرى لكنه لم يحفل بها، ولم يبد اهتمامًا كبيرًا لها اعتقادًا منه أنه وبعد أن وصل بالرتبة والمنصب والعلاقات إلى مستوى جيد جدًا، فهو قد أصبح يتمتع بالحصانة من أي عقوبة أو إجراء عنيف، لقد حاولت كثيرًا أن أوضح له هذا الأمر، ولكنه للأسف الشديد لم يتقبله ولم يعمل به إطلاقًا.

كنت أول من سعى لتوثيق حدث العدوان الغاشم ضد بلدنا، والقصف الجوي العنيف الذي طال معملنا، مع التطلع إلى إنشاء رمز لذكرى الدمار الهائل الذي حلّ بالمعمل؛ وذلك بإقامة نصب تذكاري للعدوان وآثاره الدنيئة، حيث قمت بتخطيط وتنفيذ نصب يتكون من نجمة ثمانية مرتفعة عن الأرض بمسافة متر واحد، يحيط بها حزام نُقش عليه العلم العراقي بألوانه الثلاث تتربع على سطح النجمة العديد من أجزاء الركام الحقيقي للأبنية، تتوسطه وتخرج من قلبه دعامتان حديديتان ملتويتان منصهرتان تحتضن أحداهما الأخرى وتلتف حولها بارتفاع عدة أمتار عن سطح النصب تجاه السماء.

كما يتضمن النصب أشكال تعبيرية كثيرة أخرى، مثل أن تنغرز وتنتصب على سطحه العديد من المعدات وأجزاء المحركات المتضررة، هذا النصب أشرفت على تنفيذه لعدة أشهر كي يبقى يتكلم يشهد ويصرخ ليحكي للأجيال القادمة قصة العاملين الأبطال في هذا المعمل، الذين تحدوا أنفسهم والزمن وأحالوا المستحيل إلى حقيقة في عملية إعادة إعمار هذا المعمل.

لم تمضِ أيامًا قليلة حتى حصل منعطف خطير آخر يخص نفس الموضوع، إذ وعند نهاية الدوام الرسمي وبينما كنت أبحث عن زميلي وصديقي العميد (ع.أ) والذي يشاركني العجلة العسكرية لغرض العودة إلى البيت؛ وجدته منتصبًا ضمن مجموعة تضم العميد بشير ونائب ضابط آخر لم أعرفه ولم أره سابقًا،

تقدمت نحوهم بهدوء ألقيت التحية العسكرية، حينها كان العميد يوجه سؤاله للشخص الذي لا أعرفه، لحظتها اعتقدت أنه من غير اللائق أن اطلب من العميد (ع.أ) الانسحاب من المجموعة بينما كان القائد يتحدث، ولهذا انتظرت على مضض وليتني لم انتظر:

- هل أنت سمعتني بأذنك أقول مثل هذا الكلام؟

العميد موجه سؤاله للنائب ضابط الكالح اللون، والأخير يجيب بقوة وحزم دون أية علامة على تردد أو تهيب أو اعتبار لرتبة القائد.

لقد كان النائب ضابط ينظر مباشرة لعيني العميد دون إزاحتهما عنه بتحدي ظاهر، ويجيب على أسئلته بنبرة قوية وصارمة، مذهولاً مما يحدث أقف واستمع إلى هذه المحادثة الغريبة والبعيدة عن سياقات العسكرية التي تعودنا عليها:

القائد:

- كيف سمعتني أقول هذا وأنت تعمل في حانوت الوحدة منذ سنتين أو أكثر؟ ولماذا لم تكتب عنها سابقًا إن كنت حريصًا؟

نائب ضابط عدنان:

- نعم لقد سمعتك...

ولم يزد، كانت تعبير وجهه تنم عن حقد أصفر دفين وعميق، ويبدو أنه كان مستند إلى قوة أو سند ما، بحيث يجعله يتصرف بهذه الصرامة وهذه الثقة العالية، إن لم نقل الغرور الأعمى.

عندها توضح لي أن هذا الشخص هو نائب ضابط عدنان بعينه كاتب التقرير الحزبي ضد العميد، وهو المسؤول عن أكبر وأخطر قضية مصيرية في حياة العميد، ومنعطف خطير في حياتي أيضًا، والتي دفعتني إلى اتخاذ إجراءات

حاسمة لاحقًا، كانت يمكن أن تطيح بحياتي بعد أن أطاحت بمستقبلي المهني والوظيفي.

لقد علمت توًا أن أسود الوجه هذا هو (عدنان)، الذي كان طيلة فترة ما بعد الحرب والدمار الهائل الذي حدث لوحدتنا ومنشآتها يعمل في حانوت المعمل، (متجر صغير يؤمن احتياجات ضباط الصف من مأكولات ومواد أخرى)، بعيدًا عن جميع أنواع العمل القاسي والشاق، كان يتمتع تحت نسائم جهاز التكييف في حانوته بينما كنا نحن بين الأنقاض والركام والتراب، وهنا ثارت ثائرتي كأن مسًّا قد أصابني وأفقدني صوابي، وبعد أن استأذنت من القائد توجهت بالسؤال إلى هذا المسخ عدنان، رغمًا عن إرادتي خرج سؤالي حاد صارم هجومي ومباشر:

– يعني أنت سمعت هذا الكلام من العميد قبل سنتين ولم تفعل أي شيء، كنت مغمور لا تعمل شيء تخبئ نفسك في حانوت المعمل، بينما كُنّا هنا نعمل خلال هاتين السنتين الطويلتين تحت التراب والطين وبين حفر القنابل وركام الحديد وأنقاض البناء، رفعنا البنيان عاليًا حتى أعدنا هذا الصرح العظيم إلى الخدمة، وأنت أين كنت؟ لِمَ لم تشارك بأي شيء؟ نعم لقد كنت منشغل بكتابة التقارير الحزبية ضد العاملين الوطنيين...

قلت كلماتي الساخنة والشرر يكاد يتطاير من عينيَّ... لم تمر سوى ليلة واحدة فقط على هذه الحادثة؛ إلا وتم إلقاء القبض على قائد المعمل العميد بشير وإيداعه سجن الاستخبارات العسكرية العامة في الكاظمية، هذا الأمر الذي أدهش الجميع دون استثناء...

والآن يقبع القائد الصابئي المندائي في أقبية الاستخبارات المظلمة، والله وحده هو الذي يعلم ما الذي يحصل له، هذا أول الغيث ما الذي سيحصل لاحقًا، لا أحد يعلم، ما هي خطتهم المرسومة الكاملة؟ كيف سيتم إكمال تنفيذها، وهل أنا سأكون ضمن فقراتها؟ يبدو كذلك إذ أن الاستخبارات قد أرسلت بطلبي سابقًا

وهذا يعني أني سأكون حتمًا ضمن إحدى فقرات مخططهم الشرير، ما العمل إذًا؟ لا شيء بيدي سوى الدعاء من الحي العظيم أن يقف إلى جانب العدل والإنصاف، وأن ينقذ العميد ويُجنبني شر أعمالهم الخبيثة، لا أحد في آمان في ظِل هذا الوضع وتحت سيطرة هذا النظام.

فورًا ودون أي تلكوء أو تأخير؛ اتخذت قيادة القوة الجوية قرارها الذي لا يبشر بخير، بإرسال العميد المهندس (التكريتي) كقائد جديد إلى المعمل بدلاً عن العميد بشير، وهذا يعني أن غياب بشير عن المعمل سيكون لفترة طويلة إن لم نقل نهائيًا أو حتى نفيه بالكامل.

ما أن وصل العميد التكريتي إلى المعمل حتى أرسل بطلبي كي يبلغني وبتشفي واضح بضرورة توجهي في اليوم التالي إلى مديرية الاستخبارات العسكرية العامة، يبدو أن بنود خطة الأشرار تسير حسب جدولها الزمني بشكل جيد.

الوقت يمر ببطء شديد، الجو ثقيل وخانق الوضع مكهرب ويثير الخوف والقلق الكبيرين، الأمور تتدهور نحو الأسوأ بشكل دراماتيكي سريع، لا شيء في الأفق يشير إلى تفاؤل أو اطمئنان، الكل في حذر وترقب وخوف، لا أعرف لماذا أرسلت الاستخبارات العامة بطلبي! هل الأمر يتعلق بقضية العميد بشير أم سواها! الأمور السيئة كثيرة ولا يمكن التكهن بأي شيء، الآن أنا في حضرة الاستخبارات العامة وليست استخبارات القوة الجوية، هذا يعني أن الموضوع أخذ بُعد جديد أكبر، سأذهب غدًا وليحفظني هيي قدمايي[١].

انتهى الدوام الرسمي، منهك مسحوق عدت إلى البيت، أخذت حمامًا باردًا منعشًا، جلست في غرفة المعيشة مع أولادي زيد وهند وفرح بينما انهمكت زوجتي في المطبخ لتحضير طعام الغداء، أنظر في عينيّ أولادي وأرى فيهما البراءة والإنسانية والصفاء، تهدأ أعصابي وينخفض مستوى توتري، أحكي

١- الحي الأزلي.

أمزحُ ألعبُ معهم أرتاح وتَستكن سريرتي، لا شيء يريحني ويزيل تعب وشقاء وهَم الدنيا عني أكثر من النظر في أسرار الحياة الطاهرة والنور السماوي الذي تبرق به عينا ولدي زيد وابنتيّ هند وفرح، تهون عليّ مصائبي وتستقر نفسي، هكذا كنت أزيل أدران الدنيا وبلاء الحياة من عقلي بهم، أهرب من عالمي وأنفذ في عالم الطفولة البكر البريء الذي لا ظُلمة ولا ظلام فيه.

أوشك الليل الطويل على الانقضاء بعد أن بدأت خيوط الشمس بالانتشار، توكلت على الله صباحًا في ظِل النهار المتدفق، قبلت زوجتي وأوصيتها بوالديّ وأولادي خير، نظرت في عيني أبنائي قبلتهم جميعًا، كالمقاتل يحمل كفنه سرتُ نحو قدري إلى الاستخبارات العامة في الكاظمية حيث يقبع العميد بشير دون أن يعلم أحد بمصيره ودون أن يعلم هو أني سأكون على سطح الأرض التي فوق رأسه.

قسرًا حشرت نفسي في سيارتي، خفقان قلبي يتسارع، دون رغبة أدرت مُحركها بينما شيعتُ زوجتي وأولادي الواقفين في باب المطبخ بنظرة مفعمة بالحب والوداع، نظرات زوجتي تختزل كل شيء، إنها تشير إلى وداع أبدي، لا أرغب بالانفصال عنهما، عقلي يرفض هذا الوضع لكن لا بد من الذهاب إلى مديرية الاستخبارات التي لا يُرتجى منها أي خير، يا ويلي أنا مُجبر على ذلك.

ما أشحت بصري عنهم حتى خطرت لي اللحظات الأولى التي رأيت فيها البنت الفاتنة التي أصبحت لاحقًا زوجتي، تذكرت لحظة تعارفنا التي لم تدم سوى دقائق، كان ذلك في بداية الحرب العراقية الإيرانية حين كنت أزور صديقي وابن خالها (م.ض) في بيته الواقع في منطقة اليرموك في بغداد، بسبب عملي كضابط في الجيش واسمي غير المألوف ضمن طائفتنا الدينية، اعتقدتْ لأول وهلة أني لست على دينها، ولهذا كان ردة فعلها قاطعة في رفض عرضي عليها بالعودة معي بسيارتي الشخصية الجديدة المريحة من بغداد إلى البصرة

حيث تقيم وعائلتها، لا أخفي أنها كوردة زهرية منكمشة على نفسها حياء وأنوثة وجاذبية قد أثرت بي فورًا، لكن تمنعها القاسي قد أزعجني قليلاً.

كانت فتاة صابئية مندائية في العشرينات من عمرها، قصيرة القامة نسبيًا مستديرة الوجه حنطية البشرة شعرها كثيف أسود، عيونها وهاجة بالذكاء والنبوغ والجمال دائرية كبيرة ذات حدقات سوداء واسعة، نحيفة البنية هادئة الطبع وتتكلم بصوت خفيض، جميلة الطلعة حسنة المظهر ذات ذوق واضح في اختيار ملابسها، ولها ملامح كثيرة تدل على براءة الملائكة، رصينة السلوك متعلمة مثقفة حاصلة على بكالوريوس في الكيمياء من جامعة البصرة، تعمل كمدرسة في معهد البتروكمياويات في البصرة، هي من منحني السعادة الأسرية وحلم الأبوة، كانت قد قدمت من البصرة بصحبة أمها وشقيقها إلى بغداد لزيارة عوائل أقاربهم، زيارتهم أوشكت على الانتهاء وهم يسعون لشراء تذاكر قطار لغرض العودة وها أنا أعرض عليها وهي ترفض.

خرجت فاتنتي بعد أن أشاحت بوجهها عني وذهبت إلى بيت خالها نعمان الذي يجاور بيت صديقي (م.ض)، وهناك من أمها وخالها عَلِمت عني الكثير من المعلومات التي سَرتها وأحدثت تغييرًا جذريًا في موقفها الصادم، لقد أخبروها أني شاب أعزب وأدين بنفس دينها، أنتمي إلى عائلة معروفة وقريبة جدًا منهم، هذا ما شجعها وجعلها تخبرهم بعرضي، رحبوا بعرضي ووافقوا عليه فورًا.

صباح اليوم التالي مبكرًا كُنا قد اتخذنا أماكننا في سيارتي الجديدة نوع تويوتا سوبر كروان، واتجهنا نحو البصرة الفيحاء حيث كنت أعمل في قاعدة الشعيبة الجوية، كانت فاتنتي تجلس إلى جانب أمها في المقعد الخلفي للسيارة بينما كان شقيقها يتربع على الكرسي الأمامي إلى جانبي، سيارتي تسير بسرعة وتنهب الأرض، معنوياتي عالية جدًا مزاجي رائق، بين الفينة والأخرى أسترق النظر إليها من خلال المرآة العاكسة كي أرى وجهها المستدير الذي يشع نضارة وطيبة، هذا يمنحني طاقة كبيرة وزهو أكبر، بين فترة وأخرى تمدني بشطائر

لذيذة كانت قد صنعتها بنفسها، كأنها تسعى لإخباري بمدى قدرتها على الطبخ، أقضمها بشجاعة فائقة بعد أن أشكرها وأكيل لها كلمات المديح.

تخطيت الحاجز الأول دخلت إلى استعلامات المديرية، أعطيتهم اسمي وجلست انتظر، عالم صغير مظلم له قضبان لا يمكن تجاوزها أبدًا، إنها أول مرة ادخل إلى هذا المكان الرهيب الذي يوصف بمقبرة الرجال، وأتمنى أن تكون الأخيرة إن خرجت سالمًا من هذه الورطة، الأفكار تتوارد إلى ذهني ومن ثم إلى لساني، القلق يتملكني والخوف من المجهول يركبني تمامًا.

وحدي أسير نحو قبري وأفكر في نفسي كيف يُعقل أن تقبع هنا ماكينة عملاقة متخصصة بإذلال البشر وآلة كبيرة لتعذيبهم وقتلهم وسط هذه المنطقة الجميلة الخضراء المطلة على نهر دجلة الخالد، وماءه الصافي العذب، والتي لا تبعد كثيرًا عن ضريح الإمام الكاظم، ماذا لو جعلوا منها حدائق ومتنزهات للعوائل البغدادية وعشاق الطبيعة ألن يكون أفضل بكثير؟ غرقت في حيرتي سادت لحظات صمت متوترة ورهيبة مضت كأنها دهر.

أخرجني من أفكاري صوت أحد عُمال ماكينة إذلال البشر؛ مناديًا عقيد عباس فاضل، أجبته بنعم مترددة، نهضت، رافقته، قدماي لا ترغبان بالسير خلفه لا بل يودان السير بعكس الاتجاه ولكن لا مفر من المصير المحتوم، يسير هذا الدليل وأنا كخروف العيد أتبعه نحو المذبح، توقف قرب بناية ليست كبيرة، أدخلني إلى غرفة صغيرة نسبيًا، تركني ومضى.

غرفة التحقيق غرفة صغيرة بسيطة، تنتصب فيها منضدة متواضعة توسطت الغرفة، أريكة طويلة، يجلس خلف المنضدة ثلاثة أصنام كبيرة، على الجدار خلفهم تعلق صورة كبيرة للرئيس صدام وهو يرتدي الزي الكردي، يحمل بندقية طويلة، خلفهُ يظهر منظر جبلي رائع وطبيعة خضراء خلابة، قد تكون هذه الصورة له في زيارته إلى شمال العراق عندما سقطت طائرة ابن خاله وصهره وزير الدفاع الفريق الركن عدنان خير الله طلفاح وقتل على إثرها،

وقيلَ آنذاك أنّ هذا قد يكون من تدبير الدكتاتور نفسه، في الجهة المقابلة للمنضدة وضع كرسي عادي يقابل الأصنام، وعلى ما يبدو أنهم قد خصصوه لي، ما أن دخلت حتى أديت التحية العسكرية، توقفت أستجمع قواي كي أستطيع تكوين فكرة عما يجري.

شبح أسود كبير؛ ما أن وقع بصري عليه لأول وهلة حتى عرفته على الفور، إنه العقيد (م) مدير الشعبة الأولى في استخبارات القوة الجوية، ولكن ما الذي جاء به إلى هنا؟ ألم يكتفِ بما فعله معي قبل فترة حتى جاء هنا ليكمل ما بدأه هناك، يا ويحه...

الصنم الثاني تعلو وجهه العبوس أصلاً تقاطيع حادة غير مُريحة، سهام الشر تكاد تنفذ من عيونه أشعر بها توخزني، كان يجلس متأهبًا بملابس عسكرية خالية من رتب الضباط، أما الصنم الثالث فكان يرتدي ملابس مدنية بان عليه الترف الشديد، كالثعلب ذو نظرات ماكرة يصوبها نحوي أكاد أشعر بأنفاسه تخترق جلدي، طلبوا مني الجلوس على كرسي الاعتراف ففعلت.

أكاد لا أرى شيء حتى وإن نظرت إليهم، أرجلي كسعفات نخيل في مهب ريح ترتجف لا أقدر على التحكم بهما، نفسي مرتابة من الوضع برمته وقلقة، أحاول لملمة نفسي فلا أستطيع، أسأل نفسي لماذا استعراض القوة هذا؟ ألا يكفيهم جلاد واحد؟.

يا هيبل زيوا [1] رُحماك، يبدو أني في ورطة كبيرة لذا التجأ إليك فأَعِني وكُنْ إلى جانبي ولا تتركني فريسة بين فكوك هؤلاء الوحوش، هنا أخذ العقيد الأدغم بتعريفي بهم قائلاً بعد أن طغى عليه طابع الجدية الفائقة وكثير من الخشونة، وبدأ حفل التعريف:

١- **ملاك أثري نوراني ، وهو رسول الحيّ، ويُسمى المخلِّص.**

- رغم أنك تعرفني ولكن على أية حال أكرر أنا العقيد (م) من استخبارات القوة الجوية، والرفيق ويشير بيده إليه (لا أذكر اسمه ولا أريد تذكره إطلاقًا) من الاستخبارات العسكرية، والرفيق الثالث من المكتب العسكري، وهو مكتب قيادة الحزب الحاكم في الجيش.

ما أن انتهى حفل التعريف الباهت حتى بدأ حفل التحقيق اللعين، استهل العقيد (م) تحقيقه بأسلوب حاد جدًا وبكلام يَسم له البدن:

- عقيد عباس أنت تكلمت مع نائب ضابط عدنان ونهرته بطريقة لا نقبلها، كيف تتكلم معه بهذه الطريقة؟ نحن لا نسمح لك بذلك منك إطلاقًا...

إذًا ظهرت الحقيقة وبانت فصول المسرحية الحزينة التي تدور وتتمحور حول نفس هذا الشبح الذي يُدعى عدنان، من هو هذا الذي يُثير كل هذه الضجة بحيث يقرر بنفخة ريح قلع جذور عميد بشير من منصبه، وزرعه في قبو سجن الاستخبارات إلى أمد غير معلوم، أو قد يكون مدى الحياة، لا أحد يعلم وحتى يمكن أن يطيح بحياته كليًا، وكذلك يجعل من ثلاثة أصنام غاضبة كبيرة كجدار في جهنم تجلس أمامي تَصب جام غضبها عليّ وتحاسبني بقسوة عن بعض الكلمات التي قلتها صدفة إلى هذا العدنان المسخ؟ انعقد لساني وتشتت عقلي، أخذت أُفكِّر بسرعة في كيفية التصرف والرد على هذا الجدار الشيطاني كي أحفظ حياتي، وألا أقع في نفس مصيدة التي وقع بها من كان يومًا ما قائد لمعمل تصليح المحركات.

اتخذت قراري بالهجوم والمواجهة التي هي أفضل وسائل الدفاع وأحسن من وسيلة الاستكانة التي يمكن ان تدفعُ بصاحبها نحو المقصلة، نعم سوف استخدم نفس أسلوبهم الخبيث وسأستغل اسم رأس السلطة المطلقة الرئيس صدام ومقولاته التي لا أحد منهم يستطيع الاعتراض عليها إطلاقًا، سأعيد سهامهم المسمومة نحو نحورهم مستعينًا بقوة الحي الأزلي العظيم وذكائي وقوة حجتي، سأقوم بعملية لبس الأقنعة كما يفعلون هُم وأجسد شخصية أخرى غير

شخصيتي، سأربكهم بحديثي، سأقطع سلسلة أفكارهم، سأحطم ما يضمرون لي من كراهية ونوايا شريرة، سأقوم بتكرار اسم الدكتاتور مرارًا، أعتقد أن هذه الوسيلة الوحيدة التي تستطيع فرملة عجلتهم المخصصة لسحقي وتدميري وبالنتيجة سأفشل خططهم اللعينة، لم أكن أقل جرأة منه، ولم يعد بإمكاني فعل أي شيء سوى التقدم للأمام وقلت:

– نعم سيدي إن ما قلته له أعنيه بكل حرف، ولا زلت أؤمن فيه ويستحقه...

العقيد (م):

– لا نسمح لك إطلاقًا أن تتكلم مع الرفيق نائب ضابط عدنان بهذه الطريقة، مفهوم؟

قالها بقوة لعينة، رفع يده وأشار لي بطرف سبابته الغليظة، ولكني لم أدعه يكمل حرف كلمته الأخيرة حتى أضفت وقد علت نبرة صوتي أيضًا، ولمَ لا، فالموضوع لا يحتمل الهدوء والتفسير، إذ لا منطق يسيطر على الأمور هنا في حضرة الاستخبارات العامة، سأطلق لحريتي العنان وأحرر نفسي من سجنهم، يبدو أن من دعوات العون عند الله قد تحققت واستجاب لصلواتي ومنحني طاقة هائلة وقوة كبيرة ألهمني عزيمة لا تلين فتجرأت القول:

– ومن هذا عدنان الذي تدافعون عنه بهذه القوة؟ أوليس هذا هو نفس النائب ضابط الذي اختبأ في حانوت المعمل لسنين دون أي عمل حقيقي في وقت عصيب على البلد، حين كان الرجال الأبطال أبناء القائد صدام يعملون تحت التراب وبين الأنقاض وركام الحديد والطابوق المنصهر، وفي أجواء الصيف الساخن ويخوضون حرب إعادة الإعمار... يا سيدي لقد عملنا المستحيل كي ننهض بالمعمل من جديد بعد أن قررت قيادة القوة الجوية تسقيطه نهائيًا، الرئيس القائد صدام حسين أصدر أمر لجميع العراقيين بالعمل لإعادة إعمار العراق، ونحن نعمل بأمر أبينا القائد حفظه الله ورعاه، وها نحن ببساطة نصبح

ضحية من يجلس في الظل ويتخصص بكتابة التقارير الظالمة ضد الأبطال، هل هذا ما يريده المسؤول الأول في بلدنا العراق؟.

هنا ترائت لي عيون ابني زيد وابنتيّ هند وفرح وبرائتهم ونظرات عيونهم الحانية، تذكرت كيف كنا نلهو سويًا في ماء حوض حمام بيتنا الوادع، حين يمدون يد العون لي في قضاء بعض الأعمال المنزلية البسيطة ومنها أعمال الزراعة في حديقتنا الغناء، كُنا نجلس على الأرجوحة وأفتعل أنواع المقالب والمُزاح معهم، أعيد شريط ذاكرتي ولحظات سعادتهم حين أفاجئهم ليلاً بالتوجه معهم إلى منطقة الكرادة الراقية كي يحصلوا على الأيس كريم المُميز واللذيذ، من محل المرطبات الشهير الذي يدعى (الفقمة)، والطريف في الأمر هو أني كنت قد عقدتُ اتفاقًا مُسبقًا مع ابنتي الصغرى فرح حول مفاجأة الآخرين بزيارة محل مرطبات الفقمة ليلاً، إلا أنها كانت أكثر المندهشين حين أخبرتهم بالموضوع، بدت وكأنني لم أتفق معها، هذا ما دعانا إلى التندر عليها ولحد الآن، أتذكر زياراتنا الحميمة الرائعة إلى بيت أهلي وأحاديث والديَّ الحانية الشيقة مع أولادي، أمسياتنا البديعة التي كُنا نقضيها مع عائلة زوجتي، أغنية المطربة الخالدة أم كلثوم (لسه فاكر) التي نرددها جميعنا في طريق عودتنا ليلاً حين يصدح مذياع سيارتي بها...

صوت غليظ أجش ثقيل يصدر عن هذا الدب الأسود يقطع أحلامي الجميلة يفيقني ويعيدني إلى واقعي الأليم... العقيد (م) بعد أن استشاط غضبًا:

- هل أنت تدافع عن عميد بشير أم ماذا؟ هل تدافع عنه لأنه من دينك؟

المرء لا يجلس بانتظار السعادة كما يقولون، لذا فأنا لن أجلس دون إجراء مناسب بانتظار شفرة المقصلة تندفع نحو رقبتي، وأهبُ قائلاً:

- أنا لا أدافع عن قائد المعمل بالذات، ولكني أدافع عن الحق والعدل وعن الإنصاف، إن من يعمل بوطنية وحرص على بلده لا يجب أن يُكافأ بهذه الطريقة، وهذا ما قاله السيد الرئيس القائد صدام حسين، اعملوا وتجاوزوا

الروتين ولا تخافوا، يا سيدي أنا أقصد كل كلمة قلتها لنائب ضابط عدنان وأنا مسؤول عنها.

أحسستَ لأول وهلة أن هجومي المقابل العنيف المباشر والمستند إلى أقوال رأس العائلة أو القبيلة الحاكمة قد أتى بأُكُله، وقد ينقذني من براثن هؤلاء الشياطين الذين تجمعوا لينهشوا لحمي نيئ، لقد كان هذا درس قاس وخطير في مواجهة السلطة وعدم الاستسلام، ركبت موجته بقوة ودون حساب، إذ أن الأمر أصبح سيان بالنسبة لي.

يتدخل الصنم سيء المزاج الذي يرتدي بدلة مدنية في الحديث بعد أن توسعَت عيناه، بحيث أصبحتا كعيني قرش وقت انقضاضه على فريسته، بدا مترعًا بالحقد الأصفر، ينظر إليَّ شزرًا صابًا جامَ غضبه عليَّ بعصبية واضحة قائلاً:
– اسمع عقيد عباس لا يحق لك محاسبة الرفيق عدنان كونه يكتب لنا تقارير حزبية، لأنه يقوم بواجباته الحزبية على أكمل وجه، ونحن نشجعه لأنه ينقل لنا الحقيقة، ونطلب منك ولأخر مرة ألا تُكرر ما قمت به.

يبدو أني عالق في هذه الفوضى حتى قمة رأسي، وأن ما يحدث لا يبعث على الشعور بالطمأنينة، لذا عليّ ألا أصاب بالذعر، وأن أحافظ على رباطة جأشي، لقد فات الأوان للتراجع فلا خط عودة بعد الآن ولن أستسلم أبدًا لهؤلاء الغربان...

– نعم سيدي نحن ننفذ ما يقوله السيد الرئيس القائد، ولا أعتقد أن أمر يمكن أن يعلو على أوامره، وماذا يحصل؟ هل ما يحصل الآن هو ما يريده الرئيس القائد حفظه الله ورعاه أم ماذا؟.

الصنم الثالث من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة الذي بدا غاضبًا من كلامي يحدقُ بي بعيون ثور جريح، يزم شفتيه بقوة يلوي رأسه كأنه يريد أن

يطلق نداء يوم بعث الخلائق للحساب، ثم ينظر نحوي بطريقة تجعل المرء يشعر كأنه أصغر من ذبابة ويضيف بصيغة حاقدة:

- والآن انصرف لدقائق... انتظر خارجًا حتى نطلبك ثانية.

استندت على حافة الكرسي بيدي اليمنى بتثاقل ونهضت، أحاول تحريك قدمايّ اللتان التحمتا بقوة في أرضية الغرفة، لم يرغبا بطاعتي رفعتهما رغمًا عنهما وخرجت أخيرًا انتظر قدري الذي سيخرج من أفواه الجلادين الثلاثة، ثوان ثقيلة مرت لحقتها دقائق مُرَّة، ساقايّ لا تسعفاني الوقوف أكثر، أكاد أهوي على الأرض التي أتمنى أن أفترشها وأنفذ في نوم أبدي ينسيني هذا العذاب.

ما الذي يدور في داخل تلك الغرفة المشؤمة! بماذا يتحدثون الآن! إلى ماذا سيصلون؟ هل سيصدرون حكمًا بالإعدام؟ إذ ليس في قاموسهم عقوبة أقل وطئة من ذلك، أم سيرسلوني إلى الأسفل كي أكون رفيقًا لتسلية المسكين قائدي في زنزانته النتنة، اللعنة عليهم وعلى قراراهم وليكن ما يكن، لكن لا بد لي أن أُفكِّر بطريقة إيجابية كي أستطيع أن أتحكم بالأمور بشكل أفضل، على بُعد أمتار ليست كثيرة تسير حمامة ذات لون رمادي يتخلله لون أبيض ناصع، تنقر بعض فتات الخبز من الأرض وتطلق أصواتًا مألوفة تريح أعصابي، وترحل بي إلى يوم حين أَلَح ابني البكر زيد عليَّ بالذهاب إلى سوق الغزل الشهير حيث تُباع جميع أنواع الطيور العادية منها والنادرة، القطط وأسماك الزينة وكذلك أنواع الدجاج وحتى الحيوانات الغريبة مثل أنواع السحالي، استقلينا سيارتي بعد أن اصطحبنا ابنتي هند التي رغبت كذلك في ولوج أسرار هذا المكان الذي يأمهُ الكثير من البغداديين كل يوم جمعة.

توجهنا نحو سوق الغزل الوقع في شارع الجمهورية قرب جامع الخلفاء التراثي الأثري الذي بناه الخليفة "علي المُكتفي بالله" في بداية القرن الميلادي التاسع، والمشهور بمنارته الجميلة الشاهقة، ابتعنا عدة أسماك انتقاها زيد بنفسه كي يضيفها إلى مجموعته الكبيرة التي يحتضنها حوض أسماكه الجميل، حيث

ينتصب ويُزين أحد أركان غرفة معيشة بيتنا المليئة بدفء مشاعرنا، تذوقنا شرائح الجُمّار ذات المذاق اللذيذ وهي المادة البيضاء الموجودة في قلب فسيلة النخيل الصغيرة، ابتعنا كذلك بعض مستلزمات تزيين حوض أسماكنا، كانت سعادتي لا توصف برفقة أبنائي حين كنت أرى توهج وجوههم فرحًا برؤية أسماك الزينة المختلفة ذات الألوان الرائعة وامتلاء أنفسهم بالسرور.

تمتعنا بقضاء وقت ممتع في مشاهدة العديد من الحيوانات مثل الأفاعي الملونة والكلاب وبعض قرود الغابات وغيرها، لقد كانت حقًا رحلة موفقة مثيرة وممتعة عدنا على إثرها إلى بيتنا الدافئ المليء بالحب والحنان، بلهفة كانت تنتظرنا زوجتي الحبيبة مع غداء مميز من السمك المشوي، صوت أجش لا يمت للعنصر البشري بأي صلة يقطع سلسلة أفكاري فجأة مناديًا بخشونة: "والآن ادخل"، وكان أحد الأصنام الثلاثة.

اتخذت مجلسي على نفس كرسي المسكين وعيوني تتطلع بصرامة بالغة إلى قرارهم اللعين، حتى نطق أحد الجلادين بحقد بائن وعيون تقدح شررًا قائلاً:

– كي تعلم أننا لا نسمح لك إطلاقًا أن تدافع عن عميد بشير كونه من دينك، ولا نقبل أن توجه أي نقد إلى الرفيق النائب ضابط عدنان كونه كتب تقرير حزبي صحيح، أو تحاسبه أو حتى تكلمه لاحقًا على أي شيء، ولقد اتخذنا بحقك قرارًا بعقوبتك بقطع راتبك لمدة ثلاثة أيام مع عدة قرارات أخرى ستعلم بها لاحقًا، ونحذرك للمرة الأخيرة سوف لن نتهاون معك إن فعلت شيء مشابه آخر، والآن اذهب.

أخيرًا قال خيال المآتة كلمته بعد أن كان يُشدد على كل نهاية كل حرف من كلماته القاسية التي كسهام جارحة كانت تخرج من فمه تنغزني وتؤلمني، أقول في سِري لقد انتصرت عليهم ونجحت خطتي، لقد أربكت هجومهم لذا لم يرسلوني إلى الأسفل إلى تحت سطح الأرض إلى سجن الحوتة، رغم أني انزعجت جدًا من العقوبة التي ستوقف ترقيتي إلا أني فرحت كثيرًا كوني لعبتُ

دور سينمائي أجدته بكفاءة واقتدار، لم تثرني ردة فعلهم المشؤومة، إذ لا يمكن خروج إنسان صالح من رحم شيطان أو إبليس.

هكذا انتهت مقابلتي مع جدار الجلادين في مديرية الاستخبارات العسكرية العامة، ولم أكن أفقه حينها ما الذي قد حدث بالضبط، لاحقًا وبعد أن استوعبت الموضوع استطعت التوصل إلى نتيجة هي أني كنت كضحية أمثل أمام إما محكمة عسكرية حزبية مشتركة، أو مجلس تحقيقي مشترك لتلك الدوائر البغيضة الثلاث، نهضت ألعنُ سر الزمن ولم أصدق أني خرجت من تلك الغرفة الخانقة سالمًا، وما يزال رأسي باقيًا فوق جسدي.

بماذا أخبرتي تلك الحمامة! هل كانت إشارة بُعثتْ لي من السماء لتمنحني الطمأنينة وتعلمني بالنجاة! لا أعرف وقد تكون كذلك لا أستطيع الجزم، إنها فعلاً أحدثت في نفسي تأثير حسن، لكن ما هي إجراءاتهم وقراراتهم الأخرى التي ستصدر ضدي، وكيف سيكون تأثيرها، هل ستكون قاسية جدًا! لا أعرف لكن المهم الآن أن أذهب إلى بيتي كي أرى زوجتي وأولادي وأطمئنهم.

خرجت من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة مطحون مهموم ولكن حيّ مرفوع الرأس دون أن أخفض لهم جناحي الذُل, دارت في خاطري فكرة واحدة هي أن الحي العظيم أنقذني بعد أن منحني القوة والقدرة على مجابهة حقدهم وشرهم العظيم، سأجلس وأنظر إلى عيون أولادي كي تتبددُ مني هموم الدنيا ويتلاشى ببرائتهم تعبي، تلك الليلة نمت طويلاً عميقًا؛ ليس بفعل السكينة بل رضوخ للألم والتعب النفسي واحتفال بالنجاة.

لم يمضِ سوى يومان حتى صَدر أمر عسكري بنقلي من منصب قائد جناح التصليح العام إلى شعبة السيطرة النوعية، وتنصيب المنسق العام لعملية إسقاط القائد وإسقاطي وهو الرفيق المقدم المهندس (ح.ف) بدلاً عني.

هذا أول الغيث وما القادم لا أعرف، على أية حال قد فقدت كل قناعتي منذ الأيام الأولى لحرب بوش بالنظام القائم والسلطة القائمة والحزب الحاكم، وكل ما يتعلق بمنظومة الدولة، وأن ما جرى الآن يأتي دليلاً أكيد على صحة رأي المُسبق الذي كونته إثر الحرب العالمية على العراق عام ١٩٩١م.

لقد اتخذت قراري النهائي والحاسم... لن أحرك إصبع واحد من يدي لعمل شيء مُفيد لهذه السلطة الباغية، سأسعى إلى أن أخرج تمامًا من أجواء الحقد الخانقة هذه، نعم سأقدم طلبًا لإحالتي على التقاعد وأفعل المستحيل كي أخرج من هذا الجيش وقوته الجوية، فلقد عزفت نفسي عن العمل في هذا المجال الذي طالما كان حلم حياتي...

اللعنة على الظالمين في كل مكان وزمان، لن أعمل إطلاقًا لهذه المنظومة العفنة، لن أبقى في هذه المؤسسة التي فقدت جميع مستلزمات حياتها، سأقبل حياة الانزواء في شعبة السيطرة النوعية التي هي عبارة عن غرفة صغيرة واحدة وتضم جندي مكلف واحد وسأسعد بتواجدي فيها كي أحقق ما أصبوا إليه من قراراتي الجدية والحاسمة، لن أتراجع عن قراري إطلاقًا حتى وإن كلفني ذلك حياتي...

سأدير الأمور بطريقتي الخاصة كي أصل إلى مُبتغاي دون خسائر جسيمة... لكني سأكون حذر جدًا إذ أن خوفي من بطش الحكومة وأذرعها كان مبررًا... سأخطط بذكاء كي أجعل من خطتي المستقبلية فاعلة وقابلة للتنفيذ مثلما مضيتُ في سنوات عملي معهم دون خسائر تُذكر، أعلم أني سأسير على حافة السكين ولكنني هكذا قد حسمت أمري، وبالتأكيد سيكون الله في جانبي.

بعد أيام قليلة بفرح غامر يرسل العميد التكريتي قائد المعمل الجديد بطلبي كي يعلمني بقرار المحكمة المشتركة أو المجلس التحقيقي المشترك، وهي عقوبة قطع راتبي لثلاثة أيام صادرة من وزير الدفاع، بمرارة كبيرة وأسى أكبر أمضيت أوراق عقوبة قطع الراتب في حين رأيت علامات التشفي واضحة

على مَحيا العميد التكريتي القريب جدًا من رئيس الوزراء العراقي السابق المشهور بلقب (أبو فرهود)[1]، الذي أطلقه عليه الشعب العراقي لاتهامه بسرقته أموال الدولة.

خطة الأشرار تسير بإحكام وبنودها تُنفذ واحد تلو الآخر بسلاسة بالغة، كأوراق الخريف يتساقط الضباط المندائيون تباعًا، أولهم العميد قائد المعمل تمَّ زجه في سجن ما يُطلق عليه (الحوتة) داخل الاستخبارات العامة، حيث يبقى السجين مدة لا أقل من ثمانية أشهر دون أي تحقيق أو محكمة أو غيرهما.

إن تسمية الحوتة هذه جاءت تشبهًا ببقاء النبي يونس (عليه السلام) لثمانية أشهر داخل جوف الحوت الذي التقمه، أليس من الغرابة أن يُطلق على هذا السجن البائس اسم لمكان إيواء نبيٍ من أنبياء الله اشتهر بالإيمان والتقوى، أما الضابط المندائي الثاني وهو أنا فلقد تمَّ تنحيتي عن منصبي وإصدار عقوبة ظالمة بحقي من وزير الدفاع العراقي (علي حسن المجيد ابن عم الرئيس صدام) شخصيًا، ويبدو أن الأمر لن ينتهي على هذا الحال، تبًا لهم ولجميع إجراءاتهم المجحفة والحاقدة.

اقتنعت بقدري المحتوم وأخذت أمارس حياتي بهدوء مطلق، أجلس في غرفتي الصغيرة أُفكِّر في جميع الأمور اللامنطقية التي تجري من حولي أحاول لملمة نفسي والتخطيط للمستقبل، استغلالاً للوقت الطويل دون أي عمل مُثمر، أخذت اقرأ بعض الكتب ساعدني بتأمينها الجندي المكلف (مصطفى).

١- أبو فرهود: وهو لقبٌ أطلقه الشعب العراقي على الفريق (طاهر يحيى) رئيس وزراء العراق إبان حكم الرئيس عبد السلام عارف ١٩٦٣- ١٩٦٥ وكذلك إبان حكم الرئيس عبد الرحمن عارف ١٩٦٧- ١٩٦٨ كما إنه شغل العديد من المناصب الحساسة الأخرى. ولُقبَ بأبي فرهود اعتقادًا من الشعب العراقي بأنه كان يسرق أموال الشعب. والفرهود: كلمة أطلقها العراقيون على أعمال العنف والنهب التي نشبت في بغداد بالعراق واستهدفت سكان المدينة من اليهود في حزيران عام ١٩٤١ خلال احتفالهم بعيد الشفوعوت اليهودي، وحاليًا يطلقها العراقيون على كل أعمال النهب والسرقة.

مصطفى هو جندي في خدمته الإلزامية يسكن في ضاحية اليرموك الراقية في بغداد، شاب في مقتبل العمر متعلم مثقف ذو طلعة جميلة وأدب رفيع، بوضوح بائن تظهر عليه آثار الترف والغنى والمعرفة كونه ينحدر من أسرة عريقة، والده ضابط متقاعد في الجيش العراقي برتبة لواء يمتلك مكتبة كبيرة فاخرة في بيته، يبدو أن مصطفى وبعد أن علم بجميع الأمور التي تحيط بي والتي لم تعد تخفى على أحد في وحدتنا العسكرية، يبدو أنه تعاطف معي، علمًا أني كنت أكنّ له كبير الاحترام والمعاملة الطيبة، وبعد أن حصل على موافقة والده اللواء في إعارتي كتبه الثمينة بدأ يجلب لي عدة كتب كل أسبوع أقوم بقرائتها طول وقت الدوام الرسمي والإجهاز عليها، حتى يقوم مصطفى بجلب مجموعة أخرى، وهكذا استمر الحال لمدة سنتين لغاية تحقيقي الكامل لخطتي، استطعت خلالها قراءة الكثير من كنوز الأدب العالمي والعربي، لقد ساعدتني القراءة في تخطي حالة الجمود النفسي الذي تعرضت له، وكذلك في بلورة أفكاري ورسم خططي المستقبلية.

مرت الشهور، مرت ثقيلة كأنها دهور، القائد ما يزال في سجن الحوتة في مديرية الاستخبارات العسكرية لا أحد يعلم بوضعه، والده وإخوته يبذلون قصارى جهودهم كي يحصلوا على معلومة حتى وإن كانت صغيرة تفيدهم في اتخاذ إجراء ما، الوضع في المعمل كمرجل يغلي ويزداد توتر إذ بدأت مديرية الاستخبارات العسكرية في إجراء التحقيق الشامل في قضية القائد، وهذا تطلب استدعاء العديد من الضباط والنواب ضباط الذين وصل عددهم إلى سبعة وعشرون شاهد إلى الاستخبارات العامة للإدلاء بشهاداتهم، الجميع يداهمهم شعور الإحباط والقنوط واليأس والخوف.

للمرة الثانية تمَّ إبلاغي للحضور إلى مديرية الاستخبارات العسكرية لغرض التحقيق، كيف هذا بحق الجحيم! كيف اقتحمت هذه الكلمة سيئة الصيت (الاستخبارات) حياتي بهذه البساطة! تصاعدت هواجسي، ازداد قلقي، تشوش

فكري وركبني الخوف من جديد وخيم الحزن والقلق مرة أخرى، طرق في ذهني سؤالٌ مُحيِّر: لماذا يتم التحقيق هذه المرة في المساء، هل ستكون له إجراءات أو عواقب جديدة ليست كالسابقة منها؟ هل يمكن أن تكون إحدى طرقهم الجهنمية لإيداعي في إحدى أقبيتهم السحيقة.
ألف سؤال وسؤال تتوارد إلى نفسي دون أية إجابة لأيٍّ منها، الشيء الوحيد الذي أؤمن به أنه لا يمكنني أن أهرب من قدري، سأواجههم بإيمان مطلق بالعدالة الإلهية وثقة ببرائتي لا تتزعزع، لم أفعل شيء يخالف القوانين سواء كانت السماوية منها أو الوضعية، لذا سوف أسمح لهم بالنيل مني رغم وحشيتهم ظلمهم وحقدهم، سأعتمل لُج ظلمهم بصدر عامر متحصن بدعوات زوجتي ونظرات أبنائي البريئة وأنتصر عليهم، بعد انتهاء الدوام الرسمي عدت إلى بيتي مهموم مكروب مكتئب وحزين، أخبرت زوجتي بتجدد الموضوع فهانت وانزعجت وأخذت تضرب أخماسها بأسداسها دون أية فائدة.

مساء ذلك اليوم الكئيب والقمر ساطع يسر الكون بنوره الذهبي؛ ارتديت زيي العسكري دون عزيمة أو مشيئة، كَفّا زوجتي تمسحان كتفي بحركات هادئة تفيض حنان أشعر باهتزازهما ورجفاتهما، ترقبني بعينين حانيتين وقلب مُلتاع، قبلت جباه أبنائي واحتضنت زوجتي بعد أن أوصيتها بكل تفاصيل حياتي ومتعلقاتي، شيعتهم بنظرة المفجوع بكارثة التي فتحت في عقلي باب إلى التفكير والقلق والدعاء، وانطلقت إلى قدري أستجير بالله من غدر الزمان.

نزلت الشمس خلف الأفق وسادت العتمة الكون، أجلس خلف المقود أسير بسيارتي وقلبي يخفق بشدة، فجأة تستعيد ذاكرتي نشاطها بقوة فيترائى لي شريط التحقيق الأول في نفس المكان ونفس المديرية، فيزداد قلقي ويتملكني الخوف إذ أني لم أكن أعرف أني سأعود إلى بيتي سالمًا أم قد يمكن أن تبتلعني حوتة الاستخبارات، حيث إنّ الفاصل بين الظُلمتين في داخل السجن وخارجه خيط رفيع فالأقدار والظروف لا تفرق بين واحد وآخر في هذا الشأن.

كان التحقيق هذه المرة يتركز على قضية القائد، وتحديدًا حول قضية الإساءة لسمعة الدولة وسياستها العليا، ولكن ما الذي يمنعهم من اتهام البريء وجعله مجرم في ثواني معدودات أو حتى إعدامه، المرء يحتاج إلى الوقت كي يتمالك نفسه ويعود لاتزانه.

ما أن دخلت مديرية الاستخبارات العسكرية حتى رأيت مجموعة من ضباط المعمل، وكذلك جمهرة كبيرة من المراتب الذين ينتظرون دورهم للإدلاء بشهاداتهم، وبدا لي كأنه حفل تحقيق جماعي، وهذا ما خفف من قلقي واضطراب الجميع، كأننا في يوم الحساب، جلسنا ننتظر دورنا كي ندخل عالم الأنوار أو نُرسل إلى جهنم وبئس المصير، عيون الجميع تائهة كعقارب ساعة تهتز دون نظام، تتحرك وتنظر إلى بعضها متسائلة ما الذي يحصل ومن المستفيد من كل هذا؟ ولماذا هَدر أعصاب وطاقات كل هؤلاء الناس؟.

أنا في أسوأ حال من بينهم جميعًا، وكما يقال إذ بجرة قلم بسيطة يمكن أن أهوى سريعًا نحو الأسفل إلى سجن الحوتة حيث يوجد قائدي، تنتابني مشاعر سلبية وأحاسيس مريعة تعبث بكياني، مشاعر هادرة بالغضب والقهر، الغيظ وقلة الحيلة، أمدُ يدي أرفع رأسي نحو السماء وأنادي ربي أستغيثُ به، لدي العزم وعليّ إتمامه، ينبثق عزمي من إحساس عميق بالحزن على صديقي القائد وغضبي عليهم لما فعلوه بي، لي رغبة في الانتقام ولكن كيف السبيل!، خيم السكون بانتظار عاصفة التحقيق.

نادى عليّ أحدهم وطلب مني مرافقته إلى إحدى غرف التحقيق، تبعته دون أن أنبس بكلمة واحدة، جلس ضابط التحقيق مُتجهم مُكفهر الوجه رغم وسامته، ويبدو أن الابتسامة قد فارقته من زمن بعيد، وأمامه كدس كبير من الملفات والأوراق الخاصة بالقضية، لحظات من الرهبة والخوف، احتوتني هالة من الرعب والتوجس، يبدو أن الماضي يلاحقني بخبث كبير، ودون أي تمهيد أو أي إضاعة للوقت بدأ يوجه أسئلته لي...

تعلمت أن ألعب ضد قواعد الزمن، ولهذا لزم عليّ أن أكون حاسمًا موجزًا في إجابتي، ولكن جابهتني معضلة كبرى ألزمتني على التفكير مليًا، وأخذت من طاقتي الكثير، وكي لا أقع في نفس الفخ الذي نصبوه بإحكام للقائد، وفي نفس الوقت كي لا تكون شهادتي موجهة بالضد من قائدي، كان عليّ وكما يقول المثل أن ألعب على حبلين رفيعين جدًا، وألا أقع عن أي طرف منهما، لكن ماذا سأقول حين أسأل عن معلوماتي حول حديث القائد آنذاك فيما يخص أموال التصنيع العسكري؟.

عند التأكيد على تواجدي مع القائد والضباط الآخرين، وإنكاري لحديثه في ظِل تأكيد شهادات الضباط الآخرين على صحة حديث القائد؛ فلسوف أتهم بالكذب وتزوير الحقائق والدفاع عن شخص يُسيء لسمعة الدولة، وقد يزج بي كالقائد في سجن الحوتة، لا سيما وأني كنت أيضًا مستهدف بمخططهم الشرير، والوضع لا يرحم في حضرة الاستخبارت ولا في المحاكم الخاصة، والعكس في حال تواجدي والتأكيد على سماعي لحديثه فلسوف أطعن به مباشرة، وهذا ما لا أسير خلفه ولا أريده إطلاقًا، ماذا بقيّ لدي من خيارات كي أنفذ من هذه المعادلة الظالمة سالمًا ودون الإضرار بالقائد، لقد بقيّ لي أن أقول إني لم أكن أتواجد في تلك اللحظات وبذلك أنفذ من شَر الظُلمتين، ولهذا قررت أن أقول إني كنت غير متواجد في موقع الحدث.

ضابط التحقيق يرقبني بعيون أقرب إلى عيون الغراب:

- عقيد عباس هل سمعت العميد قائد المعمل يقول كلام عن هدر أموال التصنيع العسكري في أولى أيام العدوان الأمريكي على بلدنا؟

- كلا لم أسمع أي من هذا الكلام...

ضابط التحقيق ذو قلب الصوّان بلهجة آمرة ومُحتجة:

- كيف لم تسمع وأنت كنت معه وتقف على مقربة منه أثناء الحادث؟

سأدافع عن نفسي حتى الرمق الأخير، وأضيف بعد أن تصاعدت نبرة صوتي دون إرادتي قليلاً:

- لم أكن أصلاً موجود في موقع الحدث، إذ أنني وبعد أن قام القائد وبقية الضباط وأنا من ضمنهم بجولة حول المعمل، ذهبت إلى وحدتي كي أتفقدها وأقوم بإخلاء المعدات الصالحة للاستخدام وفق أوامر القائد إلى خارج المعمل، وبعد ذلك حصل أن قامت الطائرات الأمريكية بقصفنا، فما كان منا إلا أن تركنا المعمل على عَجل.

ضابط التحقيق بعد أن يطلق زفير عميق يدل على عدم الرضا وبمكر ذليل وخداع كبير يقول:

- بعض الشهود قد أكدوا على أنه قد قال كلام يُسيء للتصنيع العسكري وسياسة الدولة العليا...

انظر إليه ثم أشيح بنظري إلى صورة مُعلقة على الحائط خلفه، يظهر فيها الديكتاتور رافعًا يدهُ اليمنى مُحييًا الجماهير المنافقة الغفيرة، التي بَدت تهتف له وتأزره، تدعمه وتُقبل يديه، تستعطفه، تتملقه وتدعو له بالنصر كي يقهرهم أكثر فأكثر، وها أنا أجلس أمام آلته البشرية التي لا ترحم، تفترسني وتتمنى سحقي كنملة لا تستحق الحياة على وجه هذا الكوكب، احتوتني هالة مزيج من الرعب والرهبة والعناد وبتحفظ شديد ومكر متعمد قلت:

- لم أكن موجود ولا أستطيع أن أقول غير الذي رأيته بعيني وسمعته بأذني...

ضاقت نفس ضابط التحقيق الذي تطغي عليه نزعة الشيطان، أضاف:

- ألم تسمع من بقية زملائك الضباط أنه قد صرح بمثل هذا الكلام؟

أجيب بيقظة واقتضاب حذر:

- كلا لم أسمع...

ضابط التحقيق يتطاير الشرر من عينيه وتابع كلامه بعد أن فقد صبره:

– هل لديك أقوال أخرى أو أية إضافة؟

هنا خرجتُ من صمتي وأطلقت لحنجرتي العنان وبدأت العزف بمفردي قائلاً:

– نعم أنا أريد القول إن القائد كان هو من اتخذ ونفذ قرار إعادة إعمار المعمل بعد أن قررت قيادة القوة الجوية تسقيطه وإخراجه من الخدمة، لعدم توفر الجدوى الاقتصادية، أنا اعرف القائد جيدًا، إنه ضابط مخلص، مهندس كفء، وإنسان وطني ولا يمكن أن يخرج منه مثل هذا الكلام.

ضابط التحقيق يرمقني بنظرة صفراء حاقدة ويقول:

– وقع على أقوالك...

بسرعة نقشت إمضائي على أوراق شهادتي، رفعت ما تبقى من هيكلي الثقيل، نهضت أحتضن ألمي الصامت على عجل شديد خوفًا من أن يغير رأيه ويُحيل صفتي من شاهد إلى مُتهم كما حصل سابقًا، على عجل خرجت مُتجهًا إلى الباب الرئيسي فرحًا بنجاتي الثانية، وألعن كل عُطُّل من فاز بمنصب في ماكينة إخصاء الرجال هذه، يصول ويجول بمصائر البشر يقودهم كالخراف ويذيقونهم أنواع الذل والمهانة، عند البوابة التقيت بصديقي العميد (ع.ا) الذي بدوره أيضًا قد أدلى بإفادته حول نفس القضية.

ألقيت بجسمي الذي أصبح فجأة ثقيل جدًا في سيارتي نوع فولكس واكن، ذات اللون الرصاصي، أدرت محرك السيارة وقفلت عائدًا إلى بيتي، شعرتُ أن الشياطين تتقافز من حولي تحاول عرقلة حركتي وإيقافي بعد أن أفلت من شبكة صيد إبليس الأكبر.

حمدت السلامة لنفسي وقلت لا بد إنها أخر زيارة لي لهذا المكان الرهيب، لجُ الليل وشدة ظلمته تسيطران على الكون، أسير أحاول السيطرة على سيارتي ونفسي وحركاتي، أركز في الطريق كي لا أقع في حادث قد أذهب أو غيري ضحية له، انظر من خلال الزجاج الأمامي للسيارة فتتراقص أمامي أضوية

علامات المرور الملونة، أحدق في اللون الأخضر الفسفوري الذي ينقلني إلى عالم رائق عالم المشاعر الصادقة والحب العذري إلى عام ١٩٨٢، حين عُدت مع فتاتي الجميلة وعائلتها إلى البصرة الفيحاء، أوصلتهم إلى عتبة دارهم، أفرغنا أغراضهم من سيارتي، شكروني كثيرًا، دعتني أمها الطيبة؛ المرأة ذات القلب المعطاء النقي، التي أصبحت لاحقًا عمتي؛ إلى تناول طعام الغداء معهم، بلطف كبير اعتذرت منهم كي ألتحق بوحدتي العسكرية ووعدتهم بزيارة لاحقة.

من هنا بدأت حكايتي مع زوجتي الحالية، أخذت أزورهم بين الحين والآخر، توطدت علاقتي بعائلتها وأخويها الأصغر اللذان كانا ما يزالان يدرسان في مرحلتهما الجامعية حتى اتضحت ملامح علاقتنا، أزورهم في بيتهم حين يتصاعد الشوق والحنين إليها، أحيانًا وحين تحين فرصة الانفراد نتحدث عن بعض الأمور في حينها تغوص كلماتنا مثلما تغوص أشواقنا في متاهات قلوبنا.

حان وقت سفرها في بعثة إلى الاتحاد السوفيتي، وكان يلزمها مبلغ من العملة الأمريكية، لذا استعانت بي وقد تكون استغلت هذا الموضوع كفرصة للاتصال بي، أبديت كامل استعدادي لمساعدتها وزملائها، أردت أيضًا استثمار هذا الموضوع لزيارتها ومقابلتها على انفراد، أخذت إذنًا من قائدي استقليت سيارتي العسكرية وأمرت سائقي بالتوجه من قاعدة الشعيبة نحو مكان عملها في معهد البتروكيمياويات في البصرة.

دخلت المعهد مزهوًا بزيي العسكري ونجماتي الذهبية، طلبت مقابلتها فدلوني على مكان تواجدها، انتظرت في قاعة المدرسين حيث تجمع حولي الكثير من زملائها الذين أبدوا كرمًا بصريًا مشهودًا، كانت هي مشغولة في المختبر في تدريس طلبتها الشباب، انتهت حصة الدرس فدخلت يسبقها عطرها الفواح وطلتها الرائعة وجهها الدائري المشرق بألوان زهرية تطغي عليها ابتسامتها التي زادتها جمالاً وتألقًا، ألقت التحية عليّ فاستقبلتها ناهضًا مادًا لها كِلتا يديّ اللتان احتضنتا كعصفور يدها الباردة الطرية، لم أرغب وقتها أن أترك يدها

البضة الناعمة، كنت أود لو دام هذا الاحتضان دهرًا كي أنعم بحنان ورقة بشرتها السمراء الصافية، كنت أشعر بنبضها الثائر يتحد بنبض قلبي ليكونا لحن الخلود.

ضغطت على الفرامل توقفت السيارة داخل جراج بيتنا، على عجل ترجلت منها، كانت زوجتي تنتظر على أحر من الجمر بعد أن نام أبنائي جميعًا، ما أن سمعت صوت محرك السيارة حتى هرعت إليّ والخوف يتراقص في عينيها، فتحت باب المطبخ بلهفة، احتضنتني كلقاء العائد من الموت بقوة، قبلتها من جبهتها الباردة احتويتها بقوة ربتّ على كتفيها كي أهدئها وأطمئنها، شعرت برجفان يديها حتى كدتُ اسمع نبضات فؤداها تشق الآفاق، حدقات عيونها تملأها الخوف، دخلنا إلى البيت أقفلنا الباب من خلفنا، بعد استراحة قصيرة رُحنا في حديث حزين عما جرى، وقالت إن الله قد أشفق إلى ما آل إليه حالنا، إذ أني لم أكن أتوقع عودتك، وبمَ أستجير من غدر الزمن والأشرار، تحدثنا كثيرًا ثم غطسنا في بحر أحلامنا، لقد ضاقت بنا الحيل وكان علينا أن نذعن للمحتوم.

كانت مُطالعة الكتب سلواي، غايتي وقاتلة غربتي، إذ كنت ألتهم الكتاب من الغلاف إلى الغلاف دون أي هدنة، أجهز عليه بالتمام لأبدأ بالتالي، وهكذا استمرت حياتي في المعمل دون أي عمل حقيقي، علمًا أني لم أنسَ تنفيذ خطتي التي بدأت معالمها تتضح.

يبدو أن دعوات وصلوات أمي السابقة لم يتوقف مفعولها، وأن الله عز وعَلى لا يتخلى عن مساعدتي وحمايتي إطلاقًا، كنت غاية في الثقة من اتخاذي القرار الصحيح، وأن شيء جيد سيظهر في نهاية الأفق وستحدث المعجزة.

غاية في الصدفة اطلعت على كتاب رسمي صادر من القيادة العامة للقوات المسلحة، والذي كان يتضمن إمكانية العسكري دون تحديد الرتبة العسكرية أن يطلب الاستقالة من الجيش دون راتب تقاعدي، لقد جاء هذا الأمر كغيث من

السماء وقع عليّ، استثمرته بأفضل طريقة وجاء بنتيجة باهرة وأحدث طفرة نوعية كبيرة في مسيرة عملي وخطتي للتقاعد من الجيش، وكذلك مسيرة حياتي اللاحقة.

يقال إن (زفاف سيء أفضل من جنازة مهيبة)، قلت في نفسي سأقبل بالاستقالة دون راتب تقاعدي كزفاف سيء، ولن أقبل أن أطمر نفسي في وحل وجنازة هذه المنظومة العفنة طيلة حياتي، وفورًا تناولت ورقة بكر بيضاء وكتبت استقالة من الجيش من دون راتب، وأرسلتها إلى قيادة القوة الجوية، ومن خلالها إلى مديرية إدارة الضباط.

تلك الفترة تدهور الحال الاقتصادي للبلد بشكل دراماتيكي، والذي صاحبه انهيار القدرة الشرائية للعملة العراقية، الأمر الذي جعل رواتب الموظفين والعسكريين وأساتذة الجامعات وجميع ذوي الدخل المحدود لا يكفي لسد حاجات عوائلهم، مما اضطرني إلى التفكير جديًا في إيجاد مصدر رزق آخر، وبما أني أحمل في جيناتي براعة مهنة صياغة الذهب، وأن حب العمل في مجال الذهب يجري في دماء العائلة ودمي.

لملمت أمري، بعتُ قطعة أرض كنت قد ابتعتها سابقًا في منطقة الحسينية إحدى ضواحي بغداد، وكذلك بعت المصوغات الذهبية الخاصة بزوجتي، جمعتُ مبلغًا بسيطًا وافتتحت متجر متواضع في منطقة لا تبعد كثيرًا عن ضاحية الغزالية، كان مكان نظيف جديد في عمارة قد بُنيت حديثًا ذو ديكور مناسب جدًا، لم يكلفني كثيرًا في عملية إعادة تأهيله إلى متجر صياغة للذهب، كما أنه قريب من مكان سكني.

بدأت أعمل فيه مساءً رغم عملي في الجيش وخبرتي المتواضعة في هذا المضمار، إلا أن العناية الإلهية رافقتني طوال دربي ومدتني بالقوة والعزيمة والرزق الكافي، ما لبث أن ازداد عدد زبائني، زادت ثقة الناس بي وأخذ الرزق يتوافر لي وبهذا أصبحت مشغول طوال اليوم في ظل ازدياد خوفي من

المستقبل وخباياه، ساعات العمل في متجري المتواضع تقضي بسرعة فائقة ممتلئة متعة ونشاط تفاعل وحياة، عملي هذا يتيح لي التعامل مع مختلف الناس وبالتحديد العنصر النسوي إضافة إلى الرجال والشباب وغيرهم.

في وحدتي العسكرية أجلس في غرفتي المتواضعة واضعًا ساق فوق أخرى على سطح منضدة المكتب، بعد أن يأخذ التعب مني بسبب القراءة المتواصلة لكتاب (العقب الحديدية) للكاتب الأمريكي الشهير (جاك لندن)، الذي يحكي قصة صعود طبقة طاغية في الولايات المتحدة الأمريكية، وأنا في قمة الخمول يرن جرس الهاتف، وعلى الطرف الآخر يتكلم ضابط أمن المعمل الرائد (ص.ص).

فورًا تتجدد حيوية عقلي وتصبح جميع خلايا جسمي في استنفار تام، وما أزال أحتضن كتابي بيديّ، أذاني تتوسع لسماع ما سيقوله هذا الإنسان الذي يعمل في ماكينة كسر نفوس الرجال رغم دماثة أخلاقه أحيانًا، بعد أن ألقى تحيته المعتادة أعلمني بضرورة مراجعة مديرية الاستخبارات العامة مساء نفس اليوم، أغلق سماعة الهاتف وتركني تلفني حيرتي من جديد، سقط الكتاب وحكايته الأليمة من يديّ إذ أنّ حكايتي أصبحت أهم بكثير من حكاية (جاك لندن) وتعسائه، انهارت معنويتي أكثر مما هي، تحطمت مَناقبي، سقط رأسي بين أكتافي ودخلتُ في صراع نفسي عنيف، تعبت جدًا، شعرت أن أثقال الكون جميعها قد حلَّت على أكتافي وسحقتني المفاجأة...

هنا اجتاحتني رغبة شديدة في النوم، وفورًا خطرت لي فكرة أن أتمدد على الفراش الذي يستخدمه الضباط أثناء المناوبة الليلية، أو في حالات الإنذار القصوى للجيش، قمت ببطء أغلقت باب الغرفة بإحكام، عدت وتمددت عليه، لحظات وغطتُ في نوم عميق لم أفق إلا بعد ساعتين وقبيل انتهاء الدوام الرسمي، يبدو أنّ النوم قد ساعدني جدًا في نسيان مأساتي التي لا تنفك تراودني مرة بعد أخرى، من جديد إلى مديرية الاستخبارات العامة، يا إلهي... ما الذي فعلت كي يستمر هذا الكابوس معي! ألم تنتهِ هذه القصة الحزينة! ما الذي

يريدوه مني هذه المرة! ألا يملون من التحقيق! ألا يكلون من تكرار أسئلتهم السخيفة؟ كيف دخلوا إلى حياتي دون رادع أو كلل!

الألم يلاحقني ويحاصرني من جميع الجهات وليس لدي سوى التشبث بالحياة، ولكن هل سأنجو هذه المرة كالمرات السابقة أم سينزلوني إلى الأسفل إلى سجن الحوتة؟ المكان الوحيد الذي لا عودة منه هو تحت الأرض، ولست مستعدًا أن اذهب إليه، لقد تأقلمت على هذه المشاكل وأصبحت لديّ مناعة قوية ضدها، ألف سؤال وسؤال تتراود إلى عقلي دون أية إجابة على أي واحد منها سأذهب وليّ الله.

لم أذهب ذلك اليوم إلى متجري، وعند اكتحال المساء ودعتُ زوجتي وأبنائي وتوجهت دون قلب نحو ماكينة سحق الرجال في الكاظمية، أسئلة واستفسارات، غضب وتهديد، وعيد وتوقيع بعدها أعود إلى بيتي محطمًا بائس الحال، شاكرًا الله على سلامتي.

تكرر سيناريو استدعاء مديرية الاستخبارات العامة لي، توديعي لزوجتي وأبنائي بنفس الأسى والحزن وفقدان الأمل بالعودة، والخوف من القادم، لكن الحي العظيم كانَ قد اتخذ قراره في إنقاذي من براثن هذه الزمرة الباغية، لقد أصبحت شيء فشيء زائر دائم لهذا المكان الرهيب.

لقد كنت بالتأكيد ودون أي شك الضابط الوحيد في الجيش العراقي الذي تجرأ في عهد الدكتاتور صدام حسين أن يقدم على مثل هذه الخطوة الجريئة؛ وهي طلب الاستقالة من الجيش، لا والأسوأ في ذلك أني لم أكن برتبة صغيرة، لا بل كنت أحمل رتبة عقيد مهندس طائرات، ولم يتبقَ لي على تسلم رتبة الزعيم (العميد) كثيرًا، كان هذا قبل أن تقوم الاستخبارات بمعاقبتي.

حين أُفكِّر حاليًا في الأمر أرى أنه كان شيء من فرط الجنون في تصرفي هذا، والذي لم يقدم على فعله أي عاقل أو مجنون آخر آنذاك، لاسيما في ظل نظام

صارم وقاسي لا يرحم كنظام صدام حسين، لقد أقدمت على مُجازفة كبرى ومضيتُ فيها كمن يسير على حافة السيف، إذ كان يمكن لأي خطأ في خطتي حتى وإن كان بسيطًا جدًا أن يُرسل رقبتي دون تأخير إلى المقصلة.

مضت فترة ليست بالقصيرة ولم استلم أية إجابة أو رد فعل على رسالة استقالتي الأولى من الجيش، لذا كان لابد لي أن أرسل ثانية أطلب فيها الاستقالة من الجيش دون راتب، وانتظرت مرة جديد، اعتقد البعض أني أسبح عكس تيار الدولة والمنظومة والحزب دون حماية أو وصاية، ولكنهم لم يعلموا أنّ الرعاية الإلهية قد لفتني بحنانها وودها وعدت لا أحسب لأي من أخطارهم.

معمل تصليح المحركات يغوص في المؤامرات والدسائس، يقودها الرفيق المقدم (ح.ف)، ويموج في الأحاديث السرية الجانبية والإشاعات عن التحقيقات والعقوبات والمحاكم، والجميع في ترقب وحذر شديدين مع اقتراب موعد محاكمة القائد، الأجواء مضطربة ومتوترة وقد خرجت عن السيطرة والحصانة لتصل حد الجنون إنه لعالم عجيب، أنام كل يوم منهك وأصحو قبل الفجر يكتسحني السهاد حتى أذهبُ ثانية ودون رغبة إلى الدوام الرسمي، الذي لا أفعل فيه شيء سوى القراءة والأكل والنوم.

أعجبتني فكرة النوم في مكتبي وبدأت أكرِّرها كل يوم بعد أن ترهقني قراءة الكتب كي أستجمع طاقتي من جديد وأستعد لعملي المسائي في متجري الصغير، وهكذا استمر نظام حياتي خلال السنتين من ١٩٩٢ حتى خروجي من الجيش عام ١٩٩٤.

يوم صيفي مُعتاد الشمس تعلو في كبد السماء في أوج عظمتها، الحر في ذروته لا يُطاق، يطرق بوابة مكتبي ضابط الأمن في معملنا، يدخل ويتربع على المقعد الإضافي الوحيد، نفسي تحدثني عن أمر جلجل قادم لا بد أنه يحمل أنباء غير سارة، ضباط الأمن والاستخبارات العراقيون لا يمكن الوثوق بهم، أو على الأقل لا يمكن الاستبشار بقدومهم...

بعد القليل من المجاملات غير الضرورية أعلمني الرائد (ص.ص) أنه عليّ أن أكون في صباح الغد عند بوابة المحكمة الخاصة، (وهي نفس ما كانت تُسمى بمحكمة الثورة)، محكمة الإعدامات، سَمها ما شئت، هي التي تختص بالمحاكم التي تخص قضايا أمن الدولة، لغرض الإدلاء بشهادتي مع الضباط والمراتب الآخرين حول قضية القائد، وقعتُ تحت سطوة المفاجأة ولم يكن لي رأي في تلك اللحظة سوى الإنصات وهز الرأس قبولاً، لا شيء سوى الصمت، صمت القبور يلفُ المكان، دقات قلبي تتسارع ومعها أنفاسي، انحسرت الرؤية عندي رغم ضوء النهار المتدفق، تحشرجت روحي في صدري، يبدو أنها قصة مريرة لا تنتهي، أحدثُ نفسي هل نحن في زمن محاكم التفتيش الأوروبية، وهل ستستمر عمليات حرق البشر أم رميهم بالرصاص لا أعلم، الموضوع بأكمله يسبب لي صداع خوف، وارتباك كبير في حياتي.

ما أن خرج ضابط الأمن حتى نظرت إلى سريري الدافئ، غالبًا ما يعتريني شعور بالنوم حين تضيق بيّ الدنيا وأشعر بكدر شديد، وقد يكون هذا رد فعل جسمي التلقائي للهروب من المشكلة رغم أني أعتبرها نعمة ربانية، ولهذا قفزت فورًا نحو السرير ورحتُ في نومٍ عميق، في منامي تراءى لي حلم جميل حينما أرسلتُ في بعثة تخصصية لدراسة عمليات التصليح العام للمحركات النفاثة الجوية إلى الاتحاد السوفيتي مع القائد ومجموعة كبيرة من الضباط والمراتب، وتراءت لي رحلتنا أنا والقائد يوم تمَّ استدعاءه من مدينة (ييسك) التي كُنا ندرس فيها إلى موسكو من قبل الملحقية العسكرية العراقية، حينها اصطحبني معه كوني أجيد اللغة الروسية، كُنا قد اتخذنا مكاننا في القطار المتجه إلى مدينة (روسوتوف على نهر الدون)، حيث يوجد المطار الذي سنطير منه إلى العاصمة موسكو.

كان القطار أثناء رحلتنا فيه يسير بين الغابات الخضراء الكثيفة والسهول المنبسطة، ويتوقف بين محطةٍ وأخرى قُرب بعض القُرى الروسية حيث تتواجد

في المحطات بعض النساء اللواتي يعرضنَّ ويبيعنَّ فاكهة وخضار إنتاج مزارع بيوتهنَّ، كانت الفواكه طازجة جيدة وشهية وكذلك رخيصة جدًا لذا كان القائد ذو الشهية الكبيرة يرجوني بشراء بعضها فأترجل من القطار وأجامل النسوة المُسنات بلغة روسية لطيفة وأشتري منهنَّ بعض الفاكهة وأعود بها ظافرًا فَرِحًا إلى قائدي الذي ما أن تقع عيناه عليها فيبدأ بالانقضاض عليها دون رحمة.

تكرَّر هذا الأمر في محطتين، ولما كان الجو آنذاك باردًا نسبيًا والفاكهة طازجة وبارة أيضًا فلقد سبب أكلنا الفاكهة مشكلة كبيرة في مَعدتينا، كَظِمنا سِرنا خجلاً من بعضنا، ما أن اقترب القطار من نهايته حتى زادت مشكلاتنا مع بطوننا دون أن يعلم أحدنا بالآخر.

توقف القطار في المحطة النهائية في مطار مدينة (روسوتوف على نهر الدون)، قفزنا بسرعة كبيرة من القطار واتجهنا نحو صالة المطار ودون شعور أو اتفاق توجهنا بسرعة نحو حمامات المطار فوجدنا أحد الحمامات شاغرًا فما كان مني إلا أن أسرعت خطايَّ ودخلت الحمام تاركًا القائد يعاني من مشكلة بطنهِ. لم أكُن أعلم بحاله ولم يعلم هو أيضًا بحالي، بعد فترة قصيرة جلسنا في صالة المطار وبعد أن ارتحنا من بطنينا في انتظار موعد طائرتنا حتى أَفشى كلانا عن سِرهِ وعلم كُلٍ مِنَّا بحال الآخر، حينها ضحكنا وأخذنا نتذكر ونتندر بهذه الحادثة الطريفة بين فترة وأخرى.

شهر تموز المستعر حرًّا والملتهب ليل نهار، الموضوع يأخذ طابع دراماتيكي جديد بشكل لا يُصدق، لقد ارتفع مستوى التهديد والخطورة إلى قمته كأننا في آتون حرب وها نحن نصل إلى محكمة الثورة، طرق في ذهني اسم هذه المحكمة سرح فكري بالمراجعة وتذكر قصة عناصر حزب الدعوة، وعُدتُ بذاكرتي إلى عشر سنوات خلت، حين جاءت شهادتي الشجاعة الصادقة كصك إنقاذ لحياة العديد من عناصر حزب الدعوة الذين حوكموا أيضًا في محكمة الثورة، لم أمثل آنذاك أمام محكمة الثورة كون شهادتي كانت كافية، ولكن كيف

ستؤول الأمور هذه المرة، إذ أني يجب أن أمثل بكياني أمام هذا المحكمة التي علا صيتها كثيرًا في قرارات الإعدامات السريعة، هذه المحكمة التي ترتعد أبدان العراقيين حين سماعهم باسمها، لا أعلم ما سيحصل معي حين سأمثل شخصيًا أمام قاضي هذه المحكمة، سأقرأ دعائي المُفضل وسأذهب متسلح بقوة الحي العظيم، وصلوات أمي التي لم أخبرها بكل تفاصيل هذه القصة الأليمة كي لا أربك حياتها وأشوش هدوء وراحة بالها.

مساء ذلك اليوم مضى حزين قلق لم أستطع تمالك نفسي، لم أكن مُفعم بالحيوية والنشاط كعادتي في عملي، كنت جافًا بعض الشيء مع زبائني ولا يعلمون سر هذا التغيير، وضعي النفسي غير مرتاح ولا أستطيع أن أمثل دور غير حقيقتي، أمضي وأعمل وأتحدث على سليقتي ووفق ما يرافق حالتي من اضطهاد وقلق رعب واختناق.

دخلت متجري امرأة شابة تحمل طفل رضيع لم أتعرف إن كان ولد أم بنت، جلست دون استئذان، تبدو تعبة منهكة، عيونها كبندول قلقة حائرة تتحرك يمينًا وشمالاً دون نظام، كعادتي جلبت لها كأسًا من الماء البارد كي أطفئ ظمأ وحاجة جسدها إلى الماء الحي وروحها إلى الطمأنينة، ما أن سكبت كأس الماء في جوفها حتى انخرطت في بكاء مُرٍّ مرير، سقطت دمعاتها بغزارة ساخنة وصافية...

أذهلني وضعها، يا إلهي ما هذا الحزن وما هذا المصير، كيف تتطابق مأساتي مع حزنها وبالتحديد في هذا المساء الكئيب وهذا الظرف العصيب، لم استعجل سؤالها بل تركتها تغسل هموم روحها بدموعها كي تقذف حمم حزنها بعيدًا، كانت في العشرينات من عمرها، حنطية البشرة دائرية الوجه، ذات مسحة خفيفية من الجمال، ويبدو أن قدرها قد أزال معظم نظارتها.

ما أن هدأت حتى بدأت تسرد عُسر حالها، وأنها لا تملك نقود كي تبتاع حليب لطفلها الرضيع، اضطراب هادر بدقات قلبي، الصمت والصبر قد أصاباني

بقوة، لم أستطع مقاومة هذا الموقف، فما كان مني إلا أن اقترح عليها مبلغ كافي من المال، وكي لا أجرح إحساسها قلت لها إن هذا دين في رقبتك تُسدديه متى فُرِجَتْ عليك، مدت يدها مرتجفة تناولت المبلغ، دَسته في صدرها تحت ثوبها المزركش دون ترتيب، نكَست رأسها نحو الأرض نهضت بتثاقل بعد أن احتضنت صغيرها إلى صدرها الذابل بقوة، أخر لحظة قبيل خروجها من متجري وعدتني بإعادة المبلغ، رحلت وتركتني بين هَمّين؛ هَمي وهَمها.

ليلة هادئة وصافية، القمر يتربع على عرش السماء مادًا أرضنا بضيائه الوفير، النجوم تتلألأ كحبات ماس صغيرة تنتشر وتُطرز شاشة الكون، صراع عنيف في نفسي سَلَبَ السهاد من عيني في الليل، لا أستطيع النوم، أنهضُ من سريري افتح ستارة الشباك الثقيلة كي أرى الدنيا، كعيون الذئب ترقب عيوني حركة الشُهب الساقطة عسى أن أحظى بإشارة ربانية تمنحني الأمل بالنجاة هذه المرة أيضًا، رفعت يديّ إلى الحي العظيم ورجوته أن يُكمل استجابته لصلوات أمي ودعوات زوجتي، وينقذني من فكي هذا التنين الشرير الكبير.

فاتني أن أقول إنّ طائفتنا المندائية وبمبادرة طيبة من لدُن رئيسها المرحوم الريش أمة [1] عبد الله نجم وأعضاء المجلس الروحاني الأعلى للطائفة؛ قد شكلوا وفد رفيع وزاروا مكتب (علي حسن المجيد) وزير الدفاع آنذاك لغرض التماسه لإنقاذ القائد، لم يلتقيهم الوزير شخصيًا بحجة انشغاله، واكتفى مدير مكتبه باستلام طلبهم ووعدهم بالخير.

صبيحة يوم المحكمة الصيفي المُشمس الخانق، نهضت وعيوني لم تَريا النوم، جفوني تعبة لا تستطيع حمل نفسها، روحي ترتعش وقلقها يصل مداه إلى أقصاه، رغم أني أشعر أنّ الله يقف فوق رأسي يحرسني، على عجل ودون رغبة تناولت فطوري رغمًا عن نفسي، لإدراكي حاجة بدني إلى طاقة كي

١- الريش أمة : درجة دينية عُليا في الديانة الصابئية، وتعني رئيس أُمة، ويوجد حاليًا رجلا دين بهذه الدرجة.

أسنده، تخرج كلماتي مُختنقة خفيضة كي أودع زوجتي، هي تُتَمتم في سرها وأظنها تدعو لي بالعودة سالمًا، أنطلق بسيارتي نحو محكمة الثورة – التي ستحدد مصيري ومصير القائد – في مكانها الجديد الذي يقع على تخوم العاصمة بغداد، إذًا فطريقي أصبح نحو محكمة الثورة.

أين الشرائع السماوية الأولى التي نزلت على هذا البلد؟ أين حضارة هذا البلد الموغلة في القدم؟ أين الشرائع الأولى التي سَنّها حمورابي؟ أين احترام الإنسان وحقوقه؟ أين كُل هذا وبلدنا يدعنا ننساق كقطيع من الخراف خلف بعض الأشرار دون خطيئة؟.

كيف نُسمي هذا البلد وطن لنا وهو لا يحترم آدميتنا ولا يعتبرنا مواطنيين؟ هذا البلد الذي حتى لا يحسبنا بشر، وإنما أدوات يُحركنا كيفما يشاء، صحيح أننا مندائيو الديانة ولسنا على دينهم، ولكننا أصل سكان هذا البلد حتى قبل مجيئهم، هل نحن كَفرة كوننا نؤمن بالله ونؤمن بنبينا (يحيى بن زكريا) عليه السلام الذي هو غير نبيهم، أليس لنا كتاب مُقدس وهو (الكنزا ربا – وتعني الكنز العظيم) وفيه أولى التعاليم السماوية التي نزلت على أول البشر سيدنا آدم؟ هل يُفترض أن يكون مثوانا الأخير هو نار جهنم؟ هل هذا جزاء مواطنتنا الحقة حيث لم يظهر من بين ظهرانينا متقاعس أو خائن أو جاسوس على مدى الأزمان ولغاية الآن؟ ألم نكن مواطنين صالحين كباقي شرائح المجتمع العراقي؟ ألم نُضحي بعدد كبير نسبيًا من أبنائنا في سبيل الوطن الذي لم يعتبرنا يومًا مواطنين من الدرجة الأولى؟ وأخيرًا أتساءل كمندائي هل العراق هو وطننا أم هو فقط وطن الآخرين من دين الأكثرية؟ وللتاريخ لا بد أن أشهد أنّ السلطات والحكومة قبيل انهيارها بعد حرب الكويت كانت قد أمّنت الحماية الكاملة للأقليات الدينية جميعها دون استثناء.

أوقفت سيارتي في الشارع المحاذي لمديرية الأمن العامة، ترجلت منها بتثاقل واضح، أقفلتها وتوجهت نحو البوابة الرئيسية للمديرية الرهيبة، ساقاي ترتعدان

ترتعشان لا تستطيعان حملي، ليس بسبب أرض العراق التي تموج بالاهتزازات والحروب والاضطرابات دومًا ولا تهدأ أبدًا؛ وإنما بسبب حرارة جسمي التي تنخفض بسرعة من رأسي إلى أخر أطرافي، وتهتز بردًا وخوفًا دون أي سيطرة مني عليها.

ما أن سرت عدة خطوات حتى رأيت أهل وذوي القائد واقفين كجدار صامت، وعيونهم تتراقص رعبًا وترنو إليّ بقلق وخوف شديدين، ألقيت التحية عليهم، وقفت بجانبهم قليلاً، تكلمنا عن الوضع وما سينتج عنه، أخبرتهم عن حساسية وضعي وخطورته، تفهموا حالي وتمنوا لي ولابنهم التوفيق والسلامة، أرواح جميعنا كانت تُصلي وتلوذ بحصانة مُعتقدنا وديننا المندائي لنجاة ابنهم ونجاتي من هذه المِحنة، عيون والد قائدي كانت تطلق بريق الحزن والخوف والترقب إلى أقصاها، لكنه كان كالجبل ثابت، تمنيت لهم ولقائدي خير بعد أن طمأنتهم بالخير ومضيت.

دخلت بوابة المديرية يرافقاني الهلع والرعب، مُصوبًا بندقيته أوقفني العسكري المتأهب ووجهه العبوس بسحنته الداكنة ولهجته البدوية الواضحة نحوي، ببساطة يمكن أن يحزر المرء أنه لم يكمل تعليمه الابتدائي، أريتهُ هويتي العسكرية وقلت له:

– لقد تمَّ استدعائي للمحكمة الخاصة...

نظر إليّ بطرف عينه ودون أن ينبس بحرف واحد أشار لي بالدخول بواسطة تحريك سلاحه في اتجاه بوابة الدخول، دون أن يُكلف نفسه أن يقول حرف واحد، استمريت بقطع طريقي نحو جهنم وتخطيت عتبة باب استعلامات مديرية الأمن العامة حتى وصلت غرفة الضابط المسؤول فيها، شاب في عمر الزهور، تظهر عليه جدية فوق العادة يجلس منتصبًا خلف مقعده الوثير، متورد الخدين لكن وجهه قد فارق الابتسامة منذ زمن بعيد، قدمت نفسي وأظهرت له هويتي،

نظر إلى قوائم أسماء عديدة كانت موضوعة على منضدته دون ترتيب، وأشار لي بالجلوس بعد أن وضع علامة مُعينة مقابل اسمي وأعاد لي هويتي.

الأوطان المحترمة تعمل المستحيل لمواطنيها، تحمي أبنائها وتجعلهم سادة سعداء فيها، إلا وطني العراق حيث إنّ جميع الناس فيه يعملون كخدم وعبيد للوطن أو كحِملان للقائد الضرورة وحزبه الحاكم، جواز سفر المواطنين العراقيين المُخصص للعمل خارج حدود العراق أصبح لا قيمة له، وظيفته اقتصرت على الخروج من البلد فقط بعد دفع الرشوة في كثير من الأحيان.

أجلس أتأمل الداخلين والخارجين من الناس، وعناصر الأمن بعضهم مُكفهري الوجوه والبعض الآخر من النساء الجميلات اللواتي تظهر النعمة على وجوههن بوضوح وبلاغة، يضعن ملابس فاخرة على أجسادهن الناعمة المكتنزة ويمشين بتبختر زائد، تزدحم الأفكار في رأسي وتتصارع وينبعث سؤال يحيرني: "هل هذه النسوة تعمل كمُخبرات لدى الأمن العامة؟"، نعم يبدو أنهن يعملنَّ لديهم، إنهم يدسونهن بين ضحاياهم، إذ أنّ الأمن يعمل وفق مبدأ (السنونو والغربان)، والسنونو في عُرفهم تعني النساء الجميلات اللواتي يقمن بأعمال الأمن واستراق الأخبار عن طريق الإيقاع بِفرائسهن بالإغراء والدوافع الجنسية، أما الغربان فهم الرجال المخبرون.

عناصر الأمن يعرفون ما يدب على سطح الأرض وحتى تحتها وأفضل من الجرذان ولا يمكن الوثوق بهم إطلاقًا، لقد دَسَّتْ الحكومة عيونها وآذانها في كل مكان وفي كل زاوية، حتى في طيات فراش البعض، إذ تذكرتُ حدث حقيقي حصل مع ضابط أعرفه جيدًا، حين قامت زوجته بتسجيل كاسيت لصوته وهو يتفوه بكلمات لا تليق بالنظام، وهذا كاد أن يطيح برأسه ولولا مشيئة الله وعطفه عليه لأصبح في خبر كان.

إن كيد النساء لعظيم أليس هذا ما يُقال! وهذا ما جرني إلى أيام خلت حين رحلنا بقطار من موسكو لمدة يومين كاملين إلى الحدود المتاخمة بين

كازاخستان وكيرغيستان، والقريبة جدًا من الحدود الصينية، إلى مدينة صغيرة جدًا تدعى (لوكافايا)، حيث توجد قاعدة عسكرية روسية تغفو على كتف سلسلة جبلية شاهقة في ظل أجواء شتوية قاسية البرودة.

كان ذلك في مطلع عام ١٩٧٨؛ وكانت مهمتنا هي إجراء تطبيق عملي حقيقي على طائرات الميك ٢٣ الموجودة في تلك القاعدة، القاعدة تضم مطار عسكري كبير وقرية صغيرة جدًا مُلحقة بجانبه خاصة بسكن عوائل الضباط والعاملين في القاعدة، القرية بسيطة جدًا وتلتئم على بار متواضع صغير يحوي على عدة مناضد قديمة ويقدم الجعة الروسية اللذيذة.

يوم سبت شتوي والجو بارد وقارص ولا مكان ترفيه غير هذه البار الفقير، فذهبت له كي أقضي بضع ساعات دون أمل بحصول أي مجهول، ما أن دخلت البار حتى وقع نظري على مجموعة أشخاص تحتل طاولة عتيقة وكان من ضمنهم زميلي (ي)، تحيط به امرأتان جميلتان مكتنزتا الجسم بدتا بعمر أكبر منه، اتخذتُ مجلسي على طاولة مستقلة بعيدة نسبيًا، وجلست بعد أن ألقيت التحية عليهم، طلبتُ كأسًا كبيرًا من الجعة وأخذتُ أتلذذ بطعمها الفاخر، فترة من الزمن مرت حتى دعاني صديقي وحواريه إلى طاولتهم فلبيت ذلك عن طيب خاطر، لم يمر أكثر من نصف ساعة حتى اقترحت إحداهما الذهاب إلى بيتها لتناول طعام الغداء.

بيت تلك المرأة التي رافقت صديقي كان متواضعًا جدًا إلا أنه نظيف ومرتب يشعر المرء فيه بالدفء والهدوء، طلبوا مني أن أحضر طعام وفق طريقة الطبخ العراقية، فمكان مني إلا أن بدأت بتحضير طبق (التبسي) الشهير، وهو خليط من عدة خضار مقلية مع اللحم مع الصلصة.

تناولنا الطعام حيث أبدى الجميع إعجابهم به أثناء ما تصادمت حافات كؤوس الفودكا الروسية مع كلمة (نا زداروفيا) وتعني في صحتك، ما أن مضت فترة ساعة من الزمان حتى أخذت الفودكا الروسية تدور برؤوسنا، حينها نهضت

فتاة صديقي من مقعدها بتثاقل واضح ماسكة يد صديقي (ي) وراقصته تحت أنغام أغنية روسية شهيرة، ما أن انتهت الأغنية حتى سحبتهُ واتجهت به نحو غرفة نومها، لم يعارضها بل وكالخروف سار خلفها، المرأة الأخرى تنظر إليّ تارة بابتسامة شهية وتارة أخرى ترجو الرقص على أنغام الموسيقى وثالثة كذبيحة تتلوى أمامي، حتى طلبت مني بشكل مباشر أن نذهب إلى بيتها.

لم أكن أرغب فيها، إذ كانت تكبرني قليلاً بالعمر ورغم جمالها البائن بقوة على وجهها وشعرها الذهبي القصير، الذي بدا أخاذ عليها، وحركات جسدها الأنثوية البارعة، إلا أن نفسي عافت وعزفت عنها ورغم ذلك تبعتها، بينما كُنت أسير في الأزقة الملتوية الضيقة خلفها وأشاهد مؤخرتها المكورة الكبيرة نسبيًا تتلوى بنعومة ودلال في منظر شبقي كما في الأفلام الأجنبية، على ما بدا لي كانت تستعد لهذه اللحظة العاطفية الغريبة مع شخص أجنبي مصنوع من سحنة وعجينة أخرى، لم يمكنني الاستمرار في هذه اللعبة التي لم أكن أرغب فيها، وبدت لي أنها ستصبح حقيقة، حينها قررت ألا أمضي في هذا وضربت في رأسي فكرة أن أستدير كالعسكري الهُمام بخطوات سريعة إلى الخلف، فكرتُ وقررتُ، عندها أطلقتُ ساقاي إلى الريح، فعلت ذلك دون أن أنظر إلى الخلف.

القرية صغيرة ولا مجال للتخفي، قابلتني في البار، اعتذرت منها بقوة، بعد مضي شهر كامل، وحين بدأ الشوق والحنين يتصاعد، وضرب الهوى في رأسي حتى رأيتها مساء يوم كان الظلام شريكنا حتى عرضت عليها ما اشتهت فعله سابقًا ولم تحصل عليه، رفضت هي بتواضع وإباء وذكرتني بفعلتي، ضحكت ساخرة من حركتي الماضية الطفولية التي ما زالت تحتفظ بها في ذاكرتها واعتذرت مني بأدب ومكر شديدين، بعدها مضى كل منا إلى غايته، كان ذلك مكر نسائي حقيقي، إلا أنه كان مكر لذيذ.

مرت فترة صمت متواصل وتأمل وتحليل لم أصل فيها لأي شيء ذو فائدة سوى تبذير الوقت الذي أصبح بالأساس لا قيمة حقيقية له، أواصل تأملي

وتحديقي بالمحيط الذي حولي، استوقفتني صورة للقائد القيصر كبيرة رُسمت باليد، والمعلقة على جدار حائط الغرفة المقابل للداخلين إليها، يظهر فيها وهو يعتمر الكوفية العربية الحمراء والتي كانت تقبع على رأسه إبان الأيام الأولى للحرب العراقية الإيرانية رافعًا يده يوم رأيته لأول مرة بأم عيني، أتفحصها بنظرة دقيقة أقارن تقاسيم وجهه آنذاك مع ما احتفظ به له في الوقت الحالي فأجد فرق شاسع، هنا تحضرني الشائعة أو الحقيقة التي تؤكد على وجود عدة شُبهاء أو بدلاء له، يقال إن عددهم خمسة شُبهاء يقومون بواجبات مختلفة في الظهور الإعلامي والمقابلات غير المهمة، والتواجد في أماكن عدة لأغراض تشتيت انتباه المتربصين به من أعدائه لغرض حمايته من مخططاتهم ضده، وكذلك لتقليل جهد العمل عليه، يا لها من فكرة جهنمية.

بعد قليل يدعوني ضابط الاستعلامات الشاب بنبرة جدية صارمة أقرب إلى الآمرة أن أتبع أحد عناصر الأمن برفقة بقية ضباط ومراتب وحدتي العسكرية الذين حضروا كذلك لغرض الشهادة في قضية القائد، نسير جميعًا خلف هذا العنصر الأمني في أزقة مديرية الأمن العامة المتعرجة، هذه البناية التي بُنيت حديثًا والتي تحمل شكل هندسي تراثي تاريخي مُميز، ولا أعلم ما الذي يخفيه هذا الشكل الهندسي الرائع تحته أو بين ثناياه من زنزانات وأقبية يقبع فيها الرجال والنساء الذين غضب النظام عليهم لسبب حقيقي أو لوشاية ما، أو لأغراض التأديب والترهيب، ومن ضمنهم قائدي.

في قلب الأمن العامة نسير قدمًا وإذ أرى بناية مكعبة الشكل عالية نسبيًا عن بقية مباني المديرية المجاورة، يعتليها في جوانبها الأربعة؛ أربعة مقاتلين مُدججين بالسلاح، وعلى أهبة الاستعداد، وكأنهم في الصفوف الأمامية لجبهة قتال، وهذه الصورة تُذكرني بحراس بناية الرايخ الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية، ينفذ عنصر الأمن ويتغلغل في هيكل البناية فنندسُ فيها خلفه دون وعي

أو تدبير، يسير بنا في ممراتها لغاية رحبة الانتظار، يُسلمنا كفدية إلى ضابط استعلامات محكمة الثورة (المحكمة الخاصة) ويمضي.

شاب جميل دمث الأخلاق بشوش الوجه طويل القامة يحمل رتبة نقيب، يبدو أنه مُختلف في مظهره عن الآخرين، لا يظهر تحت مظهره رجل قاسي والله أعلم ما في داخله، يطلب منا الجلوس بأدب جم، لقد أصبح هو الآن راعينا أي راعي قطيعنا البشري، أقول في نفسي لا بأس براع بشوش من راع ذي سحنة شيطانية، نحن الضباط استقر بنا المطاف جالسين في غرفة انتظار خاصة بنا أما المراتب فتم تخصيص غرفة انتظار أخرى لهم.

غرفة الانتظار كبيرة نسبيًا لها بابين، الأولى التي دخلنا منها والأخرى أتوقع أنها تؤدي إلى قاعة المحكمة, تتكلم عيوننا مع بعضها همسًا وتنطق بلغة الإشارة، أصواتنا اختنقت واختفت وحلت محلها لغة الدعوات والصلوات على أرواحنا، أفكاري جميعها تتركز في كيفية الإجابة عن الأسئلة التي ستوجه لي، وكيف الخروج من هذا المأزق الكبير الذي يخصني وحدي، والتحديد من بين كل هؤلاء الشُهود إذ أنّ صفتي كالبهلوان الذي يقف على حبل مُتأرجح تتأرجح تتراوح تتمازج بين الشاهد والمتهم، سأركز على نفس إجاباتي التي أدليت بها في مديرية الاستخبارات العامة سابقًا ولا أحيد عنها أبدًا، ولكن كيف سأواجه الأمر إذا ما تمَّ محاولة الإيقاع بي إذا ما جاءت شهادة الآخرين منافية لشهادتي بالتمام؟.

أقسمُ بحياة أبي أن هناك مكيدة للإيقاع بكلينا أنا والقائد، هل سيقومون بمحاكمتي مرة أخرى وهذه المرة ستكون أشدُ وطأة من سابقتها وأكثر خطورة! لا إجابات على جميع أسئلتي ولكني قد فوضتُ أمري للحي العظيم وهو القادر على كل شيء، على المرء أن يكون حذر جدًا إذ أنّ أية هفوة قد يدفع حياته مقابلها، لا مجال للخطأ في لعبة الحياة.

في لُجة الصمت تنفتح الباب الثانية فتخرج علينا كتلة بشرية هائلة تلفها (دشاديش) أثواب بيضاء وتحملها أيادي بعض عناصر الأمن، صدمة جديدة كبرى تُضاف إلى صدماتي، دون وعي تخرج من فمي دهشة كبيرة وصوت مُختنق، اضطراب هائل بدقات قلبي الذي أصبح لا يحتمل مثل هذه المفاجأت، يا ربي عطفك ما هذا الذي أرى!

أجساد بشرية لا تقوى على الوقوف أو الحركة أو السير، ولهذا يحملهم عناصر الأمن من قاعة المحكمة خارجًا، أشباه بشر أو في الحقيقة يمكننا القول إنهم هياكل عظمية بشرية مُجردة، يمكن للمرء ببساطة أن يعتقد جيدًا أنها في طريقها إلى السماء، ولكن لا أحد يعرف هل ستذهب إلى الجنة أم النار، ينحسر الموقف في ظِل صمت القبور الحقيقي الذي يلفنا جميعًا، نجلس الآن برعب أكثر لا سيما وأننا علمنا من الضابط الشاب أنهم من عناصر حزب الدعوة العميل (على حد قوله آنذاك) وننتظر مصيرنا.

مرت الدقائق والساعات طويلة كدهور مُملة ورهيبة، وفي ظلِ هذا الموقف المأساوي يرن هاتف ضابط الاستعلامات ليفزعنا مرة جديدة وينقلنا من عالمنا الصامت الافتراضي إلى عالم حقيقي عميق السوء، يرفع الضابط سماعة الهاتف ليقول كلمات: "نعم سيدي أوكي نعم شكرًا سأبلغهم حاضر سيدي" ويضع سماعة الهاتف في مكانها، ينهض من مكانه يعرض ابتسامة خفيفة ويقول:
– يمكنكم الذهاب الآن، إذ أنّ المحكمة قد أجلت إلى يوم آخر وسنبلغكم بذلك .

وأخيرًا يأتي الفرج كي نستطيع العودة إلى بيوتنا سالمين ورؤوسنا تعتلي أجسامنا ولكننا لا نعلم لماذا تمَّ تأجيل المحكمة، كذبيحة نجت بجلدها توًا من حافة سكين القصاب الفائقة الشحذ؛ أنهضُ برشاقة كبيرة مع زملائي الآخرين كي أهرب بعيدًا عن جدار محكمة الإعدامات وأنفاسها الثقيلة العفنة التي لم أعهد عليها أبدًا، أسرع خطايَّ نحو بوابة مديرية الأمن، أتخطى عتبة استعلاماتها كي أخرج عن حدود المديرية بأكملها حتى أستطيع أن أعبئ رئتيّ

بكمية كبيرة من الهواء النقي غير الملوث بأحاسيس وأفعال رجال الأمن، يقابلني أهل القائد متلهفين لسماع أي خبر عن ابنهم، ولكن لا خبر أستطيع إخبارهم به ولا نهاية تبدو في الأفق لهذه القصة البائسة، ويمضي الجميع كل إلى وجهته دون وداع.

كانت زوجتي تقف خلف شباك مطبخنا الكبير الذي جعلته أثناء تصميمي له أكبر أفسح وأحدث مكان في البيت، كردة فعل نفسية وكتمرد على وضع مطبخ بيتنا السابق المُعتم الصغير، جعلته أكثر إضاءة، تجاوره على طوله من جهته اليمنى حديقة البيت لتعطي للجالس فيه بعدًا وأفقًا أخضر وراحة نفسية كبيرة، كانت تقف وعيونها التي ملأتها الأحزان والخوف والقلق ترنو إلى الشارع من خلال جراج البيت، ما أن ظهرت سيارتي في واجهة البيت حتى هرعت إليّ طائرة تحمل ملايين الأسئلة التي أجبت عليها جميعًا بجملة واحدة: "أن المحكمة قد تأجلت إلى موعد آخر"، دخلنا بيتنا الدافئ احتضنت أبنائي الثلاثة، قبلتهم بحرارة، نظرت في أعينهم البريئة بقوة؛ تلاشى نصف هَمّي وهدأت، جلست وسردت لزوجتي كل ما حدث وما رأيت من أهوال في هذه المديرية المشؤومة.

يسيطر على الناس اعتقاد ثابت سائد أنّ من يدخل محكمة الثورة لا بد أن يخرج منها محمول على تابوت، هكذا اعتقد العراقيون – وهم على حق – يملأهم الخوف والرعب من ذكر اسم هذه المحكمة التي يضيف إليها شيء من الهالة المرعبة الرهيبة حيث استقرت في عقول ووجدان البشر.

صباح مُشمس رائق ليوم جديد وحياة رتيبة نهوض صباحي غير مرغوب، دوام ممل دون أي إنجاز مفيد، فطور رائع، قراءة كتاب ممتع، متابعة موضوع استقالتي التي مَرّ عليها فترة دون إجابة، هذا أهم شيء في وقت تواجدي في المعمل، نوم هانئ، العودة إلى البيت واستردادي لطاقتي وحياتي أثناء تناولي الغداء مع زوجتي وأطفالي ثم المضي بعد قيلولة قصيرة قدمًا إلى متجري

الصغير الذي يملأني العمل فيه حيوية ونشاط وحركة غير اعتيادية مع أناس تعارفت عليهم من خلال عملي.

جاء رجل مُحترم تبدو عليه الهيبة والوقار يبغي بيع آنية فضية رائعة، فحصتها وأعطيته مبلغ مناسب لها فلم يرغب ببيعها لي، وحصل أن جاء مرة أخرى وثالثة حتى أصبح يتردد على متجري يوميًا، دون الأحاديث معه يكون يومي كطعام دون ملح. الدكتور (ع. ا) أستاذ في أكاديمية الفنون الجميلة متوسط القامة أسمر البشرة حلو المعشر وعلى مستوى عالٍ من الثقافة والمعرفة والاطلاع والأخلاق، يجيد اللغة الروسية كونه قد أنهى دراسته في الاتحاد السوفيتي، وبهذا كانت لدينا العديد من القواسم المُشتركة التي قربتنا بشكلٍ مُلفت، وأصبحنا لا نفارق بعضنا وصولاً إلى الكلام عن الأمور السياسية الممنوعة آنذاك بحرية مطلقة أمام بعضنا دون حرج أو شك أو خوف.

لكثرة تواجد صديقي في متجري أصبح البعض يعتقد أنه قد يكون شريكي، لم يكن ذلك يضايقني، وغالبًا ما كان يدعوني إلى أكاديمية الفنون الجميلة صباحًا لحضور جلسات الدفاع عن أطروحة لشهادة ماجستير أو لشهادة دكتواره، أجلس استمتع بالمناقشات الجادة والنافعة بشغفٍ كبير، أتمتع بحلو الكلام وأعجب بالنظام السائد للجامعات المدنية إذ أني لم أخبرها، كوني قد أكملت دراستي في أكاديمية عسكرية وشتان ما بين الاثنين.

قبيل أن تبدأ جلسات الدفاع يأخذني صديقي إلى نادي الأساتذة، نجلس نحتسي الشاي ليعرفني على زملائه الأساتذة؛ وهم الفنانون العراقيون المشهورون والذين أراهم يوميًا على شاشة التلفاز، أتحدث معهم ينتابني شعور وكأني ألعب دور سينمائي في إحدى المسلسلات أو الأفلام، لقد كانت تجربة رائعة ولا أعلم ما حل بصديقي العزيز بعد كُل ما جرى بوطن كان يُسمى يوم ما (عراق)، ولا أعلم أنه سيبقى يحتفظ بهذا الاسم أم سينشطر إلى عدة أسماء لمجموعة دويلات شبه مستقلة في ظِل ما يجري.

يقول المثل المصري الأثير (اليوم الخبر بفلوس بكرة ببلاش)[1]، الوضع في معملنا متأزم والأخبار أصبحت مجانية يوميًا ودون الحاجة إلى الانتظار للغد، بعد أن كان الجميع يتهامسون أصبحوا يتكلمون علناً عن أسباب تأجيل محكمة القائد، كل واحد من الشهود يُدلي بدلوه من وجهة نظره الشخصية ويبدي تصوراته وتوقعاته للآخرين ولا أحد يستطيع الحكم على الأمور, الجو ثقيل وخانق، لم أعد أتحمل البقاء في هذا المكان الذي أصبح موبوء بالنفاق والخبث والضغينة والإيقاع، أصبحت بحال لم أعهدها من قبل، كل ما يهمني الخلاص من هذه المجزرة البشرية وفصل ارتباطي بهذه المؤسسة العفنة والانزواء مع حياتي خارجًا عن دائرتهم النتنة.

يرن جرس الهاتف يخبرني صديقي وزميل دراستي الجامعية (خ.ر) والذي يشغل منصب ضابط أمن المعمل في حالات غياب ضابط الأمن الأصلي ويطلب مني موافاته في مكتب أمن المعمل، حياتي أصبحت بمجملها تدور من أمن معمل إلى أمن عام، من استخبارات جوية إلى استخبارات عامة، ومن محكمة ثورة إلى محكمة خاصة، اللعنة على هذا الزمن الأغبر الذي جعلني أدور بين تروس هذه المكائن اللعينة، أدخل مكتب الأمن وعيوني شاخصة نحو زميلي، يلتقيني بود وحفاوة كبيرتين، أجلس قلقًا، يوافيني جندي الخدمة بقدح من الشاي وقدح يحوي ماء بارد ويمضي، يفهم زميلي سِر قلقي فيغمزني بعينه مُحاولاً تهدأتي ويقول:

– لقد وردتني من الاستخبارات رزمة من الأوراق أود أن نملأها سويًا كونها تخص ابن عمك (نزار الزهيري).

١- اليوم الخبر بفلوس بكرة ببلاش: مثل مصري متداول شهير يعني أن الخبر السري هذا اليوم سيفتضح غدًا وسيكون مجانًا.

العقيد (خ. ر) أحد زملاء دراستي الجامعية ينحدر من قرى في محافظة الموصل شاب قصير القامة فاتح البشرة بدوي الطباع حلو المعشر مهندس ناجح ويمكنني الوثوق به.

أخذنا نملأ النماذج الكثيرة العدد، وكانت تخص ابن عمي نزار الذي هرب مع زوجته أواخر عام ١٩٧٨ بعد أن علمني سياقة السيارة بسيارتي الفيات الإيطالية البيضاء الجديدة، التي ابتعتها بعد انتهائي من دراستي الجامعية، ابن عمي شاب مُتقد الذكاء يكبرني بالعمر وهو الابن البكر لعمي الأكبر، متعلم حاصل على شهادة بكالوريوس في الإدارة والاقتصاد، حرفي من الدرجة الأولى صائغ ذهب، فنان في عمليات الخراطة والحدادة والنقش وغيرها، كان يمارس نشاطاته السياسية والنقابية وتشترك معه زوجته، لذا كانا من ضمن استهدافات السلطة، إلا أنهما قد شعرا بخطورة الوضع عليهما فما كان منهما إلا أن هربا من العراق وتغربا في كثير من البلدان العربية والأوروبية، حتى استقرا في الولايات المتحدة الأمريكية بشكلٍ نهائي.

أكملنا ملء نماذج الاستخبارات كما في كل مرة، إذ تعودت عليها حيث كانوا يرسلوها إليّ كل ثلاثة أشهر طيلة فترة خدمتي في الجيش، أدعي في كل مرة أن لا علاقة ولا اتصال لي بهما منذ مغادرتهما العراق ولغاية آنذاك، وأن سبب مغاردتهما كان لأغراض علاجية، أنهيت مهمتي بعد تحدثنا قليلاً عن أحوالنا العائلية والعامة، تذكرنا حادثة طريفة حصلت معي في سنة دراستي الأولى في موسكو عام ١٩٧٣، حين دخلت مع زملائي إلى مطعم صغير راغبًا في تناول وجبة الغداء، جاءت النادلة وكانت شابة شقراء فائقة الجمال كحورية هبطت توًا من السماء ذات وجه مستدير بعيون زرقاء وشعر طويل منسدل تراءى لي كحلوى (شعر البنات) التي كنا نأكلها في صِغرنا، ترتدي قميص أبيض شفاف تُظهر من خلاله بوضح مفاتن صدرها الأبيض العارم الطري وتنورة قصيرة جدًا تبرز أسفلها سيقان ملفوفة رائعة اللون والتقاسيم، نظرت إليها فهاجت

حواسي جميعها مرة واحدة، توقف إدراك عقلي، مُسك لساني عن الحركة وأخذ قلبي يدق بعنف شوق ولهفة، أمامي تخيلتها عارية تمامًا كما خلقها الله، رأيت جميع ثناياها الدافئة الناعمة وانحناءاتها الغائرة فزادت شهوتي بها، كدت أنهض وأحتضنها لكن بعد لحظات تمالكت نفسي وشَرَعتُ في طلب الطعام، قلت لها بصوت واضح الارتباك:

- أود أن تجلبي لي (توفلي).

عندها اندهشت النادلة، توسعت عيونها كثيرًا وسألتني باستغراب شديد:

- ماذا!!!!!؟

فأخبرتها مرة أخرى وبثقة أكثر (أريد توفلي) فما كان منها إلا أن أطلقت ضحكة مُجلجلة اهتزت لها جدران المطعم وغرقت هي في دموعها، ضحكتها المُدوية أثارت انتباه جميع الحاضرين، لا لسبب غير شكلها الملائكي وضحكتها العذبة، شاركناها في الضحك المُحبب دون إرادة مِنا وكيف لا نضحك معها وهي على صورة ملاك أبيض صالح مصنوع من عسل سماوي صافي، بعد أن أمسكت نفسها قالت لي:

- هل تقصد تفتيلي (وتعني كُفتة لحم)؟

أجبتها بنعم والخجل والضحك والشهوة قد أخذا مني مأخذ، ولكنه كان مأخذ حلو وعذب حينها سألتها:

- ولكن ما سبب ضحكتك الملائكية هذه يا جميلة؟

أجابتني والابتسامة لم تفارق شفتيها اللماعتين الشهيتين:

- لأن كلمة توفلي تعني حذاء.

وأشارت إلى حذائها مع إصدارها إشارة اعتذار واضحة.

في جميع الأحوال إن كان ما طلبت كان كُفتة أم حذاء فلقد ضحكت وزملائي مِلء أشداقنا، على إثرها ازدادت شهيتنا للأكل، التهمنا هذا التفتيلي (الكفتة) الملعون وأجهزنا عليه دون رحمة.

ضحكنا أنا وزميلي (خ.ر) على ذكر هذه الحادثة مما خفف عني بعض من هَم وقلق الاستدعاء، عدت إلى غرفة نومي وأقصد مكتبي وأنا في مزاج عكر رغم ذكرى قهقة النادلة حورية جنان الخلد الجميلة ومحاولة زميلي تخفيف الأمر عليّ، لم أحصل على أية إجابة حول استقالتي ولذا كتبت استقالة ثالثة وأرسلتها إلى قيادة القوة الجوية ومنها إلى إدراة الضباط وبقيت أنتظر.

القصص الحزينة في وطني كثيرة، لم تمر فترة طويلة حتى تمَّ استدعائي مرة جديدة إلى محكمة الثورة، يبدو أن القدر قد جمعني مع هذا المكان الرهيب ولا يريد أن تنتهي قصته معي، امتزجت في نفسي أحاسيس من كبت عميق وصراع حاد وشعور بالظلم، الحمد لله أن الأمور في المرة السابقة قد سارت على خير وسلام ولكن كيف ستسير هذه المرة لا أعلم... الله هو الحاكم الرحيم.

كفراشة تحوطها ألسنة لهب بقيت ساهدًا طول الليل لم أستطع النوم وأنا في ثورة التفكير والقلق، أدور بين غرف بيتي أذرعُها انظر إلى أشيائي أوزنها عسى أن تبقى في ذاكرتي إن حصل لي سوء وأرسلوا رقبتي إلى الجلاد، الأفكار الرهيبة في ما سيحصل غدًا لا تبارحني ولا أبارحها، كيف سأواجه رئيس محكمة الثورة؟ كيف سيكون شكل قائدي وهو خلف القضبان؟ كيف ستكون شهادة الآخرين؟ كيف وكيف وكيف وكلها تجعلني عاجز أكثر عن الإجابة.

صباح يوم المحكمة نهضت مبكرًا حيث أني لم أنم أصلاً، توجهت متعبًا منهكًا نحو الحمام، وقفت تحت الدوش فتحت الصنبور وبدأ الماء كرشاش غزير يسقط على رأسي يغوص في خصلات شعري، قطراته تنساب على جسمي أتحسسها أتلذذُ بسريانها عليه وهي تتجه نحو الأرض أسمع صوت اصطدامها، الماءُ

الحي يغسل النفس ويزيل عنها الوهن، الأدران والإجهاد، ارفع رأسي إلى الأعلى يسقط الماء على وجهي فيبعث الحيوية في نفسي بعد فتور الليل، وهنا أغمضُ عينيّ ودون وَعي أرفع يديّ إلى صدري أتجه نحو جهة الشمال الجغرافي وأردد دعاء كريم من كتابنا المقدس (الكِنزا ربّا – الكنز العظيم)

بِسم الحيّ العظيم
أسّبحُكَ رَبّي بقلبٍ طاهر
أيُّها الحيُّ العظيم
المُتميِّزُ عن عوالمِ النوُّر
الغنيُّ عن كلِّ شيء
العَليُّ فوقَ كلِّ شَيء
نسألُكَ الشِّفاءَ والظَّفَر
وهدايةَ الجَنان
وهدايةَ السَّمع واللِّسان
ونسألُكَ الرَّحمةَ والغُفران
آمين
يا رَّبنا... يا ربَّ العالمين
والحيُّ مُزكى

أنتهي من تلاوتها لأشعر فورًا أن جبل كبير قد أزيح عن كاهلي، ترتاحُ نفسي يصفى فكري، تهدأ سريرتي وأسترد طاقتي، هذه الصلوات تُساعدني حقًا في تجاوز الضيق والألم والتشبث بالحياة والأمل، لقد منحتني صلواتي القوة والعزم والقدرة على المواصلة والنجاة، لا يساورني شك بأن قدرتي على الصمود أصبحت أكبر بكثير.

ما أن تقترب سيارتي من مكان مديرية الأمن العامة حتى يتراءى لي أهل القائد وكأنهم مجموعة نخيل زرعت قرب بوابة المديرية لسنين طوال ونُسيت،

ينتظرون قَدر ومصير ابنهم المظلوم، أتحدث معهم قليلاً أواسيهم وأواسي نفسي ثم يودعوني بالتمنيات النابعة من صميم أفئدتهم المكلومة عسى أن أخرج مصطحبًا ابنهم، لا أود أن أكرر سَرد نفس أحداث دخولي إلى محكمة الثورة، وأبدأ فقط من لحظات الانتظار في الغرفة المُجاورة للمحكمة.

الضباط يجلسون في الغرفة يرتعشون خوفًا ويتصببون عرقًا، أعينهم شاخصة تتكلم مع بعضها دون حروف أو صوت، يجلس أمامنا النقيب الشاب اللبق مُبتسم يمارس عمله برشاقة وخفة وكأنه في دائرة رعاية المُسنين وليس في مديرية إرهاب البشر... الحزن والقلق يعُم المكان والسكون يسيطر على الكون والعقول، قلبي يُسرع من دقاته ويدفع الإدرنالين في دمي بقوة، الوضع لا يترك للمرء خيار كبير للتفكير والتبصر في سير القضية، أحاول لملمة نفسي رغم إيماني المطلق بحصانتي وبراءتي إذ لا يمكن للمرء الاعتماد كليًا على ذلك ويجب الاجتهاد في سبيل الوصول إلى الحياة.

فجأة ودون إنذار نزل صوت النقيب كصاعقة على رأسي أحدث زلزال في نفسي حين قال لقد وصل المتهم وستبدأ المحاكمة قريبًا، كلماته أصابت الجميع نوبة خوف هستيرية وأخذت عيونهم تتراقص قلقًا، دقائق ككوابيس تمر رهيبة وثقيلة جدًا، لحظات وستلتحم المبادئ الخيرة مع الشريرة منها في معركة فاصلة، إذًا إن المحاكمة ستبدأ قريبًا وسنرى من الذي سيفوز أخيرًا.

كيف سيبدو شكل القائد؟ هل تغير كثيرًا؟ هل خف وزن جسمه المربوع؟ هل تمَّ الاعتداء عليه وتعذيبه؟ هل تمَّ الحكم عليه قبل أن تبدأ المحاكمة فتكون بذلك صُورية وكما يجري غالبًا في بلدنا؟ أسئلة عديدة تدور في رأسي ولا أجوبة لها، ثم تبدأ نفسي تطرح عليّ أسئلة عديدة والتي تدور حول شهادتي ومصيري وقدري الذي ينتظرني كأنها تحاول تهيأتي لما سيجري.

تبدأ المحاكمة ويتم استدعاء أول ضابط، كفهد يقفز على فريسته ينهض برشاقة يتجه نحو الباب الآخر يطرقه ويتخطى بابه، بعده يتم غلق الباب يدخل في

الفارغ وينقطع شريط الفيلم، لا أحد يعلم ماذا يجري خلف الأبواب المُغلقة، لدي تصور كيفية إجراء المحاكمات المدنية من خلال الأفلام العربية التي نشاهدها على شاشات التلفاز، ولكن ليس لديَّ أية فكرة عما يجري حاليًا في داخل أروقة محكمة الثورة.

بعد حوالي أكثر من عشرين دقيقة يخرج الضابط لكي يتم المناداة على ضابط آخر، وهذا الآخر يغوص في محيط المحكمة دون أي تفاصيل، أجلس والخوف والقلق يركباني لا أكاد أسيطر على حواسي إذ أن كل منها أخذ يعمل على انفراد دون سيطرة مركزية من دماغي، تذكرت دعائي صباحًا وأكيد سوف لن يخذلني الرب، نعم أنا واثق من ذلك ولكن من يستطيع أن يوقف رعشة رُكبتاي، أحاول أن أنظم دفاعي وكلامي لجميع الاحتمالات والأسئلة الممكنة التي سيحاولون أن يحرجوني بها، لابد أنهم قد علموا بعلاقتي بالقائد من خلال محاضر الاستخبارات الظالمة، ولذا يمكن أنهم قد تهيأوا للإيقاع بي أيضًا، ولكن ما هي هذه الأسئلة لا أعرف يا إلهي ارحمني وامنحني القوة كي أستطيع أن أقف على رجليّ كي لا تخذلاني أمام حُكام الثورة وجلاديها وأسقطُ مغشيًا عليّ.

ما أن نطق النقيب الوسيم باسمي حتى شعرت أن دمي قد نزل كلهُ من رأسي إلى قدميَّ التي ثقلت ولم أستطع تحريكهما، كالكهرباء سرت رعشة قوية في جسمي أيقظت جميع حواسي وجعلتها في وضع استعداد قصوي، لا أعلم كيف نهضت ولكنني نهضت سرت عدة خطوات طرقت الباب وتخطيت عتبتها، أغلقت الباب خلفي، في محكمة الثورة وقفت مذهولاً بالكامل، أشاروا لي أن أقف في المكان المُحدد للشهود فوقفت، تطلعت إلى ما حولي فوجدت القائد يقبع في قفص خشبي يبلغ ارتفاعه حوالي متر ونصف، من خلاله أمكنني رؤية القائد يقف منتصب بعناد ولكن بدت لي وكأن الحياة قد فارقت وجهه، نحل وجهه خف وزنه، لابد أنه قد تعرض في السجن إلى حِمية إجبارية وبان عليه

الوهن، عيونه كرقاص الساعة تتحرك يميناً وشمالاً بسرعة تحاول احتواء جميع ما يوجد ويحصل في هذه القاعة المشؤومة، كنت اقرأ القلق الداخلي الذي يعتريه، ولكنه يحاول جهده أن يظهر بمظهر القوي المقدام.

قاعة المحكمة لم تكن كبيرة كما تصورتها إذ كان كل شيء فيها متواضع وكانت على شكل مستطيل قد يبلغ طوله عشرون مترًا وعرضها ستة أو سبعة أمتار على الأكثر، على جانبها الأيسر تقع منصة الحاكم ومساعديه، إلى شمالهم يجلس مُمثل الادعاء العام، وإلى الجهة المقابلة له أقف أنا، أما على الجهة المقابلة لمنصة الحكام فينتصب قفص الاتهام المستطيل الشكل الذي يتكون من قضبان عمودية عديدة وهذا يطابق ما نراه في المحاكم المدنية...

الحاكم يأمرني أن أقسم على الكتاب الكريم ويقصد القرآن على أن أشهد بالحق، فورًا أجيبه أني لست مُسلمًا بل أنا صابئي الديانة وسأقسم بالله وبكتابي، أرفع يدي اليمنى إلى الأعلى باسط إياها تجاهه وأقول – أقسم بكتابي المقدس الكنزا ربا أن أقول الحق وليس سواه – تعود يدي من تِلقاء نفسها دون إرادتي إلى وضعها الطبيعي وترتجف رغمًا عني, ركبتايَّ ترتجفان ولا تقويان على حملي، قلبي تتسارع دقاته بقوة ومعها أنفاسي ويكاد يقفز من الرعب، اضطراب هادر يسري في بدني وعقلي إذ نسيت كل شيء وكأني أمام الرب في امتحان يوم الدينونة ونهاية الكون، وقفت مدهوشًا مصلوبًا مصدومًا من شدة المفاجأة والخوف، لكن يدور في رأسي تصور قاطع أن الأشرار يحتاجون إلى حجج قوية وأساليب أقوى كي يستطيعون القضاء عليّ.

الحاكم يطرح عليّ سؤاله الأول ويقول:

– هل سمعت ما قاله المُتهم بشير من أقوال حول أموال التصنيع العسكري في الأيام الأولى للحرب العدوانية على بلدنا؟

– كلا سيدي لم أسمع.

– كيف لم تسمع؟

يبدو أن إجاباتي ستنتهي لكن أسألتهم لن تتوقف:

– لم أكن موجود في موقع الحدث سيدي.

القائد بشير يُبادر من تلقاء نفسه ويقول موجهًا كلامه لي:

– ولكنك كنت موجود وأنا لم أقل هذا الكلام فيما يخص أموال التصنيع العسكري.

يقاطعه الحاكم فورًا ويقول له أمر:

– لا تحاول تلقين الشاهد.

تبدو أن كلماتي والخطوة الأولى من شهادتي لم ترق للقائد في بادئ الأمر ولكنني كنت مُضطرًا لاتخاذ هذا الموقف الذي لم يكن القائد يعلم بأسراره، لكنني استدركتُ الأمر قبل فواته وقلت للحاكم:

– سيدي لقد كُنا بالفعل سويًا ولكننا سرعان ما تفرقنا، إذ توجهت نحو جناحي كي أخلي المعدات الصالحة بعد القصف إلى خارج المعمل، ولذا لم أكن في وقت الحدث ولم أسمع القائد يقول مثل هذا الكلام لأنني بالأساس لم أكن متواجد، ولكن لدي كلمة أود قولها سيدي.

– تفضل قُل ما لديك...

كنت أشعر أنّ ملائكة تحرسني وتحرص على نجاتي، وهنا وجدت نفسي بحال من العزم والشجاعة، نسيت رجفان ساقاي ودقات قلبي وأطلقت العنان للساني فقلت:

– سيدي لقد عملت مع العميد بشير لسنين طوال وأعرفه جيدًا، إنه ضابط مقتدر وقائد مقدام ومهندس كفؤ، إنه الضابط الوحيد الذي وقف ضد قرار تسقيط وإزالة معملنا من الوجود حين قررت قيادة القوة الجوية اعتباره غير قابل للإصلاح بسبب عدم توفر الجدوى الاقتصادية، لكنه أصرَّ على إعادة إعماره ولقد تحقق ذلك وأصبح المعمل يُنتج كما كان.

– شكرًا وتستطيع الانصراف.

– شكرًا سيدي.

أنظر إلى القائد الذي بدا غير مقتنعًا بما أدليت من شهادة والحق معه، إذ أنه لم يكن يعلم ما حصل معي وما يحصل خارج أسوار سجن الحوتة الذي يقبع به، وبعد هذه السنين الطويلة أرى أن ما فعلتهُ كان ينم عن فهم عميق ومعرفة حقيقية سير القضية إذ أني حاولت إنقاذ نفسي دون التأثير على موقف القائد مع محاولاتي الجدية وغير المباشرة لمساعدته قدر الإمكان.

رغم هلعي الكبير خرجت من قاعة محكمة الثورة فرحًا لعدة أسباب أولها إني رأيت القائد وهو سالم يستطيع الوقوف على أرجله، وثانيها أني قد خرجت سالمًا ولا أزال بصفتي كشاهد وليس كمتهم، إذ أن الخروج من محكمة الثورة بحد ذاته يُعتبر مُعجزة، وثالثها أني قد أدليت بشهادة مهمة قد تُفيد القائد إذا ما شهد الآخرون بمثلها.

ما أن انتهت شهادة أخر شاهد في القضية المصيرية؛ وبعد أن سَرى الوقت الثقيل في ظِل خوف كبير قلق قاتل والجميع في انتظار المعجزة حتى تمَّ الإعلان وإبلاغنا أنه قد تمَّ اتخاذ الحكم النهائي في براءة القائد من التُهمة الخطيرة الموجهة له، وأنه بذلك قد أصبح حُرًا طليقًا ما لم يكن مُتهمًا بقضايا أخرى.

لما كان القائد قد أُتهِمَ بقضايا أخرى فإنه سيبقى في السجن وعلى ذمة التحقيق لتلك القضايا الإدارية الكيدية الأخرى، وبهذا انسدل الستار على أخطر قضية كان يمكن أن تؤدي بحياة القائد وقد تسحبني معه في زيارة قسرية إلى سعير جهنم، وتساءلت في نفسي هل سحق الوطنيين والمخلصين من هذا الشعب يخدمُ الوطن والنظام أم على العكس؟ تنفستُ وتنفس أهل القائد ومعظم الشهود الصعداء، وحمدنا الله على هذه النتيجة، وشعرت ببعض الراحة، وهدأت روحي بعض الشيء في انتظار نتائج محاكم أخرى.

عدتُ إلى بيتي وزوجتي وأطفالي بخبر براءة القائد، والذي كان يعني عدم تعرضي مستقبلاً إلى أي تساؤلات إضافية، مما أراح حالة زوجتي النفسية وأزال عن كاهلها القلق والخوف نسبيًا، نمنا ليلتنا تلك براحة دون قلق أو توجس.

رغم حصول القائد على براءة واضحة من تُهمة التطاول على سياسة الدولة العليا، فإن الأمر واستمرار التحقيق وتواصل الضغط من احتمال الوقوع تحت قسوة الأحكام العسكرية الأخرى التي يمكن أن تصدرها المحاكم لاحقًا لم ينتهِ، إلا أنّ الأمر أصبح أكثر استقرار وأقل خوف على حياة القائد وعلى احتمالية توريطي معه، لقد كان وقت عصيب على عائلة وذوي القائد، وكذلك عليّ وعائلتي دون باقي الشهود، إذ أني كنت أيضًا في موضع الهدف والرماية لمن وضع خطة القضاء علينا أنا والقائد سويًا.

الله هو وحده من يُحدد عمر الإنسان ويقرر وقت وفاته حين يكتبهما على جبينه في لحظة ولادته، وأن حياة البشر رغم رخصها في بلدان مثل العراق إلا أنها بالأخير ليست بيد الجلادين، إنّ محاولة الشياطين لإنهاء حياة القائد وحياتي قد باءت بالفشل، وذهبت أحلامهم الطائفية المريضة إلى مزبلة التاريخ الذي سيظل يلاحقهم حتى يوم الدين.

ينتهي هذا الفصل المأساوي من حياتي دون أن أعلم شيء عن مصير استقالتي.

مجلة ألف باء

شعب أصيل مجهول الوجود

صحيح ما يقال إن الفنون جنون وهكذا يحصل معي أحيانًا، إذ أن في عام ١٩٩٤ حصل أن ضرب الجنون عقلي بقوة أحدث لوثة فيه، وهذا ما جعلني أقرر أن أكتب مقالة عن ديانتي الصابئة المندائية، التي لا يعرف العراقيون وكذلك الآخرون الكثير عنها، لا بل إن الكثيرون يعرفون أساطير وخرافات وأكاذيب عديدة عنها، يتداولونها ويتناقلوها دون تمحيص، معرفة أو تحقيق.

جاءتني فكرة كتابة هذه المقالة ونشرها في المجلة الملونة اليتيمة والوحيدة في بلد الثروات والموارد الهائلة العراق والتي تُسمى (ألف باء)، بعد أن دار حديث سابق مع أحد زملائي الضباط المهندسين الذي كان يستقل العجلة العسكرية معي، من وإلى معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية الذي يقع شمال العاصمة بغداد، وتحديدًا في منطقة التاجي ذات الأهمية الاستراتيجية، حيث تحتضن الكثير من معامل التصليح والتصنيع العسكري، ومستودعات المواد الاحتياطية، ومطار طائرات الهيلكوبتر ومراكز الدفاعات الجوية العراقية وغيرها...

هذا الضابط (ب) كان برتبة عميد (جنرال) ولقد عمل في الملحقية العسكرية في اليابان، كان شخصية دبلوماسية وعسكرية في نفس الوقت، وهذا ما كان يفرض عليه الإلمام بالثقافة والمعرفة ولو بحدها الأدنى في جميع أمور الحياة، بشكل يتميز عن أي شخص عادي، ورغم ذلك كان الجنرال يجهل كثيرًا في معلوماته عن ديانتي، حتى أنه كان يتحدث بأمور بدت خارج المنطق، العقل وقدرة استيعاب المرء للأكاذيب، لكنها في جميع الأحوال كانت متداولة في مجتمعنا

العراقي والعربي، نتيجة للانغلاق الإعلامي طويل الأمد حول ديانتنا، ونتيجة للاستهداف الديني لها بغية تشويه حقائقها ومبادئها.

جلستُ بهدوء بالغ أمسكت قلمي بقوة وأخذت أُفكِّر كيف لي أن أبدأ تحقيق هذه الفكرة، حتى وردت عقلي كلمات أخذت أسطرها على قرطاسي، إلى أن أصبح موضوع لائق بعدة صفحات يُلخص مجمل المعلومات الأساسية عن ديانة الصابئة المندائية التي تمتد جذورها إلى عمق التاريخ في بلد الرافدين العراق، نظرت إلى سطور المقالة قرأتها فأعجبتني وغدوت زاهيًا بالنصر.

صباح يوم مشرق رائق توجهت نحو وزارة الثقافة والإعلام العراقية، التي كانت تقع في بناية حديثة في ضاحية الصالحية قلب بغداد، ما أن تجاوزت عتبة بوابة الوزارة حتى أصبحت أمام موظفي إدارة الاستعلامات الذين بدورهم طلبوا مني بطاقة هويتي، أعطيتهم هويتي العسكرية، قاموا بدرج اسمي ومعلوماتي في دفتر خاص، مجلة ألف باء التي تأسست عام ١٩٦٨ مجلة متنوعة متميزة برصدها العديد من الأخبار السياسية والثقافية والفنية والاجتماعية، الدولية منها والمحلية، وتصدر كل يوم أربعاء من كل أسبوع، وكان مقر المجلة في بناية وزارة الثقافة والإعلام.

لقد حان وقت دخول عالم جديد أكثر انتشار وتأثير وجدية، استقليت مصعد الوزارة نحو مقر المجلة، دخلت إلى مكتب مدير التحرير الذي كان منهمكًا بين تلال الأوراق التي ترقدُ بعشوائية على منضدته العريضة، استقبلني بحفارة طيبة سائلاً عن كيفية مساعدتي، قدمت له نفسي وموضوعي الذي كان بعنوان (الصابئة المندائيون)[١] وأعلمته برغبتي الشديدة بنشره في المجلة.

١- الصابئة المندائيون: أقلية دينية تعيش في العراق والجنوب الغربي من إيران، ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ثلاث سور هي الحج والبقرة والمائدة وعدوا من أتباع الديانات التوحيدية، اقترن اسمهم بالنبي يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) مُبارك اسمهُ كأخر نبي ومعلم لهم.

أخذ مدير التحرير الموضوع وتصفح أوراقه ثم سألني عن الأسباب التي دعتني إلى الرغبة في نشره، أجبته أن أبناء طائفتنا هم من أقدم من سكن هذه الأرض وكنت أعني العراق، وهم من سكان البلاد الأصليين، ورغم ذلك فإن العراقيون لا يعرفون عنهم أي شيء، وحدثته قليلاً عن محادثتي مع الجنرال، أخبرته أن المجلة تقوم بدور رائد في نشر الثقافة والتعريف بكثير من الأمور السياسية والاجتماعية وغيرها، وأرى من واجبها كذلك أن تقوم بمهمة التعريف عن شريحة أساسية من المجتمع العراقي.

تسلم مدير التحرير الموضوع وأخبرني أنه لا يستطيع أن يقرر نشره من عدمه, إذ أنه سيقوم بإحالته إلى الخبير الإعلامي للمجلة، الذي سيبدي رأيه فيه، وهذا يتطلب وقت، ولذا يجب عليّ أن أعرج عليه بعد يومين أو أكثر لمعرفة النتيجة، شكرته كثيرًا ومضيت.

كنت أخوض أول تجربة لي في مجال النشر الرسمي العام لذا كنت متلهف وغاية في الشوق لسماع الرأي النهائي لمدير التحرير، بعد مداولته مع خبيره الإعلامي، لهذا كنت أعد الأيام والساعات للحظة اللقاء الحاسم... ما أن حانت لحظة اللقاء إلا وكنت كالجندي في لحظة الانقضاض على غريمه؛ أقف فوق رأس مدير التحرير، الذي ما أن رآني حتى نكس رأسه وطأطأه إلى صدره وقال:

- نحن أسفون، إذ لا نستطيع نشره، لا سيما ونحن نعيش في هذه الأيام الحملة الإيمانية التي يقودها السيد الرئيس القائد صدام حسين.

وأردف محاولاً تخفيف الصدمة عني:

- ولكنك تستطيع أن تكتب لنا في أي مجال آخر مثل عمود رقابة شعبية أو غيره.

صدمني كلامه، أسقطني عن طولي، ولم أعُد أسيطر على كلماتي وقذفته بوابل من المشاعر السلبية قائلاً:

- أنتم يا سيادة مدير التحرير في مجلتكم تقومون بنشر مواضيع عن أقوام بعيدة كل البعد عنا، مثل أقوام المايا في بيرو وغيرهم، وتقومون كذلك بالتعريف عن قبائل غريبة من وسط أحراش وغابات أفريقيا، فكيف تستطيع أن تجعلني أقتنع بألا تقومون بنشر مقالة عن قوم منكم ويعيشون معكم منذ آلاف السنين، هم من أرض الرافدين وبناة حضارته، وهم الأساس، لا بل الأصل منذ نشأة هذا البلد العريق؟.

لا يجوز العبث معهم في مثل هذه الأمور، ولكني كنت حانقًا للغاية، ولذا لم أستطع كبح جماح ثورتي الناعمة وأضفت:

- هل لي بمقابلة السيد رئيس التحرير؟

أجابني:

- نعم ولكن عليك أولاً أن تحدد موعد معه.

كنت أشعر أن شياطين سوداء وحمراء تتقافز حولي لذا تركته وأنا مكسور الخاطر إذ أن هذا الموقف لم أكن أحتمله أو أتوقعه أبدًا، أسير في دهاليز الوزارة ورأسي تدور فيها الكثير من الأسئلة التي لم أجد لها أية إجابات، كيف يمكن لسكان بلد أصليين أن يكونوا مُهمشون ومنسيون لهذه الدرجة، والأسوأ أنّ هذا يحصل وفق إرادة الحكام وليس رغمًا عنهم، ثم ما هذه الحملة الإيمانية التي يقودها رئيس النظام؟ وما علاقتها بموضوع يُعرف عن طائفتنا المندائية التي طالما كانت مُسالمة وديعة مخلصة وبيضاء؟.

أنا أعلم علم اليقين أن رئيس النظام رجل علماني لا يعتبر الدين أساس للحكم، فلماذا يتخذ ويرأس مثل هذه الحملة؟ هل كي يصبغ نفسه بلون ديني جديد كي يستطيع كسب المتدينين من العراقيين، بعد أن ضعفت سلطته إثر هزيمته في حرب الكويت وانهيار منظومته الحديدية؟ هل يريد أن يهيمن حتى على الدين هذه المرة ويستخدمه مَطية لتحقيق أهدافه؟ وأعود وأقول لنفسي وما علاقة الدين بالديكتاتور، أليس هو من قال ويقول إن الوطن للجميع والدين لله، فلماذا

يأتي الآن ويرأس الحملة الدينية الإيمانية التي تتعارض أهدافها مع أهداف نشر موضوعي المتواضع؟.

الدنيا مليئة بالعجائب، يا لغرابة الأشياء، هل علينا أن نستمر بقبول هيمنتهم علينا ومحاولتهم السيطرة على كل شيء؟ هل علينا تقبل نظرتهم الدونية والمرور علينا دون توقف أو تَفكر؟ إنهم يعلمون جيدًا إنهم بهذه الأمور يهينون إنسانيتنا ويلغون وجودنا ويسحقون دورنا التاريخي بكامله.

اتجهت فورًا نحو مكتب رئيس التحرير (أ.أ) تحدثت مع السكرتيرة وحددتُ موعد لاحق معه، سوف لن أستكين وسأواصل تحدي المستحيل كي أستطيع نشر هذه المقالة التي أصبحت هاجسي وهَمي الأول، على أن يكون في هذه المجلة تحديدًا، أسير في أروقة وزارة الثقافة والإعلام التي يبدو أنها أصبحت ضيعة خاصة لفئة عراقية واحدة دون الأقليات الدينية والقومية الأخرى، وأشحذُ تفكيري في كيفية العمل.

يبدو أن القدر قد جمعني بوزارة الثقافة والإعلام وجعلني زائر دائم لها، وهكذا اعتادت قدميّ على تخطي عتبة وزارة الثقافة وهذه المرة اتخذت طريقي مباشرة نحو مكتب رئيس التحرير، استقبلني المدير أفضل استقبال، جلستُ وكان على ما بدا أنه قد علم بجميع تفاصيل الموضوع، حتى أن نسخة من المقالة، وكذلك مطالعة الخبير الإعلامي (ح.ع) كانت تغفو بسلام على منضدته.

رئيس التحرير (أ.أ) واسمه على مُسماه رجل طويل القامة معتدل البدن ذو شعر أسود بالغ اللطافة والابتسام، رفيع الثقافة وحلو المعشر، فورًا ظهرت دماثة أخلاقه فتبادلنا الأحاديث الودية العامة، وظهر أن لديه علاقات واسعة وطيبة مع العديد من الشخصيات المندائية، كما أنه يرتاد بصحبتهم نادي التعارف الخاص بطائفة الصابئة المندائيين والذي يقع في حدائق الزوراء الغناءة في قلب بغداد،

لديه خبرة ومعرفة واسعة بدينهم وعقديتهم، دخلنا في صلب موضوع المقالة حين كررتُ على مسمعه ما قلته في ثورة غضبي إلى مدير تحريره:

- كيف تنشر مجلتكم الموقرة مواضيع عن أناس من أقصى أركان الكون، وعن قبائل وأقوام غريبة وعجيبة في أفريقيا وأسيا وغيرها، ولا تنشر مقالة واحدة عن أناس وطائفة أصيلة من العراق، والذين هم سكان البلاد الأصليين، وأصل وأساس حضارته، شاركوا إخوانهم في سراء حالهم وضراءه، ولم يظهر منهم أي عميل أو خائن أو جاسوس.

كان ينصت لي بهدوء وعيونه تلتمع إعجابًا بكلامي، يتحين إكمالي الحديث كي يتمكن القول:

- إني أعرفكم جيدًا وأعرف كثيرًا عن دينكم ومبادئكم، وأعلم أنكم أناس طيبون ومسالمون، وأنتم من خيرة البشر، إذ أنكم حريصون وذوي كفاءة مشهودة وتاريخ مُشرف، ولا أبالغ إن قلت إنكم أحسن منا بكثير.

عبارته الأخيرة أدهشتني واستوقفتني كثيرًا وأضاف:

- ولكن يا عزيزي أستاذ عباس لدينا في سياسة المجلة خطوط حمراء كثيرة، وموضوع مقالتك يتخطى هذه الحدود، فلذا أرجو منك تفهم وضعنا لأننا ببساطة لا نستطيع نشر موضوعك بسبب الحملة الإيمانية الجارية، حيث يمكن أن يعتقدوا أن نشر هذه المقالة يُعتبر نوع من أنواع التبشير الديني لديانتكم، رغم أني أعرف جيدًا أن ديانتكم مغلقة وغير تبشيرية.

أطرق رأسه إلى صدره وقال بابتسامة مقهورة:

- أنا أسف أستاذ عباس وأتمنى أن تتقبل الموضوع بروح الفرسان.

وبهذا أنهى الحديث وأطبق بشدة على احتمال قبوله، وبدأ بحديث آخر عن أصدقائه وجلساتهم الممتعة في نادي التعارف، وهذا ما هدأ من روعي قليلاً، تقبلت الموضوع على مضض، ومما ساعدني على ذلك حسن اختياره للكلمات وطريقته المقنعة جدًا وسمو حديثه، شكرته على حُسن الاستقبال والحديث،

رجوته إعادة المقالة لي، وهنا حصل ما لم يكن في الحسبان، لقد حصل خطأ في عملية إعادة المقالة حيث قامت مديرة مكتبه الجميلة بتسليمي أوراق المقالة الأصلية مضافة إليها مطالعة الخبير الإعلامي (ح.ع) دون قصد منها، أخذتها على عجل ومضيت بحال أفضل دون أن أعيدها لها، لا تزال تدهشني الصدفة في كيفية حصولي على الكثير من المعلومات التي تقع بين يَديّ دون أن أسعى لها، بالطبع لا زالت هذه الصفة تلاصقني حتى الآن.

ما أن خرجت من مكتبه وأنا ما زلت في دهاليز الوزارة حتى قرأت كل ما جاء في مطالعة الخبير الإعلامي وهنا كانت المفاجأة، خطرت لي فكرة جهنمية وهي أن أستعين بشخص ذو صيت ونفوذ ويعمل في الوزارة كمستشار لوزير الثقافة والإعلام يمكن أن يُعينني في تحقيق مهمتي التي كادت أن تصبح مستحيلة، حينها سألت أحد الأشخاص عن الشاعر العراقي المندائي عبد الرزاق عبد الواحد فدلني عليه.

ما أن تخطيت نهاية الرواق حتى وقع نظري على مكتب شاعر العراق والعرب الأول عبد الرزاق عبد الواحد، هذا الشاعر الذي اختلف الناس في تقييمه إلى مؤيد وعاشق لمستوى شعره الرفيع، أو كاره حد المُقت لمواقفه التي يعتقدون أنها ترتبط بالنظام الحاكم آنذاك، وخائفًا لا يجرؤ على الإفصاح عن رأيه.

عن بُعد؛ بدا لي المكتب متواضع جدًا ولا يتناسب مع مكانة وسمعة الشاعر الدولية، كان عبارة عن غرفة صغيرة بأثاث لا تبدو عليه علامات الفخامة إطلاقًا، رغم المعانى الكبيرة وعظم العبارات الفخمة التي كان الشاعر يطلقها ويتغنى بها في أشعاره، كان أبو خالد يجلس خلف منضدته منكبًّا على عمله، ما أن سمع صوت أقدامي حتى رفع رأسه مبتسمًا، مددت له يدي فنهض وصافحني بحرارة دون أن يعلم عن شخصيتي، عرفته على الفور عن اسمي وعملي وديني فاستقبلني بحفاوة بالغة.

جلستُ على الكرسي الذي يقع على الجهة الأخرى لمنضدته، بعد العديد من عبارات المجاملة وشرب كأس من الشاي العراقي الساخن المطعم بالهيل ذي الرائحة والمذاق الرائعين، أخذت أسرد عليه قصتي الحزينة، كان يستمع لي باهتمام بالغ ساندًا رأسه على أصابع يده اليمنى التي استندت على حافة المنضدة، كان بين الفينة والأخرى يطلق بعض كلمات المزاح مُحاولاً التخفيف عن كاهلي، يبدو أنه قد علم بمدى تأثري لهذا الموقف.

عبد الرزاق عبد الواحد رجل قصير القامة نسبيًا، عريض البدن، حاد الملامح، كان في بداية في عقده السادس على ما أذكر، أسمر اللون وذو شعر أسود كثيف، شاعر من الطراز الأول، ارتبط شعره بالوطن والأرض، واشتهر بطريقة إلقاء فريدة.

أخبرني الشاعر الكبير أن لديه صلات طيبة مع رئيس التحرير ولسوف يحاول معه ويرى ما يمكنه أن يفعل، أخذتنا أحاديث جانبية شيقة كثيرة وتناولنا العديد من المواضيع المختلفة فيما يخص الشأن المندائي وغيره، لحظات وأخذ الشاعر يُسمعني بصوته الجهوري الذي ترتجف كل القلوب وتطرب جميع الأذان له؛ قصيدة كان نظمها سابقًا على عُجالة، في وصف فتاة جميلة دخلت صدفة إلى مكتبه، كانت قصيدة رومانسية رائعة أجاد الشاعر فيها أفضل إجادة، ولشد ما أطربني حتى نسيتُ جميع هموم المقال التي لم تنشر، وبدت لي أنها لن تنشر إطلاقًا، شكرته كثيرًا على حسن استقباله، حديثه ومحاولته المساعدة، اتفقت معه على موعد لاحق ومضيت.

ما أن رميت بجسمي المتعب على مقعد سيارتي المتعبة مثلي حتى كشفت عن الكنز الذي بعثه الله لي مجانًا، قلبت أوراق المطالعة ووجدت أنها قد بحثت موضوع المقال من جميع النواحي الإعلانية والإعلامية والدينية والسياسية، وفي النهاية أوصى الخبير الإعلامي بعدم نشرها في المجلة ولهذا التزم الجميع بتوصياته حرفيًا.

كما أن العبارة القوية التي قالها لي رئيس التحرير استوقفتني كثيرًا، كما قرأتُ عبارة مثيرة أخرى في مطالعة الخبير قد استوقفتني أكثر، لقد كتب الخبير في مطالعته بما يعني أن المقال من الناحية الدينية تأتي في وقت تتعارض فيه مع الحملة الإيمانية رغم سمو ورفعة المبادئ والأخلاق التي يدعو إليها الدين المندائي، والأهم من ذلك فقد كتب الخبير: "لو لم أكن مسلمًا لصِرتُ مندائيًا"،أما من الناحية الإعلامية فإنها تصلح أن تكون بحث يُنشر في مجلة مُتخصصة، وفي الناحية الإعلانية فإنها لا تصلح كونها ليست بذلك.

لهذا كانت مقالتي ضحية بريئة لحملة القائد الإيمانية، وبسببها كانت غير مناسبة للنشر في المجلة الأولى والوحيدة في العراق، وبهذا فقدت في نفسي أي أمل في تنفيذ هدفي رغم وعد الشاعر الكبير ومحاولاته.

أقول بصراحة أنه قد استهوتني فكرة الكتابة في عمود (رقابة شعبية) لاسيما أني أراقب وأتعايش يوميًا مع العديد من المواضيع التي تهم شأن المواطن العادي وتمس حياته العملية، كنتُ أكون في فكري نصوص قصيرة ذات نهايات حادة، وبعد كل ما جرى أخذت أكتب بالفعل بعض منها، وكانت عبارة عن حكايات صغيرة لاذعة ناقدة للأوضاع المعاشية والخدمية المتردية في البلد، وإن أكثر ما شجعني للإقدام على ذلك هو كلام رئيس قسم هذا العمود الذي التقيته بالصدفة في الوزارة ودفعني بقوة.

مرت عدة أيام وأنا بين لُّجة العمل ومَشاق الحياة، بسبب الأحوال الاقتصادية العصيبة التي يمر بها بلدنا بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضته دول العالم المتحضر، مدعومة من منظمة الأمم المتحدة على شعبنا العراقي المظلوم، إلا أن الله دائمًا ما يعطي فرص طيبة في الحياة تجعل الإنسان ينسى همومه ويسعى إلى الحصول على حيز من السعادة خاص به، ولهذا أخذ موضوع الكتابة في مجلة ألف باء حيز كبير في نفسي.

كان صديقي الدكتور(ع.أ) يزورني كل مساء في متجري، نجلس نحتسي الشاي، نتحدث بثقة فائقة عن كل شيء بما فيها نقدنا اللاذع للحكومة والنظام وحتى الرئيس، لقد كنت أثق به كل الثقة لذا كنت أتحدث في حضرته بكل أريحية وانفتاح كما أنه بادلني نفس المشاعر والأحاسيس.

في يوم دعاني صديقي إلى أكاديمية الفنون الجميلة لحضور مناقشة إحدى رسائل الدكتوراه لأحد الطلاب، وبينما كُنا ننتظر ساعة بدء المناقشة جلسنا في كافتريا الأساتذة نتجاذب أطراف الحديث برفقة أشهر فناني العراق وأساتذة الفن والإعلام، في وسط هذه الأحاديث والأجواء الرائعة توقفت قربنا امرأة جميلة باسقة القامة في أربعينيات العمر، على وجهها تبدو آثار النعمة بوضوح، وسألت عن الدكتور (ع.أ) فقال لها – أنا هو – ودعاها إلى الجلوس واحتساء قدح من الشاي.

عرَّفت هذه المرأة عن نفسها وأخبرت صديقي أنها تريد أن تتعلم فن كتابة السيناريو، وأنها قد كتبت رواية وتبغي أن تحوِّلها إلى سيناريو فيلم أو مسلسل، اعتذر منها صديقي بلُطفٍ بالغ، إذ أن هذا لا يدخل ضمن اختصاصه العلمي، أخيرًا خضع تحت إلحاحها فما كان منها إلا أن سلمته كُرَّاسَ روايتها كي يحاول مساعدتها بطريقة أو أخرى ومضت إلى وجهتها.

أغلقت محلي في يوم إجازتي من العمل في الجيش، استقليت سيارتي وتوجهت نحو قدري في وزارة الثقافة والإعلام، قاصدًا سعادة مستشار الوزير الشاعر الكبير عبد الرزاق عبد الواحد وشخص آخر، كعادتي سلمت هويتي العسكرية في مدخل الوزارة ودخلت إليها قاصد مكتب مستشار الوزارة.

كان الشاعر ينتظر قدومي رغم أنه كان يحمل أخبارًا غير سارة, ما أن وقعت عينيه عليّ حتى هبّ لتحيتي باسمًا مغتبطًا باللقاء مادًا قلبه قبل يده، أسرني بعواطفه الجياشة وحرارة استقباله، جلسنا نحتسي الشاي ونتحدث عن أحوال طائفتنا مرورًا بظروف البلد العصيبة، ووصولاً إلى موضوع المقال، حتى قال

لي إنه قد تحدث مع رئيس التحرير حول الموضوع ولقد حصل على نفس الإجابة، إذ هناك خطوط حمراء لا يمكن لأحد اجتيازها، هنا بدأ يُهون عليّ ناصحًا إياي بنشرها في مجلة (أفاق مندائية) التي كانت تصدر من قبل مؤسسة طائفة الصابئة المندائيين في بغداد، شكرته كثيرًا وخرجت من مكتبه.

دخل صديقي الدكتور إلى متجري مساءً وكان يحمل تحت إبطه كُرَّاسًا مدرسيًا، وكان ذلك هو قصة تلك السيدة الحسناء التي ظهر أنها أرملة، لما كان صديقي فقد زوجته قبل حين فلقد خطر فورًا على بال كلانا في نفس الوقت فكرة إمكانية زواجهما، أخبرني أنه قلَّب أوراق روايتها ولم يجد فيها شيئًا مثيرًا رغم جمال وإثارة كاتبتها، خطرت لي فكرة الإطلاع على الرواية، طَلَبتُ منه أن يُعيرني إياها لأيام فوافق ودسَّها بين يديَّ، أعتقد جازمًا أن فكرة الزواج منها قد استهوته كثيرًا حتى أخذ يخطِّط لكيفية الاتصال بها هاتفيًا ومحاولة كسب ودها، حيث إنها قد تركت رقم هاتفها المنزلي لديه تحسبًا في حال حاجته لها فيما يخص موضوع سيناريو القصة.

يبدو أن جميع المشاكل التي كنت قد واجهتها مع الاستخبارات والمحاكم والأمن العامة لم تكفني، والآن أسعى قُصارى جهدي إلى إيجاد مشاكل أخرى كي أستمر في دوامة صراعات الحياة، لذا توجهت مباشرة قاصدًا رئيس قسم (رقابة شعبية) الذي رحَّب بي، سلمته حكاياتي، اطلع عليها فورًا وأعجبته، أخذها ووعدني بنشر إحداها في عدد كل أسبوع... كنت مغتبطًا جدًا وأنا أنتظر كل أسبوع لأقرأ بفرح غامر عمود حكايتي في مجلة ألف باء يطرزه اسمي المكتوب تحته حتى يقرأها الآلاف من العراقيين.

ضمن سياسة القسم والتي تُساير سياسة الدولة كانت إدارة القسم تقوم بحذف العبارات الحادة المفصلية في نهاية كل حكاية، والتي تشكِّل زبدة وخلاصة الموضوع، وأهم وأبلغ ما فيها وتفقدها جوهرها، رغم الانكسار النفسي الذي أحدثه عدم نشر مقالتي الرئيسية، إلا أني واصلت زياراتي إلى وزارة الثقافة

والإعلام بشكلٍ دوري، وكذلك نشر حكاياتي النقدية في هذه المجلة في العديد من إصداراتها، حتى حدث شيء لم يكن في الحسبان.

عكفتُ على قراءة رواية هذه السيدة الفاتنة والتي لم تسمح بأي فرصة ممكنة لصديقي في كسب ودها، إذ أن عواطفها كانت قد تجمدت إثر رحيل زوجها، بنهم غير اعتيادي أجهزتُ على الرواية بكاملها حتى وردني إحساس رائع أن أكتب رأيي في الرواية على شكل ملخص بفقرات، ما أن جاء صديقي مساء أحد الأيام الصيفية الحارة حتى وضعت بين يديه ورقة بملخص رأيي في الرواية ، اطلع صديقي على الملخص بتأني بالغ ثم أعاد قراءته، حينها عدل من جلسته بعد أن نشر ابتسامة عريضة على وجهه، رفع نظاراته عن عينيه اللتين أخذتا تبرقان غبطة ووضعها فوق جبهته وقال:

- لقد قرأت لتوي نقدًا جريئًا رائعًا لهذه القصة وكأنه لناقد محترف، يبدو أنك ناقد متمرس يا صديقي، وإني لمعجب جدًا بتسلسل أفكارك وتشخيصك لنقاط قوتها وضعفها، كيف استطعت اختزال أفكارك بهذه السطور القليلة، إنك لماهر جدًا في هذا المجال، في الوقت الذي لم تستهوني هذه الرواية بالمرة.

أحد الأيام الربيعية الرائعة دخلت إلى استعلامات الوزارة، وكعادتي أظهرت هويتي العسكرية إلى الموظفة المسؤولة وكانت شابة في مقتبل العمر، لم أرها سابقًا ولم أعرفها، ولكن يبدو أنها كانت قد لاحظت تكرار زياراتي للوزارة، استوقفتني وأسقطت في أذني كلمات هادئة وكأنها تعرفني دهرًا:

- هل لديك هوية شخصية أخرى غير هذه العسكرية، والتي تظهر أنك برتبة عقيد في الجيش؟

صدمتني المفاجأة وعقدت لساني ولم أفهم كيف تجرؤ مثل هذه الفتاة الشابة أن تقول لي مثل هذه الأشياء الشخصية، ألا تعجبها هويتي العسكرية؟ ألا تستهويها رتبتي العسكرية؟... أسئلة كثيرة دارت في رأسي وأنا أنظر إليها دون عطف أو مودة قائلاً:

- لماذا تسأليني هذا السؤال، لا أفهم قصدك يا آنستي؟

اقتربت مني الشابة الجميلة جدًا حتى أصبحتُ أحس بنسمات شهيقها وزفيرها، المعطران بعبق عطر قوامها الرشيق الطاغي الذي يخلب لُبُ أي فحل، وبصوتها الطرب الخفيض أسقطت كلماتها في أذني:

- عزيزي الضابط كنت أتمنى لو أعطيتني هوية أخرى غير هذه، هل لديك؟

في بادئ الأمر خطر على بالي أنها قد تحاول كسب ودي أو إغرائي، ولذا لم أتركها تنهي حرف كلمتها الأخيرة حتى انقضضتُ عليها بسؤالي التالي:

- ماذا؟

كان ذلك بطريقة أكثر مرونة، ولكن إثر كلامها المثير وتحت إصرارها قلت:

- نعم لدي هوية نقابة المهندسين ونادي ضباط القوة الجوية وأخرى غيرها، ولكني أسألك لماذا كل هذه الأسئلة بحق السماء؟

ابتسمت حتى لمع ثغرها الممتلئ وانفرجت شفتاها اللماعتين الشهيتين، توردت خداها ونثرت منهما رطب الورد، إذ أنّ جمالها كان يؤنس وحشة روح أي مُعذب، كان ثمة هالة سحرية تحيط بها وقالت:

- كنت أود النصح وأقول إن هويتك هذه تجعلني أدرج اسمك في سجل خاص يذهب مباشرة إلى رئاسة الجمهورية يوميًا.

كنت واقف قبالتها والدهشة والشهوة يأكلاني سويًا وأضافت:

- ولكن إن أعطيتني هوية أخرى فإن اسمك سيكتب في سجل آخر لا يذهب إلى رئاسة الجمهورية، ولك القرار في ذلك.

صعقتني كلماتها القليلة والكبيرة بمعانيها، أعجبتني جرأتها وهي لا تعرفني من أكون، كيف لشابة مثلها الإقدام على محاولة كهذه دون التفكير في عواقبها، لاسيما ونحن نعيش في ظل نظام حديدي قاس لا يرحم، لفتني الصدمة بالكامل وتوقف عقلي عن التفكير، كأنها ضربتني على رأسي بمطرقة كبيرة، لحظات

حتى استعدت وعي وقدرتي على التفكير والنطق حتى قلت لها وعيوني خجلى تعكس شعاعات الاعتذار الشديد وقلت لها:
- شكرًا لك يا آنستي على تنبيهك وتحذيرك، أنت إنسانة رائعة، فألف شكر وليباركك الله ويحفظك من كل مكروه.

أعطيتها هويتي الصادرة من نقابة المهندسين ودخلت إلى الوزارة، على عجل سلمت حكاياتي إلى قسم رقابة شعبية وخرجت، وكانت هذه أخر حكاياتي وأخر مرة تطأ أقدامي أبواب وزارة الثقافة والإعلام وإلى الأبد.

لم يكن النظام القائم في العراق نظام ديني بأي حال من الأحوال، إذ كان يستند على أسس علمانية واضحة الدين ليس أساسها، كان النظام قد أحكم قبضته على النظام السياسي وحجب أية مشاركات سياسية أو نقابية لأحزاب أو تنظيمات أخرى، كما منع تواجد أي تنظيم سياسي خارج حزب البعث في العديد من أجهزة الدولة الحيوية على رأسها الجيش والتربية والثقافة والإعلام والأمن والاستخبارات وغيرها، وبذلك أصبحت أجهزة الدولة بأكملها خاضعة بشكل كامل لسلطة الدولة ومنظومة الحزب الحاكم.

لا بد من المرور على موضوع الحملة الإيمانية التي قادها الرئيس صدام آنذاك، وأقول رغم قساوة النظام السياسي في عهد الحاكم المطلق ومنظومته الأمنية الحديدية إلا أنه كان نظام علماني من خلال الأنظمة وقوانين الأحوال المدنية المعمول بها، والتي كانت بعيدة عن التعصب الديني.

استنادًا إلى المبادئ التي اعتمدها نظام الحكم؛ فقد كان في فترته الأولى حاميًا للأقليات الدينية من أية تهديدات أو مضايقات، ومُؤمنًا لحقوقهم المدنية حتى وإن كانت بالحد الأدنى، لكن وبعد ضعف سلطة النظام الحاكم والحكومة إثر الحرب عام ١٩٩١، اتخذ النظام كافة الوسائل لغرض تثبيت أركان حكمه وتقويتها، لذا أطلق بما يُسمى (الحملة الإيمانية) والتي كان ظاهرها ديني وباطنها سياسي والغرض منها إعلامي أكثر من ما هو مبدئي أو ديني، إذ سعى النظام إلى

إظهار سلوك ديني غرضه كسب التعاطف الديني للشعب، وهذا ما قاد التيار الديني للصعود إلى واجهة الأحداث بحيث أصبحنا نسمع من خلال مكبرات الصوت في بعض الجوامع والمساجد نداءات تحريضية معادية للأقليات الدينية بصوت الخطباء، تدعو إلى تكفيرهم وعدم قبولهم، في ظل صمت مطبق من قبل السلطات التي لم تكن سابقًا ترضى على مثل هذه التجاوزات إطلاقًا، وفي ظل هذه الحملة أخذنا نسمع بخروج المجرمين من السجون إن قاموا بحفظ عدد من الآيات القرآنية.

هكذا أرادت الاستخبارات السوفيتية تجنيدي

جلس المقدم ضابط التوجيه السياسي الروسي
في مكتبه الصغير على انفراد معي،
وأخذ يهددني بالأسوأ ما لم أتعاون معه.

للقمر أكثر من مبرر للسعادة إذ أنه بجهد كبير ينفذ بين الغيوم الشتوية الكثيفة ناثرًا ضوئه مجاناً للعاشقين، يُسعدهم ويمنحهم زخمًا إضافيًا في إدامة حبهم السرمدي، ينير الكون ويعمل على حمل سهام عيون العشاق كي يصلها برومانسية وأمانة إلى عيون عشيقاتهم أثناء سهادهن.

مساء شتوي بارد تحت أضواء القمر الخجولة، الثلج الأبيض يُغطي شوارع مدينة كييف عاصمة أوكرانيا جاعل ليلها أبيض مُضيء كالنهار، كل شيء في المحيط يغطيه اللون الأبيض، الأشجار يكسوها الثلج راسمًا منها لوحات الخلود، الناس في هذا البلد الرائع يعشقون الثلج ولونه الأبيض الناصع ويعتبرونه جزء حيوي من ثقافتهم وحياتهم.

أدخلُ إلى مطعم (الليبد) الراقي الشهير، الذي يحتل الطابق الأول للبناية الشاهقة التي تقع في قلب المدينة الغافية على أكتاف الشتاء، يصحبني عدد من زملائي في الدراسة، كانوا يصطحبوا صديقاتهم الشابات الأوكرانيات الجميلات ما عداي، حيث حصل ذلك اليوم أن كنت وحيدًا دون صديقة... للنساء في أوكرانيا طقوس خاصة للجمال إذ يعملن أي شيء كي يظهرن بأحلى حُلة ومظهر، يمكنهن ألا يأكلن لا يشربن ولا يصرفن نقودهن على أي شيء آخر، لكنهن لا يستطعن مقاومة عدم شراء الملابس الجميلة والأحذية الفاخرة كي يظهرن مفاتنهن وجمالهن الأخاذ، التي تسلب عقول الفحول بعد أن يضربها

الكحول وحتى قبل، وباختصار شديد فإن المبدأ لديهن كل شيء من أجل الجمال ولا شيء سواه.

سرعان ما أخذ العاملون في المطعم كخلية نحل يعملون لتحضير طاولة كبيرة كعادتهم لنا، إذ أنهم يعرفون كرمنا جيدًا لتكرار زياراتنا لهم كما يعلمون قدرتنا الفائقة في السخاء عند إعطائهم البقشيش قبل وبعد أن تدور الخمر في رؤوسنا، ناهيك عن قيامهم بزيادة مبلغ قائمة الدفع أو حتى إضافة مواد لم يجلبوها أصلاً، كنا نُفاخر جدًا رغم صغر أعمارنا بقدرتنا المالية الكبيرة أمام الناس المحليين ذوي الدخل المحدود نسبيًا.

اتخذنا مجلسنا وسط القاعة الفارهة الكبيرة للمطعم، وبدأت الفرقة الموسيقية بعزف الألحان الهادئة، في ظل عمل دؤوب للعاملين في ملء كل سنتيمتر من طاولتنا بكل ما لذ وطاب من مازات ومشروبات وطعام وقناديل شموع مضيئة، وكذلك فازات ممتلئة بزهور ملونة عطرة، ما أن دارت الخمر في رؤوس الجميع حتى حمى وطيس الحفل وهبّ الجميع إلى حلبة الرقص، وبدأت الأجسام المرنة الطرية البيضاء تتمايل بمهارة وغنج كبير مُتعمدين إظهار أعلى درجات الإثارة والإغراء، ساهمنا نحن بدورنا في مهرجان الرقص الرائع والمجنون هذا وأطلقنا العنان لأنفسنا بغية نسيان كل ما يَمت إلى أمور الدراسة ومتاعب الجيش وآلام الغربة.

في حلبة الرقص تحدث أحياناً أشياء غريبة وعجيبة، لاسيما حين تلعب الخمر في رؤوس الرجال والنساء على حد سواء، وتتصاعد الشهوة ويزداد الحنين إلى نسيان الواقع من أجل الدخول في نفق الحرية المطلقة دون رقابة أو شروط، عندها يمكن للمرء أن يرى أمور لا يلاحظها في كل الأوقات أو الأماكن العادية، مثل الالتحام الكامل لرجل وامرأة أثناء الرقص، أو قيام بعض الشابات بخلع ملابسهن العلوية وإظهار مفاتن صدورهن، ناهيك عن طقوس التقبيل المثيرة وتشابك الأرجل مع بعضها، وغور الأيادي إلى أماكن دافئة وغيرها.

ليس ببعيد عن طاولتنا جلست شابة مع صديقاتها، كانت بعمر الزهور جميلة كأن الله حباها بجمال الكون كله، رشيقة سيقانها كعيدان الخيزران بيضاء ملفوفة آخاذة تسلبُ عقل وتثير شهية أي فحل يراها، عينان زرقاوان تستحي زُرقة السماء منهما، لها أثداء بيضاء لدنة عامرة حين ترقص تهتز بقوة تكاد تنتفض وتثور على قميصها الشفاف الأسود اللون مُحاولة اختراقه بعنف لتخرج وتنثر عطرها على الجميع، وجهها كملاك أبيض جميل، كأن خلقه الله توًا وتفانى في خلقه مرات، نظراتها مثيرة وحادة كأنها تستنفر وتستدعي الآخرين للإغارة عليها، نعم إنها تحفة سماوية جميلة معجونة من دلال وجمال وغنج، أكاد لا أغالي إن قلت إنها في مصاف حوريات الجنة دون نقاش، أو أنها الآلهة عشتار بنفسها سيدة الجمال والجنس والعشق.

كانت بين الفينة والأخرى تطلق عليّ شعاع نظراتها النارية التي تكاد تخترقني تنفذ في أعماقي، تلهب نار الشوق فيَّ وتجعلني في تمنٍ دائم لضمها وتقبيلها والغوص في بُحور مفاتنها السحرية الطرية الدافئة، على مقربة من طاولتها كانت شلة من الشباب تجلس، وكان أحدهم يرقبها ويطلق سهام الإعجاب والغيرة نحوها باستمرار.

ما أن انتهت استراحة قصيرة حتى بدأت الموسيقى تصدح من جديد وبدأ حفل الرقص الأكثر إثارة وحميمية، مرت فترة ولم أستطع الانتظار طويلاً، إذ لملمتُ جميع شتات أجزائي وجعلتها في كيان واحد واستجمعت كل قواي وقدراتي، نهضت واتجهت مباشرة نحو هذه الفتاة الشابة التي غطى جمالها وعطرها الكون كله، ما أن اقتربت من حافة طاولتها حتى انحنيت نحوها مُظهر أدب جم، وباتت عينيّ ترى ما بين نهديها النافرين، شممت رائحتها الزكية المنبعثة من شعرها الأشقر الثائر بحنان والمنسدل على كتفيها الناعمين، ممدتُ يدي باسطًا إياها بحيث أصبحت على مقربة من يدها الطرية البيضاء اليسرى كادت تلامسها، بكلمات متعثرة وهادئة طلبتها للرقص، كأنها كانت في

انتظاري دهرًا، نظرت إليّ بحنان كبير، أحسست بشعور غامض كأنها بنظراتها كانت تشكرني، وهنا دار الكون بي، كدتُ أسقط من طولي، فابتسم لها قلبي قبل شفتاي دون وعي أو إرادة، نهضت والبسمة تعلو شفتاها المثيرة اللماعة وهذا ما شجعني أن أخذ يدها كعصفور حنون بين يدي وأصطحبها إلى حلبة الرقص.

ألحان المقطوعة الموسيقية الإنجليزية الشهيرة (قصة حب) كنسائم البحر تسري في نفوسنا الهائمة بهدوء وانسياب، وأنا أحتضن هذه الفاتنة، هذا الملاك الناعم الذي قدم توًا من عالم الخلود، أدور معها على لحن الحب والعشق والهيام، أنظر في عينيها فتذوب وتغرق أحاسيسي في بحر عيونها، لا أكاد أنطق شيء من الكلمات حتى تبتسم وتعلن رضاها وقبولها، أكاد أرفعها من بين ذراعيها وأزرعها فوق قمم فؤادي، أشعر بصدرها اللدن الرجراج يُصارع صدري يلامسه ينتصر عليه حتى أمكنني تحسس رجفان حلمات نهديها الناتئتين وخفقان قلبها المتسارع، تطلق بعض من كلمات بصوتها الناعم الذي يشبه عزف قيثارة سومرية، فيتملكني شعور سحري لذيذ، وقتها كادت تقودني إلى الجنون.

كم أنت جميلة وكم أنت ناعمة وكم أنت رائعة، أسقطُ كلماتي هذه في أذنها فتحني رأسها موافقة مُبتسمة مُنتشية إلى الأسفل خجلاً وتُتمتم بهدوء كلمة (سباسيبا) وتعني شكرًا، توقفت الموسيقى وانتهت رقصتنا دون أن تنفصل أيدينا عن بعضها، عيوننا ما زالت هائمة تسرحُ في بحور بعضها، قلوبنا تحاكي بعضها دون كلمات، شبَقنا على أوجه ولكن لا بد من العودة إلى أماكننا، إذ أن الجميع قد ترك منصة الرقص، كانت هذه الرقصة الأولى والأخيرة التي أسعفني حظي معها وإلى الأبد، إذ توقفت الموسيقى وبدأت استراحة جديدة.

نهض بعض أصدقائي ونهضت معهم نحو الحمام الذي يقع في الطابق الأرضي، ويفصلهما درج عريض واسع كالأفعى ملتوي، وبينما كنت أهبط سلالم الدرج اعترضني ذلك الشاب الروسي الحسود وأسمعني كلمات غير

مُستحبة، أهملتُ سماعها وأهملته، لم أجبه واستمريت بالنزول، بعد أن انتهيت من زيارتي إلى الحمام وأثناء عودتي وصعودي السلم اعترضني الشاب نفسه مع أصدقائه مرة ثانية، ويبدو أن عدم اكتراثي له أثار حنقه أكثر، مما جعله يمسك بطرف قميصي ويسحبني إلى فسحة عريضة ومنها إلى الصالة الرئيسية في المطعم.

حاول أيضًا سرقة سلسال ذهبي كنت أرتديه حول عنقي فلم أدعه يأخذه، كان مُصر على الاستمرار في اعتداءه، نسيت الشابة الجميلة وشكلها المثير، أثدائها وإغرائها، انحنائاتها الغائرة وكل شيء يخصها وحتى الموسيقى الراقية والطعام الفاخر، يبدو أنه كان في غاية القوة والنفوذ كي يتبعه الآخرون، حاول ضربي فتفاديت ذلك بأعجوبة، فما كان مني وإثر شعوري بنواياه العدوانية البائنة إلا أن أسرع خطاي نحو أقرب طاولة لأناس لا أعرفهم وأمسك بزجاجتي فودكا كانتا فوقها، وسط خوف وتعجب الجالسين على الطاولة، رطمتُ الزجاجتين ببعضهما حتى أصبحا بيديّ كمجموعة سكاكين حادة جدًا يمكنني الدفاع بهما والتخلص من شر هذا الأزعر.

تراجع هذا المنحرف عني خوفًا لكن يد شخص آخر من مجموعته من الخلف أمسكتني بقوة من ياقة قميصي وسحبتني بعنف نحو الأرض فسقطت على ظهري ولم أعلم ما حصل مع القنينتين، خوفًا من يركلني الشاب الآخر بقدمه على رأسي لممتُ أقدامي سويًا ورفعتهما إلى الأعلى واتجهت بهما نحو الخلف بقوة كبيرة باتجاه الشاب الذي كان خلفي حتى أصبته في وجهه ولم أعلم ما حصل له، المعركة مُحتدمة في وسط صالة المطعم، الفرقة الموسيقية توقفت عن العزف، الناس انزووا في جانب بعيد من الصالة تفاديًا من شظايا المعركة، وعمال المطعم يصرخون بأعلى صوتهم ستصل الشرطة قريبًا، حال أن دخل عناصر الشرطة صالة المطعم حتى اختفى جميع هؤلاء الشباب بقدرة قادر، ويبدو أنهم هربوا أو تمَّ تهريبهم عبر بوابة مطبخ المطعم.

انتهت الحرب الأهلية دون أن يضربني أحد ولكني لاحظت آثار دماء على قميصي، لم أعلم مصدره كوني لم أشعر بأي أذى، لأول وهلة اعتقدت أنها لأحد الشباب الروس، مرت ثواني حتى شعرت أن إبهام يدي اليسرى قد جُرح وينزف دمًا ولا أستطيع حركته، عندها علمت أنني قد أصبتُ بطريقة أو أخرى، مما استدعى الاتصال بسيارة الإسعاف ونقلي فورًا إلى المستشفى، لم أحظَ تلك الليلة ولا حتى بقبلة من شفاه هذه الفاتنة الجميلة، التي لم يمهلني الوقت الحصول على رقم هاتفها قبيل الاعتداء، لم أرها وللأسف الشديد لاحقًا، ولكن ولحسن الحظ لم يدفع أحد ثمن طاولتنا وبذلك كانت معركتنا مجانية.

دخل الطبيب كبير السن المخضرم ذو الشعر الأبيض الهادئ الوقور إلى غرفة العمليات حيث أرقد على منضدة العمليات، فحص إبهامي عدة مرات بتحريكه إلى الأعلى والأسفل فكان إبهامي لا يتجاوب مع محاولتي تحريكه إلى الأعلى، وهذا يدل على أن العضلة الرابطة قد أصيبت بضرر لا بد من علاجه، هنا قرر الطبيب المختص إجراء عملية فورية لربط العضلة.

بقيت يدي مربوطة ومغطاة بالجبس لفترة أكثر من أسبوعين، خلالها قام المقدم ضابط التوجيه السياسي الروسي للجامعة أثناء الدوام باستدعائي إلى مكتبه وحدي، على انفراد أخذ يتداول معي ما حصل في المطعم ذلك اليوم المشؤوم، بدأ الضابط بسؤالي عن أسباب وكيفية وقوع الحدث، أخبرته بالتفصيل عما جرى وكيف بدأ هذا الشاب الروسي بالاعتداء عليّ وكيف أني حاولت تفادي الاحتكاك به دون فائدة، وقلت له إني لم أعتدِ على أي شخص منهم، يبدو أنه كان مُلمًا بجميع تفاصيل الحادث ولذلك حاول استغلال الموقف الذي اعتقد أنه ليس في صالحي وتهديدي قائلاً:

- أنت تعلم أنك قد ضربت هذا الشاب الذي سددت له ضربة قوة في وجهه، وكانت ضربتك قاسية وعنيفة، ولذلك يمكن أن يحصل لك مكروه أو نتائج غير جيدة.

- هو من بدأ العراك وليس أنا.

- نعم، ولكنك ضربته بقوة كبيرة وعليك تحمل نتائجها.

- كيف لي أن أتحمل نتائج ذلك، إذ أنه هو من بدأ بالعراك والتعدي عليّ، وأنا من كان في وضع الدفاع عن النفس.

- نتائج التحقيق قد تكون ليست في صالحك بالمرة، وإدانتك يمكنها أن تصل بك إلى العودة إلى بلدك.

- كيف تقول هذا وأنا من تمَّ الاعتداء عليه؟ ثم ما الذي تقوله عن احتمال إعادتي إلى بلدي، وحتى إن حصل ذلك فإن بلدي سيرسلني إلى بلد آخر لإكمال دراستي.

- لا أعرف، ولكنك أيضًا في موقع الإدانة، ولكن إن تعاونت معنا فيمكننا تسوية الوضع وإنهاء المشكلة بالكامل.

- ولكن ماذا تقصد بأن أتعاون معكم وكيف؟

سألته باستغراب بريء ظاهر...

- نعم أنت تعلم أنك آذيت هذا الشاب كثيرًا، وقد ينتج عن ضربك له إعاقة دائمة في وجهه، ولكن إن تعاونت معنا فيمكننا إرضاءه وإسكاته، وبذلك لن تحصل لك أي مشكلة.

أجبته بعزمٍ وعنف واضحين:

- ماذا تقصد بأن أتعاون معكم؟

- أنت تعلم كيف تجري الأمور، إذ يمكننا إعادتك إلى بلدك... ولكن إن تعاونت معنا فقد نستطيع مساعدتك وإلغاء جميع هذه التبعات.

- أنا لا أخاف إطلاقًا، واعلم أن دولتي هي التي تدفع نفقات دراستي وليس أحد آخر، ولكن مهلاً... هل تقصد أن أتعاون معكم بأن أكون جاسوس لديكم؟

– ليس هكذا بالتمام... ولكن أن تتعاون معنا وتزودنا ببعض المعلومات، وبهذا تتخلص من جميع المشاكل.

– ما هذا أنت! هل أنت تهددني بشكل مباشر كي أعمل معكم كجاسوس أم ماذا؟

كان الجو مشحونًا للغاية وأصبح الجو لا يُطاق، ولهذا نهضت غاضبًا حانقًا على ضابط التوجيه السياسي الروسي وأضفت قائلاً:

– سأخبر فورًا قائدي بكل ما ذكرت وما حدث.

وخرجتُ مُسرعًا نحو المسؤول العسكري للبعثة... الشخص المؤمن يكون ورعًا لا يستطيع التخاذل في مثل هذه المواقف المصيرية التي تخص الوطن، خرجت فائرًا بدمي وفورًا توجهت نحو فندق سكني حيث يقطن مسؤولي العسكري وأخبرته بكل تفاصيل محادثتي مع ضابط التوجيه السياسي الروسي وتهديده لي، لم يُهمل المسؤول العسكري الموضوع واعتبره ذا أهمية قصوى، فورًا اتصل بالسفارة العراقية في موسكو وبذلك أصبح الموضوع حدثًا دوليًا بين حكومتي العراق والاتحاد السوفيتي.

لم تمر عدة أيام حتى وصل الملحق العسكري العراقي إلى كييف قادمًا من موسكو، زارنا الملحق العسكري مع وفد رفيع من السفارة العراقية إلى الأكاديمية واجتمع بقيادة الأكاديمية، وكذلك التقى في اجتماع عام بجميع الطلاب العسكريين الدارسين وأنا من ضمنهم، وأتذكر كيف نادى عليّ بحضور الجميع وطلب مني شرح ظروف وملابسات حادث الاعتداء وكذلك محادثة ضابط التوجيه السياسي الروسي معي فأخبرته بكل التفاصيل، شكرني وأثنى عليّ وعلى سرعة رد فعلي الصحيح، وأعلمنا أن السفير العراقي قد اتصل بوزارة الخارجية العراقية التي بدورها اتصلت بالجهات الحكومية السوفيتية العليا، ليعلموهم بالقضية وبأن الحكومة العراقية ترفض مثل هذه التصرفات، كما طلب

من جميع الطلاب أن يزيدوا همتهم في الدراسة ليخرجوا بنتائج فائقة ترفع رأس العراق عاليًا.

هذه الحادثة التي كانت يمكن لها أن تُشكل منعطف خطير وتغيير جذري في مجرى حياتي بالكامل، وأن تجعل مني شخص مُختلف تمامًا، إلا أنّ ردة فعلي السريعة والحاسمة التي اتخذتها في ذلك الوقت رغم صغر سني وقلة خبرتي؛ أنقذتني من السقوط في براثن الاستخبارات ودهائها.

الشهيد

رائحة الموت تنبعث من كل مكان، نار الحرب العراقية الإيرانية تستعر بعنف ودون هوادة، لهيبها المتلوي الأحمر يعلو بقوة ليصل بسرعة خارقة إلى بيوت جميع العراقيين، يكوي أفئدتهم ينتزع حياة أحبابهم، ويملأ حياتهم سواد قاتم، شوارع بغداد تلتحف باللون الأسود، الناس في حذر وخوف رغم معنوياتهم العالية، لا أحد يحزر النتائج رغم أن البيانات العسكرية تفيد بانتصارات باهرة على العدو الإيراني، اليوم قصفنا العديد من المدن وأمس استطعنا تحرير تلك المناطق الحدودية، العدو تكبد خسائر فادحة بالآليات والأشخاص، الله معنا والنصر لنا وإننا لغالبون.

طائراتنا تحلق مُسرعة نحو أهدافها في أجواء إيران لترسل حممها السوداء القاتلة، القِطع العسكرية البرية تلتحم بشراسة ودون رحمة مع قطعات العدو وتسحقها، هيليكوبترات بحريتنا الباسلة من نوع سوبر فريليون فرنسية الصنع، والتي تحمل صواريخ اكسوسيت فرنسية الصنع الموجهة، تُغرق السفن والبواخر الإيرانية مُرسلة إياها في قاع الخليج العربي، اقتصاد البلدين على قوتهما في انهيار مستمر في ظلّ تدهور أسعار النفط العالمية، أعداد القتلى يتزايد بشكل رهيب، الجرحى ذوي الإصابات الخفيفة والمتوسطة يتم نقلهم إلى المشافي الميدانية، أما المصابون بإصابات بالغة فيرسلون إلى مشافي المدن الكبرى...

الأسرى لا يعرف مصيرهم؛ فالطرفان يتستران على إعلان أعدادهم، أما الشهداء فيرسلون إلى أهاليهم يلفهم العلم العراقي بألوانه الثلاثة، الأسود الذي يمثل الموت الذي يلف حياة العراقيين والأحمر ويعني جريان الدم العراقي المستمر، أما الأبيض المسكين فيكاد يكون ليس له أي محل بينهما.

الكل في دوامة الحرب الطاحنة والقتال وتحت رحمة الإعلام الكاذب، العراق يدعي أنه أسقط مئات الطائرات الإيرانية، والتي اتضح أنها ليست طائرات بل كانت خزانات وقود إضافية يرميها الطيار بإرادته حين يفرغ وقودها كي يجعل طائرته أكثر مرونة ورشاقة، إيران تدعي الشيء ذاته، والناس بين دوامتي الكذب الإعلامي، الشيء الأكيد من الحقيقة والذي يظهر كنور الشمس الساطعة هو ازدياد أعداد توابيت القتلى، التي تحملها طوابير سيارات الأجرة التي تنقلهم إلى ذويهم، وكذلك اللافتات السوداء التي غطت جدران مناطق وحارات المدن العراقية وأصبحت اللون المُمَيز لها.

ماكينة الحرب تدور على مدار الساعة، الحرب تشتد والجميع في ترقب وحذر وخوف دائم من الآتي، مرت أشهر على بداية الحرب وأنا لا أزال أعمل في قاعدة الشعيبة الجوية في البصرة، الجيش العراقي يبذل جهود استثنائية للحفاظ على إبقاء سيطرته على الموقف، أو على الأقل الحفاظ على توازن قوى مقبول، في حين يرسل الجانب الإيراني موجات بشرية هائلة غير مدربة، يزودهم بمفاتيح الجنة مع خرق قماش ملونة يضعونها على جباههم ويوجهونهم نحو الجبهات الممتلئة بحقول الألغام المختلفة، يسيرون دون خوف، تتتفجر الألغام بأجساد الفتية مُحيلة إياها إلى شظايا وأجزاء غير مرئية.

ينقص عدد المهاجمين ولكنهم يستمرون بالتقدم، الغربان السوداء فرحة جدًا ستحصل على وجبة طعام بشرية طازجة شهية، أصوات انفجارات الألغام تصم الأذان، أشلاء البشر تنتشر دون ترتيب، ما زالوا يتقدمون تتفجر بهم ألغام أخرى، يتضائل العدد أكثر ولكنهم أكثر إصرارًا على المُضي قدمًا، المهم عندهم أن يسيروا إلى الأمام ولا شيء يوقفهم، يقطعون مسافة غير طويلة بعد سقوط المئات أو الآلاف منهم، العدد لا يهم بل المهم أن يصلوا إلى حدود القِطع العراقية، تصلهم تعزيزات إضافية لابد من اقتحام المواقع العراقية.

المدفعية العراقية ترسل هداياها القاتلة إلى الإيرانيين؛ فتزيد سرعة انتحارهم أصواتها رهيبة، ما زالوا يتقدمون ويصلون إلى مسافة ليست ببعيدة عن جنود الجيش العراقي ولا يعلمون أن قدرهم قد رُسمَ مسبقًا، فتبدأ براميل المتفجرات التي كانت قد زرعت للقائهم بالانفجار وحرق الكثير منهم، الموجات البشرية الهائلة تنهار وتنتهي، ولم يتبقَ سوى عدد محدود من المهاجمين الإيرانيين المحظوظين الواصلين إلى الساتر الأول، حينها تنهال عليهم بنادق ورشاشات الجنود العراقيين لتسحقهم بالكامل...

تتكوم جثث الإيرانيين الراغبين بزيارة سريعة إلى الجنة بعض فوق بعض، محدثة رُكام بشري هائل، إنها مجزرة بشرية هائلة، لقد خطط القادة الإيرانيون أن يفتحوا مسالك صالحة للعبور في حقول الألغام ولكن بأجساد هؤلاء المتطوعين، البعض القليل ممن بقي حيًا إثر نفاذ ذخيرة القِطع العراقية يخترق خط الجبهة وينفذ إلى داخلها.

ليلاً وتحت ستار الليل الحالك تتداخل أحياناً القِطع العراقية والإيرانية دون قتال لشدة إجهادهم، بحيث يكاد الجنود يسمعون أصوات غرمائهم بوضوح دون أن يتعرض أحدهما للآخر، وكأن هدنة حرب غير معلنة قد حصلت دون اتفاق.

حدثني قبل أيام صديق عراقي يقطن في الدنمارك يدعى علي أبا سيف يعمل ميكانيكي لتصليح السيارات؛ كيف عاش وعايش أحداثًا مرعبة وأهوالاً لا تُصدَّق أيام الحرب العراقية الإيرانية، كان علي شابًّا بعمر الزهور، متوسط الطول، جميل الطلعة، أسمر البشرة وذا سَحنة بصْرية مُحبَّبة، قد انخرط في الجيش كجندي مكلف، سرعان ما تمَّ ترشيحه إلى صنف (المغاوير)، وهذه قوات تعتبر خاصة في تدريبها والمهمات الصعبة التي تُناط بها، لم يُنهِ علي دورته حتى تمَّ الزج به في آتون المعارك، وبالتحديد على الساتر الأمامي وعلى بعد أمتار من القِطع الإيرانية.

التحق علي بوحدته العسكرية فورًا بُعيد هجوم اليوم العظيم في جزيرة أم الرصاص عام ١٩٨٥، حين تسلل عدد كبير من الضفادع البشرية الإيرانية ليلاً تجاه القِطع العراقية التي كانت مُنهكة جدًا، ولم يتسنَ لها معرفة قدوم الإيرانيين، تداخل الطرفان في قتال ملحمي قريب بكافة أنواع الأسلحة، حتى وصل العراك بالأيدي والأسنان وحصد الكثير من أرواح العسكريين من الطرفين، حتى تكونت أكوام من جُثث الإيرانيين والعراقيين على حد السواء.

لم يسع القوات العراقية من دفن جثث الإيرانيين كما اعتادوا دومًا، أو نقل جثث العراقيين إلى الوحدات الخلفية كي يتم إرسالهم بتوابيت ملفوفين بالعلم العراقي إلى ذويهم، كان على "علي" ورفاقه أن يعملو ليل نهار في شتاء قاسي البرودة، إذ كانوا يحفرون ملاجئ نهارًا ويسعون لإقامة السواتر الترابية أمام القِطع العراقية، وفي الليل يمسكون خفارة كي يرصدوا حركات العدو، وهكذا لم يَسع لعلي ورفاقه النوم على مدار الساعة.

كان علي وزملائه يعملون يأكلون يحفرون مواضع يمسكون واجبات الرصد وهم بين جثث القتلى التي تعفنت وأخذت تطلق روائح كريهة تزكم الأنوف، لقد أحدثت هذه الروائح لعلي وبعض رفاقه حساسية في الجهاز التنفسي مع سيلان الدموع في أعينهم، يسرد علي قصته الحزينة لي ويقول:

- لقد كانت رائحة جثث القتلى لا تطاق، كما أن منظر وحركة الدود الذي تكون داخل الجثث وتراكمت على أسطحها أخذ يثير الرعب والاشمئزاز في نفوسنا، بعد خمسة أيام فقط بدأت عملية نقل جثث العراقيين ودفن جثث الإيرانيين.

كما يحدثني علي عن موقف مماثل حصل له لاحقًا بعد أن تمَّ التخلص من جميع الجثث، كان علي يحتل برج مراقبة لغرض رصد حركات العدو، إلا أنه والآخرون استمروا يشمون روائح كريهة ولا يعلمون سرها، إذ أنهم لم يلحظوا أي شيء يبعث إلى ذلك، كان برج المراقبة قد قُصف سابقًا مما أدَّى إلى

انحرافه وسقوطه، لكن علي ورفاقه استمروا في اعتلائه والتواجد فيه لأغراض رصد حركة العدو، استمر الحال ولا أحد يعلم ماهية هذه الرائحة، حتى قاموا بإزاحة هذا البرج فوجدوا أسفله جثة مقاتل عراقي كان البرج قد سقط عليه ونُسي أمرهُ حتى تعفنت وتهرأت جثته دون علم أحد.

اصطدموا بمشكلة كبيرة حين أرادوا إخلاء ونقل الجثة، عندما حاولوا سحبها من اليد بُترت اليد لأنها كانت متفسخة للغاية، وكذلك حصل عندما سحبوا رجل القتيل حيث انفصلت بأيديهم، ورغم أكوام الدود والرائحة الكريهة القاتلة إلا أنهم استطاعوا أخيرًا إخلاء الجثة بطريقة لفها ببطانية ونقلها إلى الوحدات الخلفية، يقول علي إنه كان مصدوم في أعماقه للغاية إذ أنه لأول مرة في حياته يرى جثة شخص ميت وبهذه الطريقة المرعبة والشكل الكريه.

نحن في القاعدة الجوية في البصرة نبذل جهود جبارة، نعمل ليل نهار كي نرفع صلاحية الطائرات إلى أقصاها، والتي لا تبخل بغارات القتل المستمرة سواء على القِطع العسكرية الإيرانية المرابطة على خطوط الأمامية لجبهات القتال أو على المدن والمنشآت الإيرانية الأخرى، إن وضعنا وظروف عملنا في القواعد الجوية بالمقارنة مع وضع وظروف قتال المشاة العسكريين على خطوط الجبهات الأمامية كانت لا تقارن وأرحم بكثير، إذ أن عملنا رغم حساسيته وتأثيره الكبير كان يعتبر أقصى درجات الرفاهية التي ما بعدها رفاهية بالنسبة لهم.

أزور بغداد في إجازاتي حين يسمح الموقف القتالي في وحدتي العسكرية بذلك، وكعادتي لابد أن أعرج على خان شاه بندر وشارع النهر للمتعة والتسلية وزيارة الأصدقاء الذين تربطني بهم صلات قُربى، نجلس نحتسي الشاي المطَّعم بالهيل، نتحدث عن حال الدنيا وأمور الحرب وأيام السلام الرائعة، ننتبه للمذياع باهتمام حين يخرج علينا الناطق الرسمي للقيادة العامة للقوات المسلحة العراقية بإعلان بيان مهم حول تنفيذ غارة جوية ما، أو هجوم بري جديد، أو إغراق

هدف بحري كبير، يزداد عدد قتلى العدو كما تزداد عدد اللافتات السوداء في بغداد وباقي المحافظات، نُمني أنفسنا في سِرنا بنهاية قريبة للحرب، لكن ليس في أيدينا أية حيلة سوى طاعة القدر.

دخلت متجر صديقي (ح.هـ) ألقيت تحيتي، فتاة شابة تتشح بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها تجلس منزوية، قبّلتُ صديقي ثلاث مرات وحصلت منه على ثلاث قُبلات دون كلام، أومأت برأسي باحترام بالغ لزائرته السوداء التي تظهر وكأنها جاءت توًا من مقبرة، إنها شابة في العشرينيات من عمرها، بيضاء البشرة دائرية الوجه جميلة من غير مكياج، جمالها رباني دون تزييف، خدودها ريانة وفمها دقيق ممتلئ لكن الحزن يركبها تمامًا ولا يدعها تبتسم إطلاقًا، وكأن الحياة قد غادرتها منذ زمن طويل، اتخذت جلستي قربها، المكان لا يتسع، الجو حار، جهاز التكييف يجاهد كي يخفض درجة الحرارة، الجو ممتلئ بالحزن والكآبة.

- الحمد على سلامتك...

قالها صديقي وأطلق زخات من الأسئلة السريعة التي أجبت على بعض منها ثم أردف قائلاً:

- هذه أخت الشهيد...

وأشار بيده إلى الفتاة المتشحة بالسواد وأضاف:

- لقد استشهد شقيقها قبل أيام في جبهات الشرف والقتال، لقد جلبوه موشحًا بالعلم العراقي بعد أن قاتل الأعداء قتال الأبطال.

ثم لوي رقبته وضرب كفه بالآخر أسفًا وحسرة عليه.

تارة أنتبه وأركز على ما يقول (ح.هـ)، وأخرى بطرف عيني أسترق النظر نحو الفتاة الحزينة التي طأطأت رأسها إلى صدرها، كسعف نخيل وسط عاصفة

ترتعش شفتاها دون نظام، نظرات عينيها باردة جامدة وكأنها فقدت عقلها، لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا، ولكني قلت لها:
– البقاء في حياتك، شقيقك لم يمت بل استشهد دفاعًا عن الوطن الغالي، هو حي وروحه ترفرف فوق رؤوسنا، أرجو من الله له الرحمة والغفران، وأن يسكنه فسيح جنانه.

لم تدعني أكمل حتى أجهشت بنوبة هستيرية شديدة من البكاء الساخن، أخذت تبكي بحرقة وتنوح بألم يكاد يقطع نياط القلب، صوتها عذب وجميل رغم مسحة الحزن الظاهرة عليه، دموعها الصافية تنزل ساخنة على خدودها البيضاء صانعة سواقي متلألئة تستقر بعناد على حنكها الناعم الدقيق، يديها البيضاويتان الناعمتان الممتلئتان باردة تهتز من شدة تأثرها، انهارت كليًا، يا إلهي رحماك لقد جئت إلى هنا كي أنسى الحرب ومآسيها وأزيل عن نفسي آثارها وكاهلها، أبتعد عن أزيز محركات الطائرات ورائحة القنابل والقصف، لكن وجدت نفسي كأني في مقبرة حية وآتون حرب نفسية من نوع آخر أشد وطأة وأكثر مرارة.

قلبي يتمزق، أعصابي تنهار، الدموع تترقرق في حدقاتي وقد اتخذت وضعية الاستعداد كي تنطلق من محاجر عيوني ولكني أمسك بها وبنفسي، وقبل أن أنهار؛ أدرت رأسي، متصنعًا القوة والتماسك، تحجرت عيناي تجاه عيناها وقلت لها بصوتٍ حازم:
– أراكِ تبكين وتندبين حظك وتتشحين بالسواد من قمة رأسك حتى أخمص قدميك، شقيقك استشهد دفاعًا عنك وعنا وعن كل العراقيين ولم يمت، إن روحه ترفرف كملاك فوق رؤوسنا وستبقى خالدة إلى الأبد، ما هذا الذي تفعلينه بحق السماء... إنك شقيقة الشهيد وعليك أن تفخري به وبشهادته، إنه أكرمكم وأكرمنا بعمله هذا، فلا تبكي ولا ترتدي السواد عليه، عليك أن تفرحي وتفتخري وترتدي البياض كونك حصلت على أرفع لقب وهو شقيقة الشهيد.

نعم هذا ما قلته لها ساعتها، أردت أن أصدمها، أن أرفعها إلى السماء وأنزلها دفعة واحدة، رغبت أن أشعرها أن ما فعله شقيقها لم ولا ولن يذهب هدر، أردت أن أكسر حاجز الحزن في روحها، وأضفت قائلاً:

- أنا أمامك أمثل مشروع شهيد حَي، أعمل ضابط في الجيش في القوة الجوية وأخدم حاليًا في البصرة، أقاتل كما قاتل شقيقك الشهيد البطل ولا أهاب إن حان قدري، نحن جميعًا نفتدي وطننا بأرواحنا ولن ندع المحتل يدنس حبة رمل واحدة غالية منه، ادعي لروح شقيقك بالرحمة والخلود، واسعدي بشهادته وافتخري كونه ضحى بأغلى شيء وهو حياته من أجلنا، ومن أجل أن نعيش بكرامة نمشي على الأرض ورؤوسنا مرفوعة إلى السماء.

الفاتنة الجميلة المسكينة تصدمها كلماتي تربكها تشتت أفكارها، حديثي الصريح الذي خرج من القلب اتجه مباشرة إلى قلبها الكسير، قلَب كيانها وأحدث هدوء نسبي فيه، تتوقف دموعها التي انسابت كمياه نهر الفرات وقت فيضانه غزيرة على خديها المتوردين، برزانة الملائكة أخرجت من حقيبتها منديل أبيض كبياض قلبها المكلوم تظهر عليه رسوم زهور جميلة وردية اللون، بوقار الأميرات ترفع بيدها البضة الممتلئة البيضاء منديلها الذي بدا رطبًا تمامًا، تمسح أسفل عينيها بعناية ثم تجفف عيونها التعبة الناعسة التي ما زالت جميلة تشع إثارة وصفاء، تستقر أكثر، بعد أن كنت أسمع نشيجها الذي يمزق الشغاف وينفذ ليسحق قلب أي كائن حي أخذت تتماسك، تحاول لملمة أجزائها، تناضل في استجماع ما تبقى من قواها وتطلق كلمة شكرًا، اختزلت هذه الكلمة التي خرجت من فمها كل أحاسيس الامتنان والعرفان وسحقتها في حروفها الأربع وتضيف:

- نعم لقد كان عز الرجال شاب طموح متفتح في مقتبل العمر، لم يرَ الحياة بعد، شهم شجاع مقدام كريم النفس جميل الطلعة وقور السلوك يغرق في حبه لوطنه العراق، متعلم يجيد التعامل مع الكبير كما الصغير على حد السواء،

كعصفور جميل له قلب حنون، لا تفارق الابتسامة شفتاه، لسانه لا يُسقط إلا الكلمات الحلوة المذاق على مسامع الآخرين... لماذا يا ربي تأخذه مني وهو سندي الوحيد!! لماذا اخترته بالذات من بين هذه الملايين يا إلهي!!

لقد جاءت سيارة أجرة تحمل تابوت ملفوف بالعلم العراقي، وتوقفت على أعتاب بوابة بيتنا، فيه ترقد جثة أخي الغالي الذي قتل في إحدى جبهات القتال، توقفت السيارة أنزلوا التابوت بهدوء ثم غادرونا تاركين إيانا في ذهول وجحيم، لقد أحالوا نهارنا إلى ليل حالك السواد، فُجعنا وتحولت في هذه اللحظة حياتنا إلى كابوس خانق.

لقد كظمتُ بكائي في بداية الأمر رغم شدة الألم، بقيت صامتة من شدة الصدمة ثم هَدّ الحزن الثقيل سدود صبري فانفجرت بالبكاء لم أستطع المقاومة وسقطت بعد أن غِبتُ عن هذا الدنيا ومآسيها، مرضت لفترة طويلة، لم أعد أطيق الحياة، إذ لم يبقَ فيها أي طعم لذيذ أو لون براق، لقد فقدت حافز استمرارها ولهذا سقطت في مستنقع الكآبة والحزن الشديد، لقد حكمت الدنيا عليّ بحكمها وها أنا أنفذ مع أحزاني صاغرة...

إني أحتاجه جدًا، إنه نور حياتي الذي به أرى الدنيا... لا أكاد أصدق أني لن أستطيع أن أراه أو ألمسه أو أقبله، آه يا إلهي ما هي حكمتك في هذا! لن أستطيع مداعبة شعره أو أن أشاغبه، لن أحصل على دفء قلبه، من أين آتي بطاقة تحمل أكبر! لقد رحل... كان يساعدني في كل جوانب حياتي، ينصت جيدًا حين أحدثه عن مشاكلي وأمور حياتي، يحاورني ينصحني يمنحني طاقة إضافية، يعطيني أفكار مبتكرة لا أقدر أن أراها وأنا في لُجَّة غضبي وارتباكي، يحل طلاسم وأسرار حياتي بسهولة ويسر، ويضع بين يدي حلول عملية مرئية وقابلة للتنفيذ، شيء ما ينقصني وشقيقي الذي يكملني هكذا كان وهكذا كنا صنوان لا يفترقان صديقان، وها قد رحل ورحلت معه كل أحلامي... لم أعد أراه... يا رب ارحمنا واغفر لي...

أجهشت بالبكاء ثانية وبدأ طوفان دموعها بدمعات ساخنة، دقات قلبها تزداد بعنف تكاد تنتزعه من مكانه، أعصابها مشدودة للنهاية ولا تستطيع أن تتمالك دموعها تنساب أكثر فأكثر.....

ثم تضيف:

- يا لها من دنيا! إنها دار فناء، إن إحساس فقدان العزيز يجعل المرء يحلق على أجنحة الماضي وذكرياته السعيدة، وفي لحظة يسقطه بسرعة إلى وادي الواقع السحيق، لكل إنسان طاقة تتطور أو تتلاشى، وأنا مشاعري تختفي.

أسند صديقي رأسه على يده التي استقرت على حافة منضدته العتيقة، أصابعه القصيرة الممتلئة تغوص في ثنايا خده المكتنز، يريد قول شيء ويعدل عنه، بأسى كبير أمال رأسه إلى صدره وأمسك عن الكلام، لكنه لم يستطع فعاد وقال:

- ياعزيزتي لا تيأسي من رحمة الله وتحلي بالصبر، فهو كالدواء رغم طعمه المر لكنه خير دواء.

- لقد كان شقيقي مائي في عطشي وروحي في جسدي ولم يعد، وهذا ما يفوق طاقة تحملي لقد رحل، نعم رحل... اشتقت لأخي كي أضمه وأستلهم منه طاقة تعينني كي أرى الناس والعالم بها، حزني عميق على فقدانه، عالم كاذب ومزيف، لا شيء يجذبني إليه بعد... حياتي مسرحية قصيرة فصولها حزينة انتهت وأسدلت الستارة.

بعد سماعي كلماتها الساخنة التي اخترقت كل الآفاق لم أستطع التحكم في أعصابي، التي قررت أن تشاركها مهرجان الحزن والبكاء هذا، كسر القلوب يُحدث الكثير من الألم الصامت، في عيوني تكورت دون وعي كرات من دموع ساخنة ثم انزلقت بهدوء على خدي، لم أرغب أن تراني فيزداد حزنها، بسرعة كبيرة مسحت بيدي دموعي واتخذت هيئة جدية صارمة كما لو كنت أبغي إصدار أوامر عسكرية مهمة لأحد أعواني وقلت:

- اسمعي عزيزتي؛ هذه مشيئة الله، ولا راد لها، وهذا قدر شقيقك الذي كُتب على جبينه منذ ولادته، فأرجو أن تتحلي بالصبر والفخر، ونحن العراقيون كلنا مشاريع شهادة في سبيل وطننا الغالي، كما لا بد أن أعتذر منكِ، قد تكون كلماتي قاسية بعض الشيء لذا أرجو أن تسامحيني...

كالبسلم سقطت كلماتي على جروح روحها وأحدثت أثرًا طيبًا في نفسها، استقرت في جلستها وأطلقت نظرة حية حنونة كأنها تحاكي روح الشهيد شقيقها وتمتزج به، انتظرت قليلاً، تردد صوتها في حنجرتها وجهها الأبيض صار أكثر نضارة كأنه يشع نور، أنفها الدقيق أصبح أحمر قاني، خدودها الوردية فاح عطرها، باسترخاء أمسكت أطراف معطفها بيديها اللتان انتعشت الحياة فيهما، ابتسمت عيونها قبل شفاهها، أحيانًا يضحك المرء من شدة الألم... وقالت:

- استودعكما الله وأعتذر عما بدر مني إذ أحلت يومكما إلى مأتم عزاء، اعذراني لقد قاسمتكما حزني فخففتم عني نصفه أو أكثر وارتحت قليلاً... أشكركما من كل قلبي الجريح وأتمنى لكما الصحة والأمان، وأتمنى ألا ترى قلوبكما ما رأى قلبي.

نهضت، لم تضم معطفها الفاحم بقوة بل تركته ينساب بهدوء يبيح للناظر رؤية صدرها الرقيق الأبيض النافر، ورقبتها الشفافة الناعمة، وصولاً إلى وجهها المستدير المملوء بالجمال رغم تعاستها.

- لا تجعلي الألم ينسيك طعم السعادة... لا تجعلي قسوة الدنيا تنسيك الإنسان الذي في داخلكِ... احذري من الحزن فهو قاتل أكثر من الموت نفسه...

هذا ما أردت القول لها وهي تهم الخروج من عتبة باب المحل...

- شكرًا لكما وثوابكما لن يضيع هباء.

قالتها ومضت... خلفت عطرها وغادرت الفتاة الموشحة بالسواد المتجر وشعرها طائر خلفها مثل جناح طائر حزين، رحلت بعد أن تركت نور روحها المُعذبة يسطع فيه، الصمت الرهيب يلفنا، ينظر أحدنا للآخر بعيون باردة يكاد اللون الأحمر يغطيهما، مرت دقائق قليلة ثم قلنا سويًا فلتذهب هذه الحرب إلى الجحيم ولنخرج من حالة الكآبة والحزن التي لفتنا هذا اليوم دون إرادتنا بعباءتها السوداء، لنحتفل بالحياة ما دامت قلوبنا تنبض بالحياة، ولنختم يومنا المتعب بسهرة جميلة في نادي التعارف.

بعد ساعتين أغلق صديقي أبواب متجره الصغير، ركبنا سيارته برتقالية اللون نوع فولفو السويدية الصنع، وطلب مني أن أتربع خلف المقود كوني ضابط وأتمتع بالحصانة من محاسبة الشرطة، إذ أن رقم لوحتها كان لا يسمح لها في السير ذلك اليوم بعد تطبيق قانون المرور الجديد، الذي يسمح لسير السيارات بين يوم وآخر حسب أرقام لوحاتها الزوجية والفردية، توفيرًا للوقود في بلد يعوم على بحيرة من النفط.

انطلقت الفولفو بنا لا تلوي على شيء نحو نادي التعارف الاجتماعي، جلسنا قرب منصة الفرقة الموسيقية، تهافت العمال المصريين الظرفاء لتقديم خدمتهم الرائعة، جلبوا لنا كل ما حوى مطبخهم العامر من طيبات ومازات وكرزات، تناولنا وجبة عشاء من المشويات اللذيذة وشربنا العرق العراقي الذي أنسانا كل هموم الدنيا دفعة واحدة ولم نعد نذكر ما دار عصر اليوم.

خمس وثلاثون سنة مرت على هذا الحدث الأليم، وها أنا أتذكر تفاصيله، أسرده بحيادية مطلقة وأسأل نفسي هل كان تصرفي صحيحًا مع هذه الفتاة التي ظلمتها وفجعتها الدنيا بفقدانها شقيقها في الحرب؟ هل كان موقفي مبالغ به؟ وهل كان بالأساس ضروري أن أصدمها رغم قساوة الزمن عليها؟ هل ساعدتها كلماتي كما أظهرت هي لنا ذلك آنذاك؟ أم أن كلماتي آذتها وكبتت المكلومة آلامها؟

كل هذه الأسئلة تدور في رأسي ولا أجد لها إجابات...

الإعدام

ربيع عام ١٩٨٦ وما زالت الحرب العراقية الإيرانية يستعر لهيبها طاحنة أجساد ونفوس واقتصاد العراقيين والإيرانيين على حد سواء، تمَّ نقلي إثر حدث درامي سوف أقصه عليكم لاحقًا؛ من قاعدة الإمام علي في الناصرية إلى قاعدة البكر الجوية لغرض قيامي بإنشاء وحدة هندسة جوية جديدة خاصة بنوع الطائرات الروسية سوخوي ٢٢، وكان النقيب المهندس (منذر حازم) مع العديد من الضباط المهندسين بمختلف الرتب العسكرية يعملون تحت إمرتي، كان هناك أيضًا العديد من الخبراء الروس الذين يقدمون يد العون والمساعدة الهندسية لنا في عملنا، وكانت علاقتي بهم جيدة جدًا كوني أجيد اللغة الروسية وأتعامل معهم باحترام كبير ولطف بالغ، كما أن النقيب (منذر حازم) ضمن اختصاصه كان أيضًا يتعامل معهم أثناء العمل.

ما أن حطَّت قدماي قاعدة البكر الجوية التي تقع شمال العاصمة بغداد؛ وعلى مقربة من مدينة الدجيل الشهيرة، حيث تمت المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس صدام حسين عام ١٩٨٢، والتي كانت السبب القانوني في إصدار الحكم في إعدامه، حتى بدأت أتفقد القاعدة وموقع وحدتي، في أحد ملاجئ الطائرات الحصينة وقع نظري على طائرة بدت متروكة مُهملة يعلوها التراب، عليها يمكن ملاحظة العديد من فتحات الصيانة التي لم تُغلق إثر رفع أجهزة أو معدات منها، بحيث أصبحت وكأنها مستودع مواد احتياطية يُستفاد منها لتصليح الطائرات الأخرى، وحين سألت الآخرين عن أمر هذه الطائرة أخبروني أنها قد تعرضت إلى حادث تخريب متعمد إثر رمي أحد الأشخاص قطعة معدنية في مدخل مُحركها، الأمر الذي أدَّى إلى تحطم المحرك بشكل كامل مع إضرار

مجرى الهواء الرئيسي المؤدي له ودخول هذا الشخص إلى السجن بانتظار الحكم عليه.

في ظلِ برودة الجو الربيعي اللطيفة كانت الشمس ساطعة سخية جدًا بدفئها وضيائها الوفير، الذي يمنح المرء طاقة لا تنضب ومزاج عمل طيب، بدأت العمل بجدية فائقة، وخلال فترة زمنية قياسية استطعت مع زملائي الضباط من إكمال وتهيئة وحدتنا الجديدة إلى العمل وفق ما مُخطط له، لكني لم أنسَ أمر هذه الطائرة التي تقبع مع ترابها في الملجأ الحصين، في انتظار قدوم لجنة هندسية مُختصة يُفترض أن تأتي من معمل التصنيع في الاتحاد السوفيتي للإقرار على صلاحيتها من عدمها.

النقيب المهندس (منذر حازم) شاب طويل القامة جميل الطلعة، أبيض اللون، ذو شعر أشقر خفيف جدًا، وأنف مستدق طويل، دمث الأخلاق، هادئ الطبع، وعلى مستوى عالٍ من التربية والثقافة والعلم، ينحدر من محافظة الموصل، تخرَّج من نفس الأكاديمية العسكرية الجوية العليا في الاتحاد السوفيتي التي تخرجت منها ولكن بعدي بأربع دفعات وأربع سنوات، عرفت النقيب (منذر حازم) الذي عمل معي بجد وإخلاص مهندس مُتفاني في عمله يستقبل وينفذ جميع التعليمات والإرشادات بتلقائية واحترام كبيرين لذا أحببته واحترمت هذا الجانب فيه.

اتخذتُ قراري بإصلاح هذه الطائرة التي مضى على وقوفها فترة طويلة، لاسيما وأني أملك الخبرات الهندسية الكافية اللازمة لذلك كوني تمرست على أعمال كثيرة مشابهة، حيث استطعت سابقًا من إصلاح طائرة أخرى كانت بقيادة الطيار المتمرس (ق.ر)، وكانت قد تضررت كثيرًا بسبب ارتطامها بقمم النخيل وتحطم جزئها الخلفي، حينها كان الطيارون العراقيون يحلقون على ارتفاعات منخفضة جدًا تفاديًا للرصد الإيراني والمقاومات الأرضية، وحصل

هذا في بداية الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨١، عندما كنت أعمل في قاعدة الوحدة الجوية في البصرة.

لقد كانت عملية إصلاح طائرة البصرة عملية معقدة ودقيقة جدًا، إلا أنه ولحاجتنا الماسة لرفع صلاحية الطائرات المقاتلة وزيادة جهوزيتها الحربية بحسب الأوامر لتنفيذ أكبر عدد من الطلعات القتالية المطلوبة وفق خطط العمليات، كان عليّ أن أتحدى نفسي والمستحيل كي أقوم بتصليحها، وبالفعل أصلحتها بعد قمت بنقل جزء خلفي لطائرة أخرى معطوبة في جزئها الأمامي بشكل كلي وكانت غير قابلة للتصليح تمامًا، بعد تصليحها حيث أخذت الطائرة تحلق وتطير بشكل عادي رغم جسامة الأضرار التي كانت قد أصابتها.

استنادًا لهذه الخبرات بدأت عملية إعادة الحياة لهذه الطائرة بعد أن اتصلت بالعميد المهندس (ج) مدير الشعبة الهندسية الأولى في قيادة القوة الجوية، وأطلعته على الأمر، وإثر الاتفاق معه حول المضي قدمًا في عملية التصليح، حيث منحني الصلاحية الكاملة لأي إجراء يفيد تحقيق هذا الهدف، اخترتُ خمسة من النواب ضباط الفنيين الجيدين ذوي الكفاءة والخبرة وجعلت ارتباطهم المباشر بي وخولتهم وحدهم دون الآخرين للعمل على هذه الطائرة، كالبناء طابوقة طابوقة أخذت أرمم هذه الطائرة، حيث جلت في العديد من مستودعات المواد الاحتياطية للطائرات الرئيسية منها والفرعية، للحصول على الأجهزة والمعدات المفقودة، كذلك أخذت بتدارس طريقة ترميم الجزء المتضرر من جسم الطائرة.

رن جرس هاتف وحدتي العسكرية، وكان على الجهة الثانية أمين سر الشعبة في قاعدة البكر الجوية، حيث وبعد إلقائه السلام طلب مني أن أزوره في مقر الشعبة الحزبية للحزب لأمر مهم، أنهى مكالمته سريعًا وجعلني أتخبط بأفكاري، لماذا يطلبني وأنا لا أعرفه ولست على أي علاقة به، على أية حال استقليت

عجلتي العسكرية واتجهت نحو الشعبة الحزبية، دخلت حيث يجلس خلف مكتبه مزهوًا بسلطته المطلقة على رقاب البشر.

بعد إجراءات السلام والمجاملات السمجة التي لا تعجبني إطلاقًا بدأ حديثه؛ وأخذ يُكيل المديح والإطراء لي دون أي مُبرر، وواصل كلامه إلى أن وصل إلى موضوع في غاية الخطورة ويخص النقيب (منذر حازم)، إذ اتهمهُ بعلاقة مع الخبراء الروس تتجاوز طبيعة العمل بما يعني وفق التفسير الطبيعي للأمور أنه قد يكون جاسوس لهم، أخبرته أن النقيب هو أحد خريجي نفس جامعتي وأني أعرفه جيدًا وهو بعيد جدًا عن هذا التصور، إذ أنه ضابط مهندس كفء ونزيه وذو أخلاق عالية، لم يأبه لي ولما قلته له، وإنما طلب مني بشكل مباشر وبصيغة آمرة أن أكتب على النقيب وسلوكه تقرير حزبي كل شهر وأرسله له، لم يكن لي أي خيار سوى الإذعان على مضض قاتل لرغبته، ودعته مُبتئس ومضيت إلى وحدتي العسكرية وأنا في صراع نفسي كبير حول كيفية التصرف إزاء هذا الموضوع وطريقة الخلاص من شره وعواقبه، مع التأكيد على حماية والدفاع عن زميلي النقيب بأي وسيلة ممكنة، عند اشتداد الشدائد أردد صلواتي التي تزيدني إيمان وقوة وتجعل نفسي أكثر أمان واستقرار.

علمت من أفراد وحدتي العسكرية أن الشخص الذي قام بالعمل التخريبي للطائرة المقاتلة من نوع سوخوي ٢٢، هو نائب ضابط يدعى (تحسين) وكان ينتمي إلى حزب الدعوة وهو يقبع في السجن ينتظر الحكم عليه من قبل المحكمة المختصة في مثل هذه الأحداث، وأعتقد وفق خبرتي الكبيرة في مثل هذه الأمور وهي محكمة الثورة.

وصل تصليح الطائرة إلى مراحله الأخيرة، حينها اتصل بي العميد (ج) من قيادة القوة الجوية وأخبرني بقدوم اللجنة الهندسية المتخصصة من معمل تصنيع هذا النوع من الطائرات من موسكو، وأنهم سوف يزورون القاعدة غدًا.

قدمت اللجنة الهندسية الروسية صحبة العميد المهندس إلى القاعدة وفورًا اتجهت معهم نحو الطائرة المتضررة وبدأوا في معاينتها، استغرقوا وقت كافي في دراستهم لأضرار الطائرة والمحرك، وبعد مناقشات مستفيضة قرروا عدم القدرة والإمكانية على إصلاحها وهذا يعني تسقيط الطائرة بالكامل وأخبروا العميد بذلك، مرت لحظات معدودة وحين كان أعضاء اللجنة يتحدثون فيما بينهم جاورت العميد هامسًا له في أذنه:

- دعهم من هذا الأمر سيدي ولا تقلق، فإني قادر على إصلاحها، وسوف أجعلها تحلق ثانية من دون استشارتهم، وقريبًا جدًا سأزف لك البشرى.

شكرني العميد بقوة بعد أن لاحت على محياه علامات الفرح والغبطة، شكرني مرة أخرى وحياني.

لم تمر أيام حتى اتصل بي ضابط أمن القاعدة؛ يطلب مني وجميع الضباط والمراتب للحضور إلى ميدان الرمي للقاعدة ولم يُعلمني السبب، اتجهت مع عدد من الضابط والمراتب إلى هناك ولم أعلم أنه ستجري مراسيم إعدام نائب ضابط تحسين.

لم أشاهد يومًا عملية إعدام أو قتل لأي شخص في حياتي، ولم أستطع تصور ما يحدث خلالها، وفجأة أجد نفسي مرغم دون علم مسبق بهذا الموضوع الذي تتقزز منه أي نفس بشرية سوية، لحظات حتى تمَّ جلب نائب ضابط تحسين مكبل بالأصفاد يمسكه ويكاد يحمله اثنان من الحرس، وتوقفوا به عند عمود خشبي طويل، عيناه كعينا قط مُرتعب في زاوية، زائغتان تتجهان يمينًا وشمالاً دون أن تبصرا شيء، الرعب يملأ وجهه المُكفهر، يرتعش خوفًا ويتصبب عرقًا يحاول تحسين أن يفهم ما يدور له دون وعي، قيدوه على العمود الخشبي، كان خائفًا حد الموت يرتجف ولا يقوى على السير أو التحدث، أصدر أحد الضباط أمر عسكري لعدد بحدود عشرة من أفراد الانضباط العسكري، فساروا برتل عسكري نظامي وتوقفوا قبالة عمود الإعدام على بعد حوالي عشرة أمتار

عنه، يفصل بين أحدهم والآخر حوالي مسافة متر ونصف، وضعوا قطعة قماش سوداء على وجهه.

كيف الهروب من هذا الموقف الرهيب، وكأن المرء يُخير بين الذهاب إلى جهنم أو النار، كيف أخرج من كل هذا سالمًا، على أن يخرج النقيب (منذر حازم) أيضًا، قررت أن أجازف وأتحدى الخوف في نفسي وأن أخبر النقيب بالأمر على طريقتي الخاصة، وآمل أن يأخذ الله بيدي كعادته نحو النجاة، على المرء توخي الحذر الشديد، إذ لا مزاح في مثل هذه الأمور.

ناديت على النقيب وطلبت منه مرافقتي خارج مقر وحدتي العسكرية، وحين كُنا في طريقنا باتجاه الملجأ الكونكريتي للطائرة المتضررة؛ أخبرته بالأمر بشكل كامل، وخطورته عليه وعليَّ أن أُشهره للآخرين، وطلبتُ منه الحذر الكامل في التعامل مع الخبراء الروس وأن يكون بالحد الأدنى، ويُفضل عدم التماس مع الخبراء الروس إلا بحضور أشخاصٍ آخرين، أكدت عليه أني أقوم بهذا العمل الخطر من أجل إنقاذ حياته، فعليه ألا يخذلني بذلك أو يجعلني وقودًا لهذه المحرقة، فوعدني بذلك، لقد كان إنسانًا رائعًا ويستحق المجازفة.

عادت اللجنة الهندسية الروسية إلى موطنها، واستمريت مع مجموعتي الخمس بإصلاح الطائرة، حتى قمت بتشغيلها وفحصها على الأرض بشكل كامل ومكثف ولعدة مرات، لحين تأكدت تمامًا من صلاحيتها، حينها طلبت من أحد الطيارين المتمرسين لغرض فحصها في الجو.

صباح يوم صيفي مشمس رائع؛ حينها كنت مريضًا ولم تسعفني صحتي التواجد في وحدتي العسكرية، حلق الطيار بطائرتي المُدللة التي عملت عليها أكثر من خمسة أشهر، ودون أي تدخل من أي ضابط أو مهندس آخر، إذ لم يجرؤ أي شخص على مد إصبع واحد من أصابعه عليها خوفًا من نتائج سلبية، دار بها الطيار وأجرى جميع حركات الفحص الجوي، وهبط ولم يدون أية ملاحظات

غير طبيعية حول عمل الطائرة ومحركها النفاث، وبهذا أصبحت الطائرة صالحة للطيران والقتال، بعد أن تركت لعدة سنين في ملجأها.

لم تكن فرحتي عادية حين علمت أن الطائرة قد اجتازت الفحص الجوي بنجاح بالغ، وذلك كوني بت أرى بعيني نتائج عملي؛ شقائي وتعبي، سلمنا الطائرة إلى السرب القتالي التابعة له وبهذا أصبحت تُشكل وحدة قتالية إضافية جديدة أضيفت إلى أخواتها من الطائرات الصالحة في السرب، وبدأت رحلتها من جديد في العمليات القتالية الجوية في الحرب الضروس الدائرة.

ما أن عدت في اليوم التالي إلى وحدتي إثر تحسن صحتي؛ حتى أعددتُ تقرير هندسي كامل ومفصل بجميع العمليات التي أجريتها على الطائرة، ونتائج الفحوصات الأرضية والجوية، وأرسلته بفرح غامر إلى قيادة القوة الجوية، وتحديدًا إلى العميد المهندس (ج).

أصدر الضابط المسؤول على عملية إعدام نائب ضابط تحسين للأصنام العشرة أمر عسكري بالرمي عشرة طلقات أو رصاصات لكل منهم حين جوزيته لذلك، وبدأ مهرجان القتل الرهيب الدامي، كان تحسين يتلقى الرصاصات المائة من كل صوب وحدب، وإثر كل طلقة تظهر آثار حمراء على بدلته العسكرية ذات اللون الكاكي، كان يتلوى من شدة الألم دون أن يستطيع عمل شيء ويترنح من العذاب، بعد أن انتهوا منه أصبح كتلة لحمية مملوءة بثقوب تغطيها بقع حمراء مُستلقية جانبًا على الأرض ومعلقة من أيديها وتتكئ على العمود، مضى جزء من لحظة حتى فترت همته وانسحقت مقاومته بالكامل وهدأ نسبيًا.

كنت ارتعد من هول المشهد، شعرت أني على وشك الانهيار اشمئزازًا، والانفجار غيظًا، جاء الطبيب فحصه فوجد أنه لا تزال روحه تسكن جسده الممزق، فأشار إلى الضباط المسؤول فقام بدوره بسحب مسدسه واضعًا إياه على صدغ تحسين وأطلق النار عليه مرتين، فأحدث جسم تحسين هزة قوية ورجفة واحدة، ارتفع قليلاً وهبط، ثم سكنت إلى الأبد روح تحسين الذي لم يكن

يعلم أني بذلت جهودًا جبارة لمدة أكثر من خمسة أشهر كي أصلح ما أحدثته يداه في ثواني معدودات، حين رمى قطعة حديدة ثقيلة خاصة بسد فوهة القنابل في المجرى الهوائي للمحرك أثناء دوارنه، فتسببَ في تدمير المحرك بالكامل وأحدث أضرار كبيرة في جسم الطائرة.

نسيت كل شيء ووقفت مندهش مصدوم من شدة المفاجأة وهول الحدث، كان يمكن للمرء أن يفقد عقله، لقد كان الأمر مؤلم جدًا رغم صمته الرهيب، على المكان سيطر الرعب والخوف وعم الصمت والسكون المطبق على الجميع، كأنما حط على رأسهم الطير، بعدها انصرف الحشد المصدوم منكسي الرأس إلى حال سبيله، وانتهى الموضوع وكأن شيء لم يحصل.

على مَضض وتحت الإكراه كتبت أول وأخر تقرير حزبي لي في حياتي حول النقيب (منذر حازم)، حيث أطريت فيه على سلوكه، ذكرت فيه عدم ملاحظتي لأي شيء غير طبيعي في علاقته مع الخبراء الروس، كنت أكتبُ وأضحك في سري، إذ كنت أنا شخصيًا على علاقة عملية رائعة وإنسانية ودية كبيرة جدًا مع زملائي الخبراء الروس جميعًا، حيث كنت أساعدهم في كل شيء تقريبًا وهم يردون لي بالمثل، ولطالما جلبوا لي مواد غذائية وحلويات وبذور زهور التوليب النادرة الجميلة وعلب سمك السردين بعد أن يأخذوا حقها، أرسلت التقرير الحزبي إلى أمين سر الشعبة، ولم أرسل لاحقًا أي شيء آخر له، ولم يطالبني هو بغيره أبدًا، وبذلك انتهت قصة كانت يمكن أن تنتهي بمأساة تحصد روح إنسان طيب ومهندس كفء وضابط رائع.

يوم مشمس رائع ونهار رائق، جلستُ في مكتبي المُبرد أثناء حر شهر أيلول اللاهب، كنت في مزاج طيب أقلب أوراق بريد وحدتي العسكرية اليومي، وأطلع على الكتب الرسمية الواردة لنا من مُختلف الجهات، وتحديدًا قيادة القوة الجوية، لفت انتباهي إلى كتاب شكر وتقدير صادر من مديرية الهندسة الجوية وبتوقيع العميد المهندس (ج) شخصيًا وموجه إلى العديد من الضباط والمراتب،

لا يشير الكتاب ومُرسله لا من قريب أو بعيد إلى اسمي أو أسماء مجموعتي الخمسة، ولم أفقه أسباب إصدار هذا الشكر لهم حتى قرأت رقم الطائرة المقاتلة، وإذا بها نفس الطائرة التي قمت أنا مع مجموعتي بالعمل عليها لمدة أكثر من خمسة شهور وتحملت كامل مسؤولية تصليحها وطيرانها لغاية اللحظة، صُدمت بشدة حين علمت أن هذا الشكر قد صدر لهم غدرًا، كون علاقتي بقائد الجناح الهندسي للقاعدة وهو العميد المهندس التكريتي (ي) لم تكن على ما يرام، وبهذا كتب أسماء جميع ضباط الوحدة الذين لم يكن لهم أي علاقة بعملية تصليح الطائرة إطلاقًا دون اسمي، امتعضتُ بقوة وهزني الموقف بعنف في أعماقي وقررت إجراء رد فعل مناسب لذلك.

أنا على تمام اليقين أنهم أرادوا أن يكون تحسين عِبرة للآخرين كي لا تنهار منظومة الإحساس بالرعب والخوف عند الآخرين ولقد نجحوا بذلك، بعد مهرجان الإعدام ودون أن انتظر أن يقوموا برفع الجثة؛ عدت إلى وحدتي مسحوق مُحطم الجناح، تكاد آلام معدتي تقطعني أوصالاً وتنتقل إلى جانبي ظهري إلى كليتي، اللتان بدورهما يشاركان معدتي مهرجان الوهن والجنون، ندبتُ حظي ولعنتُ اللحظة التي ذهبت فيها إلى ذلك الحدث المريع رغم عدم علمي بالموضوع، ما أن عدت إلى وحدتي محطم مكسور النفس؛ ذهبت إلى الحمام وأفرغت كل ما كان في معدتي، عندها قررت ألا أخوض هذه التجربة اللا إنسانية الرهيبة مرة أخرى إطلاقًا، تركتُ نفسي المُعذبة لهواها ولم أقم بأي عمل ذلك النهار لغاية انتهاء الدوام الرسمي وذهابي سيء المزاج إلى بيتي الجميل الذي كان في الحي السكني لضباط القاعدة.

صباح أحد أيام إجازتي الدورية؛ توجهت مع أسرتي لزيارة أهلي في بغداد، وفي ثاني يوم عرجتُ على قيادة القوة الجوية التي تقع في ضاحية المنصور الراقية مُستصحبًا كتاب الشكر بيدي، دخلتُ في مكتب العميد المهندس (ج)، جلستُ بعد أن رجاني بذلك، وبعد لحظات من التحية والسلام ألقيت بكتاب

الشكر أمام أنظار العميد بطريقة مُغالية بعض الشيء ورحت أنتظر رد فعله، أخذ العميد الكتاب بيده رفعه قربه نحو عينيه اللتان كانتا تقبعان خلف نظارة سميكة وقال:

- ما هذا الكتاب يا بُني؟

رجوتهُ أن ينظر إلى رقم الطائرة، وحالما شاهد رقم الطائرة المكتوب في كتاب الشكر؛ انطلقت منه تنهيدة عميقة ظهر صوتها عاليًا وصفق بكلتا يديه أسفًا، وقال بطريقة تقربُ إلى الاعتذار والخجل الشديد مصحوبًا بالتعجب:

- أوووووف... هل هذه نفس الطائرة التي عملت أنت عليها؟

ثم نكس رأسه إلى الأسفل وقال:

- أرجو أن تعذرني على ما حصل، لقد كان خطأً غير مقصود، وأؤكد لك ذلك كوني قد وضعتُ توقيعي عليه بعد أن كنت متعب جدًا إثر عودتي من زيارة شاقة إلى قاعدة الوحدة الجوية في البصرة، ولم أكد أرى رقم الطائرة، فاعذرني على ذلك.

لم أكن في مزاج يُمكنني من قبول هذا العذر الساذج، وإن كان العميد صادق في قوله، ولهذا أجبته:

- سيدي إن كتاب الشكر والتقدير هذا يدل على أن أسماء الضباط والمراتب فيه هم الذين قاموا بتصليح الطائرة، وأني لم أعمل على الطائرة لمدة أكثر من خمسة أشهر، وأن يداي لم تلمساها، وإن حصل شيء طارئ للطائرة فهذا الكتاب سيكون دليلاً وشهادة رسمية على برائتي، ويبدو أن عملنا يجري وفق المثل العراقي الشهير (الطايح رايح)[1].

١- الطايح رايح: مثل عراقي دارج يعني أن كل ما يسقط لا يُحسب وذهبت قيمته أدراج الرياح.

تركته ومضيت، استمرت الطائرة بعملياتها الجوية القتالية على الجبهة ولم أسمع يومًا أنها قد هَوت أو حصلَ بها عطل فني أو غيره.

يبدو أن قاسم مشترك كبير قد جمع مصيري بمصير النائب ضابط تحسين الذي تمَّ إعدامه أمامي، أوله أنه كان السبب في تخريب الطائرة سوخوي ٢٢ وإيقافها عن الخدمة لفترة غير قصيرة وركنها تعلوها الأتربة في الملجأ الكونكريتي، أما أنا فكنت السبب في تصليحها وإعادتها إلى الخدمة واستمرار طيرانها في السرب طيلة فترة الحرب، وثانيها أنه قد تمَّ إعدامه بسبب تخريبه لهذه الطائرة، وأنا تمَّ إعدام عملي وتعبي وحذف اسمي من قائمة الأسماء التي حصلت على الشكر والتقدير بعد تصليحي لها، يا لقدر وغرابة الأشياء.

الاستقالة

زفاف سيء أفضل من جنازة مهيبة

ها قد انطوى يوم عمل ممل آخر، وانتهى فصل واحد من كتاب محكمة الثورة والإعدامات، إلا أن الفصل القادم لا يزال يحمل العديد من المفاجأت الكثيرة ولا أحد يستطيع التكهن بما سيحدث فيه... أتساءل هل يمكن أن يحدث أسوأ مما حدث! لا إجابة جاهزة لديّ ولكن كل شيء في هذا البلد جائز، إذ أن إلقاء قائدي العميد بشير في السجن قد شحنني بالحزن والألم والغضب من منظومة السلطة برمتها.

انتهت زياراتي القسرية المتكررة لمحكمة الثورة بعد أن حكمت ببراءة القائد في تهمة التطاول على سياسة الدولة العليا، وأنا ما زلتُ أنتظر النتيجة على طلب استقالتي من الجيش التي لم تُحسم بعد، لكن المحاكم العسكرية الأخرى والشهادات لم تنتهِ بعد.

أنا مُستمر في عملي في الجيش حيث يبدأ يومي الروتيني الاعتيادي بالفطور الشهي، ثم القراءة والإبحار في كنوز الأدب العالمي التي يزودني بها الجندي الرائع مصطفى، وصولاً إلى الاسترخاء ضمن قيلولة قصيرة تنتهي قبيل انتهاء الدوام الرسمي، أعود للبيت مرتاح كي أستمتع بدوش بارد منعش وأتناول الغداء الفاخر الذي تُعده زوجتي الحبيبة، أداعب أطفالي ثم أستعد للعمل، وأتجه إلي متجري الذي بدأت تجارته تزدهر رغم تدهور الأحوال الاقتصادية للبلد، وازدياد الضغط الاقتصادي على حياة الناس بسبب الحصار الاقتصادي الخانق على بلدنا العراق، الذي جعلَ الناس يبيعون كل ما تحت أيديهم من مصوغات ومواد أخرى كي يبتاعوا الطعام والدواء وباقي مستلزمات الحياة الضرورية.

القائد ما زال يقبع في سجن الحوتة في مديرية الاستخبارات العامة، بانتظار المحكمة العسكرية اللاحقة، لا تزال الحركة في معملنا غير طبيعية حتى وبعد أن تمت براءة القائد، إذ ورد إلى مسامعنا قرب موعد المحاكمة، حيث بدأ العد التنازلي لها.

أستيقظ على أشعة الشمس المتسللة عبر فتحات ستائر غرفة نومنا المبردة بواسطة جهاز تكييف نوع (جبسن)، ألملمُ أغراضي على عجل كي ألحق بالعجلة العسكرية التي تقلني مع زملاء آخرين إلى مكان عملي، الذي أصبح مُملاً ويفتقر إلى أبسط مقومات الرغبة والإثارة، ناهيك عن أنه مجرد مكان مُزعج وحامل للأخبار التي لا تسر القلب دومًا، الأخبار عن المحاكمة الثانية للقائد الذي ما زال خلف أسوار سجن الاستخبارات العسكرية تتوالى، ولكنها أصبحت على مرمى حجر.

في يوم حاسم أراده الله أن يكون خاتمة لهذه المأساة الإنسانية تمَّ تبليغنا بموعد محاكمة القائد ومكان انعقادها، أمضيت أنا وزوجتي وأولادي مساء تلك الليلة في زيارة إلى أهلي بعد أن ابتعت لهم من سوق البياع الشعبي الفواكه التي تعشقها أمي، وكذلك بعض أنواع الخضار ومواد أخرى حرصت زوجتي على إعدادها في مطبخها خصيصًا إلى والديّ، كما دسست مبلغ من المال بيد أمي، جلسنا مع أبي وأمي بعد أن حرصنا كثيرًا في عدم إعلامهما بأمر المحكمة كي لا نرهقهما بمشاكلها التي لا تنتهي.

جلسنا جلسة رائعة، تبادلنا الأحاديث، العائلة وأحوال الحياة العامة في البلد، بينما كان أطفالي الثلاثة يتقافزون حول رقابنا فرحين ويضفون على جلستنا جو ديناميكي حَي من الحركة والحياة، ما أن مضت ساعة حتى انفردنا أنا وأبي وكان العرق العراقي اللذيذ ثالثنا، مع المازات والمكسرات المتنوعة، إذ أنه لا يفارق جلساتنا الحميمة إطلاقًا، هذه الأمسية أَمدتني بطاقة وقوة كبيرة، وأنستني

قلق المحكمة وآثارها اللئيمة، على إثرها عدنا إلى البيت في صفاء وراحة نفسية كبيرة وغرقت في نوم عميق بعد أن أحدث العَرق مفعوله السحري.

منذ بداية أحداث هذه المأساة؛ يزودني بعض الضباط والمراتب حين زيارتهم لي في مكتبي أو حين ألتقيهم في الشوارع الفرعية لمعملنا بالمعلومات المهمة عن المحاولات الدؤوبة للمجموعة الحاقدة الرافعة لراية الحرب ضد القائد وضدي، ينقلون لي بعض الأخبار، يوضحون مواقفهم الداعمة لنا، حتى أنهم يحاولون فعليًا كبح جماح من يسعى إلى إضافة الزيت فوق حطب القضية كي يجعلها تستعر أكثر، ولكي يرسل القائد ومن على دينه إلى الجحيم، الحقيقة تقال ولا بد من الإشارة إلى أن موقف الكثير من زملائنا الضباط والمراتب كان مُشرف وبعيد عن كل أشكال العنصرية أو التفرقة الدينية، وهذا موقف يحمدون عليه.

صباح يوم صيفي من عام ١٩٩٢، والشمس تقبع على عرشها السماوي تنشر خيوطها الذهبية الدافئة بمحبة وكرم على الكون المطلق، توجهت هذه المرة بمعنويات أفضل نحو المحكمة العسكرية الأولى في ضاحية الأعظمية.

المحكمة العسكرية الأولى تقع على كتف شارع رئيسي يعجُ بالمارة ومحلات البضائع والفاكهة، وتسمع أصوات مناداة الباعة المتجولين، وكل هذا يُعطي انطباع بالأمان أفضل بكثير من المحكمة الثورية السابقة، بدأت محاكمة القائد وكانت تُجرى في ظروف حراسة وأمن اعتيادية تمامًا، غير التي كُنا نشاهدها ونعيشها في مديرية الأمن العامة، واستهلت باستدعاء بعض الشهود من الضباط ثم لحقني الدور.

ما أن تخطيت عتبة المحكمة حتى تراءى لي القائد وهو يمثل خلف شباك الاتهام بحال أفضل مما رأيته سابقًا، كان يقف منتصب حليق الذقن، وجهه استرد كثيرًا من عافيته ولونه، بدا القائد وكأنه كان مستعد للمنازلة أكثر من المرة السابقة.

كانت المحكمة تقع في المجمع العسكري في منطقة الكسرة التابعة لضاحية الأعظمية في بغداد، وهي عبارة عن قاعة معتدلة الحجم ذات سقف مرتفع جدًا، مضيئة كثيرًا لاحتواء جدرانها على شبابيك عريضة عديدة، منصة عالية يتربع عليها القضاة الثلاث، بشكل عام كان الجو يوحي للمرء بالثبات والهدوء أكثر بكثير مما كان في محكمة الثورة.

ما أن تخطيت عتبة باب قاعة المحكمة حتى تلوت في سري شهادتي المندائية، وكمحارب مخضرمُ انتصبت في مكاني ثم أقسمت وفق ديني أن أقول الحق وليس سواه، حتى بدأ رئيس المحكمة القاضي الذي كان برتبة عميد حقوقي يتوسط القاضيين العسكريين الآخرين بسؤالي عن طريقة صرف أموال الوحدة العسكرية، وهل يحصل فيها فساد أو اختلاس.

ليس من السهل السيطرة على ردة فعل المظلوم، ولما كنت أشعر بمظلومية كبيرة وقعت عليّ وعلى القائد؛ لم أستطع كبح جماح فورتي وثورتي في التقدم بجرأة كبيرة وقول كل ما كان يجول في نفسي وضميري، دون أي شعور بالخوف، ودون تحسب لأي عواقب، فأطلقت حنجرتي إلى مداها وتذكرت استراتيجية الدفاع المستندة على أقوال الحاكم المطلق التي نجحت أيما نجاح، لم يستطع عقلي وحكمتي أن يوقفا لساني الذي بدا هادر ثوري ناطق باسم الحق والعدل والإنصاف، وأذكرُ أهم شيء قلته للقاضي:

– سيدي القاضي إن أكبر سلطة في بلدنا العراق وهو الرئيس القائد صدام حسين (ح.ا)، يقول إن على جميع العراقيين الوطنيين الغيارى أن ينهضوا لإعادة إعمار بلد العراق لغرض إزالة جميع آثار العدوان الأمريكي الغاشم، وأن عليهم العمل خارج السياقات العادية، وأن يتجاوزوا الروتين الإداري القاتل، بشرط ألا يستغلوا إمكانيات الدولة، ولكن حين نعمل بأوامره ووصاياه، نعم نحن نعمل كذلك ويأتي من لا ضمير له ويكتب تقارير حزبية فيكون مصيرنا هنا، هل هذا ما يريده القائد؟ هل هذا ما أوصانا به القائد؟ وأنا أسأل

الآن لماذا يقف القائد العميد بشير خلف هذا السياج الخشبي بينما يتمتع المنافقون الخائبون بالحرية خارج أسوار هذه المحكمة الموقرة؟ لماذا أقف أنا هنا وحضرتك تسألني عن الأموال وغيرها؟ أهل لأنه نحن عراقيون وطنيون نعمل بجد وضمير وإخلاص؟ أين العدالة يا سيدي القاضي؟ فتارة نقف في حضرة المحكمة الخاصة وتارة أخرى نقف هنا في حضرتكم فأين الحق والحقوق؟ أنا لا أرى أي وجه للعدالة في هذا الوضع غير الطبيعي...

القاضي يقاطعني ويقول بابتسامة تطفو على وجهه ولكن بحسم صارم، رافع يدهُ التي تُشير إلى أن أقول إجابتي:

- يا ابني توجد عدالة ويوجد حق، وسترى...

عندها لم أبخل إطلاقًا في شرح وتفسير كيفية صرف أموال المعمل التي تذهب إلى تصريف أعمال إعادة البناء ولا غير ذلك، انتهيت من شهادتي وخرجت مرتاح الضمير من قاعة المحكمة في انتظار شهادة الضباط والمراتب الآخرين وقرار المحكمة... مرت فترة زمنية تكاد تحسب بقرون، وحالما انتهى أخر شاهد بدأت المحكمة بنطق الحكم النهائي، وكان يقضي ببراءة القائد من جميع التهم الباطلة المنسوبة إليه.

هكذا تمت براءة القائد وهكذا انتهى دابر المؤمرة التي حيكت ضد أناس خدموا البلد والجيش العراقي بكل ضمير وإخلاص وكفاءة، غمرتني سعادة لا توصف واعتراني شعور بالنصر، وسبب ذلك يرجع أولاً لبراءة قائدي المندائي بشكل كامل ونهائي من جميع التُهم المفبركة ضده، والثاني لنجاح إدارتي زمام أخطر عملية مصيرية معقدة كان يمكنها بمرحلتيها أن تطيح برأسي، وتحولان صفتي من شاهد إلى متهم، وثالثهما فشل وانكفاء جميع خطط المتطرفين الحاقدين في الإطاحة الكاملة برأسي ورأس القائد.

يبدو أن هذا البلد لا يكتفي بالحروب الخارجية؛ بل يسعى في خلق حروب طائفية داخلية تافهة تفقده مُخلصيه وأبنائه البررة، وتجعلهم على طرف نقيض مع العمل الجاد والبناء المخلص والشعور بالوطنية الحقة.

مضى وقت طويل دون سماعي لنتيجة استقالاتي السابقة، لكن هذا لم يجعلني أيأس أو أحزن، ومضيتُ في طريقة عملي ذاتها وطريقة حياتي الأخرى خارج أسوار المعمل، الصبر جميل كما يُقال وأنا أجيد العزف على هذا الشيء، إذ لا بد من تسيير خطتي بعقل راجح ولكن بهدوء، تمر الأيام والشهور دون أن أحصل على أي إجابة، مما دعاني إلى كتابة استقالة أخرى وإرسالها إلى القيادة مرة جديدة.

كنت أحاول استفزازهم واللعب على أوتار صبرهم، وكذلك إظهار جديتي لهم في ترك الخدمة في الجيش، لاسيما وأن الكثير من الضباط من ذوي الرتب الرفيعة كانو غالبًا ما يرددون رغبتهم في التقاعد، ولكن بعد حصولهم عليه يعودون بعد حين إليه تائبين كالأسماك التي لا تستطيع مفارقة الماء، مما أفقد الجميع مصداقية كلامهم ومواقفهم، ولكن هذا لن يشملني، إذ أنني قد اتخذتُ قراري النهائي والحاسم دون رجعة أو تردد.

يوم رائق يلفهُ ضوء الشمس الدافئ يرن جرس الهاتف الذي يخدش الأذان، عبر الهاتف أتحدث مع ضابط ركن المعمل الذي بدوره يبلغني بضرورة الذهاب في اليوم التالي إلى مديرية الهندسة الجوية، التابعة لقيادة القوة الجوية، لمقابلة قائد المديرية اللواء المهندس (م.ر)... ما أن أغلقت سماعة الهاتف حتى قلتُ في نفسي لقد حانت ساعة العمل والحقيقة كي أحقق هدفي، لقد حانت هذه اللحظة التي كنت أنتظرها دهر، بعد أن رجوت الله مرارًا أن يجعلها، ولكن يجب أن أدير هذه المحادثة بشكل جيد كي أتمكن من نيل هدفي، سأبذل أفضل جهودي وسيكون الله بالتأكيد إلى جانبي.

في ليلة سقط فيها شهاب صغير مضيء من أعلى رأس الكون، فبدا كأنه يرسم خط فاصل بين حيز الحياة ومساحة الموت، أو قد يكون بين تواضع الأرض وهيبة السماء، جلست مع زوجتي على حافة سريرنا الدافئ بعد أن استولى الرقاد على أطفالنا الأبرياء، نتحدث ما الذي سيحصل غدًا وكيف سيكون رد فعلي، هل سيصب قائد مديرية الهندسة جام غضبه عليّ؟ ليست أي كلمات أو مواقف تجعلني أذعُر، إذًا لأكون مستعد لذلك طالما أنا من قرر المسير بهذا الدرب، أم ستسير الأمور كما خططتُ لها وستنجح خطتي، أنا مستعد لكل العواقب في حال تفاقم الوضع وساءت الأحوال أكثر مما أتوقع، لا بأس فإن المثل العراقي الشهير يقول (إن المُبتل لا يخاف من المطر) وأنا مبتل بالأساس حتى النُخاع.

ولجتُ إلى مديرية الهندسة الجوية واستقريت أخيرًا في مكتب ضابط ركن قائد المديرية العقيد المهندس (ج.أ)، الذي ينتسب لنفس الأكاديمية التي تخرجت منها، عدا أنه كان في الدفعة الثانية، كانت لي علاقة طيبة.

أخذت وصديقي نتحدث بأمور عديدة حول العمل في المعمل، فيما يخص أحوالنا الشخصية والمعاشية والاجتماعية، وأحداث أخرى كانت قد مرت على كلانا أثناء دراستنا في الاتحاد السوفيتي، وصولاً إلى أمر استدعائي من قبل قائد المديرية ورغبته في التحدث معي على موضوع طلب استقالاتي المتكررة من الجيش، أَسَرَّني صديقي أن قائد المديرية كان قد طلب منه ملفي الشخصي والذي يُلخص سيرتي الذاتية وعملي وكل ما يتعلق بي، كما أنه سأل صديقي عن معلوماته التي يعرفها عني.

رن هاتف ضابط الركن، رفع سماعة الهاتف وأحاب بكلمتين فقط "نعم سيدي"؛ وأعاد السماعة إلى مكانها والتفت إليّ وقال:

– تفضل... قائد المديرية في انتظارك.

نهضت على عجل بعد أن قرأت الشهادة المندائية (أكا هيي... أكا ماري... أكا مندا إدهيي) [1]، طرقت الباب ودخلت، أديت التحية العسكرية له فرحب بي وطلب مني الجلوس على الكرسي الجانبي المحاذي لمنضدته الكبيرة ففعلت دون تأخير، رحب بي وأخذ قائد المديرية يسألني عن أحوالي، ثم دون أي لف أو دوران دخل في صلب موضوع الاستقالة وقال:

- ما هذا عقيد عباس؟ ما موضوع استقالاتك المتعددة المتكررة التي ترسلها بين أسبوع وآخر والتي صدَّعت رأسي؟ ما الموضوع؟ ولماذا تريد الاستقالة بالأساس؟

كان اللواء المهندس قائد المديرية الذي بيده القدرة والصلاحية الكاملة على تسيير عملية استقالتي إذا ما اقتنع ووافق عليها، لذا كان عليّ أن أكون حاسم في طلبي دون تردد، قاطع في كلامي دون أي خوف، وكان عليّ أن أقنعه بطريقة أو أخرى، فأجبته بصوتٍ حادٍ ولكن خفيض:

- شكرًا سيدي، ولكن أولاً دعني أقول لك شيئًا مهمًا.

- ما هو؟

- أنا أعرف من تكون جيدًا، ولذلك سوف أتكلم بصراحة مطلقة لم تسمعها من أحد غيري، سأتكلم وفق معطيات الحقيقة والواقع، ولكن الأهم ما في ذلك أن تمنحني الأمان فيما ستسمع مني، لأن هذا مفيد لك وللنظام كونك أحد أركانه، فهل تعدني بالأمان يا سيدي كي أتحدث لك عما في داخلي؟

- نعم أعدك بالأمان، وتفضل أطلق كل ما لديك.

تحدثت إلى نفسي "عليك أن تتحلى بالشجاعة والإقدام والصبر" وأضفت:

- يا سيدي؛ أنا شخص صابئي مندائي الديانة يعني لستُ منكم...

لم تعجبه أول جملة قلتها فأجاب مُعترضًا:

١- أكا هيي... أكا ماري... أكا مندا إدهيي : تعني (الله موجود... الرَّب موجود... العليم موجود).

- ما هذا الذي تقول عقيد عباس، لا يجدر بك قول هذا، إذ أنَّ الدولة لا تسمح بذلك.

أجبته مباشرة:

- ولكن يا سيدي هذه الحقيقة، انظر ما يحدث، أنا تمت معاقبتي بقطع راتبي، وهذا بالتأكيد سيوقف ترقيتي، وكذلك قمتم بتجريدي من منصبي كقائد جناح في معمل تصليح المحركات، أما قائد المعمل عميد بشير فيقبع في سجن الاستخبارات حتى الآن، والسؤال لماذا يحدث كل هذا! أليس لأننا صابئة مندائيون ولسنا على دينكم؟ ألسنا جميعنا نعبُد الله وننزههُ كُل على طريقته؟ ألسنا من رعايا الله؟ إن المجتمعات الإنسانية التي تنطلق من مبادئ سامية تجعلها أقوى وتتعاون أكثر من المجتمعات التي تتغلغل فيها التفرقة الدينية أو المذهبية بكل أشكالها... أليس صحيح هذا يا سيدي؟.

يُحكى أن ديك كان يؤذن عند فجر كل يوم، فأتى صاحب المزرعة وقال له لا تؤذن مُجددًا وإلا سأنتف ريشك، خاف الديك وتوقف عن الآذان، فالفجر لا ينتظرُ إذني ولا آذاني قال لنفسه، وديوك الحي لا تقصر، بعد مرور أسبوع عاد صاحب المزرعة ليقول للديك إذا لم تكاكي كالدجاجات سأنتف ريشك، تنازل الديك عن الصياح والتزم نقنقة الدجاجات، وبعد شهر على تدجين الصوت ظهر صاحب المزرعة من جديد ليبلغ الديك بأخر فرماناته، الآن إذا لم تبض كالدجاجات سأذبحك غدًا، بكى الديك، بكى حتى ابتل ريشهُ وقال يا ليتني متُّ وأنا أؤذن.

عليَّ أن أتخذ من هذه الحكمة عبرة، وأن أتحلى بالشجاعة القصوى في إبداء موقفي، إنها الشيء الوحيد الذي يدحر الخوف، وأقول في نفسي إن كان عليّ أن أموت فيجب أن أموت واقف مُبتسم، لذا أدمتُ زخم هجومي.

- هل نحن قوم ننتمي إلى هذا البلد أم لا؟ هل المشكلة تكمن في كوننا لسنا على دينكم أم ماذا؟ ألم يخرج مِنا علماء ومفكرين وعباقرة مثل أبو إسحاق الصابئي

وثابت بن قرة والبتاني وعبد الجبار عبد الله وعبد الرزاق عبد الواحد وغيرهم، ألم نقدم للحضارة الرافدينية الكثير؟ وأخيرًا ألم نقدم شهداء كثيرون للدفاع عن حياض هذا الوطن وأقربهم لي الشهيد ابن عمي المُدرس عزيز الزهيري زوج شقيقتي؟

الظاهر أني فاجأته ولم يكن مُهيأ لمثل هذا الطرح المُباشر، لذا كان يستمع إلى ما أقوله بعناية كاملة، ويبدو أنه يحاول أن يصل إلى إجابات دون نتيجة، ولكنه في جميع الأحوال استمر بسماع كلامي، وكنتُ على يقين أني سأستخدم نفس الأسلوب الناجح الذي اتبعته سابقًا مع محكمة الأصنام الثلاثة في مديرية الاستخبارات العامة، حيث سأستغل اسم رمز السلطة المطلقة كغطاء صلب لهجومي.

– السيد الرئيس القائد صدام حسين يأمر جميع العراقيين وتحديدًا الجيش بالعمل لإعادة إعمار ما دمره الأشرار خلال العدوان الغاشم وأنا أعمل بوصيته حرفيًا، وكذلك سيادته قال اعملوا وتجاوزوا الروتين دون استغلال أو سرقة، فعندما نقوم بتطبيق أوامره العليا ونعمل بضمير وإخلاص كي نعيد بناء المعمل، ولقد نجحنا بالفعل بذلك، وأصبح المعمل ينتج بطاقته القصوى كما كان سابقًا قبل العدوان، حيث يأتي من يجلس خلف الكواليس ويطعننا في ظهورنا ويكتب علينا تقارير حزبية كاذبة، وهذه النتيجة كما ترى يا سيدي.

أخذت نفس عميق كي أكسب طاقة إضافية حتى أستمر في هجومي دون أن أدعه يلتقط أنفاسه وأضفت:

– سيدي أنا هكذا أعمل، لا أقبل على أي شخص لا يعمل بضمير حتى وإن كان أبي، نعم أقولها حتى لو كان أبي، يا سيدي إن أتعس ما في الأمر هو أن يحل محلي في المنصب شخص هو من كان وراء كل هذه الفتنة، فكيف يستقيم الأمران؟ ما الذي فعلناه كي تتغير حياتنا وعملنا فجأة؟ نحن جزء من نسيج هذا

الشعب، لا بل نحن شعب أصيل في هذا الوطن، فلماذا هذا التعامل غير الإنساني معنا؟

صرتُ أجول ببصري في أرجاء مكتب قائد مديرية الهندسة الجوية، وأشيح بنظري عبر الشباك المُطل على الشارع الفرعي المار بجوار بناية قيادة القوة الجوية، أنتقلُ بخيالي إلى تقاطع الرواد في ضاحية المنصور، وأستعيد ذكرى افتتاح أول مطعم لبيع البيتزا التي لم تكن ذائعة في المجتمع العراقي آنذاك، حينها دعوت عائلتي إلى وجبة عشاء كان يُفترض أن تكون راقية وكانت في مطعم البيتزا الجديد.

كان الناس يصطفون في طابور طويل جدًا كي يحصلوا على الطعام، إذ أن المطعم كان صغير نسبة إلى عدد الراغبين بالشراء، كان علينا تحمل العناء والانتظار طويلاً كي نحصل على هذا الطعام الجديد، ما أن جاء العامل يحمل طلبنا الذي توقعناه سيكون كافيًا جدًا كي نتعشى، نشبع وتمتلئ بطوننا، وإن تبقى منه شيء فسوف نأخذه معنا البيت.

كان العامل يحمل طبق سميك يتكون من شريحتين، اعتقدنا أنهما الطعام أو بالأصح البيتزا، ولكن وبعد أن وضع العامل الطعام ظهر أن الشريحة السميكة السفلية ما هي إلا عبارة عن قطعة خشبية دائرية توضع عليها البيتزا، أما البيتزا فكانت عبارة عن شريحة خفيفة وزعناها علينا بالتساوي وسط دهشة الجميع، تناولناها بسرعة خاطفة، لم تكفنا هذه البيتزا ولم تسد رمقنا، لا بل اتخذت ركن صغير جدًا في بطوننا، ولم نكن بالصبر الوفير كي نقضي وقت طويل آخر في طابور الانتظار، لذا انتهينا من اللعب في هذه المسرحية التراجيدية على مضض.

نهضنا دون قناعة ومعدتنا غير راضية، لذا توجهنا للبيت مباشرة كي تصنع زوجتي عشاء تقليدي، كان عبارة عن بيض مَقلي مع الطماطم مع أنواع

السلطات الشهية، أكلنا حتى شبعنا فعلاً فما كان من ابني البكر (زيد) إلا أن يقول هازئًا:

– بابا كانت البيتزا التي دعوتنا على أكلها كالمقبلات قبل الأكل، وها نحن نحصل في بيتنا على العشاء الرئيسي.

عندها توالت ضحكاتنا المجلجلة التي خرجت ملئ أفئدتنا، وارتدت أصدائها في أرجاء غرفة معيشتنا الدافئة، وأصبحنا نتندر على ما حدث كلما نتذكر هذه البيتزا، كان بإمكاني تخيل ابتسامات وقهقهات أطفالي من خلال زجاج الشباك.

كنت متوتر جدًا، إلا أني هدأت قليلاً، لذا قررت أن أزيد من زخم هجومي عليه لأجعله في موقف الدفاع عنه في الهجوم فقلت:

– سيدي إن النائب ضابط الذي كتب تقرير حزبي ضدي وضد قائد المعمل هو فاشل وغير حريص، بدليل اختباءه في مطعم المراتب طوال الوقت، في وقت كان المخلصون والوطنيون أمثالنا يجاهدون ويعملون تحت التراب وفي حفر القنابل الكبيرة وبين أنقاض القصف لإعادة بناء المعمل، فهل هذا جزائنا لأنه كوننا صابئة مندائيون وطنيون مخلصون ونعمل بضمير؟ يبدو كذلك، وإن كان كذلك فإن كل كلامي صحيح وواقعي، لماذا تشتعل شدة الحقد والكراهية من أناس تافهين على مواطنين مخلصين وطنيين مثلنا، رغم أنه لم يظهر أي عميل أو جاسوس أو خائن منا في جميع الحقب التاريخية للعراق، أليس صحيح يا سيدي! لا أحد يكترث لما يحدث لنا سوى من له قلب إنسان حقيقي مثلك.

لم أكن أعلم أن قائد المديرية هذا والذي بيده الآن قرار استقالتي من الجيش ومصير حياتي اللاحقة هو العقل المُدبر الرئيسي لعملية اعتقال وسجن العميد المندائي قائد المعمل، حيث علمتُ لاحقًا أنه قد تمَّ ترشيح العميد بشير قائد المعمل إلى إشغال منصب معاون قائد القوة الجوية للشؤون الهندسية، في حين أنَّ قائد المديرية (م.ر) كان يسعى بكل جهده أن يحصل على هذا المنصب الرفيع، معتمد على كونه ينحدر من محافظة تكريت وقريب لرأس النظام، ولهذا

قام بتدبير هذا المخطط وبالتعاون مع باقي أفراد المؤامرة، وبهذا يكون هو المسؤول تباعًا عن عقوبتي وإيقاف ترقيتي وكذلك إزاحتي من منصبي، أي أن فكرة الإطاحة بي وبقائدي قد رسخت برأس العديد من الأشخاص الذين تطابقت أهدافهم رغم اختلافها وأولهم قائد هذه المديرية، هذا الذي يدعي الآن البراءة والطيبة.

قائد المديرية يقول شيء بدا نفسه غير مقتنع به:
- ولكن الأمور ليست بالتمام كما تقول عقيد عباس...

العالم ألبرت أينشتاين قال ذات مرة: "الجميع عباقرة! ولكن إن حَكمت على سمكة بقدرتها على تسلق الشجر، فإنها ستعيش حياتها مؤمنة أنها غبية"، وأنا لن أسمح لأحد أن يجعلني أُفكِّر أني مثل السمكة، ولن أقبل أن أفقد حقي أو إنسانيتي في هذا الوطن... أنظرُ إليه وأرى بريق عينيه، قد يكون إعجاب بشجاعتي أو لا يكون، ولكني في كل الأحوال أشعر بنجاح هجومي عليه حين قال:
- عقيد عباس ماذا تريد الآن؟ ماذا تقول إن جعلتك قائد في مكان ما؟

لم أجب على سؤاله لذا كرره مرة أخرى:
- هل تريد أن أجعلك قائد؟ قُل لي فقط أين تريد وسيكون لك ذلك فورًا، هل تريد أن أجعلك قائد؟

عليّ الانتظار قليلاً ريثما يكمل حديثه حتى أجهز عليه بهجومي اللاحق، لم أكن شخص أبله أو ساذج كي أقبل بعروضه التي فجأة أصبحت جد سخية بعد كل ما حصل لي، كيف أمكنه أن يفكر أني سأقبل بعرضه وسأبقى أعمل في الجيش الذي فقد جميع مقومات حياته ونجاحه، يجب ألا أفسد خطتي مهما تعرضت للضغوط أو الإغراءات.

– هل تريد أن تكون قائد لأي جناح هندسي في أية قاعدة أو قائد معمل أو أي مكان أخر؟

لابد أن أمضي قدمًا في خطتي التي تبدو أنها قاب قوسين أو أدنى من النجاح، وبدأت أتحدث بأسلوب وتكتيك آخر تمامًا:

– يا سيدي أنا أعيل ثلاث عوائل؛ أولهم عائلتي، وثانيهم عائلة والديّ، وثالثهم عائلة شقيقتي زوجة الشهيد ابن عمي الذي استشهد في معركة القادسية، عليّ أن أعمل جاهد كي أستطيع إطعامهم في ظل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة كما تعرف...

هنا بدأت أعزف منفرد على وتر المشاعر الإنسانية وأضفت:

– أنا أرجوك أن توافق على استقالتي كي تدعني أواصل حياتي بهدوء بعد أن فقدت طعم الأمان في عملي.

قائد المديرية:

– لقد اطلعت وقرأت ملف سيرتك الشخصية والعلمية والعملية، وهي بالحقيقة رائعة ومُشرفة، وسألت العديد من القادة عنك، حيث أشادوا بك وبعملك، لذا احترامًا وتقديرًا لخدمتك المتفانية الممتازة في الجيش والقوة الجوية لذا فإني لن أقبل إطلاقًا باستقالتك دون راتب، إنما سوف أمنحك تقاعد كامل براتب كامل، ولكن بشرط...

لم أدعه يكمل حتى انتفضت موافق على جميع شروطه، لأن المرء لا يعلم ماذا سيحصل في اللحظة التالية:

– بشرط أن تقوم بتنظيم أمور شعبة السيطرة النوعية في معملكم كي يستقيم عملها، وأنا أعدك بالتقاعد قريبًا.

لقد أوقعته في الفخ ونجحت في استمالته إليّ وجعلته يرضخ لمطلبي، ويوافق على إنهاء خدمتي في الجيش، أو قد أكون مُخطئ في ذلك، إذ يمكن أن يكون

قد خطط لهذه المسرحية بعد أن اتخذ قراره مُسبقًا، وبذلك يكون قد تخلص مني ومن قائدي المندائي بضربة واحدة.

- أنا موافق على جميع شروطك وأنا مستعد لتنظيم أمور شعبة السيطرة النوعية، وأن أجعلها تعمل بطاقة قصوى، ولكن أرجوك سيدي عدني الآن بالتقاعد...

لم أدع له مجال للمراوغة أو التراجع، إذ كنت قد طوقته بين كماشتي الجرأة والتحدي، كان لا بد من حصول هذا عاجلاً أم أجلاً، لذا قال لي:

- نعم... إني أعدك بالتقاعد قريبًا إن شاء الله.

لقد أبليتُ حسنًا، نهضت مددتُ له يدي مُصافحًا، ضغطتُ بقوة على يده كي أذكره بوعده، شكرته وكررتُ شكري بقوة على موقفه ووعده لي بالتقاعد وتمنيت عليه الإيفاء به، دعوت له بالصحة والسلامة وخرجت من مكتبه.

كان يبدو كأن العالم برمته قد أصبح بيدي، كان ثمة مشاعر رائعة تختلج فؤادي، وبدأت أشعر أنه قد تحققت أحلامي بسرعة فائقة وحلقتُ من السعادة إلى السماء، الأمل، عليّ أن أتحلى بالأمل، إنه الشيء الوحيد الذي يدحر الملل، يبدو أن الخطوة الأولى من خطتي قد نجحت وسوف استمر بالخطوة الثانية في فك ارتباطي بالحزب الحاكم بشكل كامل رغم ما يحفها من مخاطر جَمّة، كان قدري أن أحلق في أكثر قصص التحدي والخوف تعقيدًا.

بعد شهور قليلة تمَّ إصدار المرسوم الجمهوري القاضي بتقاعدي، وبذلك أنهيتُ علاقتي بالجيش والقوة الجوية التي طالما كنت وفيًا وأحببت العمل والإخلاص لهما، وبقي لديّ هدف واحد وهو خلاصي من حزب السلطة الحاكم الذي تمَّ لاحقًا والذي سردته في حكايتي تحت عنوان (الإضبارة الحزبية)، وبهذا أصبحت كعُصفورٍ حُرٍّ يقفز يحلق ويطير كيفما يشاء دون أي حواجز أو معوقات.

الهروب إلى المجهول

وطن دون كرامة... غربة

صيف عام ١٩٩٨ قررت مع عائلتي الهروب بشكل نهائي من العراق، إثر العديد من المضايقات التي تعرضنا لها من قبل السلطة الحاكمة وعناصر حزبها، وكذلك بسبب الضغوط الحياتية والاقتصادية الكبيرة الناتجة عن الحصار الاقتصادي الخانق الذي فرضته الأمم المتحدة ودول العالم المتحضر على النظام الحاكم والذي أثر كثيرًا وبشكل مباشر على حياة الشعب العراقي البائس وليس على قادة النظام، لا بد أن أعترف أن قبل هذا التاريخ لم أكن أبدًا أفهم أو أقتنع بموضوع هروب أو هجرة البعض من الوطن الأم، إلى أن كوتني الحياة وشعرت بثقلها على كاهلي.

كان لا بد لي من وضع عمل خطة سرية محكمة كي لا تُثير انتباه عناصر الأمن وأعضاء حزب السلطة، أو حتى الضباط الآخرين الذين يقطنون في حي الضباط في ضاحية الغزالية حيث أسكن، إذ لا يمكن الوثوق بأي أحد في ظل هذا النظام القاسي، كانت خطتي تقضي أن أستصدر جواز سفر مزور لي وأخرى رسمية لأفراد عائلتي، وأبيع بيتنا ومتجري الصغير وأكبر كمية من أغراض البيت، والتحول إلى مكان سكن آخر في منطقة أخرى، ومن هناك تتم عملية هروبي وعائلتي إلى خارج العراق.

بدأنا تنفيذ الخطة بعرض بيتنا للبيع، كان عامل الوقت ضاغط؛ لذا وضعت بيتنا للبيع لدى العديد من سماسرة العقارات، وبالتوازي قمنا ببيع بعض الأغراض على تجار المواد المتجولين، ولا بد من سرد حادثة ظريفة مع شيء من حسن الحظ الذي رافقها، حين دعونا أحد هؤلاء التجار إلى بيتنا وكان يدعى (أبا

غفران) لشراء بعض الأغراض في أحد تلك الأيام، لكنه سرعان ما أخذ يتردد يوميًا لشراء مواد أكثر فأكثر، حتى استطاع ابتياع جميع الأغراض والأثاث التي رغبنا ببيعها، وكذلك حتى المواد المُستهلكة والمُهملة التي لم نكن نعتقد بإمكانية بيعها.

كانت شقيقة زوجتي (ف) حاضرة لهذه الأحداث، تمد يد العون لنا ولقد راقها هذا الحال كثيرًا، كُنا جميعًا سعداء جدًا لوجود هذا الرجل، بسبب دماثة أخلاقه وبساطته وكذلك إعطاءه أسعار غير بخسة، حتى أصبحنا نفترش معهُ الأرض ونأكل سويًا، كأنه أصبح أحد أفراد العائلة، ويبدو أن الله قد أرسله لمد يد العون لنا في أحلك ظرف نمرُّ به، مرَّ الوقت ولم يتم بيع البيت، مما اضطرني إلى كتابة لافتة ووضعها على جدار البيت، حتى جرت مسألة البيع بسرعة أكبر ودون تدخل من قبل أي سمسار.

كان جميع الجيران والأصدقاء يتساءلون عن سبب اتخاذنا هذا القرار المفاجئ، حتى أن بعضهم قال لي بشكل مباشر هل ستهاجرون البلد إلى السويد؟ إلا أنني أنكرتُ بشدة وأكدتُ أننا في طور إنجاز مشروع جديد في مجال صياغة الذهب، أسعى من خلاله لتحسين مدخولاتي من أجل سد متطلبات العائلة الاقتصادية.

وصلت مرحلة استصدار جوازات السفر لزوجتي وأولادي، ولما كان أولادي جميعهم في المدرسة لذا طلبنا منهم القول إنهم قد تركوا المدرسة ولا يذهبون إليها، سأل ضابط الجوازات زوجتي عن سبب استصدارها للجواز، فكانت إجابتها أنه لغرض السفر إلى مملكة الأردن لمعالجة ابنتي الصغيرة (فرح)، بعد ذلك أخذ يسأل الأطفال وبدأ بابني البكر زيد، فأجابه أنه قد ترك المدرسة وهكذا مع ابنتي هند، ولكن الظريف أن ابنتي الصغرى فرح بادرت من نفسها ببراءة الأطفال وقالت للضابط إنها لا تذهب إلى المدرسة دون أن يسألها أو يطلب منها ذلك، باندهاش ضحك الضابط وضحكنا معه بتحفظ شديد.

أرسل ضابط الجوازات زوجتي وأولادي إلى القسم الخاص بالعسكريين وبعد عدة أسئلة إضافية تمَّ قبول أعذارهم وطلبهم، بعد أن تأكدوا من بقائي في البلد كضمانة لعودتهم وبذلك تمَّ الموضوع على سلام، بعد مرور أسبوع استلمنا جوازاتهم دون أية مشاكل.

إن إنجاز أي وثيقة في بلد ذو حكم شمولي كالعراق يخضع للسؤال والاستجواب والتحقيق حتى وإن كانت من أصل حقوق المواطن، إن أي مواطن في عرف السلطة الحاكمة في العراق يعتبر مذنب إلى أن يتم تبرئته بالتحقيق من لا ذنب.

كما المثل القائل (تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن) فلقد أتت رياح سرقة جميع وثائق العائلة الرسمية بأكملها بما لا تشتهي عملية بيع بيتي وهروبنا، إن سوء الحظ رافقني تلك الأيام، إذ حصل يوم وأثناء ما كنت أقوم بالتسوق في سوق حي العامل في بغداد تمَّ سرقة جميع وثائقنا الرسمية ومبلغ من المال مع كمية من المصوغات الذهبية من صندوق سيارتي، بضمنها وثائق الشخص الذي ابتاع بيتنا مما استدعاني إلى استصدار وثائق كاملة بديلة وهذا تطلب مني بذل جهود مضنية مع صرف مبالغ مالية لرشوة الموظفين في تلك الدوائر.

كنت قد بدأت بالسؤال بطريقة غير مباشرة عن طريقة سرية وآمنة لاستصدار جواز سفر مزور لي، كوني ضابط ممنوع من السفر وفق القانون آنذاك، والذي يعتبرها جريمة يعاقب عليها في حال محاولة الضابط السفر إلى خارج العراق، حصل أن قابلت ابن خالتي (داخل بطيخ ساهي) صدفةً في سوق البياع الشعبي للفواكه والخضار، وأعلمني بإمكانيته مساعدتي في إنجاز ذلك كونه يعرف أحد ضباط الجوازات مقابل مبلغ مالي يُدفع مقدمًا، إلا أنني في بداية الأمر لم أؤمن به كثيرًا.

مضت فترة حتى استطعنا الانتقال إلى بيت شقيق زوجتي الواقع في منطقة السيدية، وبذلك تخلصت من نظرات ومراقبة جميع من يعرفني في ضاحية الغزالية الخاصة بضباط الجيش العراقي بمختلف صنوفه، أخذت أتواجد في

متجر شقيق زوجتي الواقع في ضاحية الكرادة الراقية في بغداد، وكانت روايتي تتلخص أنني أصبحت شريكًا له في متجره.

بين الفينة والأخرى كنت أزور أبي وأمي في بيتهما الذي يقع في ضاحية السيدية، أجلس معهما أتحدث عن جميع الأمور ما عدا موضوع الرحيل، إذ أبقيته سر ولم أخبرهما به حتى ليلة قبل الرحيل.

مع أحد أقربائي المخلصين (جواد عودة) الذي كانت له علاقة جيدة نسبيًا مع أحد ضباط الجوازات وكان برتبة ملازم، اتفقنا على استصدار جواز سفر لي مقابل مبلغ مالي كبير، كانت الخطة تقضي أن أستصدر هوية أحوال مدنية وشهادة جنسية عراقية مزورة وبطاقة سكن، وفي جميعها يجب أن أكون بصفة (جندي مكلف)، لذا كان لا بد من البدء من عمل هذه الوثائق المزورة التي أخذت مني جهد كبير ومال كثير لحين أن وفرتها جميعها.

توجهت بعد أن دفعت المبلغ كاملاً إلى ذلك الملازم ضابط الجوازات في مديرية الجوازات العامة عبر أقاربي، كان يوم شتوي غير قاسي البرودة في حضرة شمس مجرتنا الخالدة التي تُهدي الكون وأجسادنا بدفء لذيذ، تلك اللحظة التي قابلت فيها ضابط الجوازات لم أكن أحتاج إلى أي دفء شمسي، إذ أن حرارتي قد ارتفعت بشكل آلي ودون سيطرة مني.

قدمت وثائقي المزورة له، أخذها بيده ونظر إليّ وكأنه لا يعرفني إطلاقًا، كان قلبي يخفق بقوة رغم أني أعرف أنه قد تسلم المبلغ المتفق عليه، رماها على مكتبه ثم أخذ يُحقق معي، حيث سألني عن عملي فأجبته أني عامل وأنهيت خدمتي العسكرية الإلزامية، بعد لا أكثر من عشرة دقائق انتهى من عمل معاملة خاصة بجواز سفر لي وأخبرني بالانصراف والعودة بعد فترة لاستلامه، شكرته كثيرًا ومضيت.

مرت أيام وأنا أكتوي من الانتظار القاتل، كان أول أيام العيد المندائي الصغير (عيد الإزدهار)[1] الناس تزور المندي[2] لآداء الطقوس الدينية، تتزاور وتقدم تهانيها لبعضها بحلول العيد، حتى وردني اتصال هاتفي من قريبي مُعلنًا فشل عملية إصدار جواز السفر، ولكن الأسوأ من كل ذلك هو اتضاح هويتي ومعرفة الأمن بكل تفاصيل عملي، كوني ضابط برتبة رفيعة ولستُ جندي.

الصمت المطبق كان سيد الموقف، الخوف يسري في عروقي وعروق زوجتي، الرعب عشعش في ضمائرنا، الفزع تملكنا بالكامل، أفكار سوداء تراودنا دون رحمة، كأن شهاب كبير من السماء سقط على رؤوسنا فأطاح بها مرة واحدة فلم نستطيع آنذاك لملمة أشلائنا، فورًا تراءت لي قضبان السجن السوداء ولحظات إعدام المدعو (تحسين) رغم أني لم أفعل مثلما فعل، كان هذا ما أخبره به ضابط الجوازات.

أصيب الجميع بوجوم وذهول لتلك المفاجأة غير المتوقعة، ساد الصمت لفترة قطعه صوت الأطفال الذين لم يكفوا عن اللعب في غرفة المعيشة الصغيرة التي نجلس فيها.

إذًا لقد فشلت عملية إصدار جوازي المزور وحلت اللعنة عليّ وعلى زوجتي وعائلتي بالكامل، حيث لم نعلم ما العمل حينها سوى دعواتنا وصلواتنا للحي العظيم أن ينقذنا من هذه الكارثة التي حلت علينا فجأة، بصوت متشنج مخنوق رجوت قريبي كي يحاول مع صديقه الضابط قصارى جهده ويطلب منه أن يعمل المستحيل كي يتلافى الموضوع حتى وإن كلف ذلك مبلغ كبير فوعدني بذلك، أخبرته أني لن أطالبه بالمبلغ الذي أخذه مسبقًا، فليتصرف به كي ينقذ

١- عيد الازدهار: هو العيد الصغير لدى الصابئة المندائيين حيث يحتفل بازدهار الأرض بالزرع واستعدادها لعيش الإنسان.

٢- المندي: بيت العبادة الذي تُقام فيه الطقوس الدينية واللقاءات بين المندائيين.

الموقف، مرَّ الوقت ساخن ثائر محفوف بالخوف الحقيقي من دخول رجال الأمن إلى بيتنا في أي لحظة، رفعت رأسي نحو السماء بخشوع وتلوت صلواتي.

بعد لا أكثر من ساعتين دخل قريبي يحمل الإضبارة الخاصة بجواز سفري المصنوعة من ورق كارتون أسمر اللون، من النوع الرخيص جدًا، والتي نُقش في أعلاها (أنه عقيد في الجيش/ القوة الجوية)، كما كان مثبت أسفلها عدة عبارات تشدد أنه ممنوع عليّ السفر.

انفرجت أساريري قليلاً ورسمت شبح ابتسامة وارتحتُ قليلاً بعد أن أخبرنا قريبي أن الموضوع قد تمَّ تلافيه وقد أغلقت القضية دون أي عواقب، وكذلك دون عودة أي دينار من ذلك المليون التي دفعتها له، ولا بأس بذلك كي أحتفظ برأسي، بت ليلتي مستيقظ حائر تؤرقني شدة الحدث، إذ قلبي كان يرتعش من المجهول.

حتى اليوم لم ولا أعرف حقيقة الأمر، هل ضابط الجوازات قد لعب لعبته الماكرة وادعى ذلك طمعًا بالمال، أم أنه كان قليل الخبرة بحيث لم يستطع إكمالها بشكل أو آخر، ولكنه في كل الأحوال غنمَ المبلغ كلهُ... الله وحده هو الأعلم، انتهت هذه العملية بفشل ذريع كان يمكن لها أن تطيح برأسي ومستقبلي ومصير عائلتي وإلى الأبد، لكن في جميع الأحوال كان لا بد من إيجاد البديل وبسرعة.

عندما يصادف سوء الحظ أحد فيلازمه ويصل به إلى أقصى مداه دون توقف أو هدنة، وهكذا كان قدره معي، إذ في تلك الأثناء قامت حرب جديدة حين قامت الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة بتسديد ضربات جوية مُكثفة على العراق، بدأت بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٩٨ واستمرت لمدة أربع أيام، حيث استهدفت الصواريخ الذكية بعيدة المدى التي أطلقت من بوارج في الخليج

العربي أهداف مُنتخبة على الكثير من المواقع العسكرية، وشملت البنى التحتية ومصانع التصنيع العسكري، وأدت إلى سقوط عدد كبير من الضحايا العراقيين.

بسبب ما وصفته الدولتان بعدم تعاون العراق ورئيسه صدام مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية الباحثين عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، كان السبب الذي دعى الرئيس الأمريكي بيل كلنتون ورئيس الوزراء البريطاني إلى إطلاق عملية جوية قادها الجنرال أنتوني زيني، وسُميت (عملية ثعلب الصحراء).

تلك الأيام توقفت الحياة بالكامل، شوارع بغداد أصبحت كمدينة أشباح خالية مُقفرة، المحلات والأسواق مقفلة، عيون الناس تتراقص خوف وهلع، ولا أحد يعلم متى تنتهي هذه الحرب، مع دعائهم ألا تتوسع وتطول كأخواتها السابقات، كانت الصواريخ تنهال على بغداد على مدار الساعة ولكنها تصبح مسموعة ومرئية أكثر في الليل البارد الحالك آنذاك، إذ كان يمكن للمرء أن يرى نتائجها من خلال رؤية النيران وألسنة اللهب التي تُحدثها حرائق انفجارات الصواريخ في المواقع العسكرية، خلال هذه الأيام كان لا بد من زيارة أهلي في بيتهم والاطمئنان عليهم وتزويدهم بالمواد الغذائية والمال مع العمل على طمأنتهم.

كنت أصعد على سطح بيت شقيق زوجتي مُستخدمًا منظار الرؤية الليلية الذي كان بحوزته، وأرى الصواريخ وهي تتجه نحو أهدافها وتصيبها مُحيلة إياها إلى شظايا متطايرة ونيران، الحمد لله على أن هذه الحرب لم تدم سوى أربعة أيام، ومع ذلك كانت أيضًا سبب في تأخير كل شيء، ومنها محاولاتي الفاشلة في الحصول على جواز سفر مزور.

في ظل هذه الأحداث كان لا بد لي من التصرف بحكمة وسرعة أكبر، ولهذا قررت أن أرسل عائلتي إلى الأردن، كي أكون حر في الحركة والتصرف دون الشعور بالخوف عليهم.

يوم شديد البرودة في أوائل أيام شهر يناير عام ١٩٩٩، رحلت زوجتي وأطفالي على متن سيارتين نوع (جي أم سي) برفقة شقيقها إلى الأردن، وبعد رحلة متعبة جدًا محفوفة بالعديد من المخاطر وصلت إلى العاصمة عمان، وبذلك تمَّ إنجاز أولى خطوات الهروب إلى المجهول.

الآن أصبحت وحدي حر في التصرف، مع شعوري الراسخ في وضع عائلتي الآمن إثر استقرارهم في عمان، لم أعتد على الاستكانة أو الخنوع للأمر الواقع في حياتي، فواصلت محاولاتي المتكررة لاستصدار جواز مزور بأي مبلغ وأي طريقة حتى فكرت في الهروب عبر شمال العراق ومنها إلى تركيا ثم الأردن، أو عبر إيران ومنها إلى الأردن للالتحاق بعائلتي، ولكني لم أقدم عليهما، بل أخذت أبحث عن طرق أخرى وكل منها كانت تأخذ جزء ليس قليل من إمكانيتي المالية التي كانت هي بالأساس محدودة جدًا.

عرض علي قريبي (جواد عودة) الانتقال للسكن في بيته ففعلت ذلك مُمتنًا له، كما اقترح علي فكرة جديدة للحصول على جواز سفر مزور آخر، فوافقت فورًا، وبدأنا تنفيذ خطته التي تقتضي السفر إلى محافظة البصرة وأخذ جواز سفر صديقه الفنان المتوفي، بعد أن كان قد رجا زوجة الفنان الطيبة بذلك، وهي وافقت عن طيب خاطر.

مساءً شددنا الرحال سويًا إلى البصرة، استقلينا القطار الذي سار بنا ليلة كاملة حتى وصلنا إلى البصرة صباح اليوم التالي، كان قريبي مأخوذ بتربية الطيور النادرة ومن ضمنها نوع (الزاجل) الذي يُستخدم في مسابقات قطع المسافات البعيدة، لذا اصطحبني إلى أحد أصدقائه الذي لديه محل لبيع هذه الطيور لتحيته والاطلاع على أحوال الطيور عنده، من هناك انطلقنا مباشرة إلى ضاحية تدعى (الكزيزة)، وتقع ليست ببعيد عن مركز مدينة البصرة، وصلناها إلى هناك عصرًا حيث حلّ الظلام وزادت برودة ورطوبة الجو.

هذه المنطقة البائسة التي تقع في محافظة البصرة التي تعوم على بحيرة من البترول بدت لي وكأنها تعود إلى سنين ما قبل الميلاد أو حتى ما قبل عصر الرجل البدائي (نياندرتال)، الطرق فيها بشعة لا زالت غير مُعبدة والطين يغطيها بالكامل ملأى بالحفر التي تغطيها مياه الأمطار والوحول، بحيث لا يمكن السير دون الغوص في هذه الوحول العميقة، التي لا تبعد سوى سنتيمترات عن أبواب المنازل، القاذورات والأزبال تملأ الحي، أما منازل تلك المنطقة فهي شبه آيلة للسقوط، إنها تسمى منازل ولكنها ليست كذلك، إذ إنها أشباه منازل ولكن ليس بمقدور هؤلاء الناس تحمل أعباء ومصارف السكن في غيرها.

لقد أحسستُ بمرارة كبيرة تسحق وجداني وتنزل إلى أعماقي، لقد تركت البصرة عام ١٩٨٦ بعد أن تمَّ نقلي إلى قاعدة البكر شمال بغداد وحين عدتُ لها بعد ثلاثة عشر عام في ١٩٩٩؛ لم أرَ أي بناء أو تعمير أو تقدم، لا بل رأيت أطلال بناء يعيش فيه الناس البسطاء، وحتى أن بعضهم قد احتل هياكل بناء لم تكتمل وجعلها سكن له في ظل ظروف الشتاء الباردة الممطر، لقد آلمني هذا المنظر القاسي وقلت في نفسي أين تذهب ثروات العراق ومليارات النفط وشعبه يعيش بهذه الطريقة المُهينة؟ أهكذا شاء القدر أن يعيش العراقيون؟.

دخلنا بيت المرحوم صديق قريبي، قابلتنا زوجته الفاضلة المتشحة بالسواد والتي بان على وجهها الشاحب حزن الكون بأكمله، استقبلتنا المرأة أفضل استقبال، سلمتنا جواز سفر زوجها الذي يكبرني بحوالي سبع سنوات، دَسّ قريبي بيدها بضعة أوراق خضراء أمريكية، شكرناها كثيرًا وعُدنا أدراجنا إلى بغداد.

لغرض تهيئة هذا الجواز كان لا بد من تغيير صورة المرحوم صاحب الجواز الفعلي بصورتي، كي يظهر وكأنه عائد لي، ولذلك وجبَ الاتصال بأحد خبراء التزوير الذين يكثرون في مدينة صدام (الصدر حاليًا)، كي يقوم برفع صورة المرحوم بطريقة فنية ووضع صورتي، مع استصدار جميع الوثائق المطلوبة

واللازمة لذلك وفق الاسم الموجود في الجواز، وهذا تطلب جهودًا كبيرة مع مصروفات مالية كبيرة.

في يوم استلام الجواز بفارغ الصبر كنت أنتظر في محل قريبي في شارع النهر حين قدم خبير التزوير ويحمل بشرى اكتمال الجواز المزور، حينها لم أتمكن من إمساك نفسي عن سؤاله عن النتيجة وفورًا أشهر الجواز ووضعه بيدي، ما أن شاهدت الجواز ومحتوياته وتمعنت في تفاصيله وكيف تمت عملية رفع الصورة القديمة ولصق صورتي مكانها حتى امتقع وجهي، إذ لم أقتنع بالنتيجة ولم يعجبني جواز السفر بأكمله، إذ أنّ الجواز بدا لي وكأنه يصرخُ بعدم نظاميته وقد يرسلني دون أدنى شك إلى الهاوية، نقدته ما تمَّ الاتفاق عليه من مال دون أدنى شعور بالفرح، إذ علمت فورًا أني لن أستخدمه.

الأيام تمر ثقيلة وحزينة وبطيئة دون أي تقدم في عملية إصدار جواز سفر مزور أستطيع به تجاوز الحدود العراقية إلى المجهول، أمس كاليوم واليوم مثل غدًا لا فرق بينهم سوى لحظات تمر هاربة لا تُحسب من عمر الزمن، رغم تقدم عمري وانخفاض توقعاتي، زوجتي وأطفالي في عمان في أمان ولكن فترة إقامتهم آخذة بالنفاذ، المبلغ المالي في حوزتهم بدأ أيضًا بالتناقص شيء فشيء، أنا في شوق كبير إليهم جميعًا، ولكني هنا أناضل مع قريبي (جواد عودة) من أجل اختراق الحدود دون أمل قريب، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان كما قال النبي (يسوع المسيح) عليه السلام ولكن بالأمل، فكان عليّ أن أتحلى بالصبر والأمل؛ إذ أنهما مفتاح الفرج ودونهما لن تكون هناك أية حياة.

كما أن سوء الحظ ضربني عدة مرات كما البرد يضرب بأطنابه والمرض يأخذ مني مأخذ وأنا ألوذ في ظل سرية سفر عائلتي، ومحاولاتي الفاشلة في استصدار جواز سفر مزور، وإذا بعمي الأكبر يتوفاه الله، فما كان مني وأنا أكبر الأبناء المتواجدين في العراق إلا أن أتحمل وزر جميع إجراءات ومراسيم الدفن وإقامة مجلس العزاء اللائق وإنجاز كافة الأمور المتعلقة الأخرى، وهذا

ما عرضني إلى إحراجات وأسئلة كثيرة لم ترقني آنذاك، وكان يمكنها أن تفضح أسرار خطة هروبي.

يبدو أن القدر قد اتفق ألا يتفق معي، فبدت الدنيا لي كنفق دون أدنى بصيص شعاع ضوء في نهايته، حتى أصبحتا عينايَّ زائغة ضائعة منهكة جامدة التقاسيم تنطقان بالحزن الشديد وفقدان الأمل رغم علامات الابتسام التي أحاول رسمها على شفاهي، لقد أصبحت نظراتي خالية من أي تعبير إلى الحياة، لقد تاهت عليّ كلمات الحياة بين أصوات القدر رغم المساعدة الكبيرة وكلمات التشجيع التي كان يكيلها لي قريبي وزوجته الرائعة وأولاده الطيبون، ولم يبخلوا إطلاقًا من الترويح والتخفيف عني، كنت أجلس مع أفراد عائلة قريبي وأتحدث معهم وأداعبهم ونضحك لكني كنت بعيد عنهم بُعد السماء عن الأرض.

كادت إحدى محاولاتي أن تأتي بحتفي عندما كنت في طريقي إلى ضاحية الغزالية، لمقابلة شخص يعمل في مديرية الأحوال المدنية لغرض الاتفاق معه لاستصدار هويات مزورة لي، كان ذلك أثناء ركوبي في حافلة مُتجهة نحو ضاحية الغزالية، عندما كانت الحافلة تسير بمحاذاة شعبة الحزب الحاكم في منطقة الشعلة في يوم إعدام رجل الدين الشيعي الصدر وشقيقته، عندها أخذت حشود الشعب الغاضبة والثائرة بالهجوم على مقر الشعبة الحزبية حتى بدأ حراس الشعبة بإطلاق النار الحقيقي المباشر على الناس الذين سرعان ما ارتدوا.

كنت واقفًا داخل الباص وشاهدت ما حصل بأم عيني، حيث اجتاحني رعب وخوف شديدين حتى إني لم أستطع التقاط أنفاسي المتهدجة، ولتفادي الإصابة بالنيران خفضت قامتي إلى أدنى مستوى وناديت على سائق الحافلة كي يطلق سرعتها بأقصى ما يستطيع، وبذلك استطعنا تخطي ذلك الموقف الذي كان يمكن أن يتحول إلى نهاية محتومة لي، والإذعان للقدر في التواري تحت أرض الوطن دون مستقبل في اختراق حدوده والالتحاق بعائلتي.

كل لحظة كانت تمر علي كأنها دهر، ما زالت محاولاتي وقريبي مُستمرة دون انقطاع وكلُ واحدة منها تستنفذ طاقات هائلة وتستقطع من ماليتي المحدودة أصلاً جزء جديد منها، بحيث أخذت تتناقص بشكل كبير دون تحقيق أية نتيجة إيجابية تذكر، أفكارنا تنمو ولا تنضب من خطط جديدة، ولكن الأفق بان وكأنه فراغ في فراغ، وهنا أخذ الأمل يتلاشى مع مرور كل لحظة أو دقيقة.

ما زال الوقت يتدلى بتثاقل كئيب على أوتار الزمن الأغبر دون ومضة أمل في الأفق لكن الهروب من المواجهة لا يحل المشكلة وهو وسيلة الضعفاء، وأنا أرفض أن أظهر ضعيف رغم قساوة الموقف الذي أمر به، إذ علي أن أتحلى بالقوة، والقوة تتحقق عندما تكون صاحب هدف، لذا سأفعل المستحيل كي أصل إليه.

عصر يوم شتوي ماطر بعد أن أخذ الظلام يلف العالم بسواده الحالك زرت سوق الشاه بندر والأسواق المجاور والمحاذية له، ورغبت أن أزور أقاربي وأصدقائي فيها كي أروح عن نفسي، ولعلي ألتقط خيط جديد من الأمل، حتى سقط على بالي حديث قريبي الذي التقيته سابقًا في سوق البياع الشعبي، وتذكرت ما قاله، لي حينها اتجهت فورًا إلى متجره، وكان يقبع في نهاية سوق الألوسي العتيد الذي ينتهي إلى شارع المتنبي الشهير.

لم أكن بوضع يسمح لي أن أُفكِّر آنذاك بشارع المتنبي وأثره الكبير على الحركة الثقافية في البلد، وهو الذي يزخر بالمكتبات الحديثة المليئة بكنوز الكتب والمخطوطات، لقد كان هذا الشارع مبعث إعجاب جميع طالبي العلم والمعرفة والأدب والتاريخ وجميع أنواع الثقافة، أصبح هذا الشارع مركز للمكتبات إثر انتقال المكتبات من سوق السراي العتيد إليه، في بدء ازدهار هذا الشارع كان البغداديون والعراقيون يعيشون عصر ثقافي وإبداعي جميل.

ما أن دخلت إلى متجر قريبي (داخل) حتى هبَّ في وجهي واستقبلني أخوه (سالم) مرحبًا بي فاردًا يديه بقوة رافعًا إياي من الأرض، إذ كانت تربطني بهم

علاقة من ناحية أمي، بعد أن أكملنا مراسيم التحية والسلام والأحاديث الودية وأخبار الأهل حتى باشر (داخل) بسؤالي:

- أرى أنك ما زلت هنا! لماذا لم تسافر حتى الآن؟

طأطأت رأسي إلى صدري وبألم بائن وحسرة طويلة أجبته أني لم أستطع الحصول على جواز سفر مزور كي أنفذ من الحدود كي ألم شملي بعائلتي... فما كان منه إلا أن ذكرني بحديثه السابق مُعاتبًا وقال:

- ألم أخبرك سابقًا أن لدي صديق يعمل في مديرية الجوازات العامة، ويمكنه ببعض المال استصدار جواز سفر رسمي وحقيقي بمعلومات شخص آخر ولكن بصورتك أنت؟ ألم أخبرك به فلماذا لم تأتني؟

تأسفت منه وأعلمته أني لم أخذ كلامهُ على محمل الجد آنذاك، واعتبرته مجرد كلام عابر، ولكن الآن أنا جاهز لكل شيء إن كان الأمر كذلك، أجابني فورًا سوف نتصل به ونستعلم كل شيء، فما كان من سالم إلا أن رفع سماعة الهاتف وأدار الرقم وتحدث مع شخص لم أكن أسمع ما كان يدور بينهما، ما أن أنهى المحادثة حتى قال يمكننا زيارته الليلة والاتفاق معه مباشرة، وسوف نقطع السعر معه اليوم فما رأيك أنت؟.

لم يكن لي أي رأي، إذ كنت جاهز لأي شيء بعد أن فترت همتي لوقت طويل وذبلت طاقتي ونقصت إمكانياتي المالية، وضعفت معنوياتي وانخفضت إلى الحضيض بعد أن آلمني كثيرًا بُعد عائلتي عني، أجبته بقوة وثقة مطلقة:

- نعم أنا جاهز ومستعد ولنفعلها اليوم قبل غد.

أغلق الأخوان قريبي متجرهما واتجهنا سيرًا عبر جسر الشهداء نحو سيارة سالم التي ركنها في ساحة وقوف السيارت في الجهة المقابلة من نهر دجلة الخالد، استقلينا السيارة وانطلقت بنا لا تلوي على شيء، إلى أن وصلنا إلى منطقة تراءت لي أنها راقية، بقيتُ في السيارة لزمت مقعدي وتسمرت فيه، ترجلوا هم برشاقة وولجوا إلى داخل بيت الضابط.

بعد مرور أقل من ساعة خرجوا والفرحة في عيونهم، دسوا أجسامهم في السيارة حتى قالوا لي إن كل شيء على ما يرام، ولقد وافق على الموضوع مقابل مبلغ ثمانية عشرة ورقة أمريكية خضراء (١٨٠٠ دولار أمريكي)، وإنه يبلغك تحياته ويطمئنك أن كل شيء قانوني ورسمي، وكي يزيد من اكتمال الصورة ونجاح العملية حتى أن سائق التاكسي شقيق الضابط يمكنه أن يقلك إلى الأردن.

خفق قلبي بشدة، اجتاحتني موجة من السعادة، هذه اللحظة الحاسمة التي كنت أنتظرها منذ فترة طويلة، كل شيء بدا لي جميلاً، إذًا الأمور أخذت تسير نحو اتجاهها صحيح، شكرت ربي ودعوت أن يُكمل فضله عليَّ.

شكرتُ أبناء خالتي داخل وسالم وسمير كثيرًا، وما زلتُ أشعر بكمٍ هائلٍ من الحب والوفاء لهم لموقفهم الإنساني الطيب.

عدتُ إلى بيت قريبي مفعمًا بالسعادة حتى أخبرتهم بالأمر فكانوا غاية في الغبطة وتمنوا لي نجاح العملية والتوفيق، نمت ليلتها ملء جفوني أحلم بيوم اللقاء ورؤية عائلتي بعد أن مضت عدة أشهر قاتلة طوال.

كان علي أن أزودهم بصور شخصية لي مع تسليمهم بعض من المبلغ المُتفق عليه، لذا زرتهم مساء اليوم التالي وسلمتهم إياها، على إثرها أخذت أحسب الأيام والساعات وحتى اللحظات كي تتحقق المعجزة وأستطيع إمساك هذا الجواز اللعين بيدي، رغم ارتفاع معنوياتي الواضح إلا أني مرضتُ بالأنفلونزا التي طرحتني الفراش لعدة أيام، ولم يسعفني تناول أنواع الأدوية الطبية ولا حتى مزيج الثوم والبصل مع العسل، الذي جعل أولاد قريبي يهربون من الغرفة التي أرقد فيها معهم تخلصًا من الرائحة النفاذة، إلا أني كنت على تواصل متواصل مع أقاربي حول موعد اكتمال الجواز.

الساعة تشير إلى الثانية والنصف ظهرًا رن جرس هاتف بيت قريبي (جواد عودة)، وكان (سالم) على الطرف الثاني، لم يتكلم بإسهاب لكنه اختصر الموضوع وقال إنه علي الآن التوجه إلى متجره لاستلام الدفتر، وكان يقصد الجواز، مع تشديده على جلب باقي المبلغ، شكرته بقوة، توكلت على الله ونهضت فورًا، غيرَّت ملابسي جرجرت نفسي رغم مرضي الشديد وتوجهت نحو خان الشاه بندر ومن ثم عطفت على خان الألوسي ودخلت متجرهم الصغير.

على ما بدا أنهم كانوا في انتظاري، طلبوا لي كأس من الشاي اللذيذ المعطر برائحة الهيل العراقي بعد أن دسوا في يدي كأس آخر من الماء، وتحمدوا لي السلامة، استسمحني (سالم) وخرج بعد أن اتصل بصديقه ضابط الجوازات واتفقا على الاستلام والتسليم. ما هي إلا ساعة زمان حتى عاد (سالم) إلى المتجر ومعه الجواز الأعجوبة الذي سينتشلني من ورطتي.

فورًا امتدت يدي وقلّبتُ صفحاته حتى شاهدت صورتي تحتل مكانها بثبات أعلى اسم الشخص ومعلوماته الشخصية الأخرى، إذ كان من أهالي محافظة الأنبار (الرمادي) شعرت بقلبي ينتفض سرورًا وغبطة، أخبرني (سالم بطيخ) أن الجواز رسمي وقانوني وأنه مدون في المنظومة الإلكترونية بنفس المعلومات ما عدا صورتي وأنه يمكنني السفر به في أي موعد أشاء وبأي وسيلة نقل إلى الأردن.

كان يبدو وكأن العالم أصبح بيدي بعد أن أمسكت جواز سفري المزور الذي وثقت به منذ أول لحظة وليس كالجواز السابق، ثمة مشاعر متناقضة قوية مجهولة تختلج عقلي لم أفهمها لكني كنت أشعر بصدقها وحقيقتها، قلت في نفسي عليك أن تتحلى بالصبر قليلاً كي تصل الأمور إلى نهايتها، فجأة قفزت إلى مخيلتي صور أولادي زيد وهند وفرح، وضحكاتهم وأحاديثهم البريئة

تصورت نضال زوجتي وسعيها الحثيث لإبقائهم تحت جناحيها الدافئين وحمايتهم.

لم تفتني ملاحظة قريبي السابقة حول استعداد شقيق ضابط الجوازات والذي يعمل كسائق تاكسي لنقلي إلى الأردن، لذا أخبرت قريبي فورًا أني قد قررت السفر معه بأسرع وقت حالما يكون جاهز، وسوف أنقده المبلغ الذي يطلبه دون تردد، كان قراري هذا نابع من أساس راسخ أن السائق شقيق الضابط سوف يكون حريص جدًا على إيصالي بسلام وآمان، بدلالة السعي لعدم وضع أخيه الضابط في موقف خطر، وأنه سيبذل قصارى جهده لإنجاح العملية دون أن تحصل أية مشاكل في الطريق أو في نقاط السيطرات الحدودية.

والآن أصبح الجواز بيدي والقرار بيدي أيضًا ولي اتخاذ الطريقة التى أشاء في التصرف، ولكني قد قررت أن أكون مع الوسيلة المناسبة لهذه المهمة المصيرية وأنا على ثقة مطلقة أن الحي العظيم سيبارك خطوتي هذه وسيمدني بالقوة والصبر.

تركتُ متجر أقربائي بعد أن قدمتُ لهم جميع كلمات الثناء والشكر والعرفان لموقفهم الإنساني الرائع وأنا أضع يدي في جيبي، أمسك بالجواز غير مُصدق تمامًا، أتحسسه وكأني أحاول التأكد من عدم اختفاءه، أصك عليه كي لا يهرب، أندس في أقرب سيارة أجرة كي توصلني إلى سوق البياع إلى أقرب هاتف كي أستطيع أن أزف الخبر إلى قريبي.

ما أن حصلت على فرصة الاتصال بالابن الأكبر لقريبي حتى أخبرته بذلك، كان في غاية السعادة، كما رجوته الاتصال بصديقه أحمد كي يتنبأ لي ما يمكن أن يحصل.

رغم أني لا أعترف بالأمور الغيبية ولا بأخبار العرافين ولا الحسد ولا كل غيرها من الأمور وأعتبرها خرافات وتراهات؛ إلا أني في تلك اللحظة قد

استسلمت لها ووضعت نفسي أسير لها، الشاب أحمد هو صديق قريبي المخلص وكنت أراه كثيرًا حينما كان وعائلته يزور بيت قريبي، حينها لاحظت بعض قدراته الفائقة في التنبؤ وغيرها، كان هذا الشاب ذو القدرات الخارقة هو من كان يتنبأ للرئيس صدام حسين ويزوده بجميع قراءاته للمستقبل وصدام وثق به بالكامل.

ساعتان مرتا حتى كنت في بيت قريبي، وكان (فراس جواد) ابن قريبي يعلمني أن صديقه أحمد قد قرأ طالعي، وأن الطريق مفتوح بالكامل لي دون أية مشاكل أو معوقات وكذلك يمكنني السفر أي وقت أشاء، كان الاتفاق مع سائق التاكسي يقضي أن يكون يوم السفر في اليوم الذي يلي غد، لم يتبقَ شيء وسأسير على أشواك الظلم كي أخرج من نفق الظلام وأصِل إلى فضاء الحرية.

تسللت أشعة القمر من بين طيات ستائر الشباك مُقتحمة الظلام الحالك في غرفة منامي، فسقطت على وجهي المتعب فأخذت أهداب عيني تتحرك ببطء متثاقل وشريط الذكريات يمر أمام عيوني بوضوح، وتتراءى لي ومضات عيون وابتسامات أطفالي أمام ناظري، عندها أدركتُ أني أصبحت على مرمى حجر من لقائهم، ومن ثم غفوت بعمق، ليلتها نمت ملء جفوني بعمق بعد أن عادت وتصاعدت في نفسي موجات الأمل.

صباح جديد وأمل متجدد ثمة نسمات باردة حالمة تمتزج بالضباب الأبيض الشفاف تسقط على وجه الطبيعة كي تمنحها سحرها وبرائتها، نهضتُ بنشاط غير معهود رغم مرضي، أخذت ألملم حاجياتي وملابسي أضعها في حقيبتي الصغيرة، وأخذت أتخيل الموقف لحظة اجتماعي مع عائلتي، تكورت في عيني كرات من شوق وسقطت بحنين بالغ إلى خديِّ الساخنين أصلاً بسبب الحُمى وسكنتُ في صمت عميق بحيث باتت أصوات شهيقي وزفيري تُسمع في الأفق البعيد.

قطع صمتي وحنيني صوت زوجة قريبي الطيبة تناديني لتناول الفطور، جلسنا على مائدة الإفطار سويًا ومزاجي ليس على طبيعة الأيام السابقة، إذ أنه اليوم على أفضل حال، لا سيما وأن موعد لقاء الأحبة قد أزف، اليوم مزاجي رائق، تمازحني زوجة قريبي وأبنائها الطيبون كثيرًا حول موضوع عشقي لتناول الثوم مع البصل الذي يقع ضمن اعتقادي الراسخ بفاعليتهما في علاج مرض الأنفلونزا ويقولون لي:

- عمو عباس ماذا يفعل الثوم معك وأنت لا تزال مريضًا؟ لِمَ لم تعافيك شرائح البصل التي تلتهمها دون رحمة؟

كما يضيف ابنها الأصغر مازحًا:

- وهل أعجبتك العَنبة (مخلل مصنوع من خضراوات وتوابل عادة ما يصنع في الهند) التي صنعتها ماما؟ أليس مِلحها قليل؟

ونطلق أنفسنا في ضحكات بريئة مجلجلة...

كان علي ابتياع بعض الحاجيات استعداد للسفر أو بمعنى أصح للهروب من محن الوطن، أو الوطن المِحن، حيث كثرت محنه ولم يبد في الأفق أي بصيص أمل في توقفها أبدًا، لذا توجهت نحو ضاحية الكاظمية وأخذتُ أتنقل بين متاجره وأسواقه العامرة لحين استوقفتني امرأة باسقة الطول ترتدي حجاب غير نظامي، كان قد هوى من قمة رأسها وأظهر خصلات شعر رمادية دون أن تتكلف برفعه عن قصد، إذ أنها لم تكن متعصبة أو مُغالية في دينها أبدًا.

بيدها تمسك (ه.ح) طفلة صغيرة بعمر الزهور، لم أتعرف عليها في بداية الأمر حتى اقتربت مني أكثر، وتفرست في تقاطيع وجهها التي غابت النضارة عنه بعد أن فعل الزمن به فعله، وجعله كوريقة خريف ذابلة رغم ما بانت عليه من مسحات جمال ظاهرة، ألقت التحية علي حتى أزهرت عيناها عن ابتسامة عريضة وأطلقت بريق سحري غاب عنهما زمن، انفرجت أساريرها عن فرح

غامر وشعور أنساها ابنتها التي وقفت أمام واجهات إحدى المحلات تتفرس في بضائع ولعب خاصة بالأطفال.

حييتها بقوة لكن باندهاش واضح فما كان منها إلا أن تنحني وتقبل يدي اليمنى ثم تضع يدها كعصفور في أحضان يدي التي أخذت ترتجفان من شدة المفاجأة، هذا الفعل أحدث في نفسي هزة قوية نفذت إلى أعماقي وأشعرتني بحنين كبير لأيام رائعة خلت من الماضي الجميل البعيد، حتى أنساني مصيبتي وهدفي الحالي، ثواني كسنين مرت وعيوننا تتحدث بالكثير ولم تحد عن بعضهما إطلاقًا، كانتا تُرسلان شعاعات شوق بريئة عن الذكريات واللحظات السعيدة التي كانت تجمعنا حين كنت ما أزال في طور الشباب والحرية قبل الزواج، لقد رفعتني المفاجأة إلى السماء بقوة ثم أسقطتني من علوها فأحدثت في نفسي هزة إضافية ولكنها كانت هزة لذيذة ورائعة.

ما أن انتهيت من عملية شراء حاجياتي حتى عرجت على بيت أبي وأمي جلستُ معهما وأفشيت سر رحلتي ورحلة عائلتي إلى المجهول، دَسستُ كيس مليء بالمال تحت وسادة أبي، قبلت أبي وأمي ورجوتهم الدعاء لي ولعائلتي بنجاح وصولنا إلى بر الأمان وطلبت منهم السماح والغفران، بعيون دامعة مضيت ونياط قلبي تتمزق حتى عرجت على بيت شقيقتي وكانت مع ولدها وابنتها، شقيقتي الصابرة هذه التي لم يرحمها القدر إذ أصبحت أرملة وهي في عز شبابها بعد رحيل زوجها ابن عمي في ليلية سوداء، أثناء الحرب العراقية الإيرانية دون أي شاهد أو قبر له، تاركًا خلفه زوجة شابة وطفلين صغيرين رائعين، ودعتهم بنفس كسيرة ومضيت نحو بيت قريبي.

يوم الخلاص العظيم يوم الرحيل يوم يُكرم المرء أو يُهان كان يومًا شتويًا مشمسًا رائعًا باردًا قليلاً، تجمعنا أنا وجميع أفراد عائلة قريبي (جواد عودة) نقف جميعًا في انتظار سائق سيارة الذي سيقلني إلى المجهول، كنت أنظر لنهاية الشارع كطفل ينظر إلى القمر، حقيبتي الصغيرة جاهزة وتنتصب قرب

عتبة الباب الرئيسية، زوجة قريبي الطيبة كانت قد هيأت كمية كبيرة من الطعام والماء وأنواع العصير بعد أن حسبت حصة للسائق.

شكرتهم كثيرًا، وسأبقى مدينًا لهم طالما حييت، أتذكر سخاءهم وطيبتهم ووقفتهم المشرِّفة، وجميلهم عليَّ.

رغم مرضي الشديد كان شعوري يحمل العديد من الأحاسيس المتناقضة إذ في الوقت الذي كنت أتمنى الرحيل والوصول لرؤية زوجتي وأطفالي بعد أن ضرب الشوق فيّ أطنابه، كان فراق البلد الذي ولدتُ وترعرتُ فيه وفراق أهلي وأصدقائي صعب جدًا، وكذلك فراق هذه العائلة المُحسنة الرائعة التي آوتني وساعدتني في أحلك أوقات حياتي العصيبة، لكن لم يخالجني شعور بالذنب أو الندم إطلاقًا، لقد كنت عازمًا على الرحيل ونيل حريتي بأي ثمن كان.

سيارة نوع تويوتا حمراء اللون توقفت قربنا دون إنذار، ترجل منها رجل في عقده الرابع مُفعم بالشباب والحيوية، وبلهجة أهالي المنطقة الغربية ألقى التحية وعرف عن نفسه وكان هو السائق الذي سيقلني إلى المجهول، على غفلة من الزمن ابتلعتني السيارة الحمراء الفارهة وانطلقت كالسهم تقطع شوارع بغداد الداخلية لا تلوي على شيء باتجاه الغرب وما أن تحسست راحة الشوارع السريعة العريضة حتى أخذت تنهب الأرض مُخلفة ورائها شحنة من مشاعري وأحاسيسي المتداخلة التي أخذت تتناقص شيء فشيء تدريجيًا.

توقف السائق بنا في مدينة الرمادي، دخلنا بيته الكبير الفاره، أكرمني تناولنا وجبة الغداء ثم أقلني إلى مكان سكن الشخص الذي انتحلتُ شخصيته في الجواز المزور، دلني على النقاط الدالة مثل مركز الشرطة ومقر الحزب الحاكم وغيرها في إطار التحسب في حال حدوث طارئ، وما أن انتهينا من جولتنا حتى اعتلينا سيارة أخرى نوع (جي أم سي) أمريكية الصنع، مطلية بلون

سيارات الأجرة البرتقالي، بعد أن عبّأها حتى غصّت بأنواع المواد الغذائية كالتمور والخل والسجائر وغيرها ثم انطلقنا نحو الحدود الأردنية.

كنت قد قررت ركوب هذه المغامرة مع السائق وحدي ودون أي راكب آخر قد يقوم بإلهائه عن مهمة اقتلاع جذوري من العراق، وزرعي على الجانب الآخر من الحدود بأمان وسلامة كاملة حتى أني سددت كامل أجور السيارة، جلست مُطأطأ الرأس مقهور مطحون صامت، حتى القمر لا يقوى إرغامي على الابتسام، بعيون تائهة زائغة أحدق بأرضية الشارع التي تسير وتتسارع بقوة نحوي تاركة إياي لا أقوى على الكلام أو التعبير أو الحركة.

على خجل واستحياء غابت الشمس مُودعة الأفق الجميل بسرعة مذهلة، انتشت السماء بحمرة الخجل بعد أن سحبت الشمس شعاعات النور معها، وبدأت خيوط الظلام بالتسلل نحو الكون ومعها بدأ الصمت والسكون، القمر حزين يسير معنا والنجوم ساكنة، أحدقُ فيه فيمنحني حزن إضافي، قلبي يرتجف ومزاجي عكر، ليس لدي رغبة في أي شيء سوى البكاء، بدا السائق الخبير في مثل هذه الحالات مُدرك لحالتي المأساوية فأخذ يحاول إزالة خوفي وحزني، السيارة تسرع أكثر، بدأت أشاهد إنارة مركز الحدود (طريبيل)[1] توتري يزداد وكذلك رعشة بدني، لم تكلل محاولاته الأولى بالنجاح، ولكنه استمر حتى أخبرني أنه على ثقة كبيرة أن جميع الأمور على الحدود ستمضي على سلام، إذ أن الكثير من معارفه وأقاربه يعملون في المركز الحدودي، وهُم من يُدير عمليات الفحص والتأكد من صحة الجوازات، وإنه حريص جدًا على عدم افتضاح أمر أخيه ضابط الجوازات، عندها شعرت بقليل من الراحة وخَفّ توتري بعض الشيء.

١- طريبيل: مركز التفتيش الحدودي الواقع بين العراق والمملكة الأردنية الهاشمية.

الظلام الحالك يتزايد والجو أصبح أكثر برودة وحرارتي بسبب مرض الإنفلونزا ترتفع كلما اقتربنا من نقطة الحدود، المرض يفتك بي كما الخوف... آه يا لطبيعة الدنيا هل هذا ثمن الحرية، كل شيء في الحياة غير منطقي، في حضرة الظلام يجتمع الحزن والمرض والخوف ولا سلطان عليهم، أرفع رأسي نحو الأعلى وأرى عبر نافذة السيارة شكل الكون كصورة سوداء باذخة الجمال يتوسطها قمر صافي مُضيء رائع وقت اكتماله، حين بدا كقرص دائري مُنتظم الشكل تبرز في داخله خارطة تضاريس واضحة ذكرتني بأقوال العراقيين الذين كانوا يرددون مقولة إنهم يشاهدون صورة الزعيم عبد الكريم قاسم على سطح القمر، غيمات صغيرات تدور وترقص حوله كأنها تدعو الناس إلى فُرجة مجانية.

الليل ينتصف ونحن نقترب نحو مصدر الإضاءة والأنوار الصادرة من مركز الحدود، إنها بداية الخطر أم خط نهاية الحزن؟ يضغط السائق دواسة الفرامل فتقف السيارة في أول نقطة سيطرة فيتوقف قلبي عن الخفقان معها، وأكاد لا أقوى على السيطرة على رعشة ساقاي ويداي، إذ أخذتا بالرقص دون ألحان، يلقي عليهم التحية ويشهر جوازي المزور وجوازه فيسمحوا له بالمرور، يواصل إلى نقطة السيطرة الثانية وهي الأهم والأخطر، وضعت في يده كل ما أملك من نقد عراقي فيترجل السائق بعد أن أخذ الجوازات ويُدبر نحو موقع فحص الجوازات والتأشير.

هل سأنجو؟ لا أعرف بعد، إذ أني على بعد أمتار من الطرف الثاني من الحدود وكذلك من قضبان السجن وحبل المشنقة إذا ما فشل الهروب، أجلس مقرفص رجليّ أضعُ يديّ بينهما وأرتجف من الخوف والبرد والمرض، يا إلهي... هذه جميعها اتحدت في جبهة واحدة فأحدثت في نفسي موجة عارمة من الرعب الأسطوري، الذي تملكني بالكامل سحقني حتى النخاع.

بين ثانية وأخرى أنظر إلى نقطة السيطرة عسى أن أرى السائق قادم مُبتسم ولكني لا أرى شيء سوى الفراغ والظلام الحالك السواد، بقوةٍ أمسك الدرفش[1] الذي يتدلى في سلسلة ذهبية أرتديها حول عنقي دومًا، وما زلت أردِّد صلواتي وأدعو من الحي العظيم أن يُنجيني من فك الظالمين ، تُرى ماذا سيفعلون بي لو اكتشفوا أمري؟ هل سيرسلوني إلى سجن الحوتة في مديرية الاستخبارات العامة فيُحيل حياتي إلى جحيم، أو قد يختصروها بإرسالي إلى المحكمة الخاصة (محكمة الثورة)، التي بدورها ستهدي روحي تذكرة سفر مجانية سريعة إلى الجحيم؟ احتوتني هالة كبيرة من سكون الموتى أدخلتني في دوامة سوداء، وقلت ماذا سيحل بعائلتي التي انقطعت السُبل بها في الأردن بعد أن قاربت تأشيرتهم على النفاذ؟ هل ستطاردهم الشرطة الأردنية وترغمهم على العودة إلى السلطات العراقية التي ستتلقفهم بسعادة بالغة وستتلذذ بإهانتهم؟

الدقائق تمر حزينة وعقلي لا يسعه التفكير، فترة غياب السائق طالت ماذا يفعل هناك يا ربي؟ هل كشف الأمن أمري وأخذوا يحققون معهُ أم ماذا؟ هذه اللحظات هي الخط الفاصل بين الموت والحياة بين الظلم والحرية وأخيرًا بين الظلام والنور، ولكن لماذا هذا التأخير؟ ألم يقل إنهم من معارفه وأصدقائه؟ دقائق سوداء تمر وتحل محلها أخرى أكثر قتامة وتمضي ثالثة ثقيلة وقاتلة والفراغ والصمت والرعبُ يلفني بالكامل ولا يدعني أستنشق نسيم الليل البارد، تزداد نوبة الربو اللعين أتناول أنبوب الدواء لأفرغ منها شحنة في أعماق رئتيّ المسكينتين كي تصمدا في وجه ريح الرعب العاتية التالية.

أعود وأكرر تلاوة صلواتي ولا شيء بوسعي سواها، إنها ملاذي الأول والأخير، بإمكاني أن أتذكر جيدًا حين تراءى لي كما يحدث في الأفلام شريط

١- الدرفش: وتعني الراية وهي الرمز المندائي الذي ينصب عند إجراء التعميد في المناسبات الدينية.

الذكريات وجوه أبي وأمي، نظرات زوجتي وابتسامات أطفالي، لحظات السعادة والتعاسة في جميع صفحات حياتي.

دهرٌ مضى ببطء شديد والسائق مفقود في الفراغ والعتمة، وأنا أتأرجح على الحبل الرفيع ما بين الجحيم والنعيم، ما زلت أردد الشهادة المندائية (يا هيي... يا ماري... يا مندا إدهيي)[١] تارة أتعلق بدعواتي وصلواتي وكذلك كلمات السائق التي طمأنني بها قبل تلاشيه في الظلام، وتارة أخرى أرى الشيطان بلباسة الأسود وهو يستعد مُبتسم كي ينجز عمله الروتيني معي، يا إلهي أرى شبح يتحرك قد يكون السائق، نعم إنه السائق أخيرًا، يا إلهي ماذا حدث معه، ليخبرني بسرعة قبل أن أفقد عقلي...

يتقدم السائق بأريحية مطلقة حاملاً بيده الجوازات يدخل إلى السيارة، يرمي الجوازات على سطح عدادات السيارة بهدوء قاتل، ثم يتربع على كرسية الوثير الذي أضاف إليه بعض الشراشف الملونة كي يكون أكثر راحة ونعومة دون أن ينبس بكلمة واحدة مُحاولاً تدوير المحرك، جسمي ورأسي يدوران نحوه وعقلي ينتظر كلمة واحدة منه وهو لا يبالي بأي شيء, بصوت ضاعت عنه الحياة أهجم عليه بقوة متسائلاً عن النتيجة فيجيبني ببرود:

- يا أخي نحن نعمل بجدية وتفاني فلا تقلق... كل شيء سار على ما يرام، وإن خبر عبور الطائر (ويقصدني بذلك) قد وصل إلى بغداد...

ثم أطلق ابتسامة منتصرة تحولت بعد ثوانٍ إلى ضحكة ذات صوت مسموع، وتحرك بسيارته إلى مركز تفتيش الحقائب بعد أن أعاد لي بعض الدنانير العراقية قائلاً:

١- الشهادة المندائية (يا هيي.. يا ماري.. يا مندا إدهيي): وتعني الله موجود الرب موجود العليم موجود، يقولها المندائي في كل وقت تقريبًا إشارة إلى ذكر الله، وأحيانًا كثير في تفويض الأمر لله يمكن أن تقابل (لا حول ولا قوة إلا بالله).

- يمكنك أن تُعطيها إلى موظف التفتيش.

دسستها في جيبي دون أن أقول شيء سوى كلمة شكرًا.

وقف السائق بسيارته مرة جديدة لتفتيش بضائعه وترجلت معه كذلك، رفعت حقيبتي الصغيرة بيدي وتوجهت نحو دكة التفتيش ووضعتها عليها، غرفة التفتيش صغيرة متواضعة وغير مرتبة، ولم يكن أحد بها لذا انتظرت لدقائق، جاء أحدهم عيناه تقدحان مكر وطلب مني جواز سفري، قلبي أخذ ينتفض خوف مرة جديدة، وبدأ بدني يرتجف كسعفة نخلة وسط عاصفة، ما أن قرأ المعلومات في جواز سفري المزور حتى سألني عن تاريخ ميلادي فأجبته ١٩٤٨، فما كان منه إلا أن يقول:

- لا يبدو عليك هذا العمر...

كلماته هذه أحدثت زلزال في أعماقي، إذ لا أمان ولا سلامة في هذا المكان إطلاقًا كُلهم ينتمون إلى جنس واحد وهو النظام الحاكم والاستخبارات ومنظومة الأمن، ولكن كيف استطاع هذا الثعلب الماكر تمييز عمري رغم إطلاقي لحيتي وعدم تصفيف شعري والتعب الظاهر على وجهي، نتيجة جميع أنواع المتاعب التي صادفتني في كل فترة التخطيط والتنفيذ للهروب؟ ما العمل الآن؟ يجب ألا أدعه يتنفس، يجب أن أردعهُ فورًا، يجب أن أجعله يرتد عن تلك الفكرة، لذا لم أدعه يكمل أخر حرف من كلمته الأخيرة حتى قلت:

- يا أخي لا تنق عليَّ وأنا ذاهب لأجري عملية في عمان... لا أعرف إن كنت سأعود لبلدي بعدها حيًا أم سيعيدونني في تابوت.

فورًا دسست بيده الدنانير فصمت وأخذ يقلب حاجياتي لحين وقع نظره على زجاجتين من العرق العراقي الرائع كنت قد جلبتهما معي، حتى بدأ المفتش من جديد قائلاً:

- أنت تقول إنك ذاهب لإجراء عملية، بينما أنت تصطحب عرق معك فكيف يستقيم الأمران؟

أجبته بسلاسة ودون تفكير:

- وما الذي يجعلني أصبر على الآلام غير هذا العرق، علمًا أن إحدى الزجاجتين سأهديها للطبيب الذي سيجري لي العملية...

يبدو أنه سكت على مضض، خرج من الغرفة وتركني أعيد ترتيب حاجياتي عندها زاد خوفي بجنون من أن يقوم بالإبلاغ عني وعن موضوع عمري، فتملكني الرعب من جديد، يا الله متى تنتهي هذه المحنة، ألا تنتهي المحن في هذا الوطن، حتى على حدوده تتوافر جميع أنواع المحن والشدائد.

رفعت حقيبتي وخرجت من غرفة التفتيش وأخذت أبحث عن السائق الذي اختفى مرة أخرى في عتمة الليل، وكأن الدنيا قد ابتلعته، غصت بسيارته، لا أرى أي أثر له أين هو؟ ماذا حلّ به؟ أنتظر واقفًا والخوف يسري في أعماقي، ألتفت يمينًا ويسارًا خوفًا من أن يأتي أحد رجال الأمن ويُلقي القبض علي، أتذكر صلوات أمي وأرددها في نفسي! أين ذهب هذا السائق بحق الجحيم؟ هل هذا وقت الاستراحة أو المزاج؟ ما هذا البؤس، إنه يوم الحساب العظيم بالنسبة لي وهو غارق في أموره الدنيوية.

اعتقدت أن عملية تفتيش الحقائب هي أخر مرحلة نحو الحدود الأردنية، هنا بدأت الجن تعزفُ أنغامها الملعونة في رأسي، فخطرت لي فكرة جنونية أن أرتقي إحدى الحافلات الكبيرة التي تضم الكثير من الركاب فأغرق بينهم، كنت على قاب قوسين أو أدنى من تنفيذها، ولكني تراجعت في اللحظات الأخيرة، وبقيت أنتظر سائقي على نار أحر من الجمر.

رحتُ أطوف بنظري يمينًا وشمالاً دون أن أرى سيارته التي ضاعت بين طوابير السيارات الهائلة التي اصطفت كحيوان خرافي، حرارتي ترتفع وتضرب رأسي بعنف، شعرت بالغثيان، ساقايّ ما عادا يستطيعان حملي؛ فاتكأت على الجدار المنخفض كي أسند بدني، دقائق تمر علي كأنها سياط تجلدني، تدميني تقتلني وترسلني إلى بئس المصير، أصبحت على وشك الانهيار

أو بالأحرى أخذت بالانهيار فعليًا، حتى ظهر أخيرًا سائقي وهو مُطأطأ الرأس متأسف عن التأخير الذي كان بسبب شحنة المواد التي كان قد عبئها في سيارته وغَصت بها.

ما أن رأيته حتى عاد الدم إلى وجهي، تَسللت فورًا مع حقيبتي إلى سيارته، ومضى بنا نحو الحدود حتى تفاجأتُ بظهور نقطة تفتيش جديدة، أراهم السائق جوازاتنا ومدهم بكيس كبير يحتوي على طعام عشاء يكفي لعدة أشخاص، كان قد ابتاعه من أحد المطاعم التي توقفنا عندها في طريقنا الموحش لغرض الذهاب إلى الحمام، أخذوا الكيس من يده، ابتسموا له وودعونا.

ما أن ترك السائق نقطة التفتيش هذه حتى أسرعتُ بسؤاله:

- أين نحن الآن؟ هل توجد نقاط تفتيش عراقية أخرى؟

فأجابني أننا قد قطعنا خط الحدود العراقية وأصبحنا في المنطقة الفاصلة بين العراق والأردن، هنا أخبرت السائق أنني وبسبب تأخره في التفتيش كنت قد فكرتُ الركوب في إحدى الحافلات العامة، فما كان منه إلا أن قال لي إنها خطوة غير صحيحة بالمرة، وكانت ممكن أن تجلب الشك أو حتى أمر أسوأ من ذلك، اعتذر مرة أخرى على التأخير إذ كان عليه دفع رسوم مقابل بضاعته الكثيرة، دسستُ في يده عدة أوراق أمريكية خضراء احتفالاً مني بنصر ونجاح هروبي إلى المجهول، أكد لي أنه لا توجد أمامنا أية أراضي أو سلطات عراقية.

رغم دفء الوطن وحميمته إلا أننا أخذنا نشعر أننا أغراب عنه، وكأننا أصبحنا حَبيسي سلطة الحاكم المطلق في حدود الأرض التي ولدنا وترعرعنا فيها، بعيدًا عن الحياة الحرة... لقد فقدت عينيّ بريق الحياة في موطن ولادتي، وقلت في نفسي الحزينة هل هذا الوطن الذي لم يحترم آدميتنا يومًا يستحق أن نشعل حياتنا من أجله! كانت أخر حبات رمل من أرض العراق تطأها قدماي، ولأخر مرة أراها بعيني حتى الآن.

عندها أدرت رأسي إلى الخلف شاهدت صورة كبيرة للرئيس العراقي، وكانت أخر جدارية للدكتاتور يظهر فيها مودعًا المسافرين العراقيين الهاربين من جحيم نظامه، والذين لم يعودوا إلى أحضان الوطن مطلقًا، تنهدتُ كثيرًا بأخر أنفاس هواء العراق التي ظلت بصدري، ثم أشحت بوجهي مغالبًا الشوق المعهود للوطن، وصارت عيوني تحاول أن تتفرس البصر بالمجهول.

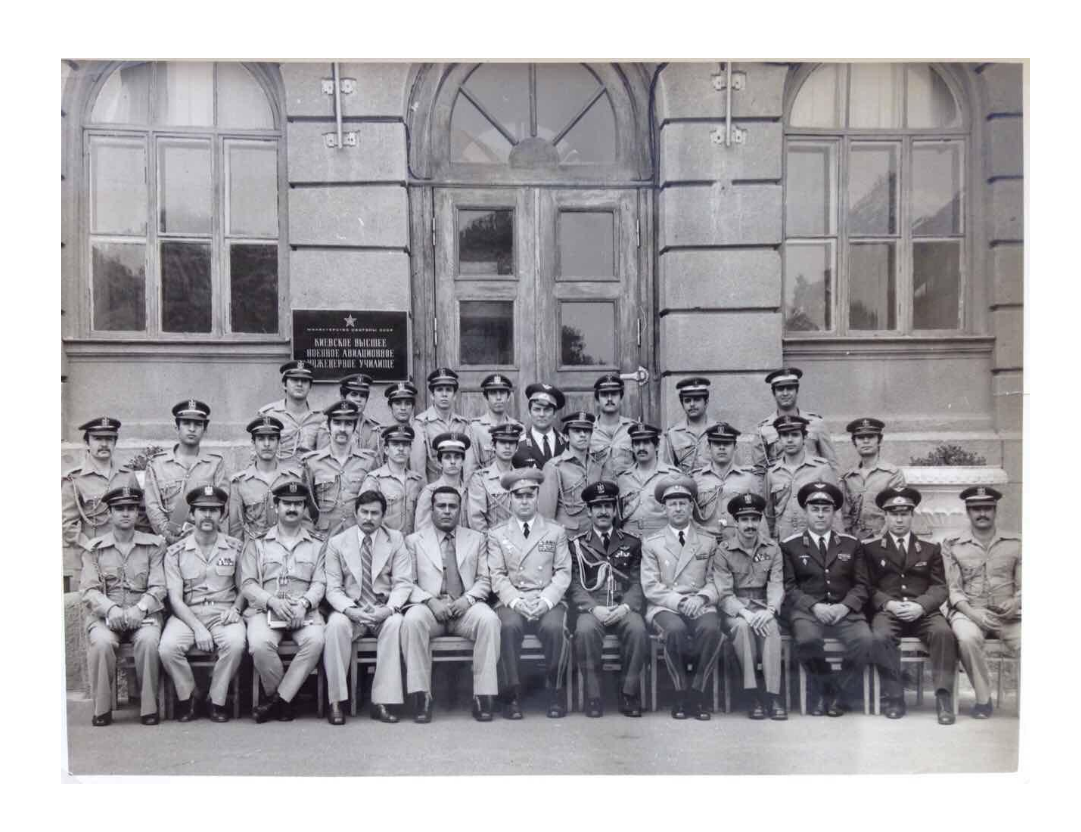


المؤلف في سطور

- من مواليد العراق/ بغداد عام ١٩٥٥م.
- مهندس طائرات، ومترجم، وصائغ ذهب.
- متزوج وله ثلاثة أبناء وأربعة أحفاد.
- هاجر مع عائلته إلى الدنمارك عام ١٩٩٩م.
- أنهى دراسته الإعدادية عام ١٩٧٣م بتفوق، وتم إرساله ضمن بعثة رسمية إلى الاتحاد السوفيتي/ أوكرانيا/ كييف لدراسة هندسة الطيران.
- أنهى دراسته عام ١٩٧٨م بتفوق وحصل على شهادة الماجستير في هندسة الطيران.
- درس اللغة الروسية لخمس سنوات وحصل على شهادة ترجمة فيها.
- عام ١٩٨١/ ١٩٨٢م تمَّ إرساله إلى الاتحاد السوفيتي في بعثة دراسية للحصول على تخصص في مجال تصليح المحركات النفاثة الجوية.
- يجيد ثلاث لغات إضافة للغة الأم العربية؛ هي الروسية والإنجليزية والدنماركية.
- عمل في الجيش العراقي - القوة الجوية العراقية - لمدة ٢١ سنة، وتَدرَّجَ في الرتب والمناصب العسكرية حتى رتبة عقيد مهندس.
- ترجم الكتاب الهندسي الخاص بصيانة وتصليح محرك الطائرات سوخوي ٢٢ من الروسية إلى العربية.
- أسَّسَ عدة وحدات هندسة وصيانة للطائرات في قواعد سلاح الجو العراقي، وكانت له مواقف مشهودة في إنجاز العديد من الأعمال الهندسية المُميزة.
- ١٩٩٤م قدم عدة استقالات من الجيش دون راتب، وتقديرًا لخدمته الممتازة في الجيش العراقي تمَّ منحه تقاعد كامل.
- عمل في مجال صياغة وتجارة الذهب والفضة منذ ١٩٩٢ لغاية ١٩٩٩م.

- من قلائل المهندسين العراقيين الحاصلين على مخُصصات التفوق، تمَّ تكريمه بسيارة تثمينًا لكفاءته العلمية والعملية.
- نشر عدة مقالات نقدية لاذعة في مجلة ألف باء العراقية.
- عضو الهيئة التأسيسية لمجلة (آفاق مندائية) في بغداد عام ١٩٩٤م.
- نشر مقالات دينية واجتماعية في مجلة آفاق مندائية.
- نشر مقالات باللغة العربية في مجلة أسسها في مركز اللجوء في الدنمارك عام ٢٠٠٠م.
- نشر عدة مقالات تخص اندماج الأجانب في جريدة دنماركية محلية عام ٢٠٠٠م.
- عضو المجلس الروحاني المندائي الأعلى في العراق عام ١٩٩٤م.
- عضو اللجنة التأسيسية لمشروع بناء المندي (مكان عبادة الصابئة) في الدنمارك ٢٠٠٦م.
- عضو المجلس الديني المندائي في الدنمارك ٢٠١٢م.
- عام ٢٠٠١ م عمل في مطار كوبنهاجن ثم عمل في مركز ثقافي في مدينة هيليرود، وصولاً إلى مترجم للغة الدنماركية وأخيرًا كموظف في مركز استقبال اللاجئين الرئيسي في الدنمارك.
- أعاد تأسيس الجمعية المندائية في الدنمارك وأصبح رئيسًا لها عام ٢٠١٢م لغاية ٢٠١٤م.
- شارك في العديد من الفعاليات المندائية ونشر العديد من المقالات التي تخص الشأن المندائي في المواقع المندائية.
- تقديرًا لعمله المُميز تمَّ تقليده وسام النبي (يهيى يوهانا) مُبارك اسمه من قبل رئاسة طائفة الصابئة المندائية في السويد خلال يوم الشهيد المندائي الأول الذي أقيم في الدنمارك عام ٢٠١٤م.
- للكاتب العديد من المساهمات في مجال حقوق الإنسان إذ يقدم مساعدات معنوية مهمة لطالبي اللجوء، المندائيين والعراقيين والعرب والأجانب في الدنمارك وغيرها.

▪ البريد الإلكتروني : alzuhairia1955@hotmail.com



الدفعة العراقية الأولى لهندسة الطيران من أكاديمية كييف للدراسات
الهندسية الجوية العسكرية العُليا في الاتحاد السوفيتي
اُلتقطت هذه الصورة في يوم التخرج بتاريخ ١٩٧٨/٦/٢٤
بحضور قادة الأكاديمية والضُبَّاط المشرفين وكذلك الوفد الرسمي لسفارة جمهورية العراق



المؤلف عباس الزهيري يتسلم شهادتي الهندسة واللغة الروسية
في يوم التخرج بتاريخ ١٩٧٨/٦/٢٤



صورة جماعية لجميع خريجي أكاديمية كييف
للدراسات الهندسية الجوية العسكرية العُليا في الاتحاد السوفيتي
لعام ١٩٧٨

محتويات الكتاب



(+2) 01288890065/(+2) 02 27238004

www.shams-group.net